

The Islamic University of Gaza  
Deanship of Research and Graduate Studies  
Faculty of Ossoul Ed-deen  
Phd Interpretation and Sciences of Quran



الجامعة الإسلامية بغزة  
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا  
كلية أصول الدين  
دكتوراه التفسير وعلوم القرآن

ارتباط الإنسان بالقرآن  
دراسة منهجية قرآنية

**The link between man and the Holy Qur'an**  
**A systematic Qur'anic study**

إعداد الباحث

وائل عمر علي بشير

إشراف الأستاذ الدكتور

وليد محمد حسن العامودي

قُدِّمَ هَذَا الْبَحْثُ اسْتِكْمَالاً لِمَتَطَلِبَاتِ الْخُصُولِ عَلَى دَرَجَةِ الدِّكْتُورَاةِ  
فِي (التفسير وعلوم القرآن) بِكَلِيَّةِ (أصول الدين) فِي الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِغَزَّةِ

1442هـ - 2021م

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

ارتباط الإنسان بالقرآن  
دراسة منهجية قرآنية

**The link between man and the Holy Qur'an**

**A systematic Qur'anic study**

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

**Declaration**

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	وائل عمر بشير	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:		التاريخ:



## نتيجة الحكم على أطروحة دكتوراة

بناء على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ وائل عمر علي بشير لنيل درجة الدكتوراة في كلية أصول الدين/ قسم أصول الدين/ التفسير وعلوم القرآن وموضوعها:

ارتباط الإنسان بالقرآن  
"دراسة منهجية قرآنية"

### Link to the Holy Qur'an A systematic Qur'anic study

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم السبت 5 محرم 1443 هـ الموافق 2021/08/14م الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا، في قاعة مؤتمرات مبنى طيبة اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

.....  
.....  
.....  
.....

مشرفا ورئيسا

مناقشا داخليا

مناقشا داخليا

مناقشا خارجيا

د. وليد محمد العمودي

أ.د. رياض محمود قاسم

أ.د. محمود هاشم عنبر

د. عبد السميع خميس العرابيد

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الدكتوراة في كلية أصول الدين/قسم أصول الدين/ التفسير وعلوم القرآن.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. بسام هاشم السقا



## ملخص الرسالة

**هدف الدراسة:** تهدف الدراسة إلى البلوغ بالمسلم الحالة المثلى من الارتباط بكتابه الأعظم القرآن الكريم، تلاوةً وفهماً وتدبيراً وخشياً وعملاً وتفاعلاً، مع بيان الوسائل الموصلة إلى ذلك، وثمرات الارتباط به، وإبراز الصوارف عن هذه العلاقة المثلى.

**عينة الدراسة:** الآيات القرآنية التي تحدتت عن ارتباط الإنسان بالقرآن من حيث المنهج والوسائل والصوارف والثمرات.

**منهج الدراسة:** اعتمد الباحث المنهج الاستقرائي في جمع الآيات، والتاريخي في ترتيبها، والاستنباطي في استخراج الدلالات واللطائف والتوجيهات والفوائد منها.

### ➤ أهم نتائج الدراسة:

1- ينبغي العناية بالمنهج الزمني التدريجي في ربط آيات القرآن بأحداث السيرة؛ لما له من فوائد تربوية جمّة.

2- طريق الارتباط الأمثل بالقرآن يكون بتحقيق منظومة التدبر منذ الصغر بدءاً بحسن الاستماع ثم التفسير والفهم ثم الوقوف على هدايات القرآن ثم عمق النظر. والتأثر والعمل أثناء هذه العملية.

### ➤ أهم توصيات الدراسة:

1- تعيين حصص خاصة بطلاب المدارس لتطبيق منظومة التدبر بشكل تدريجي من الأيسر حتى الأعمق.

2- إكرام معلمي القرآن وحفظته مادياً ومعنوياً بحيث يجعلوا الفئة الأولى في المجتمع من حيث المكانة الاجتماعية والاقتصادية.

## **Abstract**

This research aims to get the Muslim to reach the optimal state of being connected to his/her greatest divine book, i.e., the Noble Qur'an, on the level of recitation, understanding, contemplation, fear of Allah, action and interaction, with an explanation of the means leading to that link and the fruits of being connected to it, highlighting whatever that hinders the Muslim away from reaching this optimal relationship.

The study sample included the Quranic verses that talk about man's connection with the Quran in terms of method, means, hindrances, and fruits. The researcher adopted the inductive approach in collecting verses, the historical approach in arranging the verses, and the deductive approach in extracting the evidences, subtleties, guidelines and benefits gleaned from them.

The most important results of the study are as follows:

- 1- Attention should be paid to the gradual temporal approach in linking the verses of the Noble Qur'an with the events of the Prophetic biography (As-seerah), for its many educational benefits.
- 2- The best way of being connected to the Noble Qur'an is by achieving the system of contemplation from an early age, starting with good listening, interpretation and understanding, then learning about the guidance of the Noble Qur'an, then engaging in deep meditation, and being influenced and working during this process

The most important recommendations of the study are the following:

- 1- Assigning special classes for school students to gradually implement the "system of contemplation" from the beginner level up to the deepest one.
- 2- Honoring the teachers and reciters by heart of the Noble Qur'an financially and morally so that they occupy the best social and economic status in their society.



﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29]

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَفْشِيرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

هَادٍ ﴾ [الزمر: 23]

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 9]

## الإهداء

أهدي هذا البحث إلى روحِ والديَّ الغاليين، وإلى زوجتي الحبيبة، وأبنائي الأعزاء، وأهلي الكرام.  
وأهديه أيضاً لأساتذتي الفضلاء، ولإخواني وأصدقائي الأحبابِ كلِّهم، وأخصُّ بالذكرِ مجلسَ  
الإمامِ القرطبيِّ بغزة.

كما وأهدي هذا العملَ المتواضعَ إلى كلِّ مسلمٍ يُحبُّ كتابَ ربِّه لکنَّه لا يجدُ أثرَ القرآنِ في  
حياته، إلى كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ يبحثُ عن الطريقِ الأفضلِ للارتباطِ بالقرآنِ العظيمِ.

إلى الدعاةِ والمصلحينِ والمرتبينِ ...

إلى القائمينِ على جمعياتِ ومراكزِ تحفيظِ القرآنِ الكريمِ ...

## شكرٌ وتقديرٌ

اتَّبَاعاً لِقَوْلِ رَبِّي الْكَرِيمِ: ﴿... لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ [إبراهيم: 7]، واقتداءً بهدي نبيِّي الأمين ﷺ القائل: "... مَنْ أَتَى فَقَدْ شَكَرَ ..." (1)، والقائل: "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ" (2)، وامتناناً بالجميل، وتقديراً للصنيع:

أتقدّم بالشكرِ الجزيلِ الوافرِ أولاً لشيخي وأستاذي المشرفِ على بحثي الأستاذ الدكتور وليد بن محمد العامودي، الذي ما أدخرَ جهداً يوجّهني ويقوّمني وينفعني بما حباه الله من علمٍ.

كما وأتقدّم بخالصِ الشكرِ للأساتذة الكرام: أ. د. رياض محمود قاسم، أ. د. محمود هاشم عنبر، أ. د. عبد السميع خميس العرابيد، على تفضّلهم بقبولِ مناقشتي في بحثي.

ولا يفوتني شكرُ كُلِّيتي، كليةِ أصولِ الدينِ ممثّلةً بعميدها وأعضاءِ هيئةِ التدريسِ فيها، وعمادةِ الدراساتِ العليا، وجامعتي العريقة، الجامعة الإسلامية.

وأخصُّ بالشكرِ الحميمِ والثناءِ الجميلِ مَنْ قرَنَ اللهَ برَّهما بطاعته، والدَيَّ الغاليينِ الكريمينِ - رحمهما الله - اللّذينِ ما وقَّرا جهداً إلا وبذلاه ليبلغا بي أعلى المراتبِ في العلمِ، وقد رحلا عن هذه الدنيا وهما يتوقانِ لرؤيةِ هذه اللحظة؛ فأحتسبُ كلَّ حرفٍ كتبتُه في بحثي هذا في ميزاني حسناتِهِما.

كما وأخصُّ بالشكرِ والعرفانِ صنوَ روحي وولاداتِ كبدي، زوجتي الحبيبةَ وأبنائي الأعراءَ، فقد - والله - ما وفرتِ زوجتي سبيلاً من سُبلِ الراحةِ إلا وهياتهُ لي، ولا معونةً إلا وقدمتها لي، فلها مني الودادُ والعرفانُ والامتنانُ، ولأبنائي الذين كانوا لي نعمَ المعينُ كلُّ شكرٍ وتكريمٍ.

وأخصُّ كذلكَ بالشكرِ أهلي الأحاببَ، إخوتي وأخواتي الذين هم سندي وذخرُ والدَيَّ لي، فلهم مني كلُّ تقديرٍ واحترامٍ.

ثم أتقدّمُ بالشكرِ الجزيلِ لكلِّ من مدَّ لي يدَ العونِ بفكرةٍ أو كلمةٍ أو معلومةٍ من الأساتذة والإخوانِ والأصدقاءِ جميعاً، وأخصُّ بالشكرِ أخي الحبيبَ الشيخَ المفضالَ محمدَ بنَ سميرِ الحنوّ/ أبا أيوبِ الذي كانَ سبباً في الإيحاءِ لي بفكرةِ هذا البحثِ.

---

(1) جزء من حديث، أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعط، (ج 379/4)، رقم الحديث: (2034). وقال: حسن غريب.

(2) المرجع السابق، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، (ج 339/4)، رقم الحديث: (1955). وقال: حسن.

## فهرس المحتويات

ب	إقرار	.....
ت	نتيجة الحكم	.....
ث	ملخص الرسالة	.....
ج	Abstract	.....
خ	الإهداء	.....
د	شكر وتقدير	.....
ذ	فهرس المحتويات	.....
2	المقدمة	.....
13	الفصل الأول المنهج القرآني في ربط الإنسان بالقرآن	.....
13	تمهيد: علم تاريخ نزول سور القرآن وفوائده	.....
22	المبحث الأول: ملامح عامة للقرآن الكريم في العهدين المكي والمدني	.....
22	المطلب الأول: إثبات ربانية القرآن	.....
32	المطلب الثاني: التنويه بشأن القرآن وعظيم صفاته	.....
43	المطلب الثالث: إبراز بيان النص القرآني	.....
55	المبحث الثاني: المنهجية المتدرجة لربط الإنسان بالقرآن في العهد المكي	.....
55	المطلب الأول: القرآن والعلم	.....
62	المطلب الثاني: الدعوة بالقرآن هي المقصد الأول	.....
66	المطلب الثالث: القرآن وصاحب الدعوة به	.....
79	المطلب الرابع: إبراز أهمية القرآن في حياة الناس ومعادهم	.....
81	المطلب الخامس: شمول الجن بدعوة القرآن الكريم	.....
89	المطلب السادس: بيان حال الكافرين مع القرآن	.....

96	المطلب السابع: الدعوة إلى تدبر القرآن
102	المطلب الثامن: عناية القرآن بالمؤمنين وذكر أحوالهم مع القرآن
114	المطلب التاسع: بدء ذكر أحوال أهل الكتاب مع كتبهم
125	المطلب العاشر: الدفاع عن القرآن والجهاد به
142	المطلب الحادي عشر: بدء التحدي الصريح لأعداء القرآن بأن يأتوا بمثله
150	المطلب الثاني عشر: بدء ذكر بعض التشريعات والحديث عن التدرج
161	المبحث الثالث: المنهجية المتدرجة لربط الإنسان بالقرآن في العهد المدني
161	المطلب الأول: بدء دعوة أهل الكتاب للإيمان بالقرآن وموقفهم منه
170	المطلب الثاني: ذكر أحوال أصحاب الأهواء مع القرآن
180	المطلب الثالث: القرآن عصمة للأمة من التفرق
186	المطلب الرابع: القرآن هو الحكم بين الناس في شؤونهم
195	المطلب الخامس: النهي عن التنطع في القرآن
203	الفصل الثاني الوسائل القرآنية لربط الإنسان بالقرآن
203	تمهيد: التعريف بالوسائل
205	المبحث الأول: أدوات تلقي القرآن وأدائه
205	المطلب الأول: الاستماع للقرآن
206	المطلب الثاني: تلاوة القرآن
212	المبحث الثاني: الأمر بتدبر القرآن
212	المطلب الأول: تيسير الله كتابه للتدبر
212	المطلب الثاني: التدبير أداة معرفة مراد الله تعالى من كتابه
213	المطلب الثالث: سلامة الحواس لحصول التدبر
214	المطلب الرابع: الإنكار على من لم يتدبر القرآن
217	المبحث الثالث: العلم بخصائص القرآن وصفاته

- 217.....المطلب الأول: صفات القرآن الكريم وخصائصه
- 222.....المطلب الثاني: الأسلوب القرآني المعجز
- 225.....المبحث الرابع: عبادات مخصوصة لتوثيق الارتباط بالقرآن
- 225.....المطلب الأول: صلاة قيام الليل
- 227.....المطلب الثاني: صلاة الفجر
- 228.....المطلب الثالث: شهر رمضان
- 235.....المبحث الخامس: التدرج في التلقي والتعليم
- 235.....المطلب الأول: التدرج لتيسير القراءة والحفظ
- 236.....المطلب الثاني: التدرج لحصول العلم والعمل
- 240.....المبحث السادس: ثواب الله لصاحب القرآن وتثيبته عليه
- 240.....المطلب الأول: ثواب الله لصاحب القرآن
- 241.....المطلب الثاني: ثبات القرآن في القلب برحمة الله
- 244.....المبحث السابع: تجنب الصوارف عن القرآن
- 246 .....الفصل الثالث الصوارف عن ارتباط الإنسان بالقرآن
- 246.....تمهيد
- 247.....المبحث الأول: عدم سلامة الحواس
- 247.....المطلب الأول: الأكنة والوقر
- 249.....المطلب الثاني: مرض القلب من الصوارف
- 251.....المطلب الثالث: عمى الأبصار من الصوارف
- 252.....المطلب الرابع: الشرك بالله
- 253.....المطلب الخامس: أوصاف قرآنية للحواس المصروفة عن الحق
- 257.....المبحث الثاني: الانحراف في السلوك
- 257.....المطلب الأول: حب الدنيا والإتراف فيها

- 260.....المطلب الثاني: الأخلاق الذميمة.
- 265.....المبحث الثالث: الانحراف في طلب العلم.
- 265.....المطلب الأول: الجهل وعدم طلب العلم.
- 266.....المطلب الثاني: الاعتزاز بالعلم الدنيوي.
- 267.....المطلب الثالث: اتباع الهوى بعد العلم.
- 274.....المبحث الرابع: الكفر وموالاة أعداء الله.
- 274.....المطلب الأول: الكفر وعدم الخوف من وعيد الله.
- 276.....المطلب الثاني: اتخاذ الأخلاء المضلين.
- 282** .....الفصل الرابع صفات أهل القرآن وثمرات الارتباط به.
- 282.....تمهيد.
- 283.....المبحث الأول: صفات أهل القرآن.
- 283.....المطلب الأول: اتباع القرآن والدعوة به.
- 290.....المطلب الثاني: تعظيم آيات الله وسرعة الاستجابة لها.
- 293.....المطلب الثالث: تعليم القرآن.
- 294.....المطلب الرابع: الطمأنينة والخشوع عند سماع القرآن.
- 302.....المطلب الخامس: الفرح بالقرآن.
- 304.....المطلب السادس: عدم المبالاة بأعداء القرآن.
- 307.....المبحث الثاني: ثمرات الارتباط بالقرآن.
- 307.....المطلب الأول: العلم ومعرفة الله.
- 308.....المطلب الثاني: ولاية الله لأهل القرآن.
- 309.....المطلب الثالث: القرآن تثبيت للمؤمنين وعاصم من الكفر ومن الخلاف المذموم.
- 313.....المطلب الرابع: القرآن كاشف لأحوال المنافقين واليهود.
- 317.....المطلب الخامس: القرآن هدى ورحمة لأهله في كل شؤونهم.

321.....	المطلب السادس: القرآنُ صلاحٌ للبشريةِ جمعاءَ.
325.....	المطلب السابع: الفوزُ بالجنةِ والنعيمُ المقيم.
331 .....	الخاتمة.
331.....	أهمُّ النتائجِ
333.....	أهمُّ التوصياتِ
336 .....	قائمة المصادر والمراجع.
358 .....	قائمة الفهارس العامة.
358.....	فهرس الآيات القرآنية.
385.....	فهرس الأحاديث الشريفة.
389.....	فهرس الأعلام.

# المقدمة

## المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق من فوق سبع سماوات، وجعله آياتٍ مُحْكَمَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ، وأودعه من بليغ الكلم وعظيم الحكم ما يفوق كل المعجزات، وما لا يطيق من مثله إنس ولا جان من الكائنات، أحيا به قلوبًا مغلقات، وفتح به عيونًا مسكرات، وهدى به عقولًا تائهات ضالآت، فأخرج به من اتبع رضوانه إلى النور من الظلمات، أنزله بباهر حكمتيه - سبحانه - منهاجًا قويمًا يهدي للتي هي أقوم من بين كل الدعوات، فتخيا به الأمم الممسكة به حياة هي خير الحيات، الحمد لله حمدا عظيما مديدا دائما منصلا لا يعثره البتات، حمدا بأعظم نعمة من الله بها على سائر مخلوقات، القرآن الكريم المتلو بالآيات البينات، والمكتنز بالعلوم الراسخات، والهادي بالدلائل النيرات، والمفحم بالبراهين الساطعات، والمرشد بالبصائر الوضحات، والمقيم بمنهجه القويم أعظم الأمم السامعات، فله عود الحمد حمدا مكررا محبرا كلما انتهى ابتدا وكلما انقضى عاد ما دامت الأرض والسماوات، وأصلي صلاة ممنن تتشخ بالدعوات، وأسلم سلام إكرام معطر بالطيبات، على خير من ختمت به الرسالات، وانتهت به النبوات، على من سيطر القرآن بقلبه فوعاه حتى جرى اللسان بالآيات، فقام منذرا مبشرا صابرا هاجرا للملذات، فدعا بهذا القرآن وجاهد بحججه السطعات، دعوة حق وصدق وحرص حتى كادت نفسه تذهب حسرات، صلاة وسلاما على من حيا بالقرآن وأحيا به البشرية حتى مات، فكان قرانا يمشي بين الناس في الطرقات، ويترجم بسلوكة ومنهجه في الفرد والمجتمع والأمة والدولة ما أوجي إليه من آيات، على محمد بن عبد الله المطلبي الهاشمي الفرشي المضرري العدناني المنتسب إلى أظهر البيوتات، وعلى أزواجه اللآي عطررت ببوئهن بتنزل وتلاوة الآيات، وعلى آله الطهريين المطهرين بنص الآيات القطعات، وعلى أصحابه الذين شرفوا بتلقيهم القرآن غضا طريا وقت نزول الوحي بالبيئات، وعلى أتباعه الأخدين بالوحيين علما وعملا ودعوة وجهادا وفهما وتدبرا واستبصارا إلى أن يرث الله الأرض ويطوي السماوات، أما بعد:

فقد كثر حديث الباحثين عن دور القرآن الكريم في بناء الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم في شتى مجالاته، الروحية والسلوكية والتربوية والاجتماعية والسياسية... إلخ، لكن هناك زاوية منهجية تربوية في غاية الأهمية لم يتطرق إليها الباحثون - في حدود اطلاع الباحث - تتلخص في الأسئلة الآتية:

**إشكالية البحث وأهميته:**

- ما هو منهج القرآن في بناء علاقة متينة قوية مثمرة بينه وبين الإنسان؟

كيف رسم القرآن الكريم بآياته وتدرج نزوله حدود ومقومات العلاقة التي ينبغي أن تنشأ بينه وبين الإنسان الذي نزل عليه هذا القرآن؟

- ما هي الوسائل التي وضعها هذا الكتاب العظيم لربط الإنسان به؟
  - ما هي الصوارف التي تحول بين الإنسان والقرآن فتفسد علاقته به؟
- من خلال هذه الأسئلة التي تبين إشكالية البحث تبرز فكرته الرئيسة ألا وهي:

استخراج منهج القرآن في ربط الإنسان به، وطريقته في بناء علاقة دائمة بهذا الإنسان، ثم الوقوف على تلك الوسائل والأساليب والمقومات التي تحقّق هذه الغاية المنهجية العظيمة، ثم التعرف على العوائق والصوارف التي تحول بين الإنسان والقرآن، ثم الخلوص إلى ثمرات الارتباط بالقرآن على مستوى الفرد والمجتمع.

وعليه فقد جاءت فكرة هذا البحث والذي سمّيته:

ارتباط الإنسان بالقرآن - دراسة منهجية قرآنية.

أولاً: الأسباب التي دعت إلى اختيار هذا الموضوع:

تتلخص أهم أسباب اختيار هذا الموضوع في النقاط الآتية:

1- الأهمية العظمى للقرآن العظيم في بناء أمة الإسلام خاصة، أفراداً ونظماً ومجتمعات، وفي صلاح البشرية جمعاء بشكل عام.

2- الحال العجيب الذي تحياه أمتنا الإسلامية من حيث علاقتها بالقرآن الكريم، حيث نرى كثرة ترداد هذا القرآن على أفواه الناس تلاوة وحفظاً، مع ضعف واضح في أثر القرآن في حياتهم العملية وفي بناء شخصياتهم الإسلامية.

3- كثرة البرامج المقترحة اليوم لإصلاح الفرد والمجتمع بالقرآن وتخبّط كثير منها في منهجياتها وضعف مخرجاتها، مما دفع الباحث للرجوع إلى القرآن الكريم ذاته لاستنباط منهجه القويم الذي لا يخطئ.

4- الاستفادة من الحياة القرآنية العملية لرسول الله ﷺ حيث ربّاه ربّه بالقرآن وفرّقه في نزوله عليه تثبيتاً له وتحقيقاً لأسس تربوية عظيمة في بناء جيل الصحابة - رضوان الله عليهم -.

5- الرغبة في تأصيل هذا الموضوع من وجهة نظر قرآنية خالصة حيث لم يتم تأصيله قرآنياً - بحسب اطلاع الباحث - وتبرز أهمية التأصيل لما ذكر من أسباب أعلاه.

## ثانياً: أهداف البحث:

- 1- إبراز المنهجية القرآنية الصحيحة في التعامل مع القرآن العظيم وتلقيه وتعلمه وتعليمه والعمل به.
- 2- تسليط الضوء على بعض المنهجيات الخاطئة التي يقع فيها بعض المصلحين والمُريين في برامجهم التربوية بالقرآن الكريم.
- 3- لفت الانتباه إلى بعض المنزقات الخطيرة التي وقع فيها بعض أبناء هذه الأمة في تعاملهم مع القرآن مما وقع فيه أهل الكتاب في تعاملهم مع كتبهم واستحقوا به الذم والغضب والعقوبات من الله.
- 4- بيان الوسائل الصحيحة والطرق السليمة التي من شأنها أن تبني علاقة متينة بين الإنسان والقرآن.
- 5- إبراز العوائق والصوارف التي تحول بين الإنسان وبين ارتباطه بهذا القرآن العظيم.
- 6- رسم حدود العلاقة الصحيحة بين أهل القرآن وأعدائه في ضوء آيات هذا الكتاب الحكيم.
- 7- بيان صفات أهل القرآن وثمرات الارتباط به كما جاءت في كتاب الله عز وجل.

## ثالثاً: الدراسات السابقة:

- 1- لفظة القرآن في القرآن - دراسة موضوعية، بواسطة: جمالات أبو ناصر، الجامعة الإسلامية - غزة، بتاريخ 2011 م - 1432 هـ، رسالة ماجستير.
- الواضح من عنوان هذه الرسالة - وبعد اطلاع الباحث عليها - أنها تتحدث عن ورود لفظة القرآن في القرآن من حيث الأسماء والصفات والخصائص وموقف كل من المؤمنين والكافرين منه.
- وهذا لا علاقة له بموضوع بحثنا الذي يركز على الجانب المنهجي الموضوعي، حيث إن موضوع هذه الرسالة كله لا يعدو أن يكون جزءاً يسيراً في مطلبين أو ثلاثة من موضوعات بحثنا، فبعض مطالب المبحث الأول من الفصل الأول تتحدث عن شيء من هذا، وكذا بعض مطالب مندرجة تحت مبحث من مباحث الفصل الثاني.
- 2- حديث القرآن عن أوصاف القرآن، بواسطة الطاهر أحمد الطاهر النذير، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، بتاريخ: 2003، رسالة ماجستير

وهي كسابقتها تتحدث عن أوصاف القرآن وأسمائه وخصائصه.

3- أثر القرآن الكريم في بناء الشخصية الإسلامية: دراسة موضوعية، بواسطة وليد خالد خميس

الربيع، جامعة المدينة العالمية، بتاريخ: 2017، رسالة دكتوراه.

وهذه الرسالة تبحث في بناء الشخصية الإسلامية في شتى جوانبها وليس في كيفية ربط تلك الشخصية بالقرآن.

4- مظاهر تأثير القرآن الكريم في قلوب مستمعيه: دراسة تحليلية موضوعية، بواسطة سامر

محمد محمود المومني، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، بتاريخ: 2014، رسالة دكتوراه.

وهي دراسة تقتصر على الأثر النفسي للقرآن على الإنسان من جهة الجانب الصوتي اللفظي والمعنوي، وهي بعيدة عن موضوع بحثنا.

رابعاً: منهج الباحث:

اتَّبَعَ الباحثُ المنهجَ الاستقرائيَّ في جمع الآيات وتصنيفها موضوعياً، والمنهجَ الاستنباطيَّ التأصيليَّ في استخراج المنهجية القرآنية للموضوع، واتَّبَعَ المنهجَ الاستنباطيَّ والتحليليَّ في كتابة هذا البحث.

وستكون خطوات المنهج على النحو الآتي:

1- قام الباحث بجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن القرآن الكريم والكتب السابقة، وتلك

الآيات التي تبيِّن وسائل الارتباط بهذا القرآن وموانع الارتباط به.

2- صنَّفَ الباحث تلك الآيات تصنيفاً موضوعياً بحسب فصول الرسالة ومباحثها.

3- ثمَّ قامَ الباحثُ بتتبع آيات القرآن التي عُنِيَتْ بموضوع علاقة الإنسان بالقرآن تتبُّعاً

تاريخياً بحسب زمان النزول<sup>(1)</sup> لما في تدرج النزول من حكم منهجية تربوية عظيمة

---

(1) ترتيب سور القرآن بحسب زمان النزول من المسائل التي اختلف فيها العلماء قديماً وحديثاً، وقد فصل الباحث هذه المسألة في التمهيد من الفصل الأول، وبعد الوقوف على آراء ثلثة من العلماء المحققين المعاصرين، اختار الترتيب الذي اعتمده الشيخ المفسر عبد الرحمن بن حسن حبتكة الميداني في تفسيره (معارج النكفر وبقائق التدبر) في سور العهد المكي، وأخذ بعض تحقیقات واختيارات العلامة المفسر محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) في العهدين المكي والمدني، وكذلك بعض اختيارات محمد عابد الجابري في تفسيره (فهم القرآن الحكيم - التفسير الواضح حسب ترتيب النزول)، وكذلك وقف الباحث على التحقيقات الحديثة

تُبرزُ الطريقةُ الأمثلُ للتعاملِ مع القرآنِ الكريمِ بترتيبِ الأولوياتِ وتقديمِ الأهمِّ فالمهمِّ ومناسبةِ كلِّ مرحلةٍ لما يكونُ فيها من متطلباتٍ وأحداثٍ، ومراعاةِ أحوالِ الجماعةِ المسلمةِ، وهذه هي الدراسةُ المنهجيةُ الزمانيةُ في البحثِ.

4- وقفَ الباحثُ على الفوائدِ واللطائفِ المستفادةِ من التدرجيةِ المرحليةِ الزمانيةِ في تحديدِ أولوياتِ بناءِ هذه العلاقةِ وملاحمتها، ورسمَ منهجيةً علميةً تربويةً شاملةً لهذه العلاقةِ وحدودها وأولوياتها.

5- تتبعَ الباحثُ تفسيرَ الآياتِ محلَّ الدراسةِ من أمهاتِ كتبِ التفسيرِ وعيونها قديماً وحديثاً قدرَ استطاعتهِ.

6- بيَّنَ الباحثُ الأبعادَ المعاصرةَ للآياتِ، وذلك بما تتضمنه من إشاراتٍ وإيحاءاتٍ مرتبطةٍ بحاجاتٍ ومشكلاتِ العصرِ الحاضرِ.

7- استخلصَ الباحثُ الدلالاتِ والعبيرَ واللطائفَ من الآياتِ، وبيَّنَ موطنَ ووجهَ الاستدلالِ فيها، وركَّزَ على الدلالاتِ ذاتِ البعدِ المنهجيِّ والتربويِّ.

8- بيَّنَ الباحثُ مخرجَ الأحاديثِ، ونقلَ حكمَ العلماءِ المتخصصينَ عليها.

9- ترجمَ الباحثُ للأعلامِ غيرِ المشهورينَ، وكذلك عرَّفَ بالأماكنِ الغريبةِ، ووثَّقَ ذلكَ من المراجعِ المختصةِ.

10- وضعَ الباحثُ فهرسَ عامةً في نهايةِ البحثِ: للآياتِ، والأحاديثِ، والأعلامِ، والمراجعِ، والموضوعاتِ، وذلك حسبَ الأصولِ.

#### خامساً: هيكليةُ البحثِ:

وتحقيقاً للأهدافِ والأسبابِ التي دعت إلى اختيارِ الموضوعِ، وانطلاقاً من المنهجيةِ السابقةِ جعلَ الباحثُ بحثه في مقدمةٍ، وأربعةِ فصولٍ، وخاتمةٍ.

المقدمة.

وفيها إشكاليةُ البحثِ، والأسبابُ التي دعت إلى اختيارِ الموضوعِ، وأهدافه، والدراساتُ السابقةُ، والمنهجيةُ التي اعتمدها الباحثُ، وخطةُ البحثِ.

---

لروايات السيرة ونزول الآيات القرآنية عند الدكتور محمد بن رزق الطرهوني في كتابه (صحيح السيرة النبوية - السيرة الذهبية) وأفاد منها.

## الفصل الأول: المنهج القرآني في ربط الإنسان بالقرآن

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث:

- تمهيد: علم تاريخ نزول سور القرآن وفوائده
- المبحث الأول: ملامح عامة للقرآن الكريم في العهدين المكي والمدني.

وفيه ثلاثة مطالب:

- ❖ المطلب الأول: إثبات ربانية القرآن
- ❖ المطلب الثاني: التنويه بشأن القرآن وعظيم صفاته
- ❖ المطلب الثالث: إبراز بيان النص القرآني
- المبحث الثاني: المنهجية المتدرجة لربط الإنسان بالقرآن في العهد المكي  
وفيه اثنا عشر مطلباً:

- ❖ المطلب الأول: القرآن والعلم
- ❖ المطلب الثاني: الدعوة بالقرآن هي المقصد الأول
- ❖ المطلب الثالث: القرآن وصاحب الدعوة به
- ❖ المطلب الرابع: إبراز أهمية القرآن في حياة الناس ومعادهم
- ❖ المطلب الخامس: شمول الجن بدعوة القرآن الكريم
- ❖ المطلب السادس: بيان حال الكافرين مع القرآن
- ❖ المطلب السابع: الدعوة إلى تدبر القرآن
- ❖ المطلب الثامن: عناية القرآن بالمؤمنين وذكر أحوالهم مع القرآن
- ❖ المطلب التاسع: بدء ذكر أحوال أهل الكتاب مع كتبهم.
- ❖ المطلب العاشر: الدفاع عن القرآن والجهاد به.
- ❖ المطلب الحادي عشر: بدء التحدي الصريح لأعداء القرآن بأن يأتوا بمثله
- ❖ المطلب الثاني عشر: بدء ذكر بعض التشريعات والحديث عن التدرج.
- المبحث الثالث: المنهجية المتدرجة لربط الإنسان بالقرآن في العهد المدني  
وفيه خمسة مطالب:

- ❖ المطلب الأول: بدء دعوة أهل الكتاب للإيمان بالقرآن وموقفهم منه
- ❖ المطلب الثاني: ذكر أحوال أصحاب الأهواء مع القرآن.
- ❖ المطلب الثالث: القرآن عصمة للأمة من التفريق.
- ❖ المطلب الرابع: القرآن هو الحكم بين الناس في شؤونهم

❖ المطلب الخامس: النهي عن التَّنَطُّعِ في القرآن

الفصل الثاني: الوسائل القرآنية لربط الإنسان بالقرآن

ويشتمل على تمهيد وسبعة مباحث:

- تمهيد: تعريف الوسائل لغةً واصطلاحاً.
- المبحث الأول: أدوات تلقي القرآن وأدائه

وفيه مطلبان:

❖ المطلب الأول: الاستماع للقرآن.

❖ المطلب الثاني: تلاوة القرآن

- المبحث الثاني: الأمر بتدبر القرآن

وفيه أربعة مطالب:

❖ المطلب الأول: تيسير الله كتابه للتدبر.

❖ المطلب الثاني: التدبر أداة معرفة مراد الله تعالى من كتابه.

❖ المطلب الثالث: سلامة الحواس لحصول التدبر.

❖ المطلب الرابع: الإنكار على من لم يتدبر القرآن.

- المبحث الثالث: العلم بخصائص القرآن وصفاته.

وفيه مطلبان:

❖ المطلب الأول: صفات القرآن الكريم وخصائصه.

❖ المطلب الثاني: الأسلوب القرآني المعجز.

- المبحث الرابع: عبادات مخصوصة لتوثيق الارتباط بالقرآن.

وفيه ثلاثة مطالب:

❖ المطلب الأول: صلاة قيام الليل.

❖ المطلب الثاني: صلاة الفجر.

❖ المطلب الثالث: شهر رمضان.

- المبحث الخامس: التدرج في التلقي والتعليم.

وفيه مطلبان:

❖ المطلب الأول: التدرج لتيسير القراءة والحفظ.

❖ المطلب الثاني: التدرج لحصول العلم والعمل.

- المبحث السادس: ثواب الله لصاحب القرآن وتثيبته عليه.

وفيه مطلبان:

- ❖ المطلب الأول: ثواب الله لصاحب القرآن.
- ❖ المطلب الثاني: ثبات القرآن في القلب برحمة الله.
- المبحث السابع: تجنب الصوارف عن القرآن.

الفصل الثالث: الصوارف عن ارتباط الإنسان بالقرآن

ويشتمل على أربعة مباحث:

- المبحث الأول: عدم سلامة الحواس.

وفيه خمسة مطالب:

- ❖ المطلب الأول: الأكنة والوقر.
- ❖ المطلب الثاني: مرض القلب من الصوارف.
- ❖ المطلب الثالث: عمى الأبصار من الصوارف.
- ❖ المطلب الرابع: المشركون يتذرعون بالصوارف.
- ❖ المطلب الخامس: أوصاف قرآنية للحواس المصروفة عن الحق.
- المبحث الثاني: الانحراف في السلوك.

وفيه مطلبان:

- ❖ المطلب الأول: حب الدنيا والإتراف فيها.
- ❖ المطلب الثاني: الأخلاق الذميمة.
- المبحث الثالث: الانحراف في طلب العلم.

وفيه ثلاثة مطالب:

- ❖ المطلب الأول: الجهل وعدم طلب العلم.
- ❖ المطلب الثاني: الاعتزاز بالعلم الدنيوي.
- ❖ المطلب الثالث: اتباع الهوى بعد العلم.
- المبحث الرابع: الكفر وموالاته أعداء الله.

وفيه مطلبان:

- ❖ المطلب الأول: الكفر وعدم الخوف من وعيد الله.
- ❖ المطلب الثاني: اتخاذ الأخلاء المضلين.

الفصل الرابع: صفات أهل القرآن وثمرات الارتباط به:

ويشتمل على مبحثين:

• المبحث الأول: صفات أهل القرآن.

وفيه ستة مطالب:

❖ المطلب الأول: اتباع القرآن والدعوة به.

❖ المطلب الثاني: تعظيم آيات الله وسرعة الاستجابة لها.

❖ المطلب الثالث: تعليم القرآن.

❖ المطلب الرابع: الطمأنينة والخشوع عند سماع القرآن.

❖ المطلب الخامس: الفرح بالقرآن.

❖ المطلب السادس: عدم المبالاة بأعداء القرآن.

• المبحث الثاني: ثمرات الارتباط بالقرآن.

وفيه سبعة مطالب:

❖ المطلب الأول: العلم ومعرفة الله الثمرة العظمى.

❖ المطلب الثاني: ولاية الله لأهل القرآن.

❖ المطلب الثالث: القرآن تثبيت للمؤمنين وعاصم من الكفر ومن الخلاف المذموم.

❖ المطلب الرابع: القرآن كاشف لأحوال المنافقين واليهود.

❖ المطلب الخامس: القرآن هدى ورحمة لأهله في كل شؤونهم.

❖ المطلب السادس: القرآن صلاح للبشرية جمعاء.

❖ المطلب السابع: الفوز بالجنة والنعيم المقيم.

الخاتمة.

وتشتمل على:

• أولاً: أهم النتائج.

• ثانياً: أهم التوصيات.

الفهارس.

وتشتمل على:

• قائمة المصادر والمراجع.

• فهرس الآيات القرآنية.

• فهرس الأحاديث النبوية.

- فهرس الأعلام.
- فهرس الموضوعات - ويوضع في مقدمة البحث.

## الفصل الأول

المنهج القرآني في ربط الإنسان

بالقرآن

## الفصل الأول

### المنهج القرآني في ربط الإنسان بالقرآن

#### تمهيد: علم تاريخ نزول سور القرآن وفوائده

نَزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ هَدًى وَرَحْمَةً وَنُورًا وَمَنْهَاجًا لِلْإِنْسَانِ وَالْجَنِّ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ الْبَالِغَةُ أَنْ يَكُونَ نَزُولُ هَذَا السِّفْرِ الْعَظِيمِ مَفْرَقًا بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا دَعْوَةُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ عَلَى طُولِ فِتْرَةِ دَعْوَتِهِ، فَكَانَ نَزُولُهُ مُتَدَرِّجًا سُورَةً سُورَةً، أَوْ آيَةً آيَةً، أَوْ قِطْعَةً قِطْعَةً، كَمَا يَتَحَقَّقُ لِهَذَا الْمَنْهَاجِ الْقَوِيمِ تَنَاوُلُ الْبَشَرِ بِالتَّرْبِيَةِ الْمُسْتَمْرَةِ، وَمُعَالَجَةُ أَحْوَالِهِمِ الْمُتَقَلِّبَةِ، وَالتَّرْقِيُّ مَعَ نَفْسِهِمِ الْمُتَرَدِّبَةِ، وَإِصْلَاحُ عَوَائِدِهِمِ الْمُسْتَقْرَةِ، وَتَخْلِيصُهُمْ شَيْئًا فَشَيْئًا مِمَّا جُبِلَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُمْ مِنَ الْإِفْ جَاهِلِيَّتِهِمْ وَمَسَاوِيِ أَخْلَاقِهِمْ.

وقد تحقّق هذا التفاعل العميق المثمر بين نصوص التنزيل الحكيم وصاحب الرسالة من جهة وبين أحداث السيرة النبوية وسلوك من بلغهم القرآن من جهة أخرى، فنتج عن هذا التفاعل الزمني المكاني السلوكي في سياقاته الخاصة ذلك المنهج القرآني القويم العظيم الذي رسم تلك الصورة التدرّجية التربوية التي أنتجت خير أمة أخرجت للناس.

وقد نشأ عن تلك العلوم - أعني علم المكي والمدني وأسباب النزول والسيرة النبوية والمناسبات بين الآيات - ما يسميه المعاصرون اليوم (علم تاريخ نزول آيات القرآن)، وهو علم ذو أهمية كبيرة حيث يشكل منهجًا في تدبر القرآن وآياته، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: 106]، فوجود هذا المنهج التاريخي ثابت بهذا التوجيه من أن القرآن نزل مفرقًا على تواريخ مختلفة في مكة والمدينة، والسبب في ذلك حين يقرأه الرسول ﷺ على الناس على مكث، وأما المقصود من ذلك فقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 32 - 33]، وقوله ورتلناه ترتيلاً أي رتبناه ترتيبًا، قال مجاهد: الترتيل: الترتيل، قال: ورتلناه ترتيلاً بعضه على أثر بعض، وأصله تناسق الشيء، والغاية منه تثبيت فؤاد الرسول ﷺ<sup>(1)</sup>.

"إذن علم تاريخ نزول آيات وسور القرآن الكريم يدرس تاريخ نزول الآية، أي زمن نزولها،

(1) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، أحمد خالد شكري - عمران سميح نزال، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط 1، (ص 32).

ومكانَ نزولِها، وفيمن نزلت من الناس، وفيما نزلت من القصص والأحداث، وسببَ نزولِها، وما نزلَ قبلَها، وما نزلَ بعدها في موضوعِها لمعرفة المعنى التثبتي الذي أحدثته الآية يومَ تاريخِ نزولِها على الرسول ﷺ وعلى المسلمين والمؤمنين، وعلى غيرهم من المشركين وأهل الكتاب<sup>(1)</sup>.  
وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ القرآنَ الكريمَ لم يذكرْ صراحةً تاريخَ حادثتهِ بعينها من خلقِ آدمَ إلى تاريخِ نهايةِ نزولِهِ على رسولِ الله ﷺ لأنَّ مقصودَ القرآنِ الكريمِ العبرةُ وليسَ مجردَ المعرفةِ التاريخيةِ.

وكذلكَ فإنَّ علمَ تاريخِ نزولِ آياتِ وسورِ القرآنِ لا يهدفُ إلى المعرفةِ التاريخيةِ إلا من أجلِ العبرةِ التشريعيةِ في تتابعِ معاني القرآنِ ومعرفةِ أسبابِهِ ومناسباتِهِ ومتقدمِهِ ومتأخرِهِ وناسخِهِ ومنسوخِهِ وذلكَ لا يُكوِّنُ دراسةً متكاملةً إلا بمعرفةِ تواريخِ نزولِهِ على النبي ﷺ<sup>(2)</sup>.

وقد برزَ في ميدانِ هذا العلمِ اتجاهانِ:

الأول: التفسيرُ المتكاملُ لكلِّ سورِ القرآنِ بحسبِ ترتيبِ نزولِها.

الثاني: دراساتٌ خاصةٌ بالموضوعاتِ القرآنيةِ أو موضوعاتِ علومِ القرآنِ كالناسخِ والمنسوخِ وذلكَ بتتبعِ تلكَ الموضوعاتِ بحسبِ زمانِ نزولِها<sup>(3)</sup>.

أما الاتجاهُ الأولُ فقد سُجِّلتَ عليه اعتراضاتٌ كثيرةٌ من بعضِ العلماءِ ودارَ بينَ مؤيديهِ ومعارضيهِ سجالاتٌ وحواراتٌ ليسَ محلَّ بحثِها هنا<sup>(4)</sup> سيِّما أنَّ بحثنا هذا يتكئُ على الاتجاهِ الثاني الذي يُعنى بتتبعِ الموضوعاتِ القرآنيةِ حسبَ ترتيبِ نزولِ آياتِها وسورها.

وهذا الاتجاهُ - أي الثاني - هو الذي اتبَعَهُ وابتَدَرَهُ في العصرِ الحديثِ الأستاذُ سيدُ قطب في كتابهِ (مشاهدُ القيامةِ في القرآن) حيث أشارَ إلى هذا المنهجِ في حاشيةِ ظلالهِ على

---

(1) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، أحمد شكري - عمران نزال، (ص 33).

(2) انظر: المرجع السابق، (ص 155).

(3) انظر: منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول - قراءة في كتاب الجابري فهم القرآن الحكيم، سليمان محمد الدقور، بحث مقدم إلى مؤتمر التعامل مع النصوص الشرعية (الكتاب والسنة) والذي عقدته كلية الشريعة بالجامعة الأردنية من 4 - 6 / 11 / 2008م، (ص 10).

(4) يُنظر لهذا: تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول (منبعه وفوائده، محمد مجلي أحمد رابعة، بحث منشور في مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد 37، العدد 1 - 2010م، عمادة البحث العلمي / الجامعة الأردنية).

القرآن<sup>(1)</sup>.

وقد اتّبع هذه الطريقة أيضاً في كتابه (التصوير الفني في القرآن) حيث يقول: "هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقررًا في عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة - يتضح حين نقرأ بحسب ترتيب نزولها - فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كبيرة تُكوّن في مجموعها جسم القصة"<sup>(2)</sup>.

ويقول الدكتور فضل حسن عباس عن هذه الطريقة في دراسة القصة القرآنية: "إن الطريقة المثلى لتذوق تذوقاً صحيحاً مواقع النجوم للقصة القرآنية، أن ندرسها من حيث ترتيب النزول، بحيث ندرس النجوم التي نزلت واحداً تلو الآخر.

ولا يضيرنا كثيراً بأن ترتيب السور ليس أمراً مقطوعاً به، وكيفينا في هذا أن نوازن بين الأقوال التي وردت في ترتيب السور لنأخذ أرجحها كما فعل العلماء، ثم إن بعض السور يمكن أن ندرك ترتيبها بلا عناء"<sup>(3)</sup>.

وهذا ما سيبعّثه الباحث في بحثه هذا حيث سيتناول بالدراسة في الفصل الأول الآيات التي تحدثت عن القرآن الكريم تناولاً بحسب النزول لينظر في المنهجية القرآنية الربانية التي اقتضتها حكمة العليّ الحكيم في ربط الإنسان بهذا القرآن، فينظر ما الذي قدّم أولوية وما الذي تلاه أهمية، وكيف كان تفاعل من نزل عليهم القرآن مع الآيات، وكيف تزامنت أحداث السيرة النبوية التي هي التطبيق العملي للوحيين مع النزول التدريجي لآيات حديث القرآن عن القرآن.

ويمكن التأصيل لهذا المنهج التدريجي في فهم آيات القرآن بقول أبي عبد الرحمن السلمي: قَالَ: (حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرَأُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُمْ كَانُوا «يَقْتَرُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ»، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ)<sup>(4)</sup>.

فإن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يأخذون العشر آيات أو نحوها من رسول الله ﷺ بمجرد نزولها ليتعلموا ما فيها ويطبّقوها واقعاً في حياتهم، ومن الطبيعي أن تلك الآيات التي أخذوها

(1) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم، دار الشروق، بيروت، ط 17، 1412 هـ، (ج 3/1429).

(2) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب إبراهيم، دار المعارف، 1993 م، (ص 156).

(3) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 2000 م، (ص 82).

(4) أخرجه أحمد في مسنده، أحمد بن حنبل الشيباني، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، 1421 هـ 2001 م، (ج 38/466)، رقم الحديث: (23482). قال محقق الكتاب: إسناده حسن.

هي قطعة من القرآن الذي ينزل على رسول الله ﷺ أولاً بأول بحسب زمان النزول وليس بحسب ترتيب المصحف.

" أي أنّ النهج النبوي في تعليم القرآن كان أيضاً يساير تاريخ نزول آيات وسور القرآن الكريم في مكة والمدينة وهذا ما يوضح التلازم بين تاريخ نزول القرآن وبين السيرة النبوية العطرة وسيرة الذين آمنوا من الصحابة وغيرهم رضي الله عنهم"<sup>(1)</sup>.

ورغم أننا آثرنا عدم الخوض في مساجلات القوم ومناقشاتهم في صوابية طريقة تفسير آيات القرآن أو موضوعاته بحسب ترتيب النزول إلا أنه يتحتم علينا ذكر أبرز ما اعترض به على هذه الطريقة وردود المؤيدين لها عليها:

الاعتراض الأول: أقوى ما اعترض به على هذا المنهج أنّ الأحاديث والآثار التي اعتمداً عليها القائلون به في ترتيب سور القرآن بحسب النزول ضعيفة لا تقوم بها الحجة<sup>(2)</sup>.

وقد ردّ على هذا الاعتراض بأنّ سبيل معرفة المتقدّم من المتأخّر في النزول لا يعتمد فقط على هذه الروايات - وإن كانوا يستأنسون بها - بل إنّ هناك قواعد كثيرةً وعلومًا وثيقة الصلة بالقرآن هي الحاكم الأول في معرفة المتقدّم من المتأخّر.

### وأهم تلك العلوم:

علم المكي والمدني، وعلم أول ما نزل وآخر ما نزل، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم المناسبة، وعلوم السيرة والحديث والمغازي والسير والتاريخ والتراجم والرجال.

وقد ذكر بعض الباحثين قواعد مستنبطة من صنيع المفسرين، تُعين على صحة الترتيب الزمنيّ أذكرها سرداً<sup>(3)</sup>:

### 1- معرفة تقدم نزول بعض السور بحسب السياق القرآني.

(1) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، أحمد شكري - عمران نزال، مصدر سابق، (ص 39).

(2) وقد قام الباحث محمد مجلي رابعة بدراسة كل هذه الآثار متناً وسنداً وخلص إلى ضعفها كلها، انظر: نقد تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول وفوائده، محمد مجلي رابعة، مصدر سابق، (ص 2 - 7).

(3) انظر: ترتيب نزول السور وموقف الطاهر ابن عاشور منه، شافي سلطان العجمي، بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي، بتاريخ 2017/3 م، مج32، ع108، ص 11 وما بعدها. وانظر: علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، أحمد شكري وعمران نزال، مصدر سابق، ص 156 وما بعدها.

ومما يندرج تحت هذه القاعدة:

- أ- النص في الآية على الكلمة الزمانية أو المكانية.
- ب- الحكم بسبب ورود كلمات ظرفية زمانية أو مكانية في الآية.
- ت- النص في الآية على تنزيل سابق.
- ث- الحكم بالمناسبة التنزيلية إذا عُرِفَت المناسبة التاريخية.
- ج- الحكم بالمناسبة التاريخية المتزامنة لحدث تاريخي متفق عليه.
- ح- مفهوم الآية يشير إلى نزول آية سابقة في الموضوع.

2- معرفة تقدم نزول بعض السور بالسنة.

3- معرفة تقدم نزول بعض السور بآثار الصحابة.

4- معرفة ترتيب نزول السور بأقوال التابعين.

الاعتراض الثاني: إنَّ ترتيبَ السورِ كما هو الآن في المصحفِ قد تمَّ في العهدِ المدنيِّ وفي الصدرِ الأولِ للإسلامِ ومضت الأُمَّةُ على العملِ بهِ قرُوناً طويلاً فصارَ الوقوفُ عليه لازماً لا يجوزُ التحوُّلُ عنه حتى لو كانَ باجتهادٍ بعضِ الصحابةِ، أضف إلى ذلك أنَّ هذه الطريقةَ لا يمكنُ أن تتحقَّقَ إلا بقدرٍ من التجاوزِ لأنَّ السورةَ من القرآنِ لم تكن تنزلُ مرَّةً واحدةً، فتجدُ آياتٍ من سورةٍ نزلت بعدَ آياتٍ من سورةٍ أخرى فيتعدَّرُ الترتيبُ إلا بفصلِ السورةِ عن وحدتها<sup>(1)</sup>.

وقد رُدَّ على هذا الاعتراضِ بأنَّ أصحابَ هذا المنهجِ لا يرومونَ ولا يدعونَ بحالٍ إلى إعادةِ ترتيبِ المصحفِ بحسبِ النزولِ، بل إنَّ أكثرهم يرى أنَّ الترتيبَ المصحفيَّ توقيفيٌّ لا يجوزُ العدولُ عنه، ولكن يهدفُ أصحابُ هذا المنهجِ بتتبُّعِهِم مراحلَ التنزيلِ والعلمِ بتاريخِ نزولِ الآياتِ إلى الاستعانةِ بها في فهمِ آياتِ الله وتدبُّرِها واستنباطِ حِكَمِ التنزيلِ وفوائدهِ وأثرِهِ في تغييرِ أحوالِ الناسِ<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، دار القلم / دار الشامية، دمشق / بيروت، ط 2، 1419 هـ - 1998 م، (ص 140 - 141).

(2) انظر: أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره، أحمد خالد شكري\* وعمران سميح نزال، بحث منشور بمجلة المنارة - مجلة علمية متخصصة - جامعة آل البيت، عمان، الأردن، بتاريخ 2004/12/26 م، (ص 239).

أهم فوائده وحكم وأهداف تفسير الآيات حسب ترتيب النزول:

ونذكر هنا طرفاً مما ذكره من اتبعوا هذا المنهج في التفسير من الحكم والفوائد واللطائف التي تُستفاد من هذا المنهج:

1- " إمكان متابعة السيرة النبوية زمنًا بعد زمن، وإبراز التساوق والتطابق النسبي بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، كما يمكن متابعة أطوار التنزيل ومراحلها بشكل أوضح وأدق، وبهذا وذاك يندمج القارئ في جو نزول القرآن وجو ظروفه ومناسباته ومداه، ومفهوماته وتتجلى له حكمة التنزيل"<sup>(1)</sup>.

2- العصمة من الوقوع في خطأ اعتماد آية سابقة النزول في تدرج التشريع على ما نزل بعدها من تكميل أو بيان كاشف لأحكام المرحلة اللاحقة، وكذلك العصمة من الوقوع في خطأ تصور معارضة الآية السابقة لما نزل بعدها في موضوعها الذي تعالجه من موضوعات التكاليف والأحكام، ووسائل التربية، وطرائق الإصلاح، وأساليب الدعوة، وألوان الجهاد.

3- تتبع مراحل النزول للنصوص التربوية يكشف للباحث عن التدرج في الخطوات التربوية، والتكرير في استعمال العلاج التربوي، بغية تأثيره والحصول على الفائدة منه، كالعلاج الدوائي في مجال الصحة الجسدية، فالنصوص التربوية ذات مراحل تدريجية توأم الحالة النفسية للفرد الذي تتوجه له بها أساليب التربية القرآنية، وتوأم الحالة النفسية والاجتماعية للمجموعة من الناس الذين تتوجه لهم بها أساليب التربية القرآنية، وكذلك النصوص الحركية في طرائق الإصلاح، وأساليب الدعوة، وألوان الجهاد<sup>(2)</sup>.

4- الجمع بين الفهم للنص القرآني والعمل الذي مارسه جيل التنزيل، فالقراءة التنزيلية مهمتها التثبيت في الإيمان والعمل، وتعلم أن الكلمة التي تجمع الإيمان والعمل في مصطلح واحد هي كلمة الحكمة، لأن الحكمة هي تأدية الأعمال بالعلم، فتكون القراءة التنزيلية التثبيتية قراءة حكيمة، ويقرب من كلمة الحكمة في اللغة العربية كلمة السياسة،

---

(1) التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1383 هـ، (ج 9/1). وانظر: فهم القرآن الحكيم - التفسير الواضح حسب ترتيب النزول - القسم الأول، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2008 م، (ص 16).

(2) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط 1، 1400 هـ - 1980 م، (ص 55 - 56).

فالسياسة في اللغة العربية القيام على الأمور بما يصلحها، وهو لا يكون إلا باقتران العلم بالعمل، أي العمل بعلم، وعليه فإن القراءة التنزيلية التثبينية قراءة سياسية، وهذا ما يفسر الطبيعة التي انتهت إليها رسالة القرآن والدعوة المحمدية، وما أحدثته من تغيير سياسي في حياة العرب والجزيرة العربية والناس والعالم بأكمله، فالقراءة السياسية الهادفة تحتاج إلى القراءة التنزيلية و التثبينية والتثبينية في العلم والعمل، التثبيت في الإيمان والعمل الصالح<sup>(1)</sup>.

5- الوقوف على حكمة التدرج في التشريعات وبناء المجتمع الجديد وفق هذه التشريعات الجديدة.

6- المساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية في البناء ومراحل الدعوة إلى الله خارج حدود الوقت والزمن الذي نزل فيه القرآن.

وخلاصة القول في مسألة التفسير حسب ترتيب النزول أن تتبع الآيات بحسب نزولها ونجومها والنظر فيها نظرة تفسيرية مرتبطة بزمان ومكان وأحوال من نزلت عليهم لا يعني بحالٍ رفض الترتيب الحالي للنزول كما هو في المصحف، بل إن ترتيب السور كما هو عليه في المصحف - على رأي أكثر العلماء - ترتيب توقيفي لا يجوز تجاوزه، ولما كان توقيفياً وجب أن ينطوي هذا الترتيب على حكمٍ عظيمٍ وفوائدٍ جليةٍ تتصل بالسياقات الموضوعية للسور القرآنية وبلطائف بيانية ومضامين منهجية لا حصر لها.

ولكن هذا لا يعني بحالٍ رفض الاتجاه الآخر في التفسير بحسب النزول والذي يعتني بالمزامنة بين نزول الآيات وأحداث السيرة للخروج بالمنهج القرآني الإسلامي المتكامل في بناء المجتمع المسلم.

ومهما يكن الخلاف في تحديد السابق من اللاحق في النزول فإن كون دراستنا موضوعية ينتبّع فيها الباحث آيات معينة تجعل ضبط هذه المسألة أيسر إذ إننا لن نقف عند كل آية أو سورة بل يكفينا في ضبط مسألة التدرج معرفة الزمان التقريبي للنزول.

ويزيد الاطمئنان لهذه الطريقة أنها لم تكن مثار جدلٍ عند من رفضوا الاتجاه الأول في التفسير بحسب ترتيب النزول بل عدوا هذه الطريقة المبنية على تتبّع موضوع قرآني بعينه حسب النزول على جانبٍ عظيمٍ من الأهمية.

---

(1) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، أحمد شكري وعمران نزال، (ص 38).

يقول الدكتور محمد علي الحسن - وهو أحد الرافضين لمنهج التفسير حسب النزول :  
"إن مراعاة ترتيب النجوم في الموضوع الواحد على جانب عظيم من الأهمية، قد عرف له  
الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم فرط أهميته وجليل خطره فنطقوا به صراحة في الاستدلال  
على دعوى نسخ ما في بعض السور المتأخرة نزولاً لبعض ما تقدمها نزولاً، وذلك كالذي ثبت  
عن عبد الله بن مسعود حين اختلفوا في عدة الحامل المتوفى عنها زوجها حين تضع حملها قبل  
مضي أربعة أشهر وعشر، هل تتقضي عدتها بوضع الحمل، أو لا بد من انتظارها أربعة أشهر  
وعشراً ؟

فما كانت حجة ابن مسعود على القول بالأول إلا لعلمه بترتيب السور نزولاً وأن سورة  
الطلاق التي جاء فيها أن عدة الحامل أي المطلقة هي بوضع الحمل متأخرة النزول عن سورة  
البقرة التي جاء فيها أن المتوفى عنها زوجها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرة، وذلك حين قال  
رضي الله عنه: أتجعلون عليها التخليط ولا تجعلون عليها الرخصة، أنزلت سورة النساء القُصوى  
بعد الطولى"<sup>(1)</sup>.

"وقد قام العلماء بتتبع الآيات القرآنية في الموضوع الواحد وراحوا يرتبونها حسب نزولها  
الزمني، مثاله آيات الجهاد في الإسلام، وآيات السلم ومراحلها.  
والدراسات الموضوعية قد عنيت بترتيب النجوم القرآنية حسب نزولها، إذ بدون هذا  
الترتيب يختل الفهم، ويزل الباحث"<sup>(2)</sup>.

ولمّا كانت الكتابة بهذه المنهجية تستلزم الوقوف على الترتيب الأرجح والأقرب توافقاً مع  
أحداث السيرة فقد رجع الباحث إلى آراء ثلثة من أئمة التفسير والسيرة في العصر الحديث الذين  
كانت لهم عناية خاصة بالنظر في ترتيب السور بحسب النزول، ثم اعتمد الباحث الترتيب الذي  
اعتمده الشيخ المفسر عبد الرحمن بن حسن حبّكة الميداني في تفسيره (معارج التفكير ودقائق  
التدبر)<sup>(3)</sup> في سور العهد المكي، وأخذ بعض تحقیقات واختيارات العلامة المفسر محمد الطاهر

---

(1) ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات العربية والإسلامية، ع 16،  
(ص 17).

(2) نفس المرجع.

(3) معارج التفكير ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن حبّكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط 1، 1420 هـ -  
2000 م.

بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) في العهدين المكي والمدني<sup>(1)</sup>، وكذلك الأراء العميقة حول زمان النزول للأستاذ سيد قطب في مقدمات السور في ضلاله<sup>(2)</sup>، وكذلك بعض اختيارات محمد عابد الجابري في تفسيره (فهم القرآن الحكيم - التفسير الواضح حسب ترتيب النزول)<sup>(3)</sup>، وكذلك وقف الباحث على التحقيقات الحديثية لروايات السيرة ونزول الآيات القرآنية عند الدكتور محمد بن رزق الطرهوني في كتابه (صحيح السيرة النبوية - السيرة الذهبية)<sup>(4)</sup> وأفاد منها.

وبهذه الخلاصة نمضي مطمئنين للدخول في مباحث هذا الفصل لنُبحر في عباب بحر القرآن ونلتقط من ثمين لآئنه المنتثرة على جنبتي طريق نزوله المتدرج فنعيش مع الآيات التي تحدثت عن هذا القرآن العظيم حياة من أنزل عليهم القرآن ونتفاعل معها كما تفاعلوا ونقف عندها كما وقفوا، فاللهم يسر وأعن وافتح من بركات علمك وأفض من أنوار معرفتك.

---

(1) للوقوف على اختيارات الشيخ ابن عاشور يُراجع: ترتيب نزول السور وموقف الطاهر بن عاشور منه، شافي العجمي، مرجع سابق.

(2) في ضلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق.

(3) تفسير القرآن الحكيم، مرجع سابق.

(4) صحيح السيرة النبوية (السيرة الذهبية)، محمد رزق الطرهوني، دار ابن تيمية، القاهرة، ط 1، 1410 هـ.

## المبحث الأول: ملامح عامة للقرآن الكريم في العهدين المكي والمدني.

اقتضت رحمة الله وحكمته أن يُخفَّ هذا القرآن العظيم بدلائل تُرشد إلى صدقه، وقرائن تُشير إلى أنه الحقُّ من مُنزلِهِ؛ كي تكون تلك الأدلة والقرائن آياتٍ بيِّناتٍ وبراهينَ ساطعاتٍ لذوي الحجا، وتثيرَ في قلوبِ مَنْ يطلبُ الحقَّ بواعثَ الإيمانِ وأنوارَ اليقينِ فتبيدَ ظلماتِ الليلِ الذي سجا.

ومن خلال استقراء آيات القرآن الكريم بدءاً بأول ما نزلَ ومروراً بمجمل القرآن المكي وانتهاءً بالمدني كَلِهَ ظهرَ للباحثِ أَنَّ هناكَ ملامحَ عامةً وسماتٍ بارزةً - في حديثِ القرآنِ عن نفسه - تسري في كلِّ آياتِ القرآنِ من فاتحتهِ إلى خاتمتهِ - بحسبِ زمانِ نزولِهِ -، تلك الملامحُ تتجلى في خطوطٍ ثلاثةٍ تنتظمُ حديثَ القرآنِ عن نفسه وهي:

- 1- حديثُ القرآنِ عن مصدرِهِ الرَبَّانِيِّ ومُنزَلِهِ السَّمَاوِيِّ.
  - 2- إبرازُ القرآنِ لما أُخِصَّ بِهِ من خصائصٍ وأتسمَ بِهِ من صفاتٍ.
  - 3- التأكيدُ على البيانِ المعجزِ للقرآنِ سواءً في نظمِهِ وأساليبِهِ، أو في آثارِهِ ومعانيهِ.
- وسنفضِّلُ الحديثَ - بحولِ اللهِ - عن هذه الملامحِ في المطالبِ الآتيةِ:

### المطلب الأول: إثباتُ ربانيةِ القرآنِ

اللهُ، الحقيقةُ المطلقةُ في هذا الكونِ، الحقُّ الأولُ الأزليُّ المبيِّنُ كلَّ البونِ، الباقي الأخرُ الذي لا يفنى بَعْناءِ الزمنِ.

ولمَّا كَانَ القرآنُ العظيمُ كلمتهُ التي أنزلها هدىً ورحمةً للعالمينَ، وكانَ هو المتكلمَ بِهِ بكلامِهِ الأزليِّ، المُنزَلُ على عبدهِ ورسولهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، فقد أرادَ سبحانه وتعالى إبرازَ حَقَانِيَّةِ هذا الكلامِ بإبرازِ نسبتهِ إليه، فإنَّ المنتسبَ إلى الحقِّ حقٌّ مثلهُ.

وقد تجلَّتْ هذه النسبةُ العظيمةُ والحقيقةُ الكبرى في آياتِ هذا الكتابِ الحقِّ من أولِهِ إلى آخرِهِ، وفي كلا العهدينِ المكيِّ والمدنيِّ، فهي حقيقةٌ تعلقُ على السياقاتِ الزمانيةِ ولا ترتبطُ بالخصوصياتِ المكانيةِ، ولا بالتدرُّجاتِ المرحليةِ، فإنَّ إثباتَ ربَّانِيَّةِ القرآنِ تعني أولاً إثباتَ صدقهِ في مضمونهِ ومنهجِهِ، وتعني ثانياً إثباتَ بشريةِ مَنْ نُزِّلَ عليه هذا القرآنُ، فلنشرعُ الآنَ في بيانِ ملامحِ هذه الحقيقةِ فيما يأتي:

أولاً: البدايةُ مع ﴿أقرأ﴾:

امتزجت الإشارةُ إلى ربَّانِيَّةِ هذا القرآنِ الكريمِ بأولِ كلماتِ الوحيِ إلى النبيِّ ﷺ، وذلكَ مع

نزول الآيات الخمس الأولى من سورة (اقرأ): ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5].

فقد اقترنت أول آيات الوحي باسم الله خالق هذا الكون وهي تنزل على محمد ﷺ أمره إياه بأن يقرأ مفتوحاً قراءته باسم الله الخالق<sup>(1)</sup>، أو بتضمين حرف الباء معنى (على) على نحو قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: 75]، أي: اقرأ على اسم ربك، أي: على إذنه، فيكون المعنى على هذا التأويل أن الملك جاءك يا محمد ﷺ على اسم ربك، أي: مرسلًا من ربك بهذا القرآن العظيم<sup>(2)</sup>.

فعلى هذا المعنى الأخير تتجلى إشارة القرآن الكريم في أول كلمات هذا الدستور الخالد إلى بيان مصدر هذا القرآن وأنه من عند الله الذي تحصل البركة باسمه ولا يكون شيء في كونه إلا بإذنه.

أضف إلى ذلك ثبوت هذه الربانية بحديث بدء الوحي المشهور<sup>(3)</sup>، وفيه قول ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ (هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى).

ثانياً: اقتران ربانية القرآن بإثبات رسالة النبي ﷺ وبشريته:

وقد اتخذ سبيل إثبات ربانية هذا القرآن العظيم طريقة خاصة تقرن إثبات ربانية هذا الكتاب الحكيم برسالة النبي ﷺ وصدقته من جهة وبشريته من جهة أخرى.

وقد ظهر هذا المنحى مع أوائل السور نزولاً، سورة المزمل، وامتد حتى سورة السجدة، وهي من أواخر ما نزل بمكة.

وقد دأبت الآيات التي تتحدث عن نزول القرآن على إبراز من نزل عليه القرآن، محمد بن عبد الله ﷺ، صاحب الرسالة، يقول الله تعالى في سورة المزمل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾

(1) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ، (ج 4/775).

(2) انظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ، (ج 30/437).

(3) انظر: صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، بتعليقات: مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط 3، 1407 هـ - 1987 م، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (ج 1/4)، رقم الحديث: (3).

[المزمل: 5]، أي: إنا أوحينا ونوحى إليك هذا القرآن العظيم معانيه<sup>(1)</sup>، ثم جاءت الآيات المشاكلة لها على نسقها تترا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: 23]، ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: 5]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]، ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: 99]، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: 9]، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 192]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6]، ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: 1]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: 41]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْفَرَهُم بِالْحَقِّ كَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: 70]، ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: 2].

ثم برزت الجهة الأخرى في هذه الطريقة القرآنية مع أوائل السور نزولاً مع بدء مرحلة الجهر بالدعوة، ألا وهي سورة النجم، تلك الطريقة الفذة التي تجمع بين إثبات ربانية المصدر القرآني وتبرئة النبي ﷺ من ادعاءات المشركين بأنه افترى هذا القرآن وتقولته، فهو بشرٌ مثلهم بيد أن الله اصطفاه عليهم بالرسالة.

وقد كانت سورة النجم من أوائل ما نزل من القرآن بعد الجهر به أمام المشركين كما أخبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه<sup>(2)</sup>، مما يعني بدء هجوم الكفار على شخص النبي ﷺ واتهامهم له بأنه تتوَلَّ القرآن<sup>(3)</sup>، وعليه يأتي الرد الرباني المزدوج تبعاً انطلاقاً من هذه السورة:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420 هـ - 2000 م، (ص 892).

(2) انظر: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار (مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، ت: كمال الحوت، مكتبة الشد، الرياض، ط 1، 1407 هـ، كتاب الأوائل، باب أول ما فعل ومن فعل، (ج 272/7)، رقم الحديث: (36016).

(3) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422 هـ، (ج 195/5).

قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١١﴾ [النجم: 1-10].

أي: " وما ينطق محمد ﷺ بهذا القرآن عن هواه، إن هذا القرآن إلا وحي من الله يوحيه إليه" (1).

وقد نفى الله عز وجل في هذه الآيات أن يكون محمد ﷺ قد وقع له عارض غير مقصود كجنون أو غيره وهو ما عناه بقوله ﴿مَا ضَلَّ﴾ [النجم: 2]، أو أن يكون قد تعمّد اختلاق القرآن وهو ما عناه بقوله: ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: 2] (2).

ثم تأتي آية سورة الإنسان ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آئِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: 23-24]، لتشير إلى ما أصاب النبي ﷺ جرأ نزول القرآن عليه من تكذيب وصدّ ومحاربة أورشته ضيق الصدر لعدم إيمان قومه، فلو كان القرآن من عنده لما أصابه ما أصابه ولما نزل عليه الوحي يخاطبه قائلاً له: "إن هؤلاء الكفار يقولون إن ذلك كهانة وسحر فأنا الملك الحق أقول على سبيل التأكيد إن ذلك وحي حق وتنزيل صدق من عندي فلا تكثر بطعنهم فإنك أنت النبي الصادق المصدّق" (3).

ويأتي على شاكلتها قوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: 1-5]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: 27-28].

ثم تأتي آية سورة الأعراف في هذا التتابع الزمني وهذا التكامل الموضوعي لتسلط الضوء على دعوى المشركين بأن هذا القرآن مفترى من تلقاء محمد ﷺ، فتبين بما لا يدع مجالاً للشك بأن محمداً بشر لا يملك من أمر نزول القرآن شيئاً، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِيَّتْهَا قُلْ إِنَّمَا أُتِيْعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420هـ - 2000م، (ج 22/497 - 498).

(2) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 5/196).

(3) روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، دار الفكر، بيروت، ط 1، 2008م، (ج 10/277).

[الأعراف: 203].

فالله تعالى يوجّه نبيّه في هذه الآية بأن يقول للمشركين الذين يطالبونه بأن يحدث آية من تلقاء نفسه، إن هذا لا ينبغي لي بحال فأنا مأمورٌ بالاتباع والبلاغ فحسب<sup>(1)</sup>.

وعلى شاكلة هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْعَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: 15]، وقوله تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السجدة: 1-3].

بل ذهب التنزيل أبعد من ذلك حين بيّن أن ارتباط هذا القرآن بالنبّي ﷺ ليس ارتباطاً بذاته وشخصه، بل بصفاته واصطفائه، فحذره أن يُمالى الكافرين بمداراتهم والإجابة إلى مطالبهم أو أن يركن إليهم<sup>(2)</sup>، قال الله تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: 86].

ثم تكرر هذا التحذير للنبّي ﷺ في سورة يونس والتي تلت سورة القصص في النزول بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: 94-95].

وقد خرج الشرط في هذه الآية مخرج الفرض والتقدير لتقرير المفاصلة التامة بين الحق السماوي والهوى الإنساني - حتى وإن فرض صدوره عن من نزل عليه هذا القرآن - وإن كان في الواقع لم يقع أو يصدر عنه منه شيء كما روي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة: "ما شك ولا سأل"<sup>(3)</sup>.

وكما تجلّت هذه الطريقة القرآنية في العهد المكي فقد اتصل بها العهد المدني إثباتاً لربانية هذا الكتاب الكريم مع اقتران هذه الحقيقة بإثبات رسالة النبي ﷺ.

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 13/343).

(2) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، ت: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1418م، (ج 4/187).

(3) انظر: تفسير الطبري، (ج 15/203).

وقد كان أول ما أفتتح به العهد المدني - في آيات موضوعنا - الاستمرار على نفي الشكوك والزيب التي رُمي بها هذا القرآن العظيم في مقامه العالي في رتبته: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2].

لكن الذي اختلف في سمات آيات العهد المدني هو اقتران هذه السمة بالحديث عن أهل الكتاب ومجادلتهم، فمن المعلوم أن العدو الأول للإسلام ولنبيه ﷺ في هذا العهد هم اليهود ثم ظهراؤهم من النصارى، وقد تتابعت الآيات التي تجادل أهل الكتاب في أحقية وربانية هذا القرآن وتسجل عليهم موقفهم المحارب الطاعن في هذا الكتاب العزيز.

فقد ابتدأت أول آيات سورة البقرة والتي تخاطب بني إسرائيل بدعوتهم إلى الإيمان بالقرآن المنزل من عند الله تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: 41]، ثم تتابعت الآيات:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 91]... إلخ، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ثالثاً: أطراد سمة ربانية القرآن في الكتاب كله:

وقد أطردت هذه السمة في القرآن العظيم كله بدءاً بإشاراتها الأولى التي تحدثنا عنها في سورة العلق أعلاه<sup>(1)</sup>، ثم ما تلاها من الاقتران بين إثبات ربانية القرآن وبشرية من نزل عليه ﷺ، وقد سرت روح ربانية القرآن العظيم في سورته الأولى بدءاً ب(اقرأ) ومروراً بالمدثر والمزمل والقلم والشرح... إلخ.

أمّا أول تصريح بربانية مصدر القرآن العظيم مشفوعاً بالبراهين فقد جاء في أوائل السور التي جهر بها في مكة بين ظهراحي المشركين، ألا وهي سورة الرحمن التي جهر بها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ<sup>(2)</sup>: ﴿الرَّحْمٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ الْاِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾

(1) انظر: ص 22 من هذا البحث.

(2) انظر: فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، ت: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1403هـ - 1983م، (ج 837/2)، الحديث رقم: (1535).

[الرحمن: 1-4].

فقد عدَّ اللهُ في هذه السورة شيئاً من آلائه وافتتحها بأسبق تلك الآلاء وأعظمها نفعاً لجنس الإنسان ألا وهي نعمة الدين فقدَّم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه<sup>(1)</sup>، ثمَّ عدَّد على هذا الإنسان باقي صروف نعمائه ودروب آلائه وبراهين قدرته كي يستقرَّ في عقله أنَّ مَنْ خلق هذه المخلوقات العجيبة بقدرته وعلمَّ البيان وحسَّن المنطق والفصاحة بعلمه لحريُّ أن يكونَ هو مُنزلَ هذا القرآن العظيم العربي المعجز الذي عرفتم يقيناً - يا مشركي مكة - بديع نظمِهِ وتقاصرتم عن معارضته. ثمَّ تتابعت بعد ذلك الآيات التي تؤكد تلك الحقيقة:

فتارةً بالتأكيد أنَّ مُنزلَ هذا الكتابِ هو اللهُ عزَّ وعلا، كما في فاتحة سورة القدر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، وفي ص: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، والواقعة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ تنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الواقعة: 79-80]، والحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وغافر: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: 2].

وتارةً ببيان أنَّ هذا النزول هو الحقُّ، مقترناً بالحقِّ، نازلاً بالحقِّ، مجافياً للباطل، وهذه الطريقة هي الأكثر، وقد بدأت هذه الطريقة في البرهان في سورة الفرقان، في معرض الردِّ على شبهات الكافرين على هذا القرآن الحقِّ المبين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿[الفرقان: 32-33].

فقد قال المشركون في بعض معارضاتهم: لو كانَ هذا القرآن من عندِ الله تعالى لنزلَ جملةً واحدةً كما نزلت التوراة والإنجيل، فجاء الردُّ الرباني بالحكم الجليلة للنزول المنجم، ثم بيَّن الحقيقة الساطعة بأنَّ هؤلاء الكفار مهما يأتونك يا محمد ﷺ بمثل يضربونه على سبيل المعارضة إلا جاء القرآن بالحقِّ المبين من عندِ الله<sup>(2)</sup>.

وقد تميزت - في هذا المعنى - سورة يونس والتي مقصدها إثبات أنَّ الكتاب من عند

(1) انظر: تفسير الزمخشري، (ج 4/443).

(2) انظر: التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1422هـ، (ج 2/1796-1797).

الله<sup>(1)</sup>، وتحدث فيما تتحدث عن القرآن الكريم وموقف المشركين منه<sup>(2)</sup>، فهي تواجه ابتداء موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه، وأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ② قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ③﴾ [يونس: 1-2].. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِي ④ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑤ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ⑥ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ⑦ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⑧ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ⑨ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ⑩﴾ [يونس: 15-17]. ﴿وَمَا كَانَ هٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلٰكِن تَصٰدِقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعٰلَمِينَ ⑪ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰنَهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ⑫ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ⑬﴾ [يونس: 37-38]. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ⑭ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ⑮ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ⑯ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ⑰﴾ [يونس: 108]<sup>(3)</sup>.

وتتواصل الآيات في سورها المكيّة والمدنيّة في التأكيد على هذه الحقيقة ونفي الشبهات عن القرآن في سورة يوسف ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ① مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلٰكِن تَصٰدِقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ②﴾ [يوسف: 111]، وفي سبأ: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ③﴾ [سبأ: 48]، وفي الزمر: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ④ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ⑤﴾ [الزمر: 1-2]، وكذلك ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ⑥ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ⑦ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ⑧﴾ [الزمر: 41]، وفي فصلت: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ⑨ تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ ⑩﴾ [فصلت: 42]، والشورى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

(1) انظر: مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 1408هـ - 1987م، (ج 164/2).

(2) انظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط 2، 1418هـ، (ج 94/11).

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج 1746/3).

وَالْمِيرَانُ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧٧﴾ [الشورى: 17]، وفي الجاثية: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ [الجاثية: 6]، وفي النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ [النحل: 102]، وفي الحاقة: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ [الحاقة: 51]، وفي النساء: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ [النساء: 105]، وفي محمد: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ [محمد: 3]، والرعد - على ترجيح مدنيها - ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ [الرعد: 1]، وكذلك ﴿أَقْمِنَ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ [الرعد: 19]، وختاماً بسورة المائدة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَآخِضْهُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٨٨﴾ [المائدة: 48].

وتارةً ثالثةً بطريقة قرآنية فريدة موحية هي نسبة الآيات إلى الذات العلية نسبة السبب لمُسَبِّبِهِ والنازل لمنزله. ولهذه الطريقة بإضافة الآيات إلى الاسم الجليل فوائده:

- 1- إثبات نسبة الآيات القرآنية إلى منزلها المتكلم بها وهو الله عز وجل.
- 2- لإبراز قبح الكفر بها إذ كيف يكفر بآيات، خالق هذا الكون منزلها؟! (1)
- 3- إثارة المهابة في نفوس المتلقين لهذا القرآن بنسبته إلى صاحب الجلالة والمهابة العظمى (2).

وقد وردت لفظتا (الآيات - الكتاب) في كتاب الله تعالى على هذه الطريقة، أي مضافتين إلى الاسم الجليل، سواء الظاهر أو المضمّر على النحو الآتي:

- 1- بإضافتهما إلى اسم الجلالة الظاهر (الله): خمسين مرة.

(1) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط 1، 1997م، (ج 1/104).

(2) انظر: نفس المرجع.

2- بإضافتهما إلى اسم الجلالة الظاهر (رب): سبع عشرة مرة.

3- بإضافتهما إلى اسم الجلالة المكني عنه ب(ي) المتكلم: أربع عشرة مرة.

4- بإضافتهما إلى اسم الجلالة المكني عنه ب(نا) العظمة: إحدى وتسعين مرة.

5- بإضافتهما إلى اسم الجلالة المكني عنه ب(ك) الخطاب: ثلاث مرات، مرة على لسان نبي الله إبراهيم في دعائه لأمة محمد ﷺ، ومرتين على لسان الكافرين عند حلول الهلاك بهم.

فهذه مائة وخمس وسبعون مرة تنتسب فيها الآيات والكتاب إلى منزله برهاناً على ربانيته، وتشريفاً له، وتعظيماً لشأنه، وتربيةً للمهابة في نفوس سامعيه.

هذا عدا عن ألفاظ (هدى - كلمات - رحمة... إلخ) في مواضعها التي وردت فيها بمعنى كلام الله المنزل على أنبيائه، وإنما اقتصرنا على أوضح الألفاظ دلالةً فحسب إذ ليس غرضنا في هذا المطب الاستقصاء بقدر ما هو البيان بالتمثيل.

رابعاً: العلم يقود إلى الإيمان بربانية القرآن:

العلم هو الأساس المتين والأصل المبين الذي بُني عليه هذا الدين، وقد امتزجت كلمات الوحي الأولى به - كما سنرى لاحقاً -، وهو هنا يُشكّل أمانة واضحة ودلالةً بينة لمن سلك طريقه على أن القرآن من عند الله تعالى، وسواءً أكان هذا العلم خبرياً كما هو شأن علماء أهل الكتاب، أو كان استدلالياً كما هو حال كل من طلب الحق، فإن هذا العلم يهدي إلى ربانية هذا الكتاب العظيم، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6].

وقد فسّر (الذين أوتوا العلم) هنا إما بمسلمة أهل الكتاب الذين قادهم علمهم إلى الإيمان بهذا القرآن، وإما بأصحاب محمد ﷺ وكل مؤمن به<sup>(1)</sup>، والذي يستقيم في السياق وفي زمان التنزيل أن يُعمّم (الذين أوتوا العلم) كل مسلم<sup>(2)</sup>؛ إذ لم يكن في تلك الفترة أحد من أهل الكتاب قد أسلم بعد، فبقاء اللفظ على عموميه أولى.

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي، ت: أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط 3، 1419هـ، (ج 3161/10). وانظر: تفسير ابن عطية، (ج 406/4).

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1384هـ - 1964م، (ج 261/14).

الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- التركيز في تعليم أبناء المسلمين القرآن على ربط مفهومهم عن القرآن بمن أنزل هذا القرآن وتكلم به؛ فإن ارتباط النص القرآني بالخالق العظيم في أذهان الصغار وكذلك الكبار يبني هبة ومهابة وتقديساً لهذا النص القرآني ويُعمق قيمة التصديق به واتباعه.

2- الدفاع عن النبي ﷺ بإثبات نبوته وبشريته من أهم أولويات القرآن الكريم في مواجهة المبطلين، وعليه واقتداءً بمنهج كتابنا العزيز فإن الدفاع عن رسول الله ﷺ في وجه المبطلين ينبغي أن يكون أولوية علمية وعملية وشعورية يترتب عليها كل المسلمين.

3- بروز أهمية العلم في زيادة اليقين بربانية هذا الكتاب الحكيم وضرورة توجيه أبناء المسلمين خاصة والمسلمين عامة إلى التعرف على الخالق بمخلوقاته وإلى إدراك الحقائق العلمية الباهرة المكونة في هذا القرآن العظيم حتى يتبين لهم أنه الحق.

### المطلب الثاني: التنويه بشأن القرآن وعظيم صفاته

كلما تكاثرت الأسماء لمسمى من المسميات، وتعددت الصفات لموصوف من الموصوفات، بئ تدرُّك أهميته وتستشعر عظمته؛ فإن كل اسم يُطلق عليه أو صفة يوصف بها إنما هي ناشئة عن عظمة ذاته وعن سمة من سماته، وكذلك مضى قولهم: "كثره الأسماء تدلُّ على شرف المسمى".

وقد تكاثرت أسماء وصفات هذا القرآن العظيم فصارت كالنجوم النيرات التي تُرصع ثوب السماء القشيب في أبهى حلة حتى أوصلها بعضهم إلى ما يربو على تسعين اسماً وصفة<sup>(1)</sup>.

ومن خلال تتبع الباحث لورود هذه الأسماء والصفات في كتاب الله عز وجل وجد أنها تنتظم القرآن كله، مكيه ومدنيه، طوال سوره وقصارها، سواء أكان ذلك بالاسم أو بالصفة أو بالوصف بعبارة، " فالحاصل أن أكثر القرآن في تقرير عظمة القرآن، فإنه المقصود بالذات من أمر الآية الكبرى التي إذا ثبتت تبعها جميع المراد من الشريعة، وتفريق تقرير شأنه أنقن ما يكون في إحكام أمره، وذلك أن الحكيم إذا اهتم بشيء افتتح الكلام به، فإذا رأى من ينكره انتقل إلى غيره على قانون الحكمة، ثم يصير يرمي به في خلال ذلك، رمية كأنه غير قاصد له، ولا

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط 1، 1376 هـ - 1957 م، (ج 273/1).

يزال يفعل ذلك حتى يتقرر أمره غاية التقرير ويثبت في النفس من حيث لا يشعر<sup>(1)</sup>.

وستحدث عن هذه الطريقة القرآنية في النقاط الآتية:

أولاً: وصف القرآن بـ(الذكر - التذكرة - الذكرى):

لاحظ الباحث من خلال تتبع آيات القرآن في القرآن أن أول الأسماء والصفات التي بدأ ورودها في كتاب الله تعالى عن هذا القرآن أسماء (ذكر - تذكرة - ذكرى).

فاسم القرآن (ذكر) يفيد معنى الشرف، وكذلك ما فيه من قصص الأولين والآخرين<sup>(2)</sup>.

ووصفها بـ(التذكرة والذكرى) يفيد معنى الموعظة والعبرة<sup>(3)</sup>.

فخلاصة معاني هذه الأسماء أن القرآن ذكر من الله جل ذكره، ذكّر به عباده، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائر ما أودعه من حكمه. وأنه أيضاً: ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه<sup>(4)</sup>.

وأول سورة في النزول سُمِّيَ فيها القرآن بهذا الاسم بعد سورة المزمل التي ذُكِرَ فيها اسم (القرآن) هي سورة التكويد، قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكويد: 27-29]، أي: ما جاءكم هذا القرآن إلا تذكرة وموعظة<sup>(5)</sup>.

ثم في سورة (عبس) ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: 11-16]، أي: هذه عظة وعبرة فمن شاء ذكر هذا التنزيل الذي هو ذكر الله لعباده<sup>(6)</sup>.

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1404هـ - 1984م، (ج 153/21).

(2) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز أبادي، ت: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1416هـ - 1996م، (ج 9/3). وانظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ - 1974م، (ج 183/1).

(3) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي، ، (ج 12/3).

(4) تفسير الطبري، (ج 99/1).

(5) انظر: المرجع السابق، (ج 263/24). وانظر: التفسير البسيط، أبو الحسن الواحدي النيسابوري، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط 1، 1430هـ، (ج 283/23).

(6) انظر: تفسير الطبري، (ج 221/24).

ثم في (الإنسان) ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: 29]، ثم في (المدثر) ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٥﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: 54-55]، وفي كلتا السورتين أيضاً تشيرُ الآياتُ إلى كونِ معناه موعظةً وعبرة<sup>(1)</sup>.

ثمَّ ينتقلُ السياقُ التنزيليُّ من معنى الموعظةِ والعبرةِ ليضيفَ المعنى الثاني لاسمِ القرآنِ (الذكر) ألا وهو الشرفُ والفخرُ والعزُّ، وذلك في سورةِ القلم - التي ترجحُ لنا تأخرُ نزولِها إلى زمنِ الجهرِ بالدعوة<sup>(2)</sup> - يقولُ تعالى حكايةً عن حالِ المشركينَ المكذِبينَ المعاندينَ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: 51-52]، فيقرِّرُ اللهُ في ختامِ السورةِ أنَّ هذا الذكرَ نكراً للعالمينَ كلِّهم لا لقريشٍ وحدها، فيكونُ الذكرُ هنا بمعنى الموعظةِ والشرفِ<sup>(3)</sup>.

وقد جاءَ معنى الشرفِ والمكارمِ الدنيويةِ والأخرويةِ في اسمِ آخرَ للقرآنِ الكريمِ هو (المجيد)<sup>(4)</sup> وذلك في سورةٍ هي أيضاً مما نزلَ في أوائلِ فترةِ الجهرِ بالدعوة وهي سورةُ البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: 21-22]، مما يُعزِّدُ هذا المعنى لاسمِ القرآنِ (الذكر) أي بمعنى الشرفِ والفخرِ.

ثمَّ يأتي اسمٌ ثالثٌ يعطي نفسَ معاني شمولِ النفعِ والخيرِ والمكارمِ الدنيويةِ بهذا القرآنِ وهو

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 119/24، 44).

(2) يقول الأستاذ سيد قطب في تقديمه على هذه السورة: "والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة العامة. وبعد قول الله تعالى له: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»، وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم، التي قال عنها قائلهم: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».. وبعد ما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التي اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة في السورة على المكذِبين، والتهديد القاصم في أولها وفي آخرها على السواء.. والمشهد الأخير في السورة يوحي بهذا كذلك: «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ».. فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة. ولم يكن الأمر كذلك في أول الدعوة. إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد. بوسيلة فردية. ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون. ولم يقع شيء من هذا - كما تقول الروايات الراجحة - إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة"، في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج 3651/6).

(3) انظر: النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، (ج 74/6).

(4) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروز أبادي، (ج 485/4).

(مبارك)، وذلك في سورة (ص): ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، مبارك: أي كثير خيره ونفعه<sup>(1)</sup>.

ثم تتابع السور التي تقرّر هذا المعنى، ففي سورة (ص) وحدها يرد هذا الاسم (نكر) ويوصف به القرآن أربع مرات: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1]، فالذكر هنا يحمل المعنيين<sup>(2)</sup>، وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: 8]، وتعليل نزوله بالتذكّر في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، وختام السورة: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 29]، وَتَعَلَّمُوا نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: 86-88].

ثم في الأعراف: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2]، وفي (يس): ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 69]، وفي الفرقان مرتين: ﴿قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُثْبِتُ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: 18]، ﴿أَصَلِّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْإِنْسٰنِ خَدُولًا﴾ [الفرقان: 29] ... إلخ.

نلاحظ مما سبق أنّ أول اسم وُصِفَ به القرآن عدا الاسم العلم الأول (القرآن) هو الذكر والذكرى والتذكرة، بمعنى الموعظة أولاً ثم بإضافة معنى الشرف والفخر إليه إضافة إلى وصفه بالمجيد والمبارك، ونقف من هذا الترتيب القرآني التنزلي على الفوائد الآتية:

1- خوطب المؤمنون خاصة والناس عامة ابتداءً بالاسم الذي يُبرز شمول نفع هذا القرآن ويُبرز ثمرة اتباعه، وهي حصول الموعظة والاعتبار بما فيه من القصص والمواعظ، وبما فيه من المعاني العظمية من التوحيد والأخلاق والسلوك، ثم ما ينتج عن اتباعه من تحصيل الشرف والعزّ الدنيوي والأخروي.

2- ابتداء القرآن في سورته الأولى نزولاً بالتركيز على المعنى الأول للذكر، وهو الموعظة والعبرة لما كان الخطاب به للمؤمنين وللمقربين منهم والذين يُرجى إسلامهم في الطور السريّ للدعوة إلى الله، حيث النفوس المتشوقة للحقّ والعقول الباحثة عن الصدق، فتأتي

(1) تفسير البغوي - معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 4، 1417 هـ - 1997م، (ج 88/7).

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 139/21-140).

الآيات لتقول لهم إن ما تبحثون عنه من اعتبارٍ ونظرٍ وعِظةٍ هو هنا في هذا القرآن.

3- أضافت الآيات معنىً ثانياً للذكرٍ لما انتقلت الدعوة إلى الطورِ الجهرِيِّ وهو معنى الشرفِ والفخرِ، حيثُ اتسعت دائرةُ الخطابِ لتشملَ كلَّ مشرِكِي مَكَّةَ ومعهم من خلفهم، وفي هذا الأسلوبِ القرآنيِّ التدرجِيِّ سرٌّ لطيفٌ من أسرارِ مراعاةِ النفوسِ البشريةِ، فمن المعلومِ أنَّ النفسَ البشريةَ مفطورةٌ على حبِّ السيادةِ والظهورِ والافتخارِ بما بينَ يديها من إنجازاتها، فدخلَ القرآنُ العظيمُ إلى تلكِ النفوسِ من أحدِ أحبِّ مداخلها إليها ليقولَ لهم: إن كنتم تبحثون عن الشرفِ والسؤددِ فإنَّ الشرفَ كلَّ الشرفِ والسؤددَ كلَّ السؤددِ والسيادةَ كلَّ السيادةِ في هذا القرآنِ العظيمِ إن اتبعتموه وأقمتم ما فيه، وقد أشارَ الإمامُ الفخرُ الرازيُّ إلى طرفٍ من هذا المعنى في تفسيره<sup>(1)</sup>.

### ثانياً: الحديث عن حفظ القرآن الكريم:

وقد بدأ الحديث عن حفظ هذا القرآنِ وكونه مصوناً عالي المقامِ في أوائلِ السورِ نزولاً في فترةِ الجهرِ بالدعوة ليتناسب هذا مع ظهورِ عداوةِ المشركينَ للقرآنِ وبالتالي اتهامهم للنبيِّ ﷺ أنه افتراه من تلقاءِ نفسه، أو أنَّ الطبيعةَ البشريةَ للنبيِّ ﷺ تقتضي وقوعَ التغييرِ والتبديلِ في هذا القرآنِ.

قالَ تعالى في سورةِ البروجِ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: 21-22]، فقراءةُ الجمهورِ بخفضِ (محفوظ) على أنه صفةٌ لوحٍ، وقرأه نافعٌ وحدهُ بالرفعِ على أنه صفةٌ ثانيةٌ لـ(قرآن)<sup>(2)</sup>، فقراءةُ الخفضِ على حفظِ اللوحِ، وحفظُ اللوحِ كنايةٌ عن حفظِ القرآنِ الذي هو فيه، وقراءةُ الرفعِ على حفظِ القرآنِ نفسه وحفظُ القرآنِ يستلزمُ حفظَ اللوحِ الذي هو مودعٌ فيه، فيتحصَّلُ من القراءتينِ ثبوتُ الحفظِ للقرآنِ وللوحِ، ومعنى حفظِ القرآنِ حفظُهُ من التغييرِ ومن تلقفِ الشياطينِ، ومعنى حفظِ اللوحِ حفظُهُ عن تناولِ غيرِ الملائكةِ إياه<sup>(3)</sup>.

وقد تلا هذا البيانَ القرآنيَّ بحفظِ القرآنِ المجيدِ في سورةِ البروجِ وصفُ القرآنِ بالكريمِ المودعِ في كتابٍ مكنونٍ وذلك في سورةِ الواقعةِ والتي كانَ نزولُها في الفترةِ الجهريةِ من الدعوةِ أيضاً

(1) انظر: التفسير الكبير - مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ، (ج 27/634-635).

(2) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح عبد الغني القاضي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، (ص 340).

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 30/255)، بتصرف.

متأخراً عن البروج، عند اشتداد التعذيب على النبي ﷺ وأصحابه، قال تعالى واصفاً هذا القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: 77-78]، فالقرآن في كتاب مكنون أي: "مصون عند الله في اللوح المحفوظ، محفوظ من الشياطين" (1).

وفي وصف القرآن في هذه السورة بالكريم وكونه في كتاب مكنون لطائف نفيسة:

1- الكريم اسم جامع لصفات المدح، وهو ما كان زكي الأصل ظاهر الفضل، فلما تكرّر في التنزيل قبل هذه السورة وصف هذا الكتاب بالقرآن، أي الذي يُقرأ كثيراً أراد الله أن يُبرز صفة هذا الكلام الإلهي بأنه ليس ككلام البشر الذي إذا قُرئ كثيراً هان في أعين الناس، بل هو كريم زكي الأصل دائم الفضل مهما تكرّر تردّده على الألسن تراه في كل مرة غصاً طرياً كأنما يُقرأ لأول مرة (2).

2- كون هذا القرآن في كتاب فيه تحقيق لمعنى ثبوته وعدم تغييره فلفظ الكتاب استعير للأمر الثابت المحقق الذي لا يقبل التغيير (3).

3- معنى المكنون المستور، فلماذا وصف اللوح الذي فيه القرآن بالمستور؟ والجواب: أن المحفوظ الذي يُحفظ بالعين وهو ظاهر غير مستور، فإذا كان هذا الذي يُحفظ بالعين عزيزاً شريفاً زاد على كونه محفوظاً أنه مكنون أي يُصان عن كونه عرضة لكل راء بل لعزته وصيانته يُستتر عن العبث به (4)، "فبين المحفوظ والمكنون تغاير في المفهوم وعموم وخصوص وجهي في النوع، فالمحفوظ: المصون عن كل ما يتلّمه ويتقصه ولا يليق به وذلك كمال له، والمكنون: الذي لا يُباح تناوله لكل أحد وذلك للحشية عليه لتفاسته" (5).

ولما اشتدّ أذى المشركين وتضييقهم على المؤمنين في مكة حتى بلغ بهم الأمر هجر الأوطان إلى الحبشة نزل البيان القرآني المؤكّد بمؤكّدات كثيرة متظافرة على أن هذا القرآن محفوظ بحفظ الله له فهو الذي تولى حفظه بنفسه حيث يقول في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9]، فقد احتفت هذه الآية على قصرها بمؤكّدات كثيرة:

(1) تفسير البغوي، (ج 8/22).

(2) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 29/429).

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 27/334).

(4) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 29/430).

(5) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 30/254).

- 1- (إن): التي هي حرف توكيدٍ ونصبٍ.
  - 2- (نحن): وهي هنا ضميرٌ منفصلٌ مؤكِّدٌ للمتصلِ في (إنَّا)<sup>(1)</sup>.
  - 3- (وإنَّا): التي للتوكيدِ والنصبِ.
  - 4- (له لحافظون): فتقديمُ الجارِّ والمجرورِ يفيدُ الاختصاصَ بالحفظِ.
  - 5- (لحافظون): اللامُ المزلحقةُ هنا هي للتوكيدِ.
  - 6- إفادةُ الحفظِ بالجملةِ الاسميةِ التي هي أكدٌ في بيانِ استقرارِ ما تتحدثُ عنه.
  - 7- التعبيرُ عن هذا المعنى بـ(نا) العظمةِ المشعرةِ بتعظيمِ وأهميةِ ما يُسندُ إليها.
- فكلُّ هذه المؤكِّداتِ - لا بُدَّ - تثيرُ سؤالاً: لماذا يؤكدُ الله هذه الحقيقةَ - ربانيةَ القرآنِ وحفظهَ - بكلِّ هذه المؤكِّداتِ؟

سبق أن قلنا إنَّ هذه السورةَ نزلت مع اشتدادِ هجومِ أهلِ الباطلِ على أهلِ الحقِّ وبالتالي اشتدادِ الهجومِ والطعنِ في القرآنِ الكريمِ الذي سَفَّهَ أحلامَ القومِ، وعابَ عبادتَهُم، وحطَّمَ بالحجةِ الدامغةِ آلهتَهُم، فكانَ من الطبيعيِّ أن يزيِدَ القرآنُ من المؤكِّداتِ على صدقِهِ وبقائهِ محفوظاً لنتناسبَ طردياً مع ما زادوهُ هم في طعنِهِم وتشكيكِهِم، ولكي يزيلَ الشبهةَ عن نفسِ كلِّ من ارتابَ وخضعَ لأباطيلِ القومِ أو وجدَّ في نفسهِ تردداً وحيرةً.

ولأنها الحقيقةُ العظمى التي لو استقرت في العقولِ والقلوبِ لاستقرَّ بعدها كلُّ ركنٍ من أركانِ هذا الدينِ، ولو تزعزعت أو هُدمت لانهارَ بعدها كلُّ شيءٍ.

### ثالثاً: تعدُّدُ أوصافِ القرآنِ:

تختلفُ رغباتُ الناسِ باختلافِ مقاصدِهِم وما يعترى نفوسَهُم من أحوالِ الصحةِ والمرضِ والسعةِ والضيقِ والفقرِ والغنى... إلخ، وتتنوَّعُ أفكارُهُم بتنوعِ مشاربِهِم.

ولإن كانَ القرآنُ في آياتِ التنزيلِ الأولى قد سلَّطَ الضوءَ على اسمِ جامعٍ من أسمائهِ هو (الذكر) - ومعهُ (المجيد والمبارك) - لما حوتهُ هذه الأسماءُ من بيانِ منافعِ القرآنِ الدنيويةِ والأخرويةِ على الإجمالِ فقد اقتضت حكمةُ الحكيمِ سبحانه أن يبدأَ التنزيلُ الحكيمُ بتفصيلِ منافعِ هذا القرآنِ العظيمِ وسمايتهِ وذلكَ بإبرازِ كلِّ صفةٍ من صفاتهِ على حدةٍ، وقد بدأَ هذا النهجُ القرآنيُّ

(1) انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (ج 146/7).

مع أوائل سورة الأعراف تقريباً والتي واكب نزولها مرحلة الدعوة الجهرية وتوسّع دائرة المدعوين بهذا القرآن.

فمن ضالّ يجد الهدى في هذا الهدى، ومن قلبٍ قد أظلم يجدُ النورَ في هذا النورِ، ومن سقيمٍ قد أعياهُ المرضُ يجدُ الشفاءَ في هذا الشفاءِ، ومن طالبٍ للحجةِ الدامغةِ يجدُ البصيرةَ في هذا البصائرِ، ومن طريدٍ قست عليه الدنيا يجدُ الرحمةَ في هذا الرحمةِ، ومن شاكٍ اختلطت عليه الدروبُ يجدُ الفصلَ في هذا الفرقانِ، ومن يائسٍ سقطَ في يدهِ يجدُ البشريَ في هذا البشريِ، ومن متشدّدٍ معتزٍّ بعلوِّ فصاحتهِ يجدُ الإعجازَ في هذا البيانِ ومن باحثٍ عن الحقِّ من أهل الكتابِ يجدُ تصديقَ ما عندهُ في هذا المُصدّقِ لما بين يديه والمهيمنِ عليه... إلخ، وهكذا لا تجدُ نقصاً أو مثلاً أو مطلباً عند أحدٍ من البشرِ إلا وجدت له في أسماء القرآن وصفاته ما يزيّله ويكمله ويُلبيّه ويرأبُ صدعه.

وأولُ تلك الأسماءِ الخاصةِ وروداً في التنزيلِ الزمانيّ (النور)، في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 157]، "سمى القرآن نورا لأنه يُظهر نور الإيمان لصاحبه، ويزيل عنه ظلمة الجهل والضلال"<sup>(1)</sup>، فهو الذي يُستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويُقتدى به إذا تعارضت المقالات"<sup>(2)</sup>.

ثم تتابع ورودُ أسمائه وصفاته في سائر آيات القرآن المجيد.

#### رابعاً: الإشارةُ إلى القرآن:

استعمل القرآن الكريم أسلوباً عربياً بليغاً في التنويه بشأن هذا الكتابِ المجيد، هذا الأسلوبُ هو الإشارةُ إلى القرآنِ باسم الإشارةِ الذي للقريبِ كثيراً (هذا - هذه)، والذي للبعيدِ أحياناً (ذلك - تلك)، فما هي بلاغةُ هذا الأسلوبِ؟

---

(1) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الأرمي العلوي الهري، بإشراف: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان، ط 1، 1421 هـ - 2001 م، (ج 10/170).

(2) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420 هـ - 2000 م، (ص 305).

"الأصل في أسماء الإشارة أن يُشارَ بها إلى الأشياء المشاهدة المحسوسة، وأبرز أغراضها تمييز المشار إليه أكمل تمييز بالإشارة المحسوسة إليه، واستعماله في غير المشاهد وفي غير ما يدركه الحس مجازاً بتزليله منزلة المحسوس المشاهد"<sup>(1)</sup>.

فإذا كان المشار إليه معلوماً متعيناً لدى المخاطب فإن الإشارة إليه في هذه الحالة تكون لغرض بلاغي هو استحضاره في ذهن المتلقي والعناية به بتمييزه أكمل تمييز والمبالغة في تعيينه، ويحس هذا المقام عند الإطراء أو الهجاء، أو لأغراض أخرى تُعرف من السياق<sup>(2)</sup>.

وقد أبدع فأعجز القرآن في استعمال هذه الوسيلة البلاغية حيث يشير إلى القرآن المعلوم لدى سامعيه في مواضع كثيرة من القرآن العظيم إشارة لفت للانتباه واستحضار لصورة هذا القرآن في ذهن المخاطبين لما للقرآن من أثر عظيم في حياة من يسمعه فتتداعى عند الإشارة إليه تلك الصفات والسمات لتكون شاهداً وأدلة متراكمة متظافرة على تميير وصدق وعظمة هذا القرآن.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]، فقوله ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ إشارة إلى الحاضر في أذهان الناس مما نزل من القرآن حتى نزول هذه الآية، وجاء بيان الإشارة بالاسم الظاهر تنويهاً بشأن القرآن<sup>(3)</sup>.

فالمخاطب عندما يسمع اسم الإشارة (هذا) الذي للقريب يستحضر مباشرة القرآن وكأنه شخص ماثل بين يديه يعرفه حق المعرفة، ويعرف عظيم نفعه وبيض فضله، يستحضر شتى آياته في مختلف موضوعاته وقضاياها العظمى التي يعالجها، وأثره البارز على من تمسك به، فتتشكل في ذهنه بصائر جلية على صدق ما تشير إليه الآية بأن هذا القرآن يهدي جميع من اتبعه للتي هي أعدل وأتم في كل مجالات الحياة.

وبكلمة أخرى فقد أقامت هذه الإشارة الدليل في ذهن المتلقي جنباً إلى جنب مع الدعوى في الآية.

---

(1) معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن، ط 1، 1420 هـ - 2000 م، (ج 88/1).

(2) انظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط 1، 1416 هـ - 1996 م، (ج 420/1 وما بعدها).

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 40/15).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92]، فالإشارة إلى القرآن بـ(هذا) أي: الذي هو حاضر الآن في جميع أذهان المخاطبين<sup>(1)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ لِّكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 37]، "فعينه تعييناً لا يمكن معه لبس، فقال: ﴿هذا القرآن﴾ أي الجامع لكل خير مع التأدية بأساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق"<sup>(2)</sup>.

ومن أغراض الإشارة إلى القرآن بـ(هذا) إرادة بيان أن هذا القرآن واضح سهل التناول حاضر قريب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: 50]، "فلما ذكر فرقان موسى عليه السلام، وكان العرب يشاهدون إظهار اليهود للتمسك به والمقاتلة على ذلك والاعتباط، حثهم على كتابهم الذي هو أشرف منه فقال: (وهذا) فأشار إليه بأداة القرب إيحاء إلى سهولة تناوله عليهم"<sup>(3)</sup>.

وقد وردت الإشارة إلى القرآن الكريم باسم الإشارة الذي للقريب تسعاً وثلاثين مرة على اختلاف بين المفسرين في تأويل بعض المواضع.

أما الإشارة إلى القرآن بالبعد فلم ترد في كتاب الله سوى ثلاث مرات بـ(ذلك)، وإحدى عشرة مرة بـ(تلك) إشارة إلى الآيات، إذ إن واقع هذا القرآن الحضور والمثول بين يدي البشر نزولاً وتلاوةً وعلماً وفهماً وعملاً وأثراً.

أما المرأت التي أُشيرَ فيها إلى القرآن بـ(ذلك) فهي:

1- فاتحة سورة البقرة وذلك في مقام تشريف هذا القرآن ورفعهِ بعيداً عن الشبهات والريب، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، فالإشارة بـ(ذلك) وما فيها من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه فيه إيدان بعلو شأن هذا القرآن وكونه في الغاية القصوى من الشرف<sup>(4)</sup>.

(1) نظم الدرر، برهان الدين البقاعي، (ج 187/7).

(2) المرجع السابق، (ج 120/9).

(3) المرجع السابق، (ج 432/12).

(4) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ج 23/1).

2- قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، فأشار بـ(ذلك) إلى القرآن الجامع للموعظة والرحمة<sup>(1)</sup>، والغرض البلاغي من الإشارة بالبعد تفخيم وتعظيم شأن هذا القرآن الذي هو فضل من الله ورحمة فهو عالي المقام عظيم الشأن بحيث يتبوأ المقام الأسمى.

3- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]، فأشار إلى القرآن بـ(ذلك) الدالة على العظمة ورفع الشأن لما ذكر من عجيب آثاره على النفس والبدن بالهيبة والخشية والقشعريرة<sup>(2)</sup>.

وأما الإشارة بـ(تلك) فجاءت في القرآن للآيات مضافة إلى القرآن مرة، وإلى اسم الجلالة (الله) ثلاث مرات، وإلى الكتاب سبع مرات، وقد جاءت كل هذه المواضع للإشارة إلى علو شأن الكتاب في الإحكام والبيان والصدق ولذلك ترى الآيات المشار إليها في هذه المواضع توصف بالحكمة والبيان والتنزل والتلاوة بالحق.

#### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- أسماء القرآن وصفاته من المباحث العلمية التي لم تجد حظها الوافر في الجانب التطبيقي العملي التعليمي، فإن ربط أبناء المسلمين بأسماء القرآن وصفاته وما لكل اسم وصفة من أثر عملي على حياة المسلم اليومية وما يواجهه من هموم وتحديات، له أثر عظيم في إدراك فوائد القرآن وهداياته التفصيلية، فضلاً عن توثيق الصلة بالقرآن من خلال الشعور العملي بكل الجوانب التي يحتاجها الإنسان في حياته وتتطلبها نفسه المنهكة من أعباء هذه الدنيا.

2- ليس من الخطأ المنهجي مطلقاً أن تبدأ دعوتك للناس بالحديث عن الفوائد والمنافع الدنيوية للإيمان بالله تعالى ولاتباع هذا القرآن المجيد المبارك؛ فإن النفس البشرية بطبيعتها تحب ما يجلب لها النفع والعز والشرف، وهكذا كان حديث القرآن عن نفسه في أوائل آياته كما رأينا.

3- استعمال أسلوب التربية بالقدوة القرآنية منهج قرآني برز في الإشارة إلى القرآن الحاضر

(1) انظر: البسيط للواحي، (ج 11/229).

(2) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 16/491).

بيننا بمواعظه وأحكامه وآثاره المشاهدة، فحريّ بالأمة أن تنشئ نماذج قرآنية خالصةً  
علماءً وعملاً وتطبيقاً ثم تجعل هذه النماذج مناراتٍ وقدواتٍ لأبنائها يتعلمون بها وعلى  
يديها فإن أعظم ما يبني القرآن الإنسان القدوة.

### المطلب الثالث: إبراز بيان النص القرآني

لإن كان القرآن قد نهج في السبيل الأول إثبات صدق هذا الكتاب العزيز بطريق خارج  
عن موضوعه وذلك بإثبات مصدره الرباني، وسلك في السبيل الثاني إثبات صدق هذا الكتاب  
المجيد بطريق لازم عنه وذلك بإبراز آثاره، فقد نهج القرآن العظيم في السبيل الثالث طريقاً نابغاً  
من ذات هذا القرآن الحكيم ناشئاً عن بديع نظمه المعجز، ألا وهو إثبات صدق هذا القرآن  
المبين بإبراز إعجاز ألفاظه وجمله ونظمه.

وقد احتلّ الأسلوب القرآني المعجز مكانةً عظيمةً في قلوب سامعيه من العرب الأقحاح  
حتى سلب عليهم ألبابهم وأسرو نفوسهم فأدركوا في قراراتها صدقها بما رأوا من علو طبقتهم عن  
قدرة أبلغ بلغائهم وأفصح شعرائهم، فكان من الحكمة القرآنية البالغة أن يُذكرهم القرآن بما لقوا  
منه في نفوسهم من روعة وهيبة وحلاوة وبيان معجز يخاطب نفوس فصحاءهم وبلغائهم على مرّ  
الدهور بأن هذا القرآن ليس - ولا يمكن أن يكون - قول بشر.

وقد جاء العرض القرآني لهذه الخصيصة المعجزة في النقاط الآتية:

#### أولاً: تعليم القرآن:

لما كان البيان القرآني المعجز مبنياً على إعجاز نظم القرآن المبين المستند في حقيقته إلى  
فصاحة هذه اللغة العربية وعلو أسلوبها في البيان، ولما كانت اللغة آلة العلوم كلها، فقد اندرجت  
في سلك أول العلوم التي علمها الله للبشر، فبدأ القرآن المنزل أول ما بدأ بنكر العلم والتعليم في  
أوائل سورة العلق: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝  
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]، فعن قتادة: "القلم نعمة من الله  
عظيمة، لولا ذلك لم يقر، ولم يصلح عيش"<sup>(1)</sup>، وفي قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قال:  
الخط<sup>(2)</sup>.

ثم جاء أول نكر لتعليم الله البيان البشر في فاتحة سورة الرحمن والتي نزلت مع بدايات

(1) تفسير الطبري، (ج 519/24).

(2) تفسير ابن أبي حاتم، (ج 3450/10).

الجهر بالدعوة إلى الله في مكة، ذلك أن المؤمنين والمقبلين على الإسلام بما عرفوا من الحق في الفترة السرية أدركوا بيان وإعجاز النص القرآني للوهلة الأولى فاستسلموا وأخبتت له قلوبهم فلم يجادلوا أو يُنكروا، فلما كان الإنكار والعناد والجدال من أهل مكة بعد إعلان الدعوة جهراً لهم أحتيج حينها لتذكير هذا الإنسان بما علمه الله من البيان فهم - أي مشركو مكة - أعلم الناس ببيان هذا القرآن وعلو بلاغته فأنى لهم الإنكار وقد أدركوا بما وهبوا من فصاحة اللسان أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام بشر.

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: 1-4]، فالإنسان اسمٌ لجنس الناس جميعاً، ومعنى تعليم الله له البيان أي: "النطق والتمييز، والكتابة والخط، والفهم والإفهام، حتى عرف ما يقول وما يقال له، وعلم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به، وجعله مميزاً حتى انفصل الإنسان من جميع الحيوان"<sup>(1)</sup>.

وعليه فتعليم الله الإنسان البيان عموماً، وتعليم العرب واسطة البيان خصوصاً بمثابة إقامة الدليل على ربانيّة هذا القرآن بما يرى فيه البلغاء الذين خبروا أركان الفصاحة وطرائق البيان وأساليب القول البليغ، من بيان يعلو عن كل ما خبروه، وإن كان من جنس ما عرفوه.

#### ثانياً: تيسير القرآن:

وقد اتسم هذا القرآن العظيم الكريم المبين رغم إعجاز نظمه، وإتقان رصفه، وعلو بلاغته، ببُسر عبارته، وبلوغ معانيه قلوب سامعيه في أبلغ لفظٍ ونظمٍ ومعنى، فهو قرآنٌ واحدٌ يراه البلغاء أوفى كلامٍ بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلامٍ وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمانٍ وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد<sup>(2)</sup>.

والناظر في آيات القرآن المبين لا يكاد يُخطئ نظره أية تصف القرآن تارةً بالمبين، وتارةً بالميسر، وتارةً بالعربي، وكل هذه الأوصاف تجتمع على كون هذا القرآن ميسراً للتلاوة والفهم والعمل.

وأول ما بُدئ به بيان هذا القرآن بيانه للنبي ﷺ وبيان النبي ﷺ له باعتباره صاحب الرسالة

(1) البسيط، الواحدي، (ج 134/21).

(2) النبا العظيم، محمد عبد الله دراز، تقديم: د. عبد العظيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، 1426 هـ - 2005 م، (ص 148).

وَمَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَلَمِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴿ [القيامة: 16-19]، ومن معاني البيان ما ذكره ابن عباس: " علينا بيانه بلسانك إذا نزل به جبريل حتى تقرأه كما أقرأك" (1)، وتفسير البيان في هذه الآية بما قاله ابن عباس أولى من تفسيره ببيان الحلال والحرام الذي اختاره الطبري (2) إذ إن بيان معانيه كان يحصل للنبي ﷺ وقت قراءة جبريل عليه القرآن ولا يتأخر البيان عن الإقراء (3).

ثم تتابع وصف القرآن بتلك الأوصاف المُنْبِئَة عن تيسيره للناس، فها هي سورة القمر النازلة في الفترة الجهرية تؤكد هذه الحقيقة بأربع آيات تُرْصَعُ خواتيم مقاطعها، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: 17 - 22 - 32 - 40].

"الْيُسْرُ: السُّهُولَةُ، وَعَدَمُ الْكُلْفَةِ فِي تَخْصِيلِ الْمَطْلُوبِ مِنْ شَيْءٍ. وَإِذْ كَانَ الْقُرْآنُ كَلَامًا فَمَعْنَى تَيْسِيرِهِ يَرْجِعُ إِلَى تَيْسِيرِ مَا يُرَادُ مِنَ الْكَلَامِ وَهُوَ فَهْمُ السَّامِعِ الْمَعْنَايَ الَّتِي عَنَّاهَا الْمُتَكَلِّمُ بِهِ بِدُونِ كُلْفَةٍ عَلَى السَّامِعِ وَلَا إِغْلَاقٍ كَمَا يَقُولُونَ: يَدْخُلُ لِلأُدْنِ بِلَا إِذْنٍ.

وَهَذَا الْيُسْرُ يَحْصُلُ مِنْ جَانِبِ الْأَلْفَاظِ وَجَانِبِ الْمَعْنَايَ فَأَمَّا مِنْ جَانِبِ الْأَلْفَاظِ فَلَذَلِكَ بِكُونِهَا فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ فَصَاحَةِ الْكَلِمَاتِ وَفَصَاحَةِ التَّرَاكِيِبِ، أَيْ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ، وَانْتِظَامِ مَجْمُوعِهَا، بِحَيْثُ يَخْفُ حِفْظُهَا عَلَى الْأَلْسِنَةِ.

وَأَمَّا مِنْ جَانِبِ الْمَعْنَايَ، فَبِوُضُوحِ انْتِزَاعِهَا مِنَ التَّرَاكِيِبِ وَوُفُورِ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ التَّرَاكِيِبُ مِنْهَا مِنْ مَعَايِرِ الْغَرَضِ الْمَسْوُوقَةِ هِيَ لَهُ. وَبِتَوْلُدِ مَعَانٍ مِنْ مَعَانٍ أُخَرَ كُلَّمَا كَرَّرَ الْمُتَدَبِّرُ تَدْبِيرَهُ فِي فَهْمِهَا، وَوَسَائِلُ ذَلِكَ لَا يُحِيطُ بِهَا الْوُصْفُ" (4).

وفي التذييل بالاستقهام التحضيضي، وتأکید الخبر باللام وحرف التحقيق تعريضاً بالمشركين الشاكين في هذا القرآن، المعرضين عنه (5).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِشُبَّيرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا

(1) تفسير الماوردي، (ج 6/156).

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 24/70).

(3) انظر: البسيط، الواحدي، (ج 22/502).

(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 27/188).

(5) انظر: نفس المرجع.

لُدًّا ﴿٧٧﴾ [مريم: 97]، أي: سهّلناه وأنزلناه ببلغتك<sup>(1)</sup>.

وأكثر من وصف القرآن بالميسّر وصفه بالعربيّ، حيث جاء هذا الوصف في ثنتي عشرة آية في كتاب الله الحكيم، وأول سورة في النزول تصف القرآن بالعربيّ سورة طه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿٧٧﴾ [طه: 113]، "فكونه عربيًّا لتفهّمه العرب فيقفوا على إعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر"<sup>(2)</sup>. وقد بيّن الله عزّ وعلا علّة عريّة هذا القرآن في غير ما آية في التنزيل الحكيم، ومن ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]، أي: لكي تفهموا معانيه وتطلّعوا على ما فيه من البدائع وتدرّكوا أنّه فوق طاقة البشر<sup>(3)</sup>.

وفي التعبير عن حصول العلم لهم بالعقل لطيفة دقيقة ففي هذا التعبير إشارة إلى أنّ دلالة القرآن قد بلغت من الوضوح والظهور حدًّا أن ينزّل من لم يحصل له العلم به منزلة من لا عقل له<sup>(4)</sup>.

ومما لا حظّه الباحث أنّ وصف القرآن بالعربيّ جاء فقط في سور العهد المكيّ، والظاهر في هذا أنّ المخاطبين بالقرآن أصالة في ذلك العهد هم العرب الأقباح فضلًا عن أهل مكة خاصة، فناسب أن يُبرّر لهم صفة العريّة التي بها تميّزوا، ومن خلالها أدركوا إعجاز القرآن.

أما في العهد المدنيّ فلم يرد وصف القرآن بهذا الوصف بل استمرّ وصفه بما وُصف به في العهد المكيّ من البيان والإبانة والتبيان وهذا ما يُناسب غاية نزول القرآن وحصول النفع به لكلّ البشر حيث بدأت الدعوة بالقرآن في العهد المدنيّ تتخذُ سبيل العموم والعالمية بخروجها إلى الأمم المحيطة بالعرب إذ ذلك.

وأكثر من هذا وذلك، أي من وصفه بالميسّر والعربيّ، وصفه بالإبانة، وقد جاء هذا الوصف بالألفاظ الآتية: (بيان - مبين - بينات - بينة - تبيان - مبيّنات).

وقد لاحظ الباحث كثرة وصف القرآن بالمبين في سور العهد المكيّ (تسع مرات)،

---

(1) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط 1، 1422 هـ، (ج 149/3).

(2) التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 103/22).

(3) انظر: تفسير أبي السعود، (ج 250/4).

(4) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 202/12).

وبالبيّنات (خمس مراتٍ)، في حينَ كانتِ الكثرةُ في العهدِ المدنيّ لوصفِهِ بالبيّناتِ (سبع مراتٍ)، وبالبيّناتِ (ثلاثَ مراتٍ)، في مقابلِ مرتينِ للمبينِ، أمّا (بيان) و(بينه) فوصفَ بها القرآنُ مرتينِ في كلٍّ من العهدينِ، ومرةً واحدةً لـ (تبيان)<sup>(1)</sup>، فما هي معاني تلك الأسماءِ ودلالاتُ طريقةِ توزيعها في آياتِ الكتابِ الحكيمِ؟

قال في الصحاح: "بان الشيء بياناً: اتّضح فهو بيّنٌ، وكذلك أبان الشيء فهو مُبينٌ. وأبنتُهُ أنا، أي أوضحتُه. واستبان الشيء: وضح. واستبنته أنا: عرفتُه. وتبين الشيء: وضح وظهر. والتّبيينُ: الإيضاح. والتّبيينُ أيضاً: الوضوح.

والبيان: ما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها، والتّبيان: مصدر: وهو شاذ لان المصادر إنما تجيء على التّفعال بفتح التاء. مثل التذكار والتكرار والتوكاف، ولم يجئ بالكسر إلا حرفان، وهما التّبيان والتّلقاء. وتقول: ضربته فأبان رأسه من جسده وفصله، فهو مبين<sup>(2)</sup>.

فالبيانُ يدورُ معناه على الوضوح والانفصالِ والدلالة التي يتضح بها الشيء.

ومن خلالِ استقراءِ وصفِ القرآنِ بالمبينِ وجدَ الباحثُ أنّه يأخذُ أصلَ المعنى اللغويّ أي: الوضوح والإيضاح، وهذا الوضوحُ والإيضاحُ يشملُ كلتا ناحيتيه أي: اللفظَ والمعنى، قال صاحبُ التحريرِ والتنويرِ عندَ قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: 1]، "فَالْمُبِينُ: اسْمٌ فاعِلٌ مِنْ أَبَانَ الْمُتَعَدِّي. وَالْمُرَادُ: الْإِبَانَةُ التَّامَّةُ بِاللَّفْظِ وَالْمَعْنَى"<sup>(3)</sup>.

ومما يؤكدُ هذا المعنى أنّ وصفَ (مبين) جاءَ مقترناً بالكتابِ ستّ مراتٍ، وبالقرآنِ مرتينِ، وباللسانِ العربيّ مرتينِ، فوصفَ الكتابِ بالمبينِ يدلُّ على وضوحِ المكتوبِ فيه من حيثُ لفظُهُ ومعناه، وكذلك وصفَ القرآنِ به يدلُّ على وضوحِ المقروءِ من حيثُ نطقُهُ ودلالتهُ، ووصفَ اللسانِ العربيّ بكونه مبيناً أي: يُفصِحُ عمّا جاءَ به ويوضّحُهُ.

وإلى ذلكِ نحا شيخُ المفسرينِ الطبريّ حيثُ اختارَ عمومَ الإبانةِ لما في القرآنِ من حلالٍ وحرامٍ وسائرٍ ما حوى من صنوفِ معانيه<sup>(4)</sup>.

(1) تجدر الإشارة إلى أن العلماء مختلفون في عدّ أسماء وصفات (بيان وبيّنات ومبين... إلخ) للقرآن الكريم بحسب اختلافهم في تفسير دلالتها على القرآن أو كون بعضها يدل على مطلق الحجج والبراهين أو كونهم مختلفين في إشارتها إلى القرآن أو الكتب السابقة.

(2) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري الفارابي، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط 4، 1407 هـ - 1987 م، (ج 5/2082-2083).

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 12/201).

(4) انظر: تفسير الطبري، (ج 15/550).

وقد سمى الله القرآن بياناً في قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(١)</sup>  
[آل عمران: 138]، فالبيان ظهور المعنى للنفس بكل مناحيه<sup>(١)</sup>.

وكذلك سمّاه تبياناً<sup>(٢)</sup> في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ  
وَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى  
لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]، وفي ذات نص الآية تُبين إضافة (كل) التي للعموم إلى شيء  
المنكّرة شمول هذا البيان لكل ما يحتاجه الإنسان في شؤون صلاح أحواله.

وعلى ما سبق من تقرير شمول إبانة القرآن لكلا جانبي اللفظ والمعنى يمكننا أن نقرّر  
مطمئنين أنّ إعجاز القرآن البيانيّ - والذي أُشْتُقُّ من هذا الوصف - لا يقتصر فقط على بناءه  
اللفظي من حيث تركيب وترتيب كلماته ونظمه بل يتعداه إلى ما يفيض من هذا النظم المعجز  
من معانٍ تشمل جميع نواحي الحياة الإيمانية والمادية والنفسية والتربوية والاقتصادية والسياسية  
والعلمية... إلخ.

فالإعجاز البيانيّ أوسع دلالة من الإعجاز اللغويّ أو البلاغيّ إذ منه تنبثق جميع وجوه  
إعجاز هذا البيان العظيم، وفي الحقيقة فإنّ هذا الموضوع يحتاج لمزيد بحث في موضع مستقلّ  
فليس غرضنا هنا تفصيله.

ومن لطائف ارتباط وصف القرآن بالعربيّ وبالمبين بروز هذا الوصف في سور تتابع  
ترتيبها في النزول وفي المصحف على نفس النسق، وهي سور: (الزمر - فصلت - الشورى -  
الزخرف - الدخان - الأحقاف)<sup>(٣)</sup>، وسرّ هذا التركيز على عروبة لسان القرآن ووضوح ألفاظه  
ومعانيه - فيما يظهر لي - أمران:

1- بدأ نزول هذه السور نحو السنة السابعة للبعثة حيث اشتدّ أذى المشركين على النبي ﷺ  
والمؤمنين معه حتى حاصروهم في شعب أبي طالب وهاجر منهم من هاجر إلى الحبشة

(1) انظر: التفسير البسيط، الواحدي، (ج 5/615).

(2) وقد اختار كونه اسماً تقي الدين ابن تيمية، انظر: مجموع الفتاوى، تقي الدين عبد الحلیم ابن تيمية، ت:  
عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية،  
1416 هـ - 1995 م، (ج 1/14).

(3) لم يرد في سورة غافر ذكر صريح لعربية وبيان القرآن، فالمقصود بالتتابع هنا أي تقارب زمن النزول مع  
توالي تلك السور نزولاً - وذلك في الفترة ما بين السنة السابعة والعاشرة للبعثة - وتواليها في ترتيب المصحف.

فراراً من شدة أذى المشركين<sup>(1)</sup>، وكأن الآيات تخاطبهم خطاب تعنيفٍ وتقرعٍ: أما كفاكم كل تلك البراهين على مر سني الدعوة؟ أما أن الأول أن تُقرؤا بما أثارته لغة القرآن المعجزة في نفوسكم من التصديق؟ إنّه - يا مشركي مكة - القرآن العربي المبين الذي نزل بلسانكم وعلى لغتكم فلم تجدوا أوضح منه بياناً ولا أبلغ لساناً ولا أقوم قبلاً فأففقوا من سباتكم.

2- وأمر آخر هو شبهة أثرت على القرآن في تلك المرحلة فقد عمدت قريش إلى التشويش على علو لغة القرآن بشبهة في غاية السخف حيث خلا وفاضهم من أدنى حجة فقالوا: لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعريباً<sup>(2)</sup> فنزلت آية فصلت: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ ﴿44﴾ [فصلت: 44]، فكان نزول هذه الآية رداً على تعنت الكفار في طلبهم<sup>(3)</sup> الذي لا ينطوي إلا على عناد تام ولجج لا مضمون له، فهم يدعون زوراً وبهتاناً أن القرآن أعجمي وهم عرب أفحاح لا يفهمون عجمة القرآن! فكان أن نزلت تلك السور المتتابعة تقرّر هذه الحقيقة التي بلغ المشركون بها مبلغاً لا يصدر إلا عن من أسقط في يده.

أما وصف هذا الكتاب المبين بـ(البيانات) فقد استقى معناه من المعنى اللغوي أيضاً حيث إن من معاني البيان في اللغة - كما مر أعلاه - " ما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها".

وقد ورد وصف (بيانات) بالمجمل في كتاب الله تعالى إحدى وخمسين مرة كلها تفيّد معنى الدلائل والبراهين والحجج الواضحات، سواء في الحديث عن الأدلة العقلية على الحقائق العقديّة الكبرى أو في الحديث عن المعجزات التي جاء بها الأنبياء، أو في وصف الكتب السماوية بهذا الوصف بما تضمّنته من حجج وبراهين، وقد اندرج وصف القرآن الكريم بـ(البيانات) في هذه المعاني.

وقد جاء أول وصف للآيات القرآنية بـ(بيانات) في سورة مريم في معرض وصف حوار بين المشركين والمؤمنين حول حال كلٍ منهم عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ

(1) يُنظر: سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطبوعي، ت: سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط 1، 1398 هـ / 1978 م، (ص 156-167 وما بعدها).

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 21/483).

(3) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي، (ج 24/246).

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ [مريم: 73]، "وسبب هذه الآية أن كفار قريش لما كان الرجل منهم يكلم المؤمن في معنى الدين فيقرأ المؤمن عليه القرآن ويبهره بآيات النبي عليه السلام، كان الكافر منهم يقول إن الله إنما يحسن لأحب الخلق إليه وإنما ينعم على أهل الحق ونحن قد أنعم الله علينا دونكم فنحن أغنياء وأنتم فقراء ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارة"<sup>(1)</sup>.

وفي هذا الردّ الجدليّ من المشركين على قوة حجج آيات القرآن التي أبهرتهم في واقع الأمر أكبر دليل على أن كفرهم إنما كان كفر عنادٍ ولججٍ إذ عدلوا عن مقارعة حجج القرآن إلى مبررات باهتة تتعلق بعرض هذه الدنيا.

وقد جاء معنى (بيئات) هنا شاملاً لجميع أنواع البيان والتبيين كما ذكر الزمخشري، قال: "بيئات أي: مرتلات الألفاظ، ملخصات المعاني، مبينات المقاصد... أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً. أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها. أو حججاً وبراهين"<sup>(2)</sup>.

وفي حوارٍ آخرٍ تسطره سورة يونس المكيّة تصكّ الآيات البيئات عقول الذين كفروا حتى تلجأهم إلى مهاترة هي أقبح من أختها التي في سورة مريم فيطلبوا من النبي ﷺ أن يُبدل هذا القرآن! وكان صدورهم قد ضاقت بحجج الحق الباهرات بعد طول مكث النبي ﷺ بدعوته وبتلك الآيات البيئات بين ظهرانهم، فما عادت نفوسهم المريضة بالشرك والهوى تطيق صوت الحق.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتُتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ [يونس: 15]، فالبيئات الواضحات الدالات على الحق<sup>(3)</sup>.

وحوارات القرآن بين المؤمنين والكافرين التي يكون فيها القرآن حجة المؤمنين بتلاوته على الكافرين، والتي يمكن أن نسميها حوارات (إذا تلتى) - وقد وردت خمس عشرة مرة في كتاب الله عز وجل - حري أن تُفرد بالبحث لاستنباط العبر والمنهجيات الحوارية مع الكفار منها.

**ثالثاً: توسع المدلول التنزيلي لـ(بيئات) في العهد المدني:**

وقد ازداد وصف القرآن بالبيئات في سور العهد المدني حيث توسع المدلول التنزيلي لهذه

(1) تفسير ابن عطية، (ج 4/28).

(2) تفسير الزمخشري، (ج 3/36).

(3) انظر: تفسير الطبري، (ج 15/40).

الكلمة ليدخل فيه حجج القرآن وبراهينه على أباطيل أهل الكتاب، وكذلك ليشمل بينات القرآن التشريعية من الأحكام التفصيلية التي اتسم بها العهد المدني.

فمن المعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: 99]، قال الطبري: " وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد صلى الله عليه وسلم من خفايا علوم اليهود ومكنون سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلمائهم - وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه، من أحكامهم التي كانت في التوراة. فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فكان، في ذلك من أمره، الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغي" (1).

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185]، فوصف القرآن بالبينات والتي من معانيها البيان الدال على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه (2).

ومنه قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: 1]، فهذه فاتحة سورة النور المشحونة بآيات الأحكام والتربية والفضائل، وعليه فالأظهر أن الآيات المذكورة في الآية هي آيات السورة، ومعنى وصفها بالبينات أي: وضوح دلالاتها على أحكامها وما تضمنته من الآداب والتشريعات (3).

ومن تلك الآيات قوله تعالى في سورة المجادلة بعد ذكر أحكام تتعلق بالأسرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: 5]، فمن معاني المحادة في هذه الآية وضع حدود وقوانين غير حدود الله (4)، وعليه فيشمل البيان الموصوف به الآيات معنى دلالاتها على حقائق حدود الله (5).

(1) تفسير الطبري، (ج 2/397).

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 3/448).

(3) انظر: تفسير أبي السعود، (ج 6/155).

(4) انظر: حقائق الروح والريحان، الهري، ج 29، ص 28.

(5) انظر: تفسير الطبري، (ج 23/235).

ومما لاحظتهُ الباحثُ اختصاصَ العهدِ المدنيِّ بوصفٍ مشتقٍّ من البيانِ والبيِّناتِ هو (مُبيِّنات) على اسمِ الفاعلِ أو المفعولِ على خلافٍ في قراءتها بينَ القُرَّاءِ - كما سنرى -، وقد وردت ثلاثَ مراتٍ في سورتي الطلاقِ (مرة)، والنورِ (مرتين).

(مُبيِّنات) بالكسر قرأها حيثُ وقعت ابنُ عامرٍ وحفصُ عن عاصمٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفُ العاشرُ، وفتحها باقي العشرة<sup>(1)</sup>.

بانَ الشيءُ: اتضح، وكذلك أبانَ لازمٌ ومتعدٍ، وتبيَّنَ الشيءُ وبَيَّنَ لازمٌ، وكذلك كلاهما يتعدى<sup>(2)</sup>.

وعليه فإنَّ (مُبيِّنات) بالفتح أي: بإسنادِ البيانِ إلى الله، الموصَّحاتُ المفسَّراتُ التي لا لبسَ فيها<sup>(3)</sup>.

أما بالكسرِ (مُبيِّنات) فبإسنادِ الفعلِ إلى نفسِ الآياتِ، وهي - على تقديرِ تعديها - تقتصرُ إلى تقديرِ مفعولٍ فيقالُ: آياتٌ مُبيِّناتٌ الحلالِ والحرامِ والأحكامِ وكلِّ ما يقتضي نزولها بيانه<sup>(4)</sup>.

وبالجمعِ بينَ القراءتينِ يظهرُ لنا أنَّهما متكاملتانِ فهما يفيدانِ معاً أنَّ هذه الآياتِ واضحةٌ في ذاتها موضحةٌ معانيها وما تضمنته لمن يتلقاها، فهي لشدةِ بيانها أصبحت هي بذاتها تُبيِّنُ لمن تدبَّرها طرقَ الصوابِ<sup>(5)</sup>، فلماذا استعملت هذه الصيغةَ خاصةً في تينِكَ السورتينِ؟

من المعلومِ أنَّ سورتي الطلاقِ والنورِ من سورِ الأحكامِ التي اُكْتُبَتْ بمجموعةٍ وافرةٍ من الأحكامِ الشرعيةِ التفصيليةِ التي يناسبها تأكيدُ البيانِ والتبيينِ والوضوحِ والتفصيلِ، فهي أحكامٌ تُنَاطُ بها مصالحُ العبادِ فوجبَ كونُها مبيَّنةً واضحةً، مبيَّنةً ما فيها للناسِ.

ويردُ على هذا التوجيهِ سؤالٌ: سورُ الأحكامِ لا تتحصَّرُ في هاتينِ السورتينِ فلو كانَ هذا التوجيهُ دقيقاً لوجبَ انطباقُهُ على كلِّ سورِ الأحكامِ، وهذا قطعاً غيرُ موجودٍ.

---

(1) انظر: تحبير التيسير في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، ت: د. أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان - الأردن / عمان، ط 1، 1421 هـ - 2000 م، (ص 481).

(2) انظر: الصحاح للجوهري، (ج 5/2083).

(3) انظر: الحجة في القراءات السبع، الحسين ابن خالويه، ت: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق - بيروت، ط 4، 1401 هـ، (ص 121).

وانظر: حجة القراءات، أبو زرعة ابن زنجلة، ت: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، (ص 498).

(4) نفس المرجع.

(5) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 13/270).

أقول - والله أعلم - إن نظرة تدبرية عميقة لهاتين السورتين خاصة تجعلك تلمحُ ناظماً مشتركاً بينهما هو حديثهما عن الأحكام التشريعية الخاصة ببيوت الناس من داخلها وما يكتنفها من أحكام العفة واللباس والاستئذان وما يكون فيها من مشاكل أسرية قد تصل إلى الطلاق، ومثل هذه الأحكام تكتنفها أهواء كثيرة وتدق فيها أحكاماً قد تختلط على عقلاء الناس فضلاً عن عوامهم، فكان من حكمة الله ورحمته أن فصل وبين أحكامها تفصيلاً لا يدع مجالاً لريب، فجاءت آياتها بيّنة مبيّنة ما قد يدق أو يخفى ويلتبس.

هناك، (آيات بيّنات) أي: واضحات مفسّرات، وهنا (آيات مبينات مبيّنات) أي: واضحات تزيد الوضوح إيضاحاً بإيصال بيانها بشدة وضوح لفظها إلى متدبرها.

وكما بدأ وصف القرآن بالوصف المشتق (مبين) في سورة يس ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 69] فقد ختم به التنزيل المبين في أواخر آياته في العهد المدني في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 15]، وكان في هذا الترتيب البديع إشارة تسري في آيات هذا القرآن المبين كلها بأنه مبين واضح مبين لا غموض فيه ولا التباس فهو المبين من فاتحته إلى خاتمته.

#### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- في ختم معجزات الأنبياء بهذه المعجزة الخالدة المغايرة في طريقها لكل المعجزات بكونها معجزة عقلية فكرية علمية لغوية إشارة واضحة وضرورة حتمية على ما للعلم من أهمية قصوى في حياة هذه الأمة فضلاً عن كل الأمم، فإن من أراد أن يتعلم هذا القرآن وجب عليه أن يتعلم لغته، وكلما أراد أن يرتقي في تعلمه وتعلقه بهذا القرآن وجب عليه أن يستقي أكثر من كل العلوم الموصلة إلى إدراك حقائقه وأسراره.

2- من أقوى ما يربط الإنسان بالقرآن إدراك إعجازه البياني، وهذا لا يكون إلا بتعلم اللغة وأوضاعها البلاغية، فينبغي على المسلمين أن يولوا علوم اللغة عامة وعلوم البلاغة خاصة أهمية أولى في تعليم أبنائهم كي ينشأوا على التعلق بهذا القرآن المبين وكي يتمكنوا من تذوق إعجازه وحلاوته، ومما يلاحظ تهاون كثير من البلدان الإسلامية اليوم بهذه العلوم وتوجههم إلى علوم اللغات الأخرى تأثراً بهيمنة الغرب مما يندّر بنشوء جيل أكثر انفصلاً عن لغة كتابه، أكثر بعداً عن مصدر عزه.

3- ينبغي أن يُعلم أن من أمارات إعجاز هذا القرآن - ورغم علو أسلوبه وجزالة لفظه - أنه

مُيسَّرٌ سهلُ الوصولِ إلى قلبِ سامعِهِ لفظاً ومعنى، وفي هذا دعوةٌ لكلِّ الدعاةِ بالقرآنِ  
ألا يتخرجوا من تلاوتهِ مباشرةً على مَنْ يدعونهم به فإنَّ القرآنَ يجدُ سبيلَهُ إلى قلوبِ  
مستمعيهِ كما يجدُ الوليدُ سبيلَهُ إلى ثديِ أمِّهِ، وكم من أناسٍ أسلموا بمجردِ استماعِهِم  
إلى هذا القرآنِ المبينِ ودونك قصةُ إسلامِ النجاشيِّ مثلاً على هذا<sup>(1)</sup>.

---

(1) يُنظر: السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام المعافري، ت: مصطفى السقا وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة  
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1375 هـ - 1955 م، (ج 1/336).

## المبحث الثاني: المنهجية المتدرجة لربط الإنسان بالقرآن في العهد المكي

اعتنى القرآن أيما اعتناء بإنشاء علاقة قوية متينة بينه وبين من نزل عليهم هذا الذكر الحكيم، فإنما حياة الفرد ومن ثم حياة الجماعات والأمم لا تستقيم ولا تثمر إلا بنشوء علاقة اندماج وتفاعل بين الروح السماوي والروح الإنساني، بين كلام الله الذي هو روح من أمره وبين روح الإنسان التي هي مكنن طاقته وأثره.

ولما كانت هذه الروح مخلوقةً مجعولةً في جسدٍ طينيٍّ تتنازعُهُ الشهواتُ المادية وتعصفُ به الأهواءُ الدنيوية فتتأثرُ به سفلواً وعلواً كان من رحمة الله بالإنسان الذي خلقه بيديه أن تدرج معه في التقويم وترقى معه في التربية والتعليم حتى يُقوِّمَ اعوجاجَ نفسه دون أن تقصُرَ عن السموِّ لقوة ارتباطها بالطين، ولا تشدَّ في العلوِّ لسرعة اندفاعها في هذا الدين المتين، وقد تجلَّى المنهجُ القرآنيُّ التدرُّجيُّ في تنزُّلِ هذا القرآنِ نجومًا متفرقاتٍ على طولِ مكثِ النبي ﷺ نبيًّا في هذه الأرضِ بحسبِ وقائعِ السيرةِ وأحوالِ الناسِ واستعداداتهم النفسية للانسلاخ من الجاهلية بكلِّ مظاهرها والارتقاء في المعارج الربانية بكلِّ معاليها.

ولما كان القرآن العظيم هو غذاء هذه الروح المحركة لهذا الجسد بكلِّ حسنٍ محمودٍ على هذه الأرض اقتضت حكمته جلَّ وعزَّ أن يتدرج في بناء علاقة متينة بين هذا الإنسان الذي هو خليفته على أرضه وبين كلامه الذي هو منهجه على بسيطته، فنزلت آيات القرآن تترأ متدرجاتٍ من لدن (اقرأ) إلى خواتيم البقرة تعالج هذه النفس وتؤسس فيها مكامن عبوديتها التامة لربها بدءاً بالأهمِّ لصلاحها فالمهم حتى ما كاد الوحي الغض ينقطع عن هذه الأرض حتى نشأ من مشكاة الوحي والنبوة جيلٌ قرآنيٌّ فريدٌ قد استقام بالقرآن وأقام الدنيا كلها به.

ومن خلال تتبع الباحث للتدرج التنزلي لآيات القرآن التي تُعنى بربط الإنسان بهذا المنهج السماوي وقف على أولويات الوحي الإلهي في بناء هذه العلاقة وسماتها وارتباطها بنشوء الجماعة المسلمة مذ أخرجت شطأها فأزر بعضه بعضاً فاستغلظ حتى استوت على سوقها.

وسيعرض الباحث تلك المنهجية المتدرجة بحسب التنزُّل المكي للوقوف على سمات المرحلة المكية من بناء الفرد والجماعة المسلمة ثم يُنتهي على المرحلة المدنية في المبحث الذي يليه.

## المطلب الأول: القرآن والعلم

كانت أول كلمات الوحي الذي افتتح به هذا النور المستبين للبشر أجمعين، وبدأ به هذا المنهج القويم والسفر المبين كلمات (اقرأ) و(العلم) و(القلم)، في أوضح وأعظم دلالة على ركنية

وأهمية العلم في تحقيق منهج الله على هذه الأرض، فتلك الآيات الخمس الأولى كانت بمثابة العنوان للقرآن كله<sup>(1)</sup>، وكأنها تقول لمن يطلب الارتباط بهذا القرآن لا سبيل إلى بناء علاقة متينة مع هذا الكتاب الناطق بالعلم إلا بالعلم، لا سبيل إلى تلقي هذا القرآن إلا بالقراءة، لا سبيل إلى فهم هذا الكتاب إلا بالعلم والتعلم، وسنقف على تجليات هذه المعاني من خلال السؤالين الآتيين:

أولاً: ما المأمور بقراءته؟

لا ريب أن المأمور بقراءته في أول كلمة نطق بها الوحي الرباني (اقرأ) هو هذا القرآن العظيم، أو بعض آياته<sup>(2)</sup>، وعليه فإن المنهج القرآني في ربط الإنسان بالقرآن ابتداءً مع أول كلمة من سبب كلمات هذا الوحي المبين، موجهاً هذا الإنسان إلى هذا القرآن بأن يُقبل عليه وينهل من معينه الذي لا ينضب.

وهنا أداة منهجية لطيفة تبرز في تكرار الأمر بالقراءة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿١﴾ أَلْقِمْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٢﴾﴾ [العلق: 1-3]، فقد كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير، لأن القراءة لا تكسبها النفس ولا تتعود عليها إلا بالتكرير والمراجعة مرة بعد مرة<sup>(3)</sup>.

ومما يؤكد هذا المعنى أن من معاني دخول الباء على (اسم ربك) الدلالة على الملازمة والتكرير، فالعرب تقول: أخذت بخطام الناقة للدلالة على دوام هذا الفعل وتكريره، ولو قالوا أخذت خطام الناقة لدل على مجرد الأخذ<sup>(4)</sup>.

وفائدة أخرى هي أن إعادة القراءة للمقروء تستلزم إنعام النظر وإعمال الفكر واستكشاف المكنون بين ثنايا هذا المقروء، وهذا ما يليق بالكلية مع كلام الله المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تقنى معانيه<sup>(5)</sup>.

- 
- (1) انظر: الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، (ج 3/364).
- (2) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 5/501). وانظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 32/215). وانظر: حدائق الزّوج والريحان، (ج 32/148).
- (3) انظر: حدائق الروح والريحان، (ج 32/154).
- (4) انظر: التلخيص في تفسير القرآن العزيز - تفسير الكواشي -، أحمد بن يوسف الكواشي، دار البشير، الشارقة - دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1440 هـ، (ج 4/565).
- (5) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله بن محمود النخشواني - المعروف بالشيخ علوان، دار ركابي للنشر - الغورية، مصر، ط 1، 1419 هـ - 1999 م، (ج 2/519).

## ثانياً: لماذا (الذي خَلَق)؟

قد يتعجب مَنْ يقرأ هذه الآياتِ للوهلةِ الأولى من حديثها عن قضيةٍ من دقائقِ قضايا الخلقِ والتكوينِ ألا وهي المراحلُ الأولى لخلقِ الإنسانِ وتكوينه في رحمِ أمِّه، وهي أولُ آياتِ الوحيِ على الإطلاقِ، معَ أنَّ مقامَ التنزيلِ قد يقتضي ذكرَ صفةِ اللهِ العليمِ أو مُنزلِ الكتابِ أو المتكلِّمِ به.

يذكرُ المفسرونَ وجوهاً لذكرِ الخلقِ والقدرةِ في هذا السياقِ هي:

- أنه من كانَ قادراً على خلقِ الإنسانِ من هذا الدمِ الجامدِ فيجعلهُ سميعاً بصيراً لقادرٌ على أن يجعلَكَ يا محمدُ تقرأ القرآنَ بعدَ أن لم تكن قارئاً<sup>(1)</sup>.
- وأنه ذكرَ خلقَ الإنسانِ بعدَ الأمرِ بقراءةِ القرآنِ تنبيهاً على أنَّ اللهُ تعالى خلقَهُ للقراءةِ والدرايةِ<sup>(2)</sup>، ولأنَّهُ هو المُشرفُ بنزولِ هذا القرآنِ إليه<sup>(3)</sup>.
- وكما نقلَ اللهُ الإنسانَ من حالٍ إلى حالٍ في مراحلِ الخلقِ فهو قادرٌ على أن ينقلَكَ من حالِ الجهالةِ إلى حالِ العلمِ والنبوةِ<sup>(4)</sup>.
- ولما ذكرَ اسمَ الربِّ المستوجبَ لربوبيَّتِهِ سبحانه ذكرَ بعدهُ الخلقَ استدلالاً على أنَّ الذي أوجدَكَ يا ابنَ آدمَ من عدمٍ هو وحدَهُ الخالقُ المستحقُّ للعبادةِ<sup>(5)</sup>.
- ولما كانتِ العربُ تسمي الأصنامَ أرباباً أتى بالصفةِ التي لا يمكنُ شركةَ الأصنامِ فيها وهي صفةُ الخلقِ<sup>(6)</sup>.

هذا مجملُ ما ذكرهُ المفسرونَ من التعليقاتِ اللطيفةِ الواقعةِ موقعاً حسناً في بيانِ علةِ ذكرِ

---

(1) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 454/15).

(2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألويسي، ت: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415 هـ، (ج 401/15).

(3) انظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب - حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، الإخراج العام للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط 1، 1434 هـ - 2013 م، (ج 511/16).

(4) انظر: تفسير الماوردي، (ج 305/6).

(5) انظر: تفسير الرازي، (ج 216/32).

(6) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ، (ج 507/10).

الله بصفة الخلق عموماً وخلق الإنسان خصوصاً في سياق الأمر بالقراءة.

قلت: وهناك علة أخرى لطيفة دقيقة نزيدها على ما سبق، فلإن كان الأمر بالقراءة أصالةً للنبي ﷺ فإن هذا الأمر يدخل فيه كلُّ مقتدٍ بالنبي ﷺ، مخاطبٍ بهذا القرآن، فقد تعدى الأمر بالقراءة إلى مفعوله أو حاله - على خلافِ بينِ المفسرين<sup>(1)</sup> - بحرف الجرِّ الباء، ومعنى هذه التعديّة أي: اقرأ "متلبساً باسم ربك، أو مستعيناً باسم ربك، أو مفتتحاً باسم ربك، أو متبركاً باسم ربك، أو مبتدئاً باسم ربك؛ ليتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء"<sup>(2)</sup>.

ولمّا كان اسمُ الربِّ هنا مقترناً بصفة الخلق فإننا يمكنُ أن نفهمَ أنّ الآيةَ تعقدُ مزوجةً بينَ قراءةِ القرآن والنظرِ في بديعِ صنعةِ الرحمنِ في هذا الكونِ، أي: مزوجةً بينَ الكتابِ المسطورِ والكتابِ المنظورِ، فإنَّ القراءةَ الحقَّةَ للقرآنِ تقودُ إلى إدراكِ عظمةِ الخالقِ في ما خلقَ في هذا الكونِ، والعكسُ بالعكسِ، فإنَّ نظراً وتأملاً في هذا الكونِ وبديعِ صنعتهِ يقودُ إلى معرفةِ الخالقِ والانكبابِ على قراءةِ كتابهِ وتدبيرهِ.

وبعبارةٍ أخرى، فإنَّ قراءةً صحيحةً لكتابِ الله المسطورِ تقودُ إلى النظرِ في مخلوقاتِ الله والسيرِ في الأرضِ لاكتشافِ خبايا وأسرارِ هذا الكونِ العظيمِ فإنَّ الإنسانَ ما خُلِقَ ليرهبَ في صومعةٍ أو ينكبَّ على فتاتِ دنيا زائلٍ، وإنما خُلِقَ ليعبدَ اللهَ العبادةَ الحقَّةَ بتوحيدهِ وبالنظرِ في كونهِ لاستنطاقِ مكنوناتِ أسرارِهِ وتحقيقِ الاستخلافِ الحقيقيِّ بالعلمِ النافعِ، ويعضدُ ما نقولُ أنّ تلكَ الآياتِ ما نزلت على رسولِ الله ﷺ إلا وهو منقطعٌ عن جوِّ الشركِ واللّهوِ في مكة، متحنّثٌ في غارِ حراءٍ ينظرُ في بديعِ صنعةِ الخالقِ في هذا الكونِ الفسيحِ ويتأملُ عظمتَهُ سبحانه في مخلوقاته.

وبكلماتٍ أخرى: القراءةُ الحقَّةُ للقرآنِ ينبغي أن تقضي إلى زيادةِ العلمِ، وزيادةِ العلمِ ينبغي أن تقضي إلى زيادةِ قراءةِ القرآنِ، وهكذا تتحقّقُ هذه المزوجةُ والاقترانُ العظيمُ.

ومما يؤكدُ هذه المزوجةَ أنه تعالى وصفَ نفسهُ بـ(الأكرمِ الذي علّمَ) بالقلمِ، فأتى بصيغةِ (أفعل) للدلالةِ على الكمالِ في زيادةِ الكرمِ، ثم أتبعهُ بقوله (علّمَ بالقلمِ، علّمَ الإنسانَ ما لم يعلم) فذكرَ حالَ هذا الإنسانِ ببدءِ خلقِهِ من علقَةٍ وانتهاءً بصيرورتهِ عالماً، فدلَّ على أنه ليس بعد التكرّمِ بإفادةِ العلمِ تکرّم<sup>(3)</sup>.

(1) يُنظر: الدر المصون، السمين الحلبي، (ج 55/11).

(2) حقائق الروح والريحان، (ج 150/32).

(3) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف - فتوح الغيب، (ج 512/16).

ثم تتابع نزول الآيات التي تحمل الإشارات العلمية الجمّة في هذا الكتاب المبين، لكن ما سنقف عليه منها ما يتصل بموضوع بحثنا، وهي الآيات التي تبيّن منهج القرآن في ربط هذا الإنسان به.

فتلت آيات العلق آية سورة طه: ﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

وللمفسرين في معنى تعجل النبي ﷺ بالقرآن ثلاثة أقوال:

- الأول: تعجله في حفظ ما ينزل إليه خشية أن ينساه، وهذا نظير قوله تعالى في القيامة: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١٦] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ [القيامة: 16-19].
- الثاني: تعجله ﷺ في بيانه للناس قبل أن يبين الله له معاني ما أوحاه إليه<sup>(1)</sup>.
- الثالث: تعجله ﷺ بالرغبة في الإكثار من نزول القرآن واستيفاء جميعه لشدة حرصه على صلاح أمته وعظمتها وتحصيل ما ينفعها<sup>(2)</sup>.

ولأن كان أكثر المفسرين قد ذهبوا إلى القول الأول وهو تعجل التلاوة فإن الباحث يميل إلى القول الثالث الذي اختاره الإمام ابن عاشور لأسباب تنزلية وسياقية:

1- من المعلوم عند علماء تاريخ نزول القرآن أن سورة القيامة التي تضمنت ذات النهي الظاهر في هذه الآية هي أسبق نزولاً من سورة طه، وقد تكفل الله في تلك الآيات بجمع القرآن في قلب النبي ﷺ وقراءته ونهاه بالتالي أن يعجل بلسانه في تلاوة القرآن حال نزول الوحي، ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١٦] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ [القيامة: 16-19]، فلا يتصور من رسول الله ﷺ أن يعود إلى الانشغال بمساوقة الوحي في التلاوة بعد أن قضى الله له هذا الأمر من قبل، وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن السورة التي نزلت في تعجل النبي ﷺ بالتلاوة سورة القيامة<sup>(3)</sup>، فيترجح بناءً

(1) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، 1432 هـ - 2011 م، (ج 5/602).

(2) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 16/316).

(3) انظر: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون - تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصوليين العظميين - الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة - على فهم الصحابة والتابعين، مأمون حموش، الناشر: (المؤلف، ط 1، 1428 هـ - 2007 م، (ج 5/56)).

على هذا حمل معنى آية سورة طه على التعجّل باستيفاء النزول سيما أنّ مفعول التعجّل هنا محذوف لا كما في القيامة التي نصت على تحريك اللسان.

2- أما من جهة السياق فإنّ تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] يتناسب مع معنى تعجّل البيان واستيفاء جميع القرآن فإنّ طلب زيادة العلم ظاهر الاتصال بهذا المعنى.

ويؤيد هذا المعنى ما نقل عن مقاتل وابن السائب في معنى الاستزادة من العلم: قال: أي زدني قرآناً<sup>(1)</sup>.

ثمّ تلت آية طه آية سورة سبأ ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6]، ثمّ آية العنكبوت ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 49]، وكلتا الآيتين تربطاً ربطاً بيئياً بين العلم والقرآن.

فأية سبأ تذكر "حالة الموقّنين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه، فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه ﴿يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها، لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه<sup>(2)</sup>.

وآية العنكبوت - على تفسير عود الضمير (هو) فيها إلى القرآن، وهو قول الحسن<sup>(3)</sup> - ربطت أيضاً بين آيات القرآن البيّنات الواضحات وبين أهل العلم، سواءً غنيّ بهم أهل الكتاب أو

---

(1) انظر: رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، عز الدين عبد الزازق بن رزق الله الرّسّعني الحنبلي، ت: أ. د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة الأسد، مكة المكرمة، ط 1، 1429 هـ - 2008 م، ج (572/4).

(2) تفسير السعدي، (ص 675).

(3) انظر: تفسير الطبري، (ج 52/20).

المؤمنون على عهد النبي ﷺ (1).

ونخلص في ختام هذا البيان إلى العود على البدء بتأكيد النتيجة التي قررناها في آيات سورة العلق بانعقاد المزاجية بين القرآن والعلم، فكلما ازداد الإنسان طلباً للقرآن ازداد طلباً للعلم والعكس بالعكس؛ فالزيادة الحقيقية في العلم هي الزيادة في فهم القرآن (2).

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- غني عن الذكر ما للعلم من أهمية قصوى في صلاح الحياة على وجه هذه الأرض، ولذا تنزلت به وبأدواته أول آيات الوحي الإلهي، ولكن الذي ينبغي أن يُذكر في هول من العجب انفصام أمة الإسلام، أمة اقرأ عن العلم مما جعلها تتقهقر إلى ذيل قافلة الأمم، فنشأ عن هذا الفصام كل تشردم وجهل وفقير يعصف بأمتنا اليوم، ولذا فإن أعظم درس ينبغي أن يقر في قلوب كل المصلحين اليوم هو ضرورة السعي الحثيث إلى إقامة العلم منهجاً أصيلاً في حياة أبناء هذه الأمة وتوفير كل السبل لنشره والحث عليه واستثارة العقول كي تُبدع وتكتشف وتبتكر وترتقي إلى مصاف الأمم الرائدة بل تفوقها بما حباها الله من الإيمان.

2- تتجلى من خلال أول كلمات السورة حقيقة عظيمة هي أن أعلى وأعظم وأولى العلوم على الإطلاق معرفة خالق هذا الكون بالنظر في بديع صنعته في مخلوقاته ابتداءً بنظر الإنسان في عجائب نفسه وانتهاءً بأرجاء هذا الكون الفسيح، وهنا توجيه لكل المؤسسات العلمية والتربوية بضرورة التركيز في تعليم أبناء هذه الأمة على آيات الله في الكون وربطها بعظمة الخالق كي ينشأ الفتى المسلم على حب وتعظيم وتوقير الله بالشواهد العلمية العملية والتي هي من أقوى وأثبت البراهين على وجود وعظمة الخالق، ومما لهذه التنشأة من أثر بارز في التزام المسلم وعلو دافعيته لطاعة خالقه.

3- تكرر قراءة القرآن بحيث يرد المسلم على هذا النبع المعين المتدفق بالفوائد وروداً لا يُعدُّ به منقطعاً عن تلاوته، منهج قرآني أصيل برز مع أول كلمات الوحي، فينبغي على كلٍ مربٍ أن يُنشئ أبناءه على النَّهْل من هذا القرآن العظيم وأن يعودهم على تلاوته بحيث تصبح تلاوة القرآن ديناً لا تقوى النفس على هجرانه.

4- ترشدنا المزاجية بين قراءة القرآن والنظر في مخلوقات الله إلى ضرورة بناء مناهج علمية

(1) انظر: البسيط، الواحدي، (ج 17/541-542).

(2) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 12/353).

تنتقل من آيات القرآن الكريم في الحديث عن مخلوقات الله - وهي كثيرة جداً - بحيث تربط الطالب منذ نعومة أظفاره بالقرآن من جهة وبالعلم من جهة أخرى فيدرك أنه كلما ازداد تلاوة حقة للقرآن ازداد علماً والعكس بالعكس.

5- على مستوى الطلب والهمة والدعاء، رأينا كيف علم الله رسوله سؤاله الزيادة في العلم رغم أن النبي ﷺ قد وعى بنزول القرآن عليه وبكونه أعلم الخلق بالله وبكتابه أعلى مراتب العلم من الله وهو العلم اللدني، ورغم ذلك فإن الله يقول له لا تتوقف عن سؤال ربك الاستزادة من العلم، وفي هذا إشارة بليغة إلى أن طلب العلم لا يحده حد مهمما علا الإنسان في مراقبي العلم والعلماء، ولذا وجب توجيه أنظار أبناء هذه الأمة إلى هذا المعنى كي تمتلئ قلوبهم شغفاً بطلب العلم ولا تقتتر ألسنتهم عن سؤال ربهم أن يعلمهم ويزيدهم علماً، تلك الحالة التي اتصف بها نبيهم المعلم الأول ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً..."<sup>(1)</sup>.

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "منهُومان لا يشبعان: منهُوم في علم لا يشبع، ومنهُوم في دنيا لا يشبع"<sup>(2)</sup>، فتأمل فرط البون بين المنهومين، وموقع أمتنا بين الصنفين!؟

### المطلب الثاني: الدعوة بالقرآن هي المقصد الأول

دلت الآثار الصحيحة على أن السورة التي تلت سورة اقرأ في النزول هي سورة المدثر<sup>(3)</sup>، وذلك بعد فترة الوحي، وقد حدثت بذلك جابر رضي الله عنه عند البخاري<sup>(4)</sup>.

بدأت هذه السورة بنداء للداعي الأول صاحب الرسالة ببيان حكمة هذه الرسالة أمره إياه

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، محمد بن يزيد القزويني، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط 1، 1430 هـ - 2009 م، أبواب السنة، باب الإنشاع بالعلم والعمل به، (ج 1/168)، رقم الحديث: (251). قال محقق الكتاب: هذا إسناد ضعيف ولكن له شاهد حسن من حديث أنس بن مالك عند الطبراني في "الدعاء" (1405)، والحاكم 1/ 510، والبيهقي في "الدعوات" (210).

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه: المستدرک على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1411 هـ - 1990 م، كتاب العلم، (ج 1/169)، رقم الحديث: (312). قال الذهبي: على شرطهما ولم أجد له علة.

(3) انظر: صحيح السيرة النبوية (السيرة الذهبية)، الطرهوني، (ج 1/370)، حاشية رقم 337.

(4) انظر: صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط 3، 1407 هـ - 1987 م، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، (ج 1/5)، رقم الحديث: (4).

بالجدِّ والاجتهادِ في النذارة، ﴿يَأْتِيهَا الْمُدْتَرِّبُ ١﴾ ثُمَّ فَأَنْذِرْ ٢ وَرَبِّكَ فَكَثِيرٌ ٣ وَيَتَابَكَ فَظَهَرَ ٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥ وَلَا تَمُنْ بِتَسَكُّرٍ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧﴾ [المدر: 1-7]، فموضوعها الأول ومقصودها الأعظم الدعوة إلى الله ودينه<sup>(1)</sup>، وأداة الإنذارِ هذا القرآن الذي بدأت آياته في النزولِ تباعاً بدءاً بهذه السورة، وقد بيّنت آياتُ الكتابِ العزيز أن هذه الأداة الشريفة هي أهمُّ وأولى أدوات الإنذارِ في مواضع كثيرة منه تباعاً بحسبِ النزولِ في المرسلات والأعرافِ ويس والفرقانِ ومريم والشعراء والقصص والأنعامِ وغافرِ وفصلت والشورى والزخرف... إلخ.

ومن تلك البيانات القرآنية فاتحة الأعراف: ﴿الْمَص ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 1-3]، فقوله (لِتُنذِرَ) متعلقٌ إما بالإنزالِ بياناً لعلته أو بالنهي على إضمارِ (أَنْ تُنذِرَ) لأنه إن لم يخفهم أنذرهم<sup>(2)</sup>، ومرجع الضمير في (به) إلى هذا الكتاب المنزل، فجمعت الآية بين بيان العلة التي لأجلها أنزل الله القرآن وهي البلاغ والدعوة وبين بيان أداة هذا البلاغ وهي القرآن العظيم.

ومن تلك الآيات الصريحة في بيان تلك العلة والأداة معاً قوله تعالى في الأنعام: ﴿قُلْ أُنذِرُكُمْ لِكَبْرِ شَهَادَةٍ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٦﴾ [الأنعام: 19]، أي: لأنذركم به أيها الموجودون في زمان الرسول ﷺ ومن بلغه هذا القرآن إلى يوم القيامة<sup>(3)</sup>.

ونظائر هاتين الآيتين مستفيضة في كتاب الله عزّ وعلا.

ولمركزية أمر البلاغ والدعوة بالقرآن الكريم استمرت الآيات تأمر وتذكّر به حتى أواخر السور نزولاً سورتي المائدة والتوبة، - وهما آخر ما نزل من السور<sup>(4)</sup> - ففي المائدة يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ١٧﴾ [المائدة: 67]، فهذا أمرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ ببلاغ ما

(1) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 39/21).

(2) انظر: الكشاف، الزمخشري، (ج 86/2).

(3) انظر: تفسير البيضاوي، (ج 157/2).

(4) انظر: الإتيقان في علوم القرآن، السيوطي، (ج 43/1 وما بعدها).

أنزل الله إليه وتحذير له إن قصرَ عن بلاغِ آيةٍ بأن يكونَ على ذنبٍ عظيمٍ وكأنَّه لم يبلغَ من كتابِ الله شيئاً<sup>(1)</sup>.

وفي التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(2)</sup> هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾<sup>(3)</sup> [التوبة: 32-33]، فإرسالُ الرسولِ لإظهارِ الدينِ، وقد تمَّ في عهدِ نزولِها النورُ وظهرَ الدينُ.

وتلحظُ معنَى لطيفاً في استهلالِ الموضوع - أعني موضوعِ الدعوةِ بالقرآن - واختتامه، فهناك في المدثرِ التي هي أولُ ما نزلَ في شأنِ الدعوةِ أمرٌ عامٌّ بالإندارِ، ثمَّ استمرَّ هذا الإندارُ وتلكَ الدعوةُ بالقرآنِ، حتى نصلَ إلى هنا، آخرِ ما نزلَ فيختتمُ القرآنُ بالحالِ الذي نشأَ عن ذلكَ الأمرِ ألا وهو الظهورُ، ظهورُ هذا الدينِ وتمامُ هذا النورِ، فبدأً بالدعوةِ وانتهى بالظهورِ، بدأً بالوسيلةِ فأثمرتَ النتيجةَ، وكأنَّها تقولُ لكلِّ داعٍ اتخذَ القرآنَ وسيلتهُ في الدعوةِ إلى مُنزلِهِ أَنْكَ لَا ريبَ تبلغُ الظهورَ والتمامَ لهذا الدينِ إن اتخذتَ الهدى والنورَ وسيلةً لك في دعوتِكَ.

وقد برزت هذه الأهميةُ القصوى للبلاغِ أيضاً في حياةِ النبيِّ ﷺ وفي أحاديثه والتي منها حديثُ عبدِ الله بنِ عمرو عن النبيِّ ﷺ: "بَلِّغُوا عني ولو آيةً... الحديث"<sup>(2)</sup>، وحديثُ زيدِ بنِ ثابتٍ عن النبيِّ ﷺ: "تَصَرَّ اللَّهُ امرأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرَبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ غَيْرَ فَقِيهِ، وَرَبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ"<sup>(3)</sup>.

ولذلكَ كانَ من اللطائفِ التفسيريةِ لمعنى (المدثر) في أولِ آياتِ البلاغِ المتدثرِ بالنبوةِ والكمالاتِ النفسانيةِ على سبيلِ الاستعارةِ التمثيليةِ، أي: يا مَنْ حَمَلَ أعباءَ النبوةِ قم واتركِ الراحةَ وتلبسْ بالجدِّ وأندِر، فالأمرُ بالإندارِ يناسبُ معنى التدثرِ بالنبوةِ<sup>(4)</sup>، وقد حملَ النبيُّ ﷺ هذا

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 10/467).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (ج 3/1275)، رقم الحديث: (3274).

(3) أخرجه أبو داود في سننه، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط 1، 1430 هـ - 2009 م، أول كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، (ج 5/501)، رقم الحديث: (3660). قال محقق الكتاب: صحيح.

(4) انظر: حاشيتي القونوي وابن التمجيد على البيضاوي، عصام الدين إسماعيل بن محمد القونوي - مصلح الدين بن إبراهيم الرومي ابن التمجيد، ت: عبد الله محمود مُحَمَّد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422 هـ - 2001 م، (ج 19/402).

التكليف واستجاب لهذا النداء والأمر الربانيّ أحقّ استجابةً كما تمثّل هذا في حياته التي أثمرت خير أمةٍ أُخرجت للناسٍ وسادت الجزيرة في قرابة ثلاثة وعشرين عاماً فقط.

وبناءً على ما سبق يتبيّن لنا مركزية البلاغ والدعوة في دين الله بحيث يتحمّ البلاغ على كلّ من بلغه القرآن إذا امتلك القدرة على البلاغ حتى وإن كان ليس لديه من العلم بما يُبلّغ سوى ما يقوم به أصل الفهم لما يحمل، دون الإحاطة به.

ونعلم من خلال استعراض آيات البلاغ والندارة مدى ارتباط الندارة بأداتها الأولى القرآن الكريم، إذ هو المصدر الأول والأهمّ لوسائل الدعوة وأساليبها، فهو الموعظة والتذكير والذكرى والبشير والندير والهدى والنور والرحمة... إلخ.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة ممّا سبق

1- لم يلبث رسول الله ﷺ أن يُلمّم شعث خوفه من مفاجأة الوحي له في غار حراء في أول لقاء بين أمين السماء وأمين الأرض، وما هي إلا أيام لم تتجاوز الأربعين في أعدل الأقوال في فترة الوحي حتى عاجله الأمر الإلهي بأن ينهض مشمراً مجتهداً لينذر قومه ويبلّغهم رسالة الحق من السماء، ولو اجتهد الدعاء والمرتبون في تجسيد هذه الصورة الفذة الناطقة بركنية البلاغ في حياة رسول الله ﷺ ودعوته، تجسيدها في حياتهم وجميع أحوالهم حتى تصبح هيئة راسخة وسمتاً عاماً لهم لغير الله بهم أحوال هذه الأمة ولأسمع بهم أذاناً صماً ولفتح بهم عيوناً عمياً، ولا أقول هذا تشاؤماً ولكن الناظر إلى تعداد هذه الأمة التي شارفت على ألفي مليون<sup>(1)</sup> وعدد من يحملون من أبنائها الشهادات الشرعية والدعوية بشتى أسمائها ومستوياتها ثم يرى أنها تقبّع في ذيل الأمم ويرى أعداءها يُفسدون من أبنائها كلّ يوم أفواجاً بما يمتلكون من أدوات التكنولوجيا الباهرة التي دخلت كلّ بيت والأمة تتفرّج ولا تكاد تراوح مكانها، يدرك يقيناً كم قصّرت هذه الأمة بمجموعها في ركن البلاغ والدعوة مع أنّ الله حباها أعظم أداة يفتح الله بها قلوب البشر بمجرد أن تلامس شغاف قلوبهم فضلاً عن بلوغ معانيها عقولهم، تلك الأداة هي هذا القرآن العظيم المجيد المبارك.

2- يحتوي القرآن المجيد على أكبر مذخور من الوسائل والأساليب الدعوية والتي كتب في استخراجها آلاف الأبحاث والرسائل العلمية فهل وجدت تلك الأبحاث مكانها إلى المؤسسات

---

(1) بحسب دراسة لمركز بيو للأبحاث نُشرت عام 2015 كان هناك 1.8 مليار مسلم في العالم، يشكلون ثاني أكبر الجماعات الدينية بعد المسيحيين. انظر: الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) على شبكة الإنترنت:

[https://ar.wikipedia.org/wiki/النمو\\_السكاني\\_للمسلمين](https://ar.wikipedia.org/wiki/النمو_السكاني_للمسلمين)

والهيئات والحركات الدعوية كي تترجمها واقعاً على أرض الدعوة إلى الله وكى تستفيد منها في تأهيل المسلمين أجمعين ليحملوا أمانة هذا الدين؟

3- على مستوى الفرد المسلم ينبغي أن تعتنى مؤسساتنا التعليمية والدعوية أيما عتناء بزرع قيمة وأهمية وحس الدعوة إلى الله والمبادرة إلى تبليغ هذا الدين بالكتاب العزيز في قلوب وكيان أبناء أمتنا حتى يحمل أمانة هذا الدين كل مسلم بحسب ما حُمِّل من القرآن فينتشر في الأرض انتشار العشب الأخضر اليانع في الأرض الجرداء.

### المطلب الثالث: القرآن وصاحب الدعوة به

تتكى هذه اللبنة من لبنات البناء التدريجي الترتلي في بناء العلاقة بين الإنسان والقرآن على تحديد زمان نزول سورة المزمل والتي جاء الأمر في فاتحتها للنبي ﷺ بالفرع إلى قيام الليل، فقد وقع اضطراب كثير في تحديد زمان نزول هذه السورة<sup>(1)</sup>، فمن قائل إنها من أوائل ما نزل، وإنها كلها مكية، وقائل إنها نزلت أواخر العهد بمكة، وقائل إنها كلها مدنية، وقائل إن بعضها مكّي وبعضها مدني، ولذا وجب تحرير القول في زمان نزولها كي نبنى عليه هذه الخطوة المنهجية.

والقول بأن سورة المزمل من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ بمكة هو قول جمهور المفسرين - على خلاف بينهم في ترتيبها بين تلك الأوائل -<sup>(2)</sup>، وسنذكر أدلتهم وما ورد عليها من اعتراضات والردود على تلك الاعتراضات:

1- الثابت في رواية الصحيحين<sup>(3)</sup> أن النبي ﷺ لما رجع إلى حراء بعد فترة الوحي ورأى الملك الذي جاءه ب(اقرأ) فرق منه ورجع إلى خديجة رضي الله عنها قائلاً "زملوني زملوني" وفي

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 29/252-254).

(2) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، (ج 1/98). - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط 1، 1376 هـ - 1957 م، (ج 1/193). - الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، (ج 1/96). - تفسير الألوسي، (ج 15/113). - التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، 1383 هـ، (ج 1/407).

(3) هي رواية جابر بن عبد الله في حديثه عن فترة الوحي، سبق تخريجها عند البخاري، انظر: ص (62) حاشية (4) من هذا البحث. وأخرجها مسلم في صحيحه، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1412 هـ - 1991 م، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، (ج 1/143)، رقم الحديث: (255).

الروايات الأخرى (دثروني دثروني) فنزلت سورة المدثر، فوصف الله نبيّه في سورة المزمل بهذا الوصف يتطابق مع الحالة واللفظ الذي قاله النبي ﷺ ولذا قال المفسرون إن سبب نزول سورة المدثر هو ذاته سبب نزول سورة المزمل فكان نزولهما متقارباً متلازماً من باب تعدد النازل والسبب واحد<sup>(1)</sup>.

ورد بأن هناك رواية أخرى وردت في سبب نزول هذه السورة تبين أن نزولها كان بعد انتمار قريش في دار الندوة للطعن في رسول الله ﷺ فعن جابر رضي الله عنه قال: "اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت سموا هذا الرجل اسماً يصدر عنه الناس قالوا كاهن قالوا ليس بكاهن قالوا مجنون قالوا ليس بمجنون قالوا ساحر قالوا ليس بساحر فبلغ ذلك النبي ﷺ فنزل في ثيابه فتدثر فيها فأتاه جبريل فقال يا أيها المزمل يا أيها المدثر"، وقد وصف السيوطي سند هذه الرواية بـ(واه)<sup>(2)</sup>، وقال الهيثمي بعد أن ذكر هذا الحديث: وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطي وهو كذاب<sup>(3)</sup>.

2- التسوية بالسين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5]، دليل بين على أن هذه الآية تهيئةً لنفس النبي ﷺ لتحمل شدة الوحي الذي سينزل ويتتابع<sup>(4)</sup>، فتكون السورة من أوائل ما نزل بعد النبي ﷺ بقيام الليل لتحمل أعباء الدعوة.

ورد بأن القول الثقيل في الآية هو الأمر بالهجرة والإذن بالقتال<sup>(5)</sup>، وهذا القول الذي ذهب إليه الجابري يخالف إجماع السلف بأن القول الثقيل هو القرآن الكريم وإنما اختلفوا في معنى ثقله<sup>(6)</sup>.

واعترض أيضاً بأن الصلاة فرضت بعد حادثة الإسراء، أي في أواخر العهد بمكة، فكيف تكون المزمل من أول ما نزل وفيها الأمر بالصلاة؟!<sup>(7)</sup>

(1) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبى الغرناطي، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط 1، 1416 هـ، (ج 2/422). وانظر: إشراقات قرآنية - حزب المفصل، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، 1436 هـ، (ج 3/42).

(2) انظر: لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، (ص 204-205).

(3) انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين الهيثمي، ت: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ - 1994 م، (ج 7/130).

(4) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 29/261).

(5) انظر: التفسير الواضح - فهم القرآن الحكيم، الجابري، (ج 2/314).

(6) انظر: تفسير الطبري، (ج 23/681-682).

(7) انظر: ترتيب نزول السور وموقف الطاهر بن عاشور منه، شافي العجمي، (ص 18).

والصحيح المقطوع به<sup>(1)</sup> أن الصلاة كانت معروفة قبل فرض الصلوات الخمس في حادثة الإسراء، بل إن النبي ﷺ في نفس حادثة الإسراء وقبل أن يُعرج به إلى السماء صلى بالأنبياء ركعتين كما ثبت عند مسلم وفيه "ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ"<sup>(2)</sup>، وفي حديث الهجرة إلى الحبشة - والتي كانت قبل حادثة الإسراء<sup>(3)</sup> - وفيه قال جعفر للنجاشي: "وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام..."<sup>(4)</sup>.

وفي سورة الشرح - وهي من أوائل ما نزل بمكة - قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ﴾ [الشرح: 7]، قال الطبري: "أي: إذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربك بالدعاء"<sup>(5)</sup>.

واعترض أيضاً بما رواه مسلم في صحيحه أن عائشة قالت لسعد بن هشام: ألسنت تقرأ يا أيها المزمّل؟" قلت: بلى، قالت: "فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء"<sup>(6)</sup>، وهذا يدل على أن خاتمة سورة المزمّل نزلت بعد مقدمتها بسنة، وفي الخاتمة: حديث عن القتال في سبيل الله في قوله: وآخرون يقاتلون في سبيل الله، وهذا أشبه بآخر العهد المكي<sup>(7)</sup>.

قلت: قول عائشة رضي الله عنها متعین سيمًا أنه ثابت في الصحيح، لكن غير المسلم أن نبي عليه حتمية تأخر نزول السورة إلى آخر العهد المكي أو أول المدني استناداً إلى أن بين أولها وآخرها سنة، وأن آخرها يذكر القتال الذي لم يكن إلا بالمدينة أو الإذن به في آخر العهد بمكة، بل الصحيح الوقوف على لفظ الآية المتأخرة والذي فيه (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ...) "لفظ الآية

(1) يُنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، إخراج وتصحيح: محب الدين الخطيب، بتعليقات الشيخ عبد العزيز بن باز، دار المعرفة - بيروت، 1379 م، (ج 671/8).

(2) انظر الحديث بطوله عند مسلم برقم (259)، (ج 145/1)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات.

(3) انظر: السيرة النبوية الصحيحة - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط 6، 1415 هـ - 1994 م، (ج 169/1).

(4) جزء من حديث، أخرجه أحمد في مسنده، (ج 266/3)، رقم الحديث: (1740). قال محقق الكتاب: إسناده حسن.

(5) تفسير الطبري، (ج 496/24).

(6) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، (ج 512/1)، رقم الحديث: (139).

(7) ترتيب نزول السور وموقف الطاهر بن عاشور منه، شافي العجمي، (ص 18).

ظاهر في الاستقبال فكأنه سبحانه وتعالى امتن عليهم بتعجيل التخفيف قبل وجود المشقة التي علم أنها ستقع لهم<sup>(1)</sup>، فيكون هذا من باب الإنباء بمعنى على وجه المعجزة<sup>(2)</sup>.

وبناء على العرض السابق يترجح للباحث أن سورة المزمل اقترنت بسورة المدثر في النزول وإنما قدمنا سورة المدثر عليها لرواية جابر في الصحيح، وسواءً أكانت بعض آياتها مدنية أم هي كلها مكية فلن يؤثر هذا على موضعها في لبنات بناء بحثنا هذا إذ إن متكاً العبرة في بحثنا على آياتها السبعة الأولى والتي هي مكية بالإجماع المترجح آنفاً.

أما وقد فرغنا من تقرير الزمان الترتلي لهذه السورة فلنشرع الآن في بيان ما قررته هذه السورة وأحواتها في مرحلة البناء الروحي والإيماني للإنسان بالقرآن.

**أولاً: صلاة القيام بالقرآن.**

جاء الأمر الإلهي أولاً لرسول الله ﷺ بالإنذار - كما رأينا سابقاً - بعد فترة الوحي مباشرة، ولما كانت النذارة تجلب على صاحبها ما تجلب من معاناة التكذيب والإعراض والسخرية، وهي أيضاً تتطلب نفساً قوية عميقة الإيمان بما تدعو إليه، راسخة في يقينها، متعلقة كل التعلق بمن أمرها بالبلاغ، احتاج صاحب الدعوة الأول لزاد روحاني لا ينقطع، يثبت في روجه اليقين والثبات والقوة والعزم والجسارة على الاستمرار في مهمة البلاغ فجاء نزول سورة المزمل بعد المدثر يأمر الداعي الأول بإحياء ليله بالصلاة.

﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ① فَمِ الْبَلِّ إِلَّا قَلِيلًا ② تَصَفَّهُ ③ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ④ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ⑤﴾ [المزمل: 1-4].

وأداة البناء الروحي هنا هي القرآن الكريم ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ أي: وأنت متلبس بصلاة القيام وذلك تهيئة لك لتحمل القول الثقيل، سواءً في حمليه والبلاغ به، أو في أحكامه والعمل به<sup>(3)</sup>، "ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل، فإن الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره والثناء عليه، والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها، وتهيأت للتجرد التام، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية، فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة

(1) فتح الباري، ابن حجر، (ج 1/465).

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 29/253).

(3) انظر: تفسير الطبري، (ج 23/681).

النفس مستعدة لهذا المعنى لا جرم قال: إني إنما أمرتك بصلاة الليل لأننا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى، وتام هذا المعنى ما قال ﷺ: "إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها"<sup>(1)</sup><sup>(2)</sup>.

وصلاة الليل - حالاً بالقرب من الله واستشعار القيام بين يديه، ووقتاً بالسكون والانقطاع عن كل شاغل - أهياً ما تكون لتدبر هذا القرآن وفهمه والتعامل مع آياته ولذا فقد عقب الأمر بالقيام بالجملة الخبرية ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: 6] والتي تحمل معنى التعليل المشعر به حرف التوكيد (إن)، والمتضمنة لخبرين يجليان فائدة هذا القيام على توثيق علاقة الإنسان بالقرآن:

1- ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾: قرأ أبو عمرو وابن عامر (وطأء) بكسر الواو وألف قبل الهمزة، والباقون (وطأ)<sup>(3)</sup>، فالمعنى على قراءة البصري والشامي من المواطنة أي الموافقة، أي: يواطئ القلب فيها اللسان، أو أشد موافقة لما يراد من الإخلاص والخشوع، والمعنى على قراءة الباقيين من الوطأة أي الثقل والثبات، أي: أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل، أو أثبت قراءة وقياماً، أو أشد نشاطاً، أو أشد دواماً لأن الليل وقت فراغ<sup>(4)</sup>.

2- ﴿أَقْوَمُ قِيلاً﴾: أي: أشد استقامة على الصواب، أو أصوب للقراءة وأثبت للقول لأنه زمان التفهم، أو أتم نشاطاً وإخلاصاً وبركة، أو أجدر أن يتقنه فيها القارئ، أو أعجل إجابةً للدعاء<sup>(5)</sup>.

وكل ما ورد عن السلف أعلاه في معاني شدة الوطئ وتقويم القيل محتمل يسعه لفظ القرآن، وهي معانٍ تُوسِّع مدلولات الآية لتتضح بها الآثار الجمَّة لهذه العلاقة العظيمة المباركة بين القيام والقرآن وأثر كل واحدٍ منهما على قرينه.

---

(1) ذكر الألباني له شاهداً حسناً في السلسلة الصحيحة برقم 1890، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1415 هـ - 1995 م، (ج 4/511). والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (519)، أبو القاسم الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار ابن تيمية، القاهرة، ط 2، 1415 هـ 1994 م، (ج 19/233).

(2) التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 16/108).

(3) انظر: البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي، (ص 330).

(4) انظر: حجة القراءات، ابن زنجلة، (ص 730-731).

(5) البحر المحيط، أبو حيان، (ج 10/315)، بتصرف يسير.

ومن بديع بلاغة التعبير القرآني ما يسميه البلاغيون ائتلاف اللفظ مع اللفظ ومع المعنى<sup>(1)</sup>، وهو هنا بين لفظي (المزمل) و(ثقيلاً)، فأخذ أصلي (زَمَلًا) يدلُّ على حملٍ ثَقِيلٍ من الأثقال<sup>(2)</sup>، ثمَّ منه أخذَ معنى التزمُّلِ بالثيابِ أي التلَفُّفِ بها، فاختيارُ هذا اللفظِ خاصةً يأتي ليلتئمَ مع لفظِ (ثقيلاً) في الآيةِ بعده، فينشأُ عن ائتلافِهما استحضارُ معنى الثِقَلِ والحِمْلِ الذي تحمَّله رسولُ اللهِ ﷺ بنزولِ القرآنِ عليه وبأمره بالبلاغِ وبقيامِ الليلِ بالقرآنِ ترويداً لهذه النفسِ من أعظمِ زادٍ يُعطاه الداعي إلى الله ويقوي هذا الفهمَ قولُ عكرمةَ في (المزمل) أي الذي زَمَلَ النبوةَ والرسالةَ<sup>(3)</sup>.

والخطابُ في هذه السورة - وإن كانَ أصالةً موجهاً إلى النبي ﷺ - فإنَّه يعمُّ كلَّ مسلمٍ من شأنه أن يدعو إلى الله تعالى والحالُ أنَّه قد تَلَفَّفَ بثيابِ أَعذارِهِ أو مخاوفِهِ، ألا ترى أنَّه خاطبَ النبيَّ بالوصفِ المشتقِّ من فعلِهِ - اسمِ الفاعلِ (المزمل) - والمؤذنِ باشتراكِ كلِّ من اتصفَ بتلك الصفةِ مع المخاطبِ في الخطابِ<sup>(4)</sup>، وقد فهمَ صحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ هذا الفهمَ فقاموا معه كما نصت الآيةُ الأخيرةُ في السورة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: 20]، وكما أخبرت عائشةُ رضي اللهُ عنها في الحديثِ السابق<sup>(5)</sup>.

فما سبقَ ومن خلالِ النظرِ في الآياتِ الأولى للسورة (1 - 10) يتضحُ أنَّ هناكَ مرتكزاتٍ للبناءِ الروحيِّ للداعي إلى الله تعالى وهي:

قيامُ الليلِ، ترتيلُ القرآنِ، المداومةُ على ذكرِ الله، الانقطاعُ إلى الله والإخلاصُ له،

(1) يُنظر: البلاغة العربية، الميداني، (ج 2/52).

(2) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ - 1979 م، (ج 3/25).

(3) انظر: تفسير الطبري، (ج 23/676).

(4) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، (ج 2/422).

(5) انظر الحديث ص (68) حاشية رقم (7).

الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه، الصبر<sup>(1)</sup>.

وقد استمر هذا المنهج القرآني في تربية الداعي الأول بصلاة القيام التي قوامها وروحها التي تسري فيها القرآن العظيم، فتكرر الأمر للنبي ﷺ في سورة الإنسان: ﴿وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ومن الليل فأسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴿[الإنسان: 25-26]، ثم في هود: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي نَهَارٍ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: 114]، ففي رواية عن ابن عباس: ﴿رُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ هي صلاة القيام<sup>(2)</sup>، ثم في الإسراء أواخر العهد بمكة ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]، ورافق هذه التربية للداعي الأول تربية لأتباعه ولكل مؤمن بصلاة القيام بالقرآن العظيم وذلك بمدح أهل القيام:

تارةً باندراجهم في أهل العلم، العلم بالله وحقيقة هذه الدنيا، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتَ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9].

وتارةً بجعل صفة القيام أول وأبرز صفات المتقين أهل الجنة والنعيم ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ءَأَخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿[الذاريات: 15-18].

وتارةً ثالثةً بجعل قيام الليل شارة الإيمان بآيات الله وخشيته، ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿[السجدة: 15-16].

ومرةً رابعةً بجعل هذه الصلاة العظيمة علامة مميزة لعباد الرحمن المنتسبين إليه سبحانه ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿[الفرقان: 63-64].

(1) انظر: مرتكزات البناء الروحي للداعية المسلم في ضوء مطلع سورة المزمل، عبد الله أحمد الزبيوت، بحث منشور في مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، مجلد 1، عدد 50 (2019) < الصفحات: 44 - 55، (ص 48 وما بعدها).

(2) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، (ج 6/2091).

## ثانياً: تلاوة القرآن سلاح الداعي الأول.

رأيًا كيف تجلّت العلاقة بين القرآن والقيام به في بناء روح الداعي إلى الله المفعمة بالهمة العالية، وأثر هذا القيام بما أحيط به من أجواء إيمانية نقية على فهم القرآن وتدبره والتفاعل معه، ومن هنا كان القرآن الأداة الأولى والأهم في هذا البناء الروحي من جهة، والسلاح الأقوى والأبرز للداعي إلى الله في فتحه لقلوب المدعوين من جهة أخرى، وسنتحدث عن هذا السلاح الإيماني الدعوي في النقاط الآتية:

### • ترتيل القرآن للبيان والدعوة:

وقد بدأ هذا الارتباط المتين بين القرآن والداعي به مع أول كلمات الوحي الآمرة بقيام الليل فقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ تَصَفَّهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: 1-4]، ورتل: "معناه في اللغة تمهل وفرق بين الحروف لتبين. والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة"<sup>(1)</sup>.

وقد تجلّت العناية الربانية بصاحب الدعوة الأول في جمع القرآن في صدره فلا ينساه أبداً إعانة له على التفرغ للتدبر والدعوة بهذا القرآن، حيث إنه صاحب البلاغ فلا يكون البلاغ إلا به ومنه فوجب ألا ينسى القرآن، قال تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: 16-19]، وقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾﴾ [الأعلى: 6].

فلما استقر القرآن في قلب النبي ﷺ صار شغله الشاغل تلاوة القرآن على الناس داعياً مُدَكِّراً مبيّناً مُنذِراً مبشراً، فلما كانت الدعوة الجهرية وزاد أذى المشركين لرسول الله ﷺ والذين معه، وزاد كيدهم لهذا القرآن، نزلت عليه سورة الفرقان تأمره بأن يجاهد المشركين بهذا القرآن، جهاد حجة وبيان، وبصائر ولسان، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: 51-52]، ففي الآية تهيج للنبي ﷺ والمؤمنين بالألّا يطيعوا الكافرين على مرادهم في إبطال الحق وبمقابلة ذلك بالاجتهاد في إبطال باطلهم بالقرآن بما فيه من الحجج<sup>(2)</sup>.

(1) تفسير ابن عطية، (ج 5/387).

(2) انظر: تفسير البيضاوي، (ج 4/128).

ولمَّا اشتدَّ تعذيبُ المشركينَ له ولأصحابه قبيلَ الهجرةِ إلى الحبشةِ أمرَ اللهُ في سورةِ النملِ أن يقولَ لقومه أن تلاوةَ القرآنِ عليهم هي أمرُ اللهِ له فلا محيدَ عنه مهما كذَّبتمُ وصددتمُ وأعرضتمُ، ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 91-92]، أي: "وأمرتُ أيضاً أن أتلاوةَ القرآنِ المنزلِ علي من عند ربي وأداوم على تلاوته بين أظهرِ الأنامِ لأنه أوحى إليَّ للهدى والرشد بالنسبة إلى عموم العباد"<sup>(1)</sup>.

ثمَّ عادت الآياتُ لتوكِّدَ هذه الحقيقةَ الحتميةَ من جديدٍ في سورةِ الإسراءِ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: 106]، أي: نزلنا هذا القرآنَ منجماً بحسبِ الوقائعِ والأحداثِ، وعلى مقتضى الحكمة، وبيَّناه وأوضحناه كي تلبَّغه أيها الرسولُ للناسِ وتتلوه عليهم على مهلٍ في المدةِ وترسلُ في التلاوةِ<sup>(2)</sup>.

#### • تلاوةُ القرآنِ والدعوةُ به السِّمةُ المُميِّزةُ للداعي إلى اللهِ:

وقد امتدحَ اللهُ نبيَّه بكونِ تلاوةِ القرآنِ من أخصِّ شؤونِه ﷺ في نفسه وفي الناسِ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: 61]، ففي الآيةِ تنويهٌ بالنبيِّ ﷺ بجليلِ أعمالِه حيثُ بدأ بذكرِ الشأنِ أي العملِ والحالِ المهمِّ ثم عطفَ عليه تلاوةَ القرآنِ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ للاهتمامِ بهذا الشأنِ الخاصِّ حيثُ إنَّ التلاوةَ أهمُّ شؤونِ النبيِّ ﷺ وذلك في نفسه وعلى الناسِ<sup>(3)</sup>.

#### • تثبيتُ قلبِ الداعي إلى اللهِ فائدةٌ أخرى لسلاحِ القرآنِ:

وفي خِصَمِ المرحلةِ الجهريةِ للدعوةِ إلى اللهِ ومع اشتدادِ صنوفِ التعذيبِ والكيدِ لدعوةِ النبيِّ ﷺ، ومع شبهةٍ جديدةٍ يُلقبها المشركونَ على هذا القرآنِ إمعاناً في تخذيلِ المؤمنينَ عنه وتبييسِ النبيِّ ﷺ من الدعوةِ به تنتزلُ سورةُ الفرقانِ، سورةٌ عظيمةٌ من سورِ القرآنِ العظيمِ، مقصدها إظهارُ شرفِ الداعي ﷺ بإنذارِ المكلفينَ عامةً بهذا القرآنِ العظيمِ<sup>(4)</sup>، تنتزلُ وهي تردُّ على شبهةِ المشركينَ

(1) الفواتح الإلهية، الشيخ علوان، (ج 2/74).

(2) انظر، التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 2/1396).

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 11/212).

(4) انظر: مساعد النظر في الإشراف على مقاصد السور، البقاعي، (ج 2/317).

قائلة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 32-33].

قال المشركون تشكيكاً في طريقة نزول هذا القرآن هلاً نزل القرآن على محمدٍ دفعةً واحدةً غير مفرقٍ كما نزلت التوراة والإنجيل والزيور؟ واعتراضهم هذا لا فائدة فيه لأن الإعجاز الذي هو شاهدٌ صحة القرآن مما لا يختلف القرآن بنزوله جملةً أو مفرقاً، بل إن لتجيمه فوائد ذكر منها ها هنا تثبت قلب النبي ﷺ بأمور:

1- تيسير حفظه. 2- فهم معانيه. 3- ضبط الكلام. 4- الوقوف على تفاصيل ما روعي فيه من الحكم والمصالح. 5- تعدد نزول جبريل عليه السلام. 6- تجدد إعجازه للطاعين فيه في كل جملة مع كل أقصر سورة تنزل منه<sup>(1)</sup>.

ومن أعظم الفوائد التي تعود على الداعي بنزول الفرقان مفرقاً، ومن بعد بتلاوته مجدداً بحيث يرد المتلو على القلب كما كان يرد النازل على الداعي الأول، تقوية الداعي على القيام بأعباء الرسالة، وبعث همته كلما فترت، وتثبيت عزمته كلما خارت<sup>(2)</sup>، فالداعي يتعرض في مسيرة دعوته لمواقف تزلزل، فكلما تعرض لموقف من هذه المواقف جاءت تلاوة القرآن تسلياً له وتثبيتاً وصلته بالسماء لا تنقطع، ولو نزل القرآن مرةً واحدةً لكان التثبيت مرةً واحدةً، ثم تأتي بقية الأحداث بدون تثبيت، ولا شك أن الصلة بالسماء تقوي المنهج وتقوي الإيمان<sup>(3)</sup>.

#### • تلاوة القرآن للتعليم والتركية في العهد المدني:

أما وقد تاب الناس إلى الإيمان بعد جهد سني الدعوة في مكة، وانتقلت الجماعة المسلمة من عهد الاستضعاف إلى عهد الدولة في المدينة، وبدأت مسيرة بناء المجتمع بشتى احتياجاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقضائية... إلخ فقد أضيف إلى معنى الدعوة بالقرآن مقصوداً جديداً، فبعد أن كان مقصودها محاجة المشركين وإبطال باطلهم، وتثبيت المؤمنين وإصلاح عقائدهم تطلب المجتمع الجديد تعليم المؤمنين قواعد شتى في الأحكام التي تنظم حياتهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم وتُنقى عقيدتهم من شوائب الموالاة لليهود والنصارى والمنافقين،

(1) انظر: تفسير الألوسي، (ج 10/15-16).

(2) انظر: محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1418، هـ، (ج 427/7).

(3) انظر: تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997 م، (ج 10435/17).

وتزكّي أنفسهم من رذائل الأخلاق، فجاء الكتاب العزيز بخمس آيات منها أربع متشابهات تؤكد على هذا المعنى.

الأولى: دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]، فهو رسولٌ وسيلته الأولى في دعوته تلاوة الآيات، وغرضه من التلاوة تعليم الناس القرآن والمعرفة بالدين، والفقه في التأويل، والسنة وبيان الشرائع، والحكم والقضاء، وتطهير الناس من الشرك<sup>(1)</sup>.

الثانية: آية نعمة إرسال النبي ﷺ في البقرة:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]، سمّاه أولاً آياتٍ باعتبار كونه معجزاً، وسمّاه ثانياً كتاباً باعتبار كونه كتاب تشريع، وعبر بالمضارع (يتلو) لأن نزول القرآن مستمر وتلاوة النبي ﷺ له متوالية، والتركية تطهير النفس من كل ما يعترضها من النقص، وتتمير الخير المركوز في فطرتها، وتعليم الكتاب أي الشريعة، والحكمة هي التعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد<sup>(2)</sup>.

الثالثة: آية المنة بمبعث النبي ﷺ في العرب في آل عمران:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

الرابعة: آية المنة على الأميين في الجمعة:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

وقد حوت هذه الآيات لطائف:

1- لماذا أخرجت التزكية في آية دعوة إبراهيم عليه السلام وقدمت في بقية الآيات؟

(1) انظر: تفسير القرطبي، (ج 2/131).

(2) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 2/49).

في دعوة إبراهيم عليه السلام رُتبت الأمور بحسب وقوعها في الخارج، فالتركية لا ريب نتيجة تعليم الكتاب والحكمة فأخرت، أما في الآيات الثلاثة الباقية فالحديث في معرض الامتتان على المؤمنين والعرب الأميين بما وقع لهم من نعمة عظيمة بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ومنهم، فقدّمت التركية لمناسبتها لما يفيد معنى المنفعة الحاصلة لهم بالنبي صلى الله عليه وسلم واهتماماً بها وتعجيلاً للشارة لهم بها<sup>(1)</sup>.

2- في التعبير بالمضارع (يتلو) إشارة منهجية بيّنة على ضرورة الاستمرارية في الدعوة إلى الله بالقرآن وتجديدها بحسب أحوال المدعوين.

3- ختم المسار التدريجي لهذه الآيات خاصة وآيات الدعوة بالقرآن عامة بوصف من بعث فيهم النبي تالياً داعياً بـ (الأميين)، وإنما وصفهم بهذا الوصف ليذكّرهم بعظيم نعمته عليهم إذ أخرجهم من الجهالة والامية إلى العلم والنور والهداية، ففي هذا الختام إشارة قيّمة بأن أعظم ما تمنحه دعوة الله وكتابه لله للبشر العلم النافع ورفع الجهل، فالقرآن يسعى إلى بناء أمة العلم والإيمان.

4- الأثر العملي الواضح للقرآن تلاوةً وتعليماً هو زكاة النفوس من الشرك وذنابل الأخلاق كما نصت الآيات، فإن وجد القرآن والتلاوة فلم تر الأثر فاعلم أنّ هناك خلافاً في التلاوة الحقّة للقرآن وتعليمه.

الخامسة: آية التلاوة في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في الأحزاب:

﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34]، فالآية وإن كانت خطاباً لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم فإن "عدم تعيين التالي ليعم تلاوة جبريل، وتلاوة النبي، وتلاوتهن، وتلاوة غيرهن تعلمًا وتعليمًا"<sup>(2)</sup>.

الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- ظهر من اقتران نزول سورة المدثر المؤذنة بالبلاغ بسورة المزمل الأمرة بإحياء الليل بالقرآن ما لصلاة القيام وتلاوة القرآن من أهمية قصوى في بناء الداعي المسلم من الناحية الروحانية، وهنا ثمت سؤال للدعاة أولاً ولمن يربون هؤلاء الدعاة. ما هو حظُّ صلاة الليل من ناحية عملية من أحوالكم ومناهجكم؟

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 2/49-50).

(2) حدائق الروح والريحان، الهرري، (ج 18/23).

كلما رأيت فتورَ الداعي إلى الله وتزملته بأعداره التي لا تنقضني فاعلم أنّ هناك خللاً واضحاً في هذا الركنِ التربويّ الأول الذي أولاه القرآنُ كلَّ عنايةٍ واهتمامٍ.

نحنُ - الدعاة - بأمرٍ الحاجةِ إلى إحياءِ هذا الركنِ الدعويّ في حياتنا إحياءً حقيقياً يتحققُ به البناءُ الروحيُّ، إحياءً يتسنى معه تطبيقُ قوله تعالى: ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرِثْلَ الْقُرْعَانَ تَرْثِيلاً﴾ [المزمل: 4]، بحيثُ تحصلُ القراءةُ المتأنيةُ التدبريةُ التي يحيا بها القلبُ ويعظمُ بها الإيمانُ وتزدادُ بها الهمةُ واليقينُ، إحياءً يصدقُ عليه لفظُ الإحياءِ من حيثُ اقتطاعُه جزءاً من الليلِ تكونُ به الحياةُ، ولا أقولُ طبعاً إنّ للمسلمِ حدّاً أدنى يقومُ به سوى ركعتينِ، ولكنني أتحدثُ هنا عن الداعي إلى دينِ الله، والذي يتبوأ مكانَ الصدارةِ ويتجشمُ عناءَ النذارةِ فوجبَ ألا يكونَ حظُّه من الليلِ كأحدِ المسلمين.

ويكفيك أيها الداعي إلى الله أن تقفَ بعينِ قلبك عندَ هذا الحديثِ والحالةِ التفاعليةِ بينَ القرآنِ وصاحبهِ الأولِ بما أحدثه قيامُ الليلِ في قلبه ونفسه ﷺ، فعن عبيد بنِ عميرٍ (1) أنّه قالَ لعائشةَ رضي الله عنها: أَخْبَرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: "يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي" قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَفَاقَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَإِنِّي لَمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾" [آية كُلُّهَا [آل عمران: 190]](2).

2- تبيّن لنا من خلالِ ارتباطِ الدعوةِ إلى الله بتلاوةِ القرآنِ على المدعوينِ الأهميةَ الأولى لسلاحِ القرآنِ بيدِ الداعي إلى الله تعالى، ومن هذا الفهمِ وتلكِ الآياتِ أحتُ كلُّ الدعاةِ ومن يربونهم بإيلاءِ القرآنِ العظيمِ عنايتهمِ الأولى حفظاً وفهماً واستنباطاً للوسائلِ الدعويةِ منه كي

(1) هو عبيد بن عمير بن قتادة بن سعيد الليثي الجندعي، قاصُّ أهل مكة، مكّي تابعي ثقة من كبار التابعين كان بن عمر يجلس إليه ويقول لله در بن قتادة ماذا يأتي به، مات سنة ثمانى وستين. انظر: تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط 1، 1326هـ، (ج 71/7) برقم (148).

(2) أخرجه ابن حبان في صحيحه، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان البستي، بترتيب علي بن بلبان الفارسي، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1408 هـ - 1988 م، كتاب الرقائق، باب التوبة، (ج 386/2)، رقم الحديث: (620). قال محقق الكتاب: إسناده صحيح على شرط مسلم.

يستعينوا به على فتح قلوب الناس لهم فإنه ما أُعطيَ أحدٌ مثلَ القرآنِ في القبولِ لدى المدعوينَ، وما أُوتيَ أحدٌ مثلَ القرآنِ في تثبيتِ القلبِ وثباتِ الجأشِ والتسريةِ عن النفسِ.

3- نقلَ القرآنُ العظيمُ بتلاوتهِ من قِبَلِ النبيِّ الكريمِ ﷺ على المدعوينَ وبتعليمه إياهم وبحصولِ التزكيةِ به، نقلَ تلكَ الثلثةَ من أمةِ الجهلِ والتفرُّقِ إلى أمةِ العلمِ والسيادةِ والرحمةِ، فهل نقلنا القرآنَ اليومَ كما نقلهم؟

إنَّه وإذ لم يحصلُ الانتقالُ الصحيحُ به لينبغي أن يقالَ إنَّ هناكَ خللاً في التعاطي مع هذا القرآنِ العظيمِ، فإننا لنرى اليومَ ربوعَ أمتنا لتضجُ بمراكزِ تحفيظِ القرآنِ الكريمِ في شتى المستوياتِ، فأين الثمرةُ؟!

إنَّ مجردَ تحفيظِ وحفظِ القرآنِ الكريمِ - على أهميته - ليس هو مناطُ تلكَ الثمرةِ العظمى التي أحدثها القرآنُ في أولئكِ الرعيَلِ الأولِ مع رسولِ الله ﷺ، فقد رأينا كيفَ قرَّرتِ الآياتُ أنَّ ذاكَ الفتحَ العظيمَ قد حصلَ باستمراريةِ تلاوةِ القرآنِ بينَ الناسِ مقترناً بفهمه والتفاعلِ معه فكانتِ النتيجةُ حصولَ التزكيةِ القلبيةِ والأخلاقيةِ به ومن ثمَّ ظهورُ خيرِ أمةٍ أُخرجتِ للناسِ، وقد شخَّصَ رسولُ الله ﷺ حالتنا هذه في حديثِ زيادِ بنِ لبيدٍ ﷺ فعنَ زيادِ بنِ لبيدٍ<sup>(1)</sup>، قالَ: "ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئاً، فَقَالَ: "ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرَهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرَهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: "تَكَلِّتُكَ أُمَّكَ زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأُرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوْلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟!"<sup>(2)</sup>.

وقد صدقَ رسولُ الله ﷺ فما أكثرَ القراءةَ والحفظَ وما أعزَّ الفهمَ والعملَ، ولذا أشبهَ حالَ هذه الأمةِ حالَ اليهودِ والنصارى من وجوهٍ متعددةٍ فنسألُ اللهَ الخلاصَ والسلامةَ.

#### المطلب الرابع: إبرازُ أهميةِ القرآنِ في حياةِ الناسِ ومعادهم

مما لفتَ انتباهَ الباحثِ في تسلسلِ آياتِ القرآنِ نزولاً والتي تتحدثُ عن القرآنِ ذاته أنَّ أولَ ما بُدأَ به بعدَ الأمرِ بالبلاغِ والتزكيةِ الروحانيةِ الحديثُ عن القرآنِ بكونه ذكراً للعالمينَ، ومعنى

(1) هو زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر، الأنصاريّ البياضي، صحابي، شهد العقبة وبدراً، كان عاملاً النبي ﷺ على حضرموت. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط 1، 1429هـ - 2008م، (63/4)، برقم (2878).

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الفتن، بابُ ذهابِ القرآنِ والعلمِ، (ج 5/172)، رقم الحديث: (4048). قال محقق الكتاب، صحيح.

كون القرآن ذكراً وتذكرى وتذكراً أي: فيه شرف الناس وعزهم وكذا العبرة والموعظة بما فيه من قصص الأولين، وقد مضى الحديث عن معنى اسم القرآن هذا في هذا البحث<sup>(1)</sup>.

وأول ذكرٍ لاسم الذكر جاء في سورة التكويد ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿١٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ [التكويد: 27-29]، وهي من أوائل ما نزل فيتراوح عدها بين الرابعة والسابعة وهي على أي حال نزلت في أوائل مدة الدعوة السريّة، ثم تتابع نزول الآيات التي تصف القرآن بهذا الوصف في الفترة الجهرية بدءاً بسورة عبس ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: 11-16]، ثم في الإنسان ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: 29]، ثم في (ق) وبقية المدثر (ص) والأعراف والزخرف والأنبياء والمؤمنون والإسراء ثم في المدنيات: البقرة والطلاق.

ومعنى هذا الاسم يدلُّ على حصول المنافع الدينية والدنيوية بهذا القرآن المبارك فهو موعظة وعبرة للمخاطب به في دينه وآخرته، وهو أيضاً شرفٌ وعزٌّ للمتمسك به في دنياه وبين قومه.

وبدأه القرآن بذكر هذا الوصف مخاطباً به المؤمنين ثم مؤكداً للكافرين ثم للعالمين يدلُّ على أولوية تقديم الترغيب في هذا القرآن في الدعوة إليه على الترهيب به.

ويدلُّ أيضاً - كما أشرنا سابقاً - إلى مراعاة فطرة النفس البشرية في حبّ التميّز والريادة بحصول الشرف بهذا القرآن، بل إنّ الله تعالى بدأ امتداح القرآن بهذا الوصف الدالّ على هذا المعنى جلباً للنفوس إلى حبّ القرآن العظيم لما في القرآن والتمسك به والعمل به من عظيم المنفعة والفوز في الدنيا والآخرة.

ويُستدلُّ أيضاً من بدء وصف القرآن بالذكرى أهمية الاعتبار بقصص السابقين التي هي من معاني هذا الاسم، فإنّ الوقوف على حركة التاريخ وقراءة العبر من أحداث السابقين منهج قرآني أصيلٌ بدأ مبكراً مع هذا الاسم واستمرّ بما بُت في القرآن من قصص الأمم السابقة.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة ممّا سبق

1- يتعلّم الدعاة والمربّون من تقديم ما قدّمه القرآن أن يبدؤوا الناس بالترغيب في هذا القرآن فيحثّوهم عن عظيم نفعه وفوائده للناس كافة في دينهم ودنياهم وعاجل أمورهم ومآلهم، قبل

(1) راجع المطلب الثاني من المبحث الأول من الفصل الأول من هذا البحث، ص 32.

أن يُحَدِّثُوهم عن عقوبةِ الله لمن ترك القرآنَ ونبذَه وراءَ ظهره.

2- أهمية استعمال المنهج القصصي في الاعتبارِ والمواظبِ في مخاطبةِ الناسِ كما فعل القرآنُ المجيدُ، بل وألوية ذلك كما أولى القرآنُ، وهذا الأسلوبُ من الأساليبِ المحببةِ إلى قلوبِ الناسِ والذي يُكثِرُ منه الدعاةُ، فينبغي على الدعاةِ أن يضبطوا موعظتهم القصصيةَ بطريقةِ القرآنِ وهدية.

### المطلب الخامس: شمولُ الجنِّ بدعوةِ القرآنِ الكريمِ

وقفتُ طويلاً أمامَ الرواياتِ الكثيرةِ التي تتحدثُ عن استماعِ الجنِّ للقرآنِ، فكثيرٌ منها في الصحاحِ، وهي تحملُ تعارضاتٍ ظاهريةً - وقد نبّهَ على هذا صاحبُ التفسيرِ الحديثِ<sup>(1)</sup> - أدت إلى وقوعِ خلافٍ كثيرٍ بينَ العلماءِ في تحديدِ زمانِ تلكِ الحادثةِ وارتباطها بالموضوعينِ من القرآنِ اللذينِ يتحدثانِ عن استماعِ الجنِّ للقرآنِ وهما سورةُ الجنِّ وخواتيمُ سورةِ الأحقافِ.

وقد جعلَ أكثرُ المفسرينِ وكُتَّابُ السيرةِ نزولَ سورةِ الجنِّ - التي هي أولُ مواضعِ ذكرِ استماعهم للقرآنِ - إبانَ حادثةِ خروجِ النبيِّ إلى الطائفِ، أي في العامِ العاشرِ لبعثتهِ، أي بعدَ عشرِ سنينٍ من بدءِ نزولِ القرآنِ، ووضعها علماءُ القرآنِ في الرتبةِ الأربعينِ في ترتيبِ النزولِ، أي بعدَ سورةِ الأعرافِ، أي في حدودِ العامِ الخامسِ للبعثةِ، وقد خلصَ الباحثُ من خلالِ النظرِ والتحقيقِ الذي سيرعُضُه الآنَ إلى أنَّ نزولها كانَ متقدماً عن هذا الزمانِ، بل هو في أوائلِ العهدِ في مكةَ.

وسأبدأُ بذكرِ عُمَدِ هذه الرواياتِ وما فيها من التعارضاتِ ثمَّ ما خلصتُ إليه من خلالِ أقوالِ المحققينِ ومن خلالِ النظرِ العميقِ في مجموعِ النصوصِ:

#### أولاً: الرواياتُ:

1- أخرجَ الشيخانِ - واللفظُ لمسلمٍ - عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَأَهُمْ انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَازٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ. فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ. قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ. فَأَضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا. فَانظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا.

(1) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، (ج 5/26-29).

فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تَهَامَةَ - وَهُوَ بِنَحْلِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَازٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ - فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ. وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ. فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: "قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ" (1).

2- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كَانَ الْجِنُّ يَصْعَدُونَ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمِعُونَ الْوَحْيَ، فَإِذَا سَمِعُوا الْكَلِمَةَ زَادُوا فِيهَا تِسْعًا، فَأَمَّا الْكَلِمَةُ فَتَكُونُ حَقًّا، وَأَمَّا مَا زَادُوهُ فَيَكُونُ بَاطِلًا، فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنَعُوا مَقَاعِدَهُمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِإِبْلِيسَ، وَلَمْ تَكُنِ النُّجُومُ يُرْمَىٰ بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ: مَا هَذَا إِلَّا مِنْ أَمْرِ قَدْ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ، فَبِعَثَ جُنُودَهُ فَوَجَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْنِ أَرَاهُ قَالَ: بِمَكَّةَ، فَلَقُوهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي حَدَثَ فِي الْأَرْضِ" (2).

3- عَنْ عَامِرٍ (3)، قَالَ: سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ (4) هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: فَقَالَ عَلْقَمَةُ، أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ: هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشَّعَابِ. فَقُلْنَا: اسْتَطِيرَ أَوْ اغْتِيلَ. قَالَ: فَبِتْنَا بِبَشْرِ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءَ مِنْ قَبْلِ حِرَاءٍ. قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِبَشْرِ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: "أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ" قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَأَثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الرَّادَ فَقَالَ: "لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفَتْ لِذَوَابِكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، (ج 1/331)، حديث رقم: 449.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط 2، 1395هـ - 1975م، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الجن، (ج 5/427)، رقم الحديث: 3324، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(3) هو عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي الحميري الكوفي، تابعي كبير، روى عن سبعة وأربعين صحابياً، توفي سنة مائة وثلاث أو بعدها بقليل. انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر، (ج 5/65)، برقم: (110).

(4) هو عَلْقَمَةُ بن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي، تابعي ثقة ثبت فقيه عابد، ولد في حياة النبي ﷺ وتوفي بعد 60 وقيل: بعد 70. انظر: تهذيب التهذيب، (ج 7/276)، برقم (485).

فَلَا تَسْتَجُوبَا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامٌ إِخْوَانِكُمْ<sup>(1)</sup>.

4- عَنْ زُرِّ<sup>(2)</sup>، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: "هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِبَطْنِ نَخْلَةَ<sup>(3)</sup> فَلَمَّا سَمِعُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا. قَالُوا: صَه. وَكَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾<sup>(4)</sup> [الأحقاف: 29-32].

5- قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ<sup>(5)</sup>، قَالَ: لَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ، عَمَدَ إِلَى نَفَرٍ مِّنْ ثَقِيفٍ... [ثم ساق قصة طويلة وفي آخرها] ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ انصرفت من الطائف راجعاً إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمر به نفر من الجن الذين ذكروهم الله تبارك وتعالى، وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن أهل نصيبين<sup>(6)</sup>، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منظرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. فقص الله خبرهم عليه ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: 29]... إلى قوله تعالى: ﴿وَيُجْرِكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾<sup>(7)</sup> [الأحقاف: 31]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، (ج 332/1)، رقم الحديث: 450.

(2) هو زر بن حبيش بن حباشة بن أوس بن هلال الأسدي، أدرك الجاهلية ولم ير النبي ﷺ، من أجلاء التابعين، كان عالماً بالقرآن، قارئاً فاضلاً، توفي سنة ثلاث وثمانين. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر القرطبي، ت: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1412هـ - 1992م، (ج 2/563)، برقم: (869).

(3) هي نخلة اليمانية، موضع على الطريق القديم بين مكة والطائف. انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث الحربي، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط 1، 1402هـ - 1982م، (ص 317).

(4) أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب التفسير، تفسير سورة الأحقاف، (ج 2/495)، رقم الحديث: 3701، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(5) هو محمد بن كعب بن حيان بن سليم القرظي المدني، تابعي ثقة عالم كثير الحديث ورع، من أئمة التفسير، توفي سنة ثمان ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين أحمد بن محمد بن عثمان الذهبي، ت: بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1405هـ - 1985م، (ج 5/65)، برقم: (23).

(6) بالفتح ثم الكسر، مدينة عامرة من بلاد جزيرة العراق، على الطريق من الموصل إلى الشام. انظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط 2، 1995م، (ج 5/288).

أَوْحَىٰ إِلَيْ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴿[الجن: 1] ... إِلَىٰ آخِرِ الْقِصَّةِ مِنْ خَبَرِهِمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (1).

وقد جعل كثيرٌ من كتابِ السيرةِ حادثةَ استماعِ الجنِّ للقرآنِ متأخرةً إلى ما بعدَ السنةِ العاشرةِ للبعثةِ، وقوفاً على ظاهرِ روايةِ ابنِ إسحاقَ أعلاه، كابن سعدٍ في الطبقاتِ وابنِ إسحاقَ في سيرتهِ، والواقدي في مغازيه (2).

### ثانياً: مناقشةُ الرواياتِ:

1- أن قولَ من قالَ أنَّ قدومَ الجنِّ كانَ بعدَ رجوعِ النبيِّ ﷺ من الطائفِ ليسَ صريحاً في الأوليةِ، بل إنَّ حديثَ ابنِ عباسٍ في اشتدادِ رميِ الجنِّ بالشُّهْبِ إبانَ مبعثِ النبيِّ ﷺ وطلبِهِم معرفةً سببِ ذلكَ دالٌّ على أنَّ هذا الاستماعَ كانَ في أولِ العهدِ (3).

وردُّ بأنَّ الروايةَ ذكرتِ استماعَهُم في صلاةِ الفجرِ، والصلاةُ على هيبَتها الحاليةِ لم تُفرضَ إلا بعدَ حادثةِ الإسراءِ - أي قبلَ الهجرةِ بنحوِ سنتينِ -، والتنصيصُ على صلاةِ الفجرِ يجعلُ الروايةَ مشكّلةً؛ إذ إنَّ كُتَّابَ السيرةِ ذكروا القصةَ بعدَ رجوعِ النبيِّ ﷺ من الطائفِ وقبلَ حادثةِ الإسراءِ.

والجوابُ على هذا الاعتراضِ من وجهين:

- الأول: لا ريبَ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يصلي قبلَ فرضِ الصلواتِ خمساً، فيحملُ قولُ الراوي في هذه الروايةِ على صلاةِ الغداةِ أولَ النهارِ، ويكونُ إطلاقُ صلاةِ الفجرِ باعتبارِ الزمانِ لا باعتبارِ كونها من الخمسِ، وتكونُ القصةُ قد وقعتَ أولَ المبعثِ النبويِّ، وقد نَبَّهَ إلى هذه اللطيفةِ ابنُ حجرٍ لم يُسبقَ إليها - كما ذكرَ -، فهو ممَّن يروونَ تقدّمَ استماعِ الجنِّ أولَ المبعثِ (4).

- الثاني: حملُ الرواياتِ على تعدُّدِ القصةِ (5)، فتكونُ قصةُ الاستماعِ في صلاةِ الفجرِ متأخرةً

---

(1) سيرة ابن هشام، (ج 1/419-422).

(2) انظر: الموسوعة في صحيح السيرة النبوية - دراسة موثقة لما جاء عنها في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة والروايات التاريخية المعتمدة علمياً مرتبة على أعوام عمر النبي صلى الله عليه وسلم (العهد المكي)، محمد إلياس عبد الرحمن الفالوذة، مطابع الصفا - مكة، ط 1، 1423 هـ، (ص 481).

(3) انظر: فتح الباري، ابن حجر، (ج 7/1729).

(4) انظر: المرجع السابق، (ج 8/671-672).

(5) ذكر العيني أن قصة استماع الجن وقعت ستّ مرات، أربعاً بمكة وثلثين بالمدينة. انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ج 16/309).

بعد فرض الصلاة، وتكون سورة الجن نازلةً في غير هذه القصة، وإنما أُتي بها في رواية ابن عباس تنبيهاً على ما كان من استماعهم وإعلام الله نبيه بما كان منهم، ويدل على أن النازل في قصة استماعهم في صلاة الفجر غير سورة الجن أن روايات أخرى لنفس القصة ذكرت أن النازل آيات الأحقاف كما في الروايتين الرابعة والخامسة أعلاه.

2- أن الموضعين النازلين في قصة استماع الجن لقصتين متغايرتين، فسورة الجن تدل على أن الجن الذين استمعوا كانوا نصارى بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: 3]، فعقيدة نسبة الولد إلى الله اشتهرت عن النصارى - وإن كانت موجودة عند طوائف من اليهود -، وآيات الأحقاف تدل على أن المستمعين يهود، بدليل قوله: ﴿قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30]<sup>(1)</sup>، فإذا قلنا بأن آيات الأحقاف هي التي نزلت في حادثة نخلة تعين أن سورة الجن نزلت قبل.

3- نصت سورة الجن على أن النبي كان في نفر من أصحابه لما استمع إليه الجن، وقد ثبتت في السيرة أن النبي لما رجع من الطائف لم يكن معه سوى فتاه زيد بن حارثة، قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 19] "لَمَّا رَأَوْهُ يَصَلِّي وَأَصْحَابُهُ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، قَالَ: تَعَجَّبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾"<sup>(2)</sup>، فيترجح بهذا الاستدلال القوي أن الآيات التي نزلت بنخلة هي آيات الأحقاف وأن سورة الجن نزلت بشأن الاستماع الأول الذي كان أول البعثة.

وقد أحسن صاحب اللؤلؤ المكنون في الجمع بين الروايات بقوله: "ثَبَّتَ تَعَدُّدُ وُفُودِ الْجِنِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا أَوَّلًا كَانَ سَبَبَ مَجِيئِهِمْ مَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ إِرْسَالِ الشُّهُبِ، وَسَبَبُ مَجِيئِ الَّذِينَ فِي قِصَّةِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُمْ جَاءُوا لِقَصْدِ الْإِسْلَامِ، وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَالسُّؤَالِ عَنْ أَحْكَامِ الدِّينِ... أما حديث أبي هريرة فهو من أقوى الأدلة على تعدد القصة؛ فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد الهجرة، والقصة الأولى كانت عقب المبعث"<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: التفسير الحديث، دروزة، (ج 2/66).

(2) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الجن، (ج 5/427)، رقم الحديث: 3323، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(3) اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية، موسى راشد العازمي، المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط 1، 1432هـ - 2011م، (ج 1/163).

### ثالثاً: الترجيح:

لأجل ما قدّمنا يترجّح للباحث أن استماع الجنّ للقرآن الكريم كان أول البعثة في سني الدعوة السرية، وأن سورة الجنّ كانت المعلّمة للنبي ﷺ بهذا الاستماع، ثمّ لمّا ظهرت دعوة النبيّ - صلى الله عليه وسلم - أتوه فقرأ عليهم سورة الرحمن النازلة أول الدعوة الجهرية كما صحّ في الحديث<sup>(1)</sup>، ثمّ كان منهم الاستماع لأجل تحمّل القرآن والبلاغ به ببطن نخلة عندما أنزل على النبيّ ﷺ آيات سورة الأحقاف، ثمّ كان منهم الاستماع بالمدينة.

وقد اختار جمع من المحقّقين هذا الترجيح، ومن هؤلاء ابن حجر - وقد أشرنا إلى اختياره أعلاه -، ومنهم ابن عطية<sup>(2)</sup>، والفخر الرازي<sup>(3)</sup>، وجعل القرطبي ليلة الجنّ ليلتين: الأولى للإيمان، والثانية التي بنخلة لإنذار قومهم<sup>(4)</sup>، واستشكل ابن كثير كون أول استماع الجنّ ليلة رجوع النبيّ - صلى الله عليه وسلم - من الطائف لحديث ابن عباس في الشّهب فرجّح أن مبدأ استماعهم كان أول المبعث<sup>(5)</sup>، وقد عدّ صاحب اللؤلؤ المكنون القول بأنّ الجنّ استمعوا القرآن أول مرة بعد عودة النبيّ من الطائف وهماً من ابن سعد وابن إسحاق<sup>(6)</sup>، ووضع الدكتور أكرم ضياء العمري حادثة استماع الجنّ القرآن في آخر عهد الدعوة السرية<sup>(7)</sup>، وقد جعل شارح المواهب اللدنية قدوم الجنّ على النبيّ بنخلة مرتين، الأولى قبل رحلة الطائف وهي التي كان الاستماع فيها أول مرة، والثانية مرجّعه من الطائف<sup>(8)</sup>.

### رابعاً: ارتباط الجنّ بالقرآن:

بعد أن تبين لنا تقدّم استماع الجنّ للقرآن ثم تحمّلهم الدعوة به نعود الآن إلى موضوع

- 
- (1) انظر الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرحمن، (ج 399/5)، رقم الحديث: (3291). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (2150)، وقال: حسن.
  - (2) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 104/5).
  - (3) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 665/30).
  - (4) انظر: تفسير القرطبي، (ج 216/16).
  - (5) انظر: تفسير القرآن العظيم - تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420 هـ - 1999 م، (ج 290/7).
  - (6) انظر: اللؤلؤ المكنون، العازمي، (ج 160/1).
  - (7) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، (ج 140/1).
  - (8) انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الكتب العلمية، ط 1، 1417 هـ - 1996 م، (ج 63/2).

البحث الرئيس ألا وهو ارتباط الإنسان بالقرآن، وهنا ثَمَّتْ تساؤلٌ: لماذا عنونَ الباحثُ بحثَهُ بـ(الإنسان) والجنُّ هاهنا داخلونَ في بناءِ القرآنِ لهذهِ العلاقةِ؟

ويأتي الجوابُ سريعاً بما عنونَهُ أهلُ البلاغةِ بـ(التغليب)، وهي طريقةٌ قرآنيةٌ مشهورةٌ في طياتِ خطاباتِ القرآنِ، فهو يخاطبُ الإنسانَ في كثيرٍ من آياته، والجنُّ لا ريبَ داخلونَ في خطابه، قالَ عندَ قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: 10]: "والخطاب للجن والإنس، لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما"<sup>(1)</sup>، فضلاً على أن الإنسان هو العنوان الرئيس والأصيل في خطابات القرآن، وكذا في مقصودِ بحثنا، أمَّا خطابُ الجنِّ فقد أتى فرعاً عن عمومِ خطابِ الله عبادةً بالقرآن، أضف إلى ذلك احتمالَ لفظِ (الناس) في اللغةِ لدخولِ الجنِّ فيه، قال في الصحاح: "والناس قد يكون من الإنس ومن الجن"<sup>(2)</sup>.

فإذا اتَّضحَ هذا فلنعدُ إلى بيانِ ارتباطِ هؤلاءِ المخلوقاتِ بالقرآنِ، لقد كانَ الدافعُ الأولُ الذي حرَّكَ الجنَّ حتى وقعَ لهم ما وقعَ من الاستماعِ للقرآنِ، طلبَ معرفةِ الأمرِ العجيبِ الذي لأجلِهِ امتلأتِ السماءُ شهباً فَمُنِعُوا من مقاعدِ الاستراقِ - كما رأينا أعلاه -، فيسرَّ اللهُ لهم إذ ذاكَ مصادفةً رسولَ اللهِ ﷺ مصلياً صلاةَ الغداةِ ببعضِ البقاعِ خارجِ مكةَ، فطرقَ القرآنُ المبینُ مسامعَهم - وهم لا ريبَ جنُّ عربٌ بلغاءٌ حيثُ وعوا ما سمِعوا - فبهزَمَ القرآنُ العظيمُ بعجيبِ أسلوبِهِ وجليلِ معانيهِ فنزلَ عليهم برداً وسلاماً بعجيبِ نظمِهِ، وبصائرٍ بيناتٍ بجليِّ حقائقِهِ، فانفتلوا مسرعينَ إلى قومِهِم الذينَ بعثوهم مستكشفينَ يخبرونَهُم بأمرِ هذا الكلامِ العجيبِ، ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: 1]، وقد أثرَ القرآنُ في هؤلاءِ النفَرِ من الجنِّ تأثيراً شديداً حيثُ وصفوه بالعجيبِ في نظمِهِ وأسلوبِهِ ومعانيهِ، ولم يتردِّدوا للحظةٍ في المسارعةِ إلى إعلانِ إيمانِهِم به كما يُشعرُ به التعقيبُ بالفاءِ في قوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 2]<sup>(3)</sup>.

ويظهرُ لنا هنا ما بيَّناه سابقاً في حقِّ الإنسانِ من أهميةِ لغةِ القرآنِ وبيانهِ في جذبِ الناسِ إليه وبناءِ العلاقةِ معه، فهذا المعنى تحقَّقَ في شأنِ الجنِّ أيضاً بأبينَ ما يكونُ.

ثمَّ لما آمنَ هؤلاءِ النفَرُ من الجنِّ وآمنَ بعدهم ما اللهُ به عليهم من ورائهم ممَّن هم من جنسِهِم

---

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، 1412هـ - 1992م، (ج 318/13).  
(2) تاج اللغة وصحاح العربية، (ج 3/987).  
(3) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 131/15).

رجعوا كرةً أخرى إلى مصدرِ هذا القرآن، إلى النبي ﷺ ليُكملوا بناءَ العلاقة مع هذا القرآن العجيب بإقامة ركنِ الدعوة به بعدَ تحمُّله، وذلك ما كانَ منهم بنخلة مرجع النبي ﷺ من الطائف - كما حَقَّقناه أعلاه - فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: 29-32].

فالأيات جليةً البيان في حمل هؤلاء النفر من الجنِّ الدعوة إلى الله بهذا القرآن وهي تسجل قطعةً نفيسةً من كلامهم في دعوة قومهم إلى الله وإلى كتابه وإلى نبيه ﷺ.

وقد سجلت سورة الجنِّ طرفاً وافياً من أحوال الجنِّ كافرهم ومؤمنهم مع خالق الكون ومع هذا القرآن، بدءاً بقضية توحيد الله وتنزيهه، ومروراً بتسلُّط الجنِّ على كثير من الإنس، ثم ذكر بعض أحوال الجنِّ في استراق السمع وانقسامهم إلى صالح وفاسق، وحالهم مع القرآن... إلخ.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- هذا القرآن شأنه عظيم، وأمره جَلَّ خطير، فما إن بدأت أول آياته تنزل على هذه الأرض حتى أعلنت حالة الطوارئ القصوى في طبقات الجوّ العليا، فانبرت الشهب بكل ما تحويه من عظمة خلقها والتهاب جرمها وفائق سرعتها وعجيب تكوينها، انبرت تقذف أولئك الشياطين الذين يسترقون طرفاً يسيراً من خبر السماء فتحرقهم حرقاً كي لا يكون لهم موطئ قدم في تلك المقاعد، ليس لتمنعهم من استراق القرآن والذهاب به إلى شياطين الإنس، وإنما لتمنع مجرد استراق كلمة منه يُشوشون باستراقها على القرآن أن يكون مع شياطين الإنس من الكهان وغيرهم شيئاً يُشبهه أو كلمة من نفائسه.

فحريّ بقرآن هذا شأنه في الملأ الأعلى، تنتصر له جمادات الأرض من الشهب وغيرها، أن يُكرّم أيّما تكريم ويُعظّم أيّما تعظيم بين البشر الذين نزل فيهم ولهم.

2- إن لهذا القرآن أثراً عجيباً على النفس - كما قلنا من قبل - يتأكّد ويتضح بصنيعه في أمة الجنِّ، فلإن كان الجنُّ ذوو الطبائع المغايرة للإنس، والذين لم يتوجّه إليهم خطاب القرآن أصالةً وابتداءً وإنما تبعاً، قد بهروا بدقيق نظمهم وعجيب أسلوبه وقِيم معانيه فبادروا إلى الإيمان به، فهذا الإنسان أولى بأن يُبهر بكتابه الذي أنزل إليه فينكب عليه تعلماً وتدبراً وتأملاً ونظراً ودراسةً وتعلماً حتى يبلغ مبلغ تشرب بديع أسلوبه وتضلع عظيم معانيه.

والناظرُ في حكاية القرآن حال الجنِّ عند استماعهم القرآنَ يلمحُ في هذه الحكاية لغةً عتابٍ بل وتبكيّةٍ للإنسِ الذين استقرَّ القرآنُ بينهم يسمعونَه ليلَ نهارَ فلا يسترعي أسمعهم ولا يُحرِّكُ قلوبهم كما كانَ من حالِ إخوانهم من الجنِّ.

### المطلب السادس: بيان حال الكافرين مع القرآن

لم يشرع القرآنُ في بيان حال المشركين معَه والردِّ عليهم إلا بعدما ظهرَ حالهم هذا مع بداية الجهرِ بالدعوة بعدَ سنتين أو ثلاثة من البعثة، فلمَّا ظهرَ حقُّ الكفارِ على القرآنِ واستهزأهم به وطعنهم فيه وصدُّ الناسِ عنه - وغير ذلك، تتابعت ردودُ القرآنِ عليهم بالحججِ الواضحاتِ الساطعاتِ، وهذه أبرزُ ملامحِ حربهم على القرآنِ بحسبِ التدرجِ الزمانيِّ:

#### أولاً: الاستهزاء بالقرآن والإعراض عنه:

وأولُ ما كانَ من المشركين في حقِّ هذا الكتابِ العظيمِ إعراضهم عنه وتجاهلهم له واستهزأؤهم به رغمَ ما أيقنته نفوسهم من صدقِهِ وهيبته التي لا تقوى نفسٌ متجرِّدةً على مقاومتها، وقد قرَّرَ اللهُ ذلكَ في سورة النجم التي كانت من أوائلِ السورِ التي نزلت مع الجهرِ بالدعوة<sup>(1)</sup> ﴿أَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ۝ وَتُضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنْتُمْ سَلِيمُونَ ۝ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۝﴾ [النجم: 59-62]، أي: أتعجبون يا مشركي مكة من أن أنزل اللهُ هذا القرآنَ على محمدٍ ﷺ، وتضحكون منه مستهزئين به، ولا تبكون مما فيه من الوعيدِ لأهلِ المعاصي، وأنتم سامدون: أي لاهونَ عما فيه من العبرِ، معرضونَ عن آياته<sup>(2)</sup>.

#### ثانياً: تكذيب القرآن والطعن في مصدره:

ولمَّا رأى المشركونَ أن مجردَ الاستهزاء بالقرآنِ والإعراضِ عنه لا يكفي لثني الأتباعِ عن الاستماعِ إلى لغةِ القرآنِ الباهرة ترقوا رتبةً في حربهم ضدَّ القرآنِ فلجأوا إلى وسيلةٍ أخرى هي الطعنُ في القرآنِ بادِّعاءِ أنه ليسَ من عندِ الله، وقد كانَ الذي ابتدرَ هذا الأمرَ وافتتحه وتولى كبره الوليدُ بنُ المغيرة لما حملَه كبرُه وخشيَةُ قريشٍ أن يعيبوه على الطعنِ في هذا القرآنِ بعدما قرءَ في قلبه صدقُه ورقُّ له، فقال فيه قولته المشهورة (إن هذا إلا سحرٌ يُؤثرُ)، فنزلت بقیةُ المدثرِ<sup>(3)</sup> تصكُّ

(1) انظر المطلب الأول من المبحث الأول من هذا الفصل، ص (24).

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 558/22).

(3) انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط 4،

1408 هـ - 1987 م، (ص 225).

قولته وتتوعده على افترائه كونه قد عرف الحق ثم حاد عنه بل وطعن فيه، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۚ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأَرْهِفُهُ ۚ صُعُودًا ۚ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۚ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ثُمَّ أَدْبَرَ ۚ وَأَسْتَكْبَرَ ۚ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۚ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأُضْلِيهِ سَقَرَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۚ لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ ۚ لَوَاحِئُهُ لِلْبَشَرِ ۚ عَلَيْهِمَا تِسْعَةٌ عَشْرَ ۝﴾ [المدثر: 11-30]، وقد وصفت الآيات بدقة حال الوليد وهو في عبوسه واكفهاره وجهه يجتهد أن يجد قولاً في القرآن تجتمع عليه العرب بعدما حاصرته آيات القرآن الباهرة، فقيل له: نقول إنَّ محمداً مجنونٌ، فقال: تخاطبه العرب فيعلمون أنه ليس بمجنونٍ، فقالوا: إذن شاعرٌ، فقال: هم العرب يعلمون الشعر وأنَّ ما أتى به ليس بشعرٍ، فقالوا: إذن كاهنٌ، فقال: إنَّ الكهنة لا تقولُ يكونُ كذا وكذا إن شاء الله، وهو يقولُ إن شاء الله، قالوا إذن صبوتُ يا ابنَ الوليد، نجتمع لك ما لا كي لا تكونَ مع محمدٍ، فاستفروه بقولهم فقال: ما هذا إلا سحرٌ يأتُرُه عن مسيلمة وأهل بابل<sup>(1)</sup>.

ثم تتابعت الآيات تتحدث عن تكذيب المشركين بآيات الله وطعنهم فيها، ﴿قَدَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ۝﴾ [القلم: 44-46]، ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ۝﴾ [ص: 8]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ۝﴾ [الأعراف: 40] ... إلخ.

### ثالثاً: إثارة الشبهات في القرآن:

فلما فشلت تلك الوسيلة المبنية على الجحود والعناد لجأ المبطلون إلى وسيلة أخرى هي إثارة الشبهات والشكوك في القرآن، فسطر الله ذلك في سورة الفرقان أولاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝﴾ [الفرقان: 32-33]، وقد تحدثنا عن سبب نزولها سابقاً<sup>(2)</sup>، ثم ذكر شبهة أخرى في سورة مريم ﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري أبو إسحاق الزجاج، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط 1، 1408 هـ - 1988 م، (ج 247/5).

(2) انظر المطلب الأول من المبحث الأول من هذا الفصل ص (22).

الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ [مريم: 73]، وملخص هذه الشبهة أن المشركين قالوا للمؤمنين طالما أنكم على الحق ونحن على الباطل فلماذا نحن في نعمة وأنتم في بؤس، أليس الخير يأتي بالخير؟! (1) ... ويتتابع إلقاء الشبهات.

#### رابعاً: صد الناس عن القرآن:

ثم لما سلكوا في الطعن في القرآن كل سبيل فما أفلحوا في ثني الناس عن الإقبال عليه لسطوع برهانه وقوة حجته وإعجاز لغته لجأوا إلى طريق لا يسلكها إلا الذين بهتوا فأخذوا يمنعون الناس عن مجرد الاستماع إلى هذا القرآن فرقاً من سحر تأثيره على قلوبهم وعقولهم، وقد تزامن هذا مع بدء النبي ﷺ الخروج إلى الأسواق والقبائل المحيطة بمكة بعد هجرة الحبشة الأولى السنة الخامسة أو السادسة للبعثة (2)، قال تعالى واصفاً حالهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: 25-26]، فهم ينهون الناس عن اتباع الحق الأبلج والانتقاد للقرآن وابتعدون هم عنه أيضاً فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون ولا يتركون غيرهم ينتفع (3).

#### لطيفة دقيقة:

وفي البداية بالنهي قبل النأي معنى دقيق يجليّه القرآن المبين بهذا الترتيب المعجز، فالمتبادر من حال من يمنع الناس عن القرآن أن يكون هو أولهم امتناعاً، ولكن ترتيب الآية على هذا النسق (ينهون... يئنون) لا بدّ يشير إلى لطيفة دقيقة، فما هي يا ترى؟

نكر الشيخ الشعراوي - رحمه الله - لطيفة مفادها أن مقصود هؤلاء الزعماء أولاً كان نهى الناس كي لا يتحقق لرسول الله ﷺ السيادة فيفقدوا هم زعامتهم، فقدّمت الآية ما شأنه الاهتمام أولاً (4).

وقد ظهر للباحث لطيفة أخرى دقيقة في هذا التقديم تُنبئ عن شدة وقع وأثر هذا القرآن في نفوس المشركين، وتكشف حبيثة نفوسهم وتسبر أعوارها في إشارة نفسية معجزة، فهم رغم

(1) سبق بيان هذه الشبهة في المطلب الثالث من المبحث الأول من هذا الفصل ص (43).

(2) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج 2/1020).

(3) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 1/540).

(4) انظر: تفسير الشعراوي، (ج 6/3573).

نهيهم الناس عن الاستماع إلى القرآن خوفاً من انسحاب بساط الزعامة من تحت أرجلهم إلا أن نفوسهم لم تقوَ على عدم الاستماع إلى هذا الكلام العظيم المبين، فبدأوا بنهي الناس ومازال حالهم الخفي عن الناس أنهم يتسللون في جنح الظلام كي يستمعوا إلى هذا القرآن، وقد ذكرت السيرة قصة عن بعض زعمائهم: أبي سفيان وأبي جهل والأخنس بن شريق، أنهم فعلوا ذلك ثلاث ليالٍ متتابعاتٍ والطريق في كلِّ مرةٍ يجمعهم حتى تعاهدوا في المرة الثالثة ألا يعودوا ليس لشيءٍ إلا خشيةً أن يراهم من ينهونهم من الأتباع فيفقدوا ثقتهم بهم<sup>(1)</sup>، فكشف القرآن المعجز بنظمه في هذه الآية هذه الحقيقة وأنبأ عن نفسية منهزمة من الداخل متعطرسية في الظاهر تحاكي حال الطغاة المتكبرين اليوم مع هذا القرآن المبين.

وقد وسع المشركون طريقتهم هذه في الصّد عن الاستماع للقرآن مع جهر النبي ﷺ به على رؤوس الناس وجهر صحابته به في نوادي المشركين فاحتاجوا حينها إلى إضافة عنصر التشويش على هذا القرآن كي لا يصل لفظه ولا معناه تبعاً إلى الموجودين في مكان التلاوة، وقد ذكر الله هذه الوسيلة في سورة فصلت النازلة بعد الأنعام ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26]، الغوا: أي عارضوه بكلام لا يفهم واللغو الكلام الذي لا تفهم حقيقته<sup>(2)</sup>، قال مجاهد: "بالمكاء والتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، قریش تفعله"<sup>(3)</sup>.

#### خامساً: أهل الكتاب يحملون لواء الحرب على القرآن في المدينة:

وقد حمل لواء الحرب على القرآن لما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة أهل الكتاب عموماً واليهود منهم خاصةً، جنباً إلى جنب مع المشركين - فنهجوا نفس غايات المشركين في الاستهزاء والتكذيب والطعن وإثارة الشبهات والصد عن القرآن وإن كانت وسائلهم في تحقيق هذه الأهداف تختلف.

فأول ما بدأوا به الكفر والتكذيب بهذا القرآن رغم علمهم اليقيني بصدقه مما لديهم من بشارات به في كتبهم، ففي البقرة ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

(1) انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ت: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط 1، 1414 هـ - 1993 م، (ج 352/2). وقال مصنف الكتاب: أن سند الرواية صحيح.

(2) معاني القرآن، الزجاج، (ج 384/4).

(3) تفسير الطبري، (ج 460/21).

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ [البقرة: 89-91].

وقد سجّل القرآن العظيم في سورة آل عمران صورتين من صور مؤامراتهم للطعن والتشكيك في القرآن، فالأولى كانت بتتبع المتشابه ابتغاء الطعن في القرآن وفتنة الناس عنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧٠﴾ [آل عمران: 7]، وكانت الثانية تأمرهم بالإيمان ظاهراً بالقرآن ثم النكول إلى الكفر به إرجافاً للمؤمنين سيما أنهم أهل كتاب يعلمون ما لا يعلم المشركون، ﴿وَقَالَتِ طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧١﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَى اللَّهُ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلْ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ [آل عمران: 72-73].

ولإن كان أهل الكتاب شركاء للمشركين في حربهم على القرآن إلا أنهم فاقوهم في حقدهم وإجرامهم، وهذا ما قرره القرآن العزيز في حديثه عنهم في موضعين في المائدة: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: 64]، فهذا إعلام بفرط عنوهم وعنادهم وكفرهم، لأن أصل الطغيان مجاوزة الحد<sup>(1)</sup>.

سادساً: تثبيت الله للمؤمنين:

وقد اتبع القرآن منهجاً مزدوجاً في الرد على المشركين في موقفهم من القرآن، فهو في حين يرد عليهم ويفند أباطيلهم ويهددهم، يثبت قلوب المؤمنين بهذا القرآن، وأول ما بدأ به التثبيت توجيه المؤمنين إلى التماس صدق القرآن من الصادقين من أهل الكتاب، وكان ذلك في سورة يونس لما اشتدت حملة المشركين على القرآن بكل سبيل وضيقوا على المؤمنين حتى دنا وقت هجرتهم إلى الحبشة، ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ

(1) انظر: البحر المحيط، أبي حيان، (ج 4/316).

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ [يونس: 94-95]، قال ابن عباس: "ما شكَّ رسولُ الله ﷺ وما سأل" (1)، قال ابن عطية: " والصواب في معنى الآية أنها مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض" (2).

ثمَّ وجَّههم إلى مجافاة مجالس الكفارِ حالِ خوضهم وطعنهم في هذا القرآنِ كي تبقى صدورهم سليمةً مما قد يُحدثه كثرةُ الخوضِ والتشويشِ على القرآنِ من أثرٍ في نفوسِ المؤمنينَ وتنزيهاً لأسماعهم أن تلوَّثها تلك التُّرَّهاتُ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: 68].

وكرَّرَ عليهم هذا التحذيرَ في العهدِ المدنيِّ سيِّماً مع مخالطتهم لأهلِ الكتابِ الذين فاقوا المشركينَ في الاستهزاء بالقرآنِ والطعنِ فيه ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذًا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: 140].

سابعاً: الطريقة المنهجية للقرآن في رده على الكفار:

نلاحظ من العرض السابق أنَّ القرآنَ الحكيمَ قد نهجَ طريقةً متزنةً دقيقةً في رده على أباطيلِ المبطلينَ حول هذا القرآنِ.

فهو أولاً لم يُبادئ المشركينَ حتى بادؤوه، فلم نرَ في فترةِ الدعوةِ السريةِ حديثاً عن ردودِ القرآنِ على أهلِ الباطلِ علماً بأنَّ هذه الشبهاتِ - لا ريبَ - كانت موجودةً في نفوسِ المشركينَ وفي مجالسهم الخاصة قبل الجهرِ بالدعوة، لكنهم إذ ذاك لم يستعدوا رسولَ الله ﷺ ولا دعوته فسكت القرآنُ عنهم.

ثمَّ إنَّ القرآنَ قد أعطى كلَّ وسيلةٍ من وسائلِ المشركينَ في حربهم على القرآنِ الكريمِ مقدارها الأدقَّ وردَّها الأنسبَ بها:

فلماً كان الاستهزاء والإعراضُ قابله القرآنُ بالتوبيخِ وبخطابِ عقولهم أن تنظرَ في هذا القرآنِ، فعلى سبيلِ المثالِ في الواقعة: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الواقعة: 81]، فالإشارةُ

(1) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، (ج 6/1986).

(2) المحرر الوجيز، ابن عطية، (ج 3/143).

إلى القرآن ب(هذا) تقول لهم: أي هذا القريب منكم، الكائن بينكم، الذي تعرفون بديع بلاغته وعلو لغته وصدق أخباره.

أمّا عندما انتقلوا إلى مرحلة التكذيب والطعن في مصدر القرآن الناشئ عن الجحود والعناد قابلهم بالتهديد والإيعاد، فالجأحُد لا يلائمه إلا التهديدُ فما عاد يجدي معه الإقناعُ لأنّه أصالةً مقتنعٌ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: 40].

ولمّا سلكوا سبيل إثارة الشبهات والتي قد تشوّش على عقول المؤمنين أو الباحثين عن الحقّ سلك القرآن معهم أسلوباً عقلياً هادئاً مستبصراً إذ إنّ الشبهة لا تردُّ إلا بالحجة، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحقِّ وأحسن تفسيراً ﴿﴾ [الفرقان: 32-33].

ثمّ لمّا نهجوا نهج الصدِّ عن القرآن ردّ عليهم القرآن بالوعيد العمليّ فالردُّ يتناسب طردياً مع شدة الفعل، فضاغف لهم الوعيد بما كسبوا من آثام من صدّوهم، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 26]، «قالمراد بالهلاك هنا ما يلقونه في الدنيا من القتل والمذلة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب»<sup>(1)</sup>.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة ممّا سبق

1- علّمنا القرآن الكريم المناسبة والمواقفة في الردود على المبطلين الذين يطعنون في هذا الكتاب العظيم، وإذا ألقينا نظرة سريعة على حال أعداء الإسلام في حربهم على القرآن وكمّ الشبهات التي يثيرونها وسطوتهم في صدّ الناس عن القرآن، وفي المقابل ردود المسلمين عليهم ندرك مدى الضعف الذي مُني به المسلمون اليوم في دفاعهم عن كتابهم وتنظيم جهودهم في هذا الدفاع، نعم هناك مؤسسات وجمعيات متفرقة هنا وهناك تقوم بجهود محمودية في هذا الباب، لكنّ الأمة للأسف تفتقر إلى تنظيم وتكثيف جهودها للدفاع عن القرآن الكريم، فلو أنّ الجامعات مثلاً تعاونت فيما بينها لإنشاء مراكز متخصصة ينشط فيها علماء الأمة المتخرجون من هذه الجامعات بجهود منظمة وبرامج موجّهة لظهرت قوة وهيبه الإسلام وأهله الذين يدافعون عن كتابهم ولا يألون جهداً في نصرته.

2- يميّز القرآن العظيم بسبر أغوار النفوس وكشف مكانها وتجليه أصناف الناس على

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 183/7).

حقائِقهم، وهو ما يسمّيه أكثرُ العلماءِ الإعجازَ النفسِيَّ في القرآن، وينبغي على الدعاة اليومَ وأهلِ السياسة من المسلمين أن يدرسوا سماتِ الشخصياتِ التي يُقبِلونَ على التعاملِ معها من خلال آياتِ القرآنِ الكريمِ سواءً بأنفسهم أو عبرَ دراساتٍ قرآنيّةٍ متخصصةٍ من هذا القبيل، فإنَّ معرفةَ حقيقةِ النفسِ والشخصيةِ التي يتعاملُ معها الداعي إلى الله ومكامنِ قوتها وضعفها يعينُ بشكلٍ كبيرٍ على إنجازِ مهمةِ الداعي أو السياسيِّ المسلمِ على أتمِّ وجهه، وإنَّ علمَ النفسِ البشريةِ من العلومِ التي تلقى اهتماماً عالياً في الغربِ اليومَ، في حينَ يلقي بالكادِ اهتماماً هامشياً لدى الدعاةِ وأهلِ السياسةِ لدى المسلمين.

### المطلب السابع: الدعوة إلى تدبر القرآن

نزل القرآن الكريمُ بآياته الباهرة ولغته الأَسْرَة فاستقبلته قلوبُ الصادقين المتجردين فورَ أن طرقَ أسماعهم، فأقبلوا عليه ينظرونَ في بديع معانيه ويتأملونَ في دقائقِ مراميهِ فخشعت له قلوبهم وأخبئت له نفوسهم فانقادت له جوارحهم بالعملِ والتطبيقِ، وهكذا هو حالُ كلِّ صادقٍ في طلبِ الحقِّ مع هذا الكتابِ المباركِ، وسنتحدثُ عن مراحلِ حديثِ القرآنِ عن تدبره في النقاطِ الآتية:

#### أولاً: الأمرُ العامُّ بالتدبر:

فلما اتسعت دائرةُ الدعوةِ بجهرِ النبيِّ ﷺ بها طرقَ هذا القرآنُ العربيُّ المبينُ آذاناً تفهمُ بأسماعها ولا تعي بقلوبها، قد حجبها عن الوعي والتدبرِ أهواءُ نفوسها، وأصارُ شهواتها، فنزلت آيُ هذا الكتابِ العظيمِ أولَ ما نزلت في هذا البابِ تبيُّنٌ وتقرُّرٌ لهؤلاءِ الغافلينَ خاصةً وللناسِ أجمعينَ عامةً الغرضُ الذي لأجله أنزلَ اللهُ هذا الكتابَ المبينَ، فكانت آيةُ سورةِ (ص) ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: 29].

وقد نزلَ في التدبرِ آياتٌ أربعٌ، هذه التي في (ص) بيانٌ، والثلاثةُ الأخرُ إنكارٌ ونعيٌّ، فلما كانت هذه بياناً دخلَ في خطابها المؤمنونَ، ودلَّ على هذا العمومِ أنَّ في الآيةِ قراءتينِ متواترتين:

قرأ أبو جعفرٍ (لِيَدَّبَّرُوا) بقاءً فوقية بعد اللام، مع تخفيفِ الدال، وباقي العشرة (لِيَدَّبَّرُوا) بالياء التحتية وتشديدِ الدال<sup>(1)</sup>.

فقراءةُ أبي جعفرٍ المدنيِّ على الخطابِ، أي أنتم أيها المؤمنونَ، بقرينةِ (أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) أي:

(1) البدر الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، القاضي، (ص 272).

يا محمد، وقراءة الجمهور على الغيبة أي: كل من يعمهم الخطاب ويدخل فيهم المشركون ابتداءً لكونهم أول من حجبهم هواهم عن التدبر.

وتعليق النزول باللام (ليدبروا) نص في أن السبب الأول والرئيس لنزول القرآن تدبر آياته والتفكير في معانيه لا مجرد تلاوته<sup>(1)</sup>.

والتدبر في اللغة من (الدبر) وأصل معناه مؤخر كل شيء وعقبه وخلاف أوله<sup>(2)</sup>.

أما في اصطلاح علماء القرآن فقد عرفه الميداني بقوله: التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة<sup>(3)</sup>.

فالتدبر ليس مجرد الفهم، فالفهم كان واقعاً عند مشركي مكة بمجرد الاستماع إذ هو بلغتهم التي عرفوا أوضاعها وخبروا معانيها، فلو كان التدبر هو ما نسميه اليوم (تفسير القرآن) أي بيان معانيه وإيضاحها لكان الأمر بالتدبر لمشركي مكة ضرباً من العبث يُنزّه عنه الكتاب الحكيم.

فالتدبر معنى أخص من فهم الآيات، فهو النظر في عواقبها وما تقول إليه ومقاصدها وبالتالي العمل بها استحضاراً لما تم إدراكه من عواقبها<sup>(4)</sup>.

كما يشمل التدبر انتفاع القلب بتلك المعاني بخشوعه عند مواظبه، وخضوعه لأوامره وأخذ العبرة منه<sup>(5)</sup>.

فعلّم أنّ التدبر يشمل فهم دقائق المعاني ومقاصد الآيات ثم حضور خشية القلب المترتبة على الفهم ثم العمل بما تم تدبره، وهكذا يشكل التدبر منظومة متكاملة في بناء العلاقة مع القرآن الكريم فهماً ووعياً وخضوعاً وعملاً.

ومن لطائف آية (ص) أنّها مهّدت بين يدي تعليق نزول القرآن بالتدبر بوصف القرآن

---

(1) انظر: حدائق الروح والريحان، الهري، (ج 374/24).

(2) انظر، لسان العرب، محمد بن مكرم، جمال الدين ابن منظور، دار صادر - بيروت، ط 3، 1414 هـ، (ج 268/4).

(3) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط 2، 1989 م، (ص 4).

(4) انظر: تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، رقية طه جابر العلواني، ط 4، 2008 م، (ص 7).

(5) انظر: تدبر القرآن، سلمان بن عمر السندي، المنتدى الإسلامي، ط 2، 1423 هـ، (ص 11).

بـ(مبارك)، فالبركةُ ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشيء، أي: هذا كتابٌ كثيرُ المنافعِ عظيمُ الخيرِ في الدينِ والدنيا<sup>(1)</sup>، فحريٌّ بكتابٍ هكذا وصفهُ أن يُتدبَّرَ ويُتأملَ في دقيقِ معانيه وعميقِ مراميه، ويُنظرَ في جليلِ مقاصده وأحكامه.

ثانياً: الإنكارُ على المشركينَ عدمَ تدبُّرهم للقرآنِ:

استمرَّ حالُ معظمِ كفارِ مكةَ معَ هذا القرآنِ المبينِ على ما كانوا عليه من الإعراضِ ونبذِ النظرِ في آياتِ هذا الكتابِ المباركِ فزادَ عنادُهم وهجرُهم للقرآنِ فترقى القرآنُ معهم رتبةً في حديثه معهم عن التدبُّرِ فنزلتِ آيةُ سورةِ المؤمنونَ تتكرَّرُ عليهم هذا الحالَ في سياقِ بيانِ حالِ هجرهم للقرآنِ وإعراضهم عنه وطعنهم في النبيِّ ﷺ ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَعْقِبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾<sup>(2)</sup> مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٧٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ ﴿٧٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٨٠﴾ [المؤمنون: 66-70]، وسورةُ المؤمنونَ نزلتِ في أواخرِ العهدِ بمكةَ بعدَ السنةِ العاشرةِ للبعثةِ، والاستفهامُ هنا للإنكارِ الواقعيِّ، أي: ما كانَ يصحُّ أن يقعَ ذلكَ لتوافرِ الأدلةِ الداعيةِ إلى الالتفاتِ والتدبُّرِ<sup>(2)</sup>.

ثالثاً: خطابُ المنافقينَ في المدينة:

انتقلَ النبيُّ ﷺ والمؤمنونَ معَه إلى دارِ الهجرةِ والدولةِ فترسَّخت دعائمُ دولتهم وعلا شأنُها شيئاً فشيئاً، وفتحَ اللهُ بهذا القرآنِ المبينِ قلوبَ أهلِ المدينةِ فدخلوا في دينِ اللهِ أفواجاَ عدا ثلثةَ بقيِّ الكُبرِ يحجزُ قلوبها، والتبعيةُ ليهودِ المدينةِ تُكَبَّلُ أيديها، فلما رأوا علوَّ شأوِ هذا الدينِ المباركِ دخلوا في الإسلامِ تقيَّةً كي يحفظوا دماءهم وأموالهم، وقلوبهم لا تزالُ بما حُمِلت من شكِّ وهوى معرصةً عن هذا الكتابِ المبينِ، مقفلةً أمامَ النظرِ في روائعِ معانيه والتدبُّرِ في حميدِ مقاصده ومراميه.

تلكَ هي فئَةُ المنافقينَ الذين لم ينعِ القرآنُ المدنيُّ عدمَ التدبُّرِ إلا عليهم، وذلكَ في آيتينِ بيّنتينِ شديدتي الوقعِ على كلِّ معرضٍ عن تدبُّرِ القرآنِ.

الآيةُ الأولى هي آيةُ (النساءِ) ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَحْثِلًا فَاكثيرًا﴾<sup>(3)</sup> [النساء: 82].

(1) انظر: حدائق الرُّوح والريحان، الهري، (ج 24/373).

(2) حاشية القونوي على البيضاوي، القونوي، (ج 13/200).

والثانية آية (محمد) المتأخرة نزولاً عن النساء - وكلا السورتين على أي حال نزلتا بعد اشتداد ظاهرة النفاق بعد الأحزاب - ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ﴾ [محمد: 24].

ولنا مع هاتين الآيتين وقفات:

1- الاستفهام في كلا الآيتين إنكاري لکنه في آية محمدٍ أُشْرِبَ معنى التوبيخ<sup>(1)</sup>، فالإنكار عليهم متأتٍ من كون هؤلاء المنافقين يغشون مجالس الهدى والقرآن عند رسول الله ﷺ ويسمعون ويفهمون ما يقال فيها، فسباق آية سورة النساء يبين حالهم ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 81]، فهم عند النبي وفي مجلسه يُظهرون الطاعة والانقياد ثم إذا خرجوا من عنده دبوا ليلاً أمراً آخر<sup>(2)</sup>، وآية (محمد) التي تأتي في سباق آيتنا ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِيفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 16]، هم المنافقون كانوا يستمعون خطبة النبي ﷺ فإذا خرجوا سألو أصحابه عما قال استهزاء وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا لما قال<sup>(3)</sup>.

قلنا إن الاستفهام في آية (محمد) زاد على مجرد الإنكار التوبيخ والتعنيف الذي يفهم من وصف قلوبهم بالمقابلة التي ما عادت تستقبل الهدى، وفي هذا التدرج في الإنكار معنى الحكمة البالغة في الدعوة حيث اختلط أسلوب آية النساء باللوم دون توبيخ رجاء أن يذكرها ويتعظوا، فلما زاد عنادهم وإعراضهم حتى بلغوا مبلغ الأقفال على القلوب استحقوا الإنكار عليهم مع التوبيخ والتعنيف<sup>(4)</sup>، ولك أن تقف على البون بين الحالين، فهناك في النساء يستمعون ثم يخرجون فيمكرون دون أن يعلقوا على كلام النبي لكن حالهم ينبئ عن مقالهم، أما هنا في (محمد) فقد بلغ بهم الصلف والعناد أنهم يصرحون مستهزئين بكلام النبي وكان النبي يهذي بكلام لا يفهم فهم يسألون صحابته عنه بعدما سمعوه.

2- ومن بديع أسلوب القرآن في المجانسة بين قبيح فعلهم وبين اللفظ المعبر عن هذا الفعل أن آية النساء لم توجه الخطاب إليهم، فإنهم لما أعرضوا عن القرآن فلم يتدبروه أعرض الله عنهم

(1) انظر: تفسير البحر المحيط، أبي حيان، (ج 3/725) - (ج 9/473).

(2) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 1/350).

(3) انظر: معاني القرآن، الزجاج، (ج 5/10).

(4) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، الميداني، (ص 6).

فلم يجابهم بخطاب<sup>(1)</sup>.

3- قلنا إن آية النساء تلطفت على المنافقين في الإنكار رجاء عودهم، ولذلك فقد استخدمت معهم خطاب العقل والاستدلال بالنظر والتأمل فقالت لهم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، فالاختلاف هنا إما أن يراد به اختلاف بعضه مع بعض، أي: اضطرابه، أو اختلافه مع أحوالهم فهو يصف ما في قلوبهم مما يخالف ظاهرهم وصفاً دقيقاً لا اضطراب فيه يُعلم منه صدق هذا القرآن<sup>(2)</sup>، فكون هذا الاختلاف معدوماً بمعنييه يستدعي من الناظر المتدبر أن يؤمن ويُسلم بأن هذا القرآن من عند الله، وهذا ما لم يحصل لكثير من المنافقين.

4- في آية (محمد) وسبقها دليل بيّن على أن التدبر لا يتحقق إلا بالعمل والتطبيق حيث جاء النعي والإنكار على من لم يتدبر القرآن تذييلاً لما فعله المنافقون من الأعمال القبيحة من ترك القتال في سبيل الله، والإفساد في الأرض عند تولي أمر المسلمين، وتقطيع الأرحام، فلو أنهم تدبروا القرآن لحملهم تدبره إلى فعل نقيض ما اقترفوه.

#### رابعاً: نظرة منهجية:

يتضح من العرض السابق أن الأمر بتدبر القرآن اتخذ مسالك ثلاثة:

- الأول خطاب عام لكل أحد اكتفى فيه القرآن ببيان أن التدبر العلة الرئيسة لنزول القرآن، وأن أصحاب العقول هم الذين يسارعون إلى النظر والتفكير فيه، وفي هذا دلالة على أن المؤمن، وصاحب العقل السليم يندفع تلقائياً لتدبر هذا الكتاب المبين لما في أسلوب القرآن من جاذبية عجيبة تستملك على الناس ألبابهم وتستهو قلوبهم.
- الثاني: خطاب للمشركين الذين هم أكثر الناس درايةً بلغة القرآن، وأكثرهم فهماً لمعانيه، ورغم ذلك حببهم كبيرهم وهواهم عن الوصول إلى ما يريد القرآن منهم، وقد اتسم هذا الخطاب بالإنكار.
- الثالث: خطاب مغلظ للمنافقين من جهتين: من جهة تكريره مرتين خطاباً خاصاً بهم في حين خاطب المشركين مرةً باندراجهم في آية (ص) ومرةً تخصهم في آية (المؤمنون)، ومن

(1) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، الميداني، (ص 5).

(2) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 5/138).

جهة تعنيفهم بأسلوب الإنكار المشوب بالتوبيخ - كما رأينا - وفي هذا إشارة واضحة إلى أن أكثر الناس إعراضاً عن فهم هذا القرآن وتدبره هم المنافقون، ولا غرو، فهؤلاء المنافقين صور كثيرة في كل زمان، يتلونون بحسب قوة المسلمين وضعفهم، فتجدهم يشتغلون أكثر ما يشتغلون في مضادة أحكام الله في كتابه والطعن في آياته، وتحريفها عن مقصودها وتفريغها من مضمونها.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- من عجيب ما خلاص إليه الباحث أن المؤمنين بهذا القرآن المبين قد كفاهم في الإقبال على القرآن وتدبره والعمل به مجرد بيان أهمية ذلك لهم فلم يدخلوا تحت خطاب الإنكار والنعي والتوبيخ، وإنما قلت (عجيب ما...) لما نراه اليوم من عجيب حال أبناء أمتنا من الإعراض عن تدبر هذا القرآن وعدم الإقبال عليه فضلاً عن العمل به، وقد بلغ الأمر ببعض أبناء الأمة أن يصدق عليهم تلك الآيات التي خوطب بها المنافقون نعيًا عليهم وتوبيخاً لهم بما بلغت قلوبهم من اعتلاء الأفعال عليها!

وهذا الحال العجيب يستدعي وقفة صادقة جادة من كل من يحملون هم هذا الدين والدعوة إليه بأن يوجهوا جهودهم وطاقاتهم إلى ربط الناس بهذا القرآن المبارك، فإننا - والله - لو أحسننا طريقة عرض معاني القرآن واستطعنا أن نوصل كنوزه الباهرة إلى الناس بأسلوب محبب سلس لفتح الله قلوب الناس له فإن الله قد يسره للذكر وأودعه من مكامن الإعجاز في لفظه ومعانيه ما يجعل أفئدة الناس تهوي إليه سراعاً لو أحسننا سبل ربطهم به.

ولعلي أذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر تفسيراً من أقرب التفاسير إلى الناس في العصر الحديث دخل كثيراً من بيوت المسلمين هو تفسير الإمام محمد متولي الشعراوي رحمه الله رحمة واسعة، فقد استطاع رحمه الله بما آتاه الله من علم وذكاء وأسلوب قريب أن يخرج ما في بطون كثير من التفاسير من كنوز قرآنية نفيسة بأسلوب قريب تفاعل معه الناس، فنحن نحتاج إلى مثل هذه النماذج وغيرها أن تغزو بيوت المسلمين.

2- لا شك أن الأمة اليوم تشهد جهوداً كبيرة على مستوى تقريب معاني القرآن للناس واستنباط كنوزه، وذلك من كثير من الجامعات والمراكز والجمعيات القرآنية، لكن الذي نفتقر إليه بلورة هذه الجهود في منظومة متكاملة تربط الإنسان بالقرآن، فقد رأينا من خلال البحث أن التدبر يشكل منظومة متكاملة تبدأ بالفهم والنظر في معاني القرآن ومراميه ومقاصده وتنتهي بالعمل والتطبيق.

وبلورة هذه المنظومة لن يكون إلا بتبني مؤسسات الدولة جنباً إلى جنب مع الجمعيات الأهلية هذا العمل، فإن تأثير وزارتي التربية والتعليم والأوقاف في الناس - وخصوصاً النشء - أشمل وأبلغ من غيرها، فلماذا لا تُخصَّصُ دروسٌ وحصصٌ مدرسيةٌ لتدبر القرآن خطوةً خطوةً حتى يربى الجيل على فهم القرآن وحبّه والعمل به منذ نعومة أظفاره؟

3- للمناقين مع تدبر القرآن شأنٌ عجيبٌ استدعى إنكاراً مُغلطاً، فالمناقون قومٌ اختلطوا بالمسلمين وقرأوا القرآن الكريم عن قُربٍ وكثبٍ وسمعوا كلام المسلمين عنه وامتداحهم له، بل وربى كثيرٌ منهم - خاصةً في زماننا اليوم - في الإسلام وعرفوا هيبته هذا الكتاب ثم هم بعد كَلِّ هذا يُعرضون عن القرآن ولا يتدبرونه!

ولقد رأينا في زماننا اليوم نغراً من هؤلاء تصدّوا للطعن في آيات القرآن المبين تحت مسميات: الحداثة، تجديد قراءة النصّ الديني، القراءة المعاصرة للقرآن الكريم... إلخ<sup>(1)</sup>، ومنهج المسلمين مع هؤلاء هو منهج القرآن بحيث يبدؤونهم بخطاب عقولهم بأن يعودوا إلى القرآن فينظروا في اتساق آياته وخلوه من الاختلاف، وأن يبين هذا لهم مرةً بعد مرة، فإن أبوا وأصرروا واستكبروا وأغلقوا آذانهم وأقفلوا قلوبهم كما فعل أكثر منافقي عهد النبي ﷺ فقد استحقوا لعنة الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: 23]، وليس للمسلمين عليهم إلا أن يهددوهم كما هددهم القرآن: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمُ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَّهُمْ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَنَّكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: 27-32].

### المطلب الثامن: عناية القرآن بالمؤمنين وذكر أحوالهم مع القرآن

كان ارتباط المؤمن بالقرآن منذ لحظات تنزله الأولى ارتباطاً عملياً تفاعلياً من الدرجة الأولى، وذلك بتلقي آياته بالتصديق والدعوة بها والتفاعل معها بالترتيل وصلاة القيام، فلم

(1) يُنظر لهذا: الحداثيون العرب والقرآن الكريم، مفتاح الجيلاني، دار النهضة، 2006م. نقد النص، علي حرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 2، 1995م. القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب، عبد الحميد هرماس، جامعة قطر، حولية كلية الشريعة، العدد 19، 1422هـ. مقال بعنوان (الحداثيون وقراءة النص الشرعي)، د. عبد الله عمر الخطيب، مجلة دراسات، العدد: 111، رمضان 1433هـ.

يحتاجوا في بادئ الأمر إلى مزيدٍ توثيقٍ لهذه العلاقة.

فلَمَّا فُتِحَ بابُ الدعوةِ على الكافرينِ في مدةِ الجهرِ واشتدت المعركةُ بينَ المؤمنينَ والكافرينِ حيثُ الطعنُ والشبهاتُ والتشكيكُ وإثارةُ النفوسِ ضدَّ هذا القرآنِ بدأت الآياتُ تنزلُ مثبتةً المؤمنينَ ومنوِّهةً بجميلِ حالِهِم معَ هذا الكتابِ المجيدِ، وسنعرِّضُ هذه الأحوالَ في النقاطِ التدرُّجيةِ الآتيةِ:

أولاً: اتِّعَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ وامتداحُهُم بإيمانِهِم به:

جاءت فاتحةُ الأعرافِ ابتداءً لهذه السلسلةِ المباركةِ من حديثِ القرآنِ عن المؤمنينَ وأحوالِهِم معه، وذلكَ بأهمِّ وأولى تلكِ الأحوالِ ألا وهو الاتِّعَاطُ بهذا القرآنِ الكريمِ وحصولُ التذكرةِ لمن آمنَ به، ﴿الْمَصِّ ١٠ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشُنَذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ١١﴾ [الأعراف: 1-2]، فهو - أي القرآن - نذارةٌ لعمومِ الناسِ، وتذكرةٌ للمؤمنينَ<sup>(1)</sup>.

وقد أشادَ القرآنُ بالمؤمنينَ الذينَ يسارعونَ في الاستجابةِ لآياتِ هذا القرآنِ مُعْرِضاً في نفسِ الوقتِ بالكافرينَ، مُفْطِعاً بشناعةِ حالِهِم، حيثُ وصفَ المؤمنينَ بنفيِ صفةِ الكافرينَ عنهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ٣٧﴾ [الفرقان: 73]،<sup>(2)</sup> فالؤمنُ عندَ سماعِ القرآنِ يُقبلُ عليه بسمعِهِ وبصرِهِ وكنيَّتِهِ كي ينتفعَ بما فيه من الخيرِ.

ويستمرُّ امتداحُ المؤمنينَ بإيمانِهِم بهذا القرآنِ العظيمِ فتارةً امتداحُ بما لديهم من العلمِ الذي قادهم إلى الإيمانِ بالقرآنِ، ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْخُبْرَ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ١٩﴾ [الرعد: 19].

وتارةً بما وقعَ في قلوبِهِم من الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ فهذا الإيمانُ يحملُهُم على الإيمانِ بالقرآنِ، والعكسُ بالعكسِ، ﴿وَهَلْذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُكًا مُّصَدِّقًا لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِشُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: 92].

وتارةً ثالثةً بثمرَةِ الاستماعِ وهي الاستجابةُ والاتباعُ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ ١٨﴾ [الزمر: 18].

فلَمَّا كَانَ العَهْدُ بِالْمَدِينَةِ تَرَكَّزَ التَّنْوِيهُ بِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِيمَانِهِم بِهَذَا الْقُرْآنِ فِي مَقَابِلَةِ حَالِ

(1) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 1/636).

(2) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 19/80).

أهل الكتاب الذين جحدوا ما عرفوا وتعمدوا إثارة الشكوك في القرآن بالسنة وأتباعهم المنافقين، فناسب أن يعلن المؤمنون إيمانهم الراضح بهذا الكتاب فما ثمره أكثر من عشر سنين من رحلة الإيمان في مكة إلا رسوخ وثبات منقطع النظير في المدينة، فهاهو القرآن يوجه المؤمنين أن يقولوا لليهود والنصارى<sup>(1)</sup> ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُو مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136]، ويمتدح أهل الرسوخ الذين ما زادتهم شبهات المبطلين إلا إيماناً وتسليماً ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

#### ثانياً: مكرّمات أهل القرآن:

وقد اتبع القرآن منهجية مميزة في ربط الإنسان به ألا وهي بيان المكرّمات التي تحلّ على صاحب القرآن المرتبط به - والتي سنتحدث عنها تفصيلاً في حديثنا عن وسائل الارتباط بالقرآن - ولكننا هنا نبيّن موقع هذه الطريقة المميزة من التدرج الزمني كما دأبنا مع بداية هذا المبحث. فقد بدأ هذا الترغيب مع بدايات الحديث عن حال المؤمنين مع القرآن في سورة الأعراف، وقد اتخذ أشكالاً متعدّدة من المكرّمات والأعطيات لأهل القرآن.

فتارة ببيان أن الفلاح والنور في الدنيا والآخرة حليفهم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ءَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29]، ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123]، ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: 68].

وتارة يربطهم به بما يجلبه القرآن عليهم من منافع في دينهم ودنياهم من الهداية والرحمة

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 3/109).

والشفاء... إلخ، ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203]، ﴿الْم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: 1-3]، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 57-58]، ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122]، ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1-2]، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2].

ثالثاً: توجيه المؤمنين للاعتناء بالقرآن:

لما جاء البيان القرآني في سورة (ص) بأن العلة الأولى لنزول القرآن هي التدبر - كما بيّناه سابقاً<sup>(1)</sup> - أردف هذا البيان بتوجيه المؤمنين إلى حسن الاستماع والإصغاء إلى هذا القرآن كي يتحقق التدبر، وذلك في سورة الأعراف التي تلت سورة (ص) مباشرة في النزول، ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]، "لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَاحْتِرَامًا، لَا كَمَا كَانَ يَعْتمِدُهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: 26] وَلَكِنْ يَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ إِذَا جَهَرَ الْإِمَامُ بِالْقِرَاءَةِ"<sup>(2)</sup>.

ومن دقائق التعبير القرآني الموحى في هذه الآية أنه عبّر بالافتعال من السمع ثم أردفه بالإنصات، وتَمَّ لطائف:

1- الاستماع ما كان بقصدٍ لأنه لا يكون إلا بالإصغاء، أما السمعُ فيكون بقصدٍ وبغير قصدٍ<sup>(3)</sup>، وفرق آخر "أن الاستماع هو استفادة المسموع بالإصغاء إليه ليفهم ولهذا لا يقال إن الله يستمع، وأما السماعُ فيكون اسماً للمسموع"<sup>(4)</sup>.

(1) انظر: المطلب السادس من هذا المبحث. ص (89).

(2) تفسير ابن كثير، (ج 3/536).

(3) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية - بيروت، 1987م، (ج 1/289).

(4) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ت: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ب(قم)، ط 1، 1412 هـ، (ص 49).

فينبني على هذا الاستعمال القرآنيّ الدقيق، الافتعال من الفعل (سمع)، أنّ الاستماع الحقيقيّ للقرآن لا يكون إلا بتحقيق ركنين: القصد للاستماع، وتحصيل الفائدة بالإصغاء،

2- أمّا الإنصاتُ فقال في العين: الإنصاتُ: "السكوتُ لاستماع شيءٍ"<sup>(1)</sup>، "فلما كان بعض الفُهماء يسمع وهو يتكلم، أشار إلى أن هذا الكتاب أعلى قدرًا من أن يناله من يشتغل عنه بأدنى شغل فقال: ﴿وأنصتوا﴾ أي للتأمل والتدبر لتتجلي قلوبكم فتعلموا حقيقته فتعملوا بما فيه"<sup>(2)</sup>.

3- وأضاف الزجاجُ معنى آخرَ للاستماع هو العملُ بما فيه وعدمُ تجاوزه، من قول القائل: سمع الله دعاءك، أي: أجاب دعاءك<sup>(3)</sup>، قال الطيبي: "هذا أوفق لتأليف النظم سابقًا ولاحقًا، وأجمع للمعاني والأقوال. فإنه تعالى لما ذكر تعريفًا بأن المشركين إنما استهزؤوا بالقرآن، ونبذوه وراءهم ظهريًا، لأنهم فقدوا البصائر، وعدموا الهداية والرحمة، وأن حالهم على خلاف المؤمنين، أمر المؤمنين بمزيد ما كانوا عليه من مجرد الاستماع، وهو العمل بما فيه، والتمسك به، وألا يجاوزوه، ترتبًا للحكم على تلك الأوصاف"<sup>(4)</sup>.

قلتُ: وبالنظر في مجموع اللطائف السابقة، ويكون الآية أول ما نزل بعد بيان التدبّر في سورة (ص) فإنّ هذه الآية تُعتبر النموذج التطبيقيّ الأمثل للتدبّر عطفًا على التنويه به في (ص)، فقد جمعت هذه الآية أركان التدبّر من حُسن الاستماع والقصد إليه مع تحصيل الفائدة، ثمّ الإنصات الذي هو تفرغ القلب من كلّ الشواغل عن الاستماع لتحصيل التدبّر، ثمّ الثمرة وهي العمل بما استمع ووعى وفهم.

ولمّا كان الشيطانُ يجري من ابن آدم مجرى الدّم من العروق، ولا يفتؤ يوسوس له كي يصرّفه عن تدبّر هذا القرآن ما استطاع إلى ذلك سبيلًا فقد أرشد الله رسوله والمؤمنين معه بما يستعصمون به من هذا الشيطان الرجيم، ويدفعون به عنهم سلطانه، فقال لهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ

---

(1) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: مهدي المخزومي وآخرون، دار ومكتبة الهلال، (ج 106/7)، وانظر: تهذيب اللغة، محمد بن أحمد ابن الأزهر، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2001 م، (ج 109/12).

(2) نظم الدرر، البقاعي، (ج 209/8).

(3) انظر: معاني القرآن، الزجاج، (ج 398/2).

(4) حاشية الطيبي على الكشف، (ج 728/6).

فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ [النحل: 98]، فالشيطانُ أحرصُ ما يكونُ على صرفِ العبدِ عن مقاصدِ القرآنِ ومعانيه، فطريقُ السلامةِ من شرِّه الالتجاءُ إلى الله والاستعاذةُ به، فيستعِذُ باللهِ متدبراً معنى الاستعاذةِ، متوكلاً على الله في صرفِ وساوسِ الشيطانِ وأفكاره الرديئةِ<sup>(1)</sup>.

#### رابعاً: تثبيتُ المؤمنينَ بالقرآنِ:

وقد اعتنى القرآنُ بالمؤمنينَ أيماً عنايةً، فكانَ يتنزَّلُ نجومياً كي يربطَ على قلوبهم بما فيه من سكينَةٍ ورحمةٍ وهدايةٍ من جهةٍ، وكي يدحضَ شبهاتِ المبطلينَ وقتما تقعُ من جهةٍ أخرى، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: 32]، وكذلك أكدت سورةُ النحلِ هذه المنحةَ الربانيةَ للمؤمنينَ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102]، وقد بسطنا الحديثَ عن تثبيتِ فؤادِ النبيِّ والمؤمنينَ في المطلبِ الثالثِ من هذا المبحثِ<sup>(2)</sup>.

#### خامساً: القرآنُ سلاحُ المؤمنِ في دعوتهِ إلى الله:

وقد اتخذَ صاحبُ الدعوةِ الأولُ والمؤمنونَ من القرآنِ سلاحهم الأقوى في محاجةِ أعداءِ الله والقرآنِ بما فيه من الحججِ البيناتِ الساطعاتِ والأدلةِ المفحمةِ لأهلِ الحِجاءِ، وقد وجَّهَ اللهُ نبيهَ لاتخاذِ هذا القرآنِ سلاحاً يجاهدُ به الكفارَ ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52]، وقد مضى تفسيرُ هذه الآيةِ في المطلبِ الثالثِ من هذا المبحثِ.

#### سادساً: القرآنُ سلاحُ المؤمنِ في تزكيةِ نفسه:

وكذلك اتخذوا هذا القرآنَ سلاحاً لتزكيةِ أنفسهم والترقي بها في معارجِ الهدايةِ والتقوى، فقاموا به الليلَ ورتلوا آياته حقَّ التلاوةِ حتى وقعتْ خشيةُ الله في قلوبهم، وقد بسطنا الحديثَ عن هذا السلاحِ في المطلبِ الثالثِ من هذا المبحثِ<sup>(3)</sup>.

#### سابعاً: حالُ المؤمنِ عندَ الاستماعِ للقرآنِ:

يُخبرنا الصحابيُّ الجليلُ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ فيما أخرجه مسلمٌ في صحيحه<sup>(4)</sup> أنَّ الله تعالى

(1) انظر: تفسير السعدي، (ص 449).

(2) انظر (ص 66) من هذا البحث.

(3) انظر (ص 66) من هذا البحث.

(4) انظر: صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله}،

(ج 2319/4)، رقم الحديث: (3027).

عانتهم بهذه الآية بعد أربع سنين من إسلامهم، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16]، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ من أول من أسلمَ في مكة فكانَ سادسَ ستةٍ في الإسلامِ وأولَ من جهرَ بالقرآنِ في مكة<sup>(1)</sup>، وعلى ذلك فيكونُ هذا العتابُ في السنةِ الرابعةِ أو الخامسةِ للبعثةِ على أبعَدِ تقديرٍ، فلماذا كانَ هذا العتابُ للمؤمنينَ رغمَ تفاعلهم مع القرآنِ الكريمِ وقيامهم به في السنينِ الأولى للبعثةِ!؟

لم أقفَ فيما بينَ يديَّ من التفسيرِ على ما يشفي العليلَ ويروي الغليلَ في بيانِ العلةِ التي لأجلها جاءَ هذا العتابُ في تلكَ الفترةِ المبكرةِ للدعوةِ في مكة، أعني بيانَ ارتباطِ السياقِ التَّنزُّليِّ بالسياقِ التاريخيِّ.

وغايةُ ما قالوه أنَّ هذا عتابٌ لطائفةٍ من المؤمنينَ أصابهم بعضُ الفتورِ لمَّا فتحَ اللهُ عليهم من خيراتِ الدنيا ولما أصابهم من لينِ العيشِ في المدينةِ، ويؤيدُ هذا خبرٌ أخرجه ابنُ المباركِ عن الأعمشِ بهذا المعنى<sup>(2)</sup>.

ويُحتملُ أن يكونَ الخطابُ لجميعِ المؤمنينَ على سبيلِ الحَضِّ على المداومةِ على الطاعةِ والتحذيرِ من التهاونِ فيها<sup>(3)</sup>.

وقيلَ المقصودُ بالخطابِ المنافقونَ، أو مؤمنونَ كانَ لهم مزيدُ خشوعٍ ثم زالَ منهم فحشٌ على المعاودة<sup>(4)</sup>.

وتردُّ على هذه الأقوالِ اعتراضاتٌ:

- أما كونها في المنافقينَ فمما لا يكادُ يصحُّ<sup>(5)</sup>.
- وأما قولهم بأنها نزلت في المدينةِ فيردُّه أثرُ ابنِ مسعودٍ المخرَّجِ في الصحيحِ كما رأينا

(1) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، بن حجر العسقلاني، (ج 374/6).

(2) الأثر أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره برقم (3162)، تفسير القرآن العزيز - تفسير عبد الرزاق الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني، ت: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1419هـ، (ج 288/3).

(3) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 213/14).

(4) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 460/29).

(5) انظر: روح المعاني، الألوسي، (ج 326/20).

إضافةً إلى كونه أعلم الصحابة بمكان وزمان نزول الآيات<sup>(1)</sup>، صحيح أن أكثر العلماء على مدنية سورة الحديد لما تضمنته من حديث عن المنافقين وأهل الكتاب والحض على الإنفاق لإعلاء كلمة الله والحديث عن الفتح إلا أن هذا لا يمنع وجود آيات مكية فيها سيما لوجود النص الصحيح بذلك<sup>(2)</sup>.

- وأما كونه من باب الحض على المداومة على الطاعة فبعيد إذ إن أسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى العتاب - كما أخبر ابن مسعود - ياباه، وربط هذا العتاب بالنظر في حال أهل الكتاب أيضاً يجعل هذا القول بعيداً.

قلت: وكى نحاول أن نفيسر هذا العتاب في هذه المرحلة المبكرة نسبياً من الدعوة فإننا يجب أن نفهم عملية استقبال الإنسان للإيمان والقرآن وما فيه من دلائل ومواعظ، فإن الإنسان يمتلك قوى نفسية كثيرة منها قوة الإدراك أو العقل والتي هي هيئة وغريزة في روح الإنسان تُدرك بها الحقائق والمعاني ويُفهم بها الخطاب، ومنها قوة الشعور والتأثر والانفعال والخشوع والقسوة والمرض والشهوة، وكلتا هاتين الغريزتين أداتهما القلب<sup>(3)</sup>.

ومن المعلوم أن ابتداء استقبال الحق يكون بغريزة العقل والغرائز الأخرى التي تشاركها كغريزة التفكير، وهنا يقع الإيمان في القلب أي: بمعنى التصديق، أما غريزة الشعور والتأثر فتتنازعها قوى كثيرة من شهوات الدنيا وغرائز الشره والنهم وطلب المزيد وعدم التوقف عند حدٍ والميل إلى الراحة والاستمتاع بالمذات... إلخ، وهذه الغرائز التي يسمونها غرائز النفس أكثر تمكناً في الإنسان من غريزة العقل، ثم يقع النزاع بين هاتين الغريزتين، فبحسب ما يرد على العقل من العلم والإيمان والخبرة والبراهين والبصيرة تزداد سلطته على النفس، وبحسب ما يكون في النفس من قوة رغباتها وحبها للاستمتاع بشهواتها والميل إلى رغباتها مع ضعف العقل تكون هي قائدة وهكذا تمضي العلاقة بينهما أبداً<sup>(4)</sup>.

وعلى ضوء ما سبق يمكننا أن نفهم فحوى هذا العتاب في الآية، فالصحابه رضوان الله

---

(1) انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن/باب الفراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، 1912/4: رقم الحديث 4716.

(2) انظر: فتح المجيد في تفسير سورة الحديد - دراسة تحليلية، عوض محمد أبو عليان، (ص 3).

(3) انظر: العقل وعلاقته بالنص الشرعي. محمد نعيم ياسين. (2008م، 4-6 نوفمبر). بحث مقدم للمؤتمر العلمي الدولي التعامل مع النصوص الشرعية، (ص 12-15)، عمان: الجامعة الأردنية، كلية الشريعة.

(4) انظر: الفصل بين النفس والعقل، عبد العزيز الطريفي، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، 1439هـ، (ص 9-12).

عليهم استقبلوا الإيمانَ والقرآنَ بعقولهم تصديقاً وبقيناً ثم بدأ الوحيُ يعالجُ شهواتِ نفوسهم بصلاةِ القيامِ وتلاوةِ الآياتِ واستحضارِ عظمةِ اللهِ وبيانِ حقيقةِ هذه الدنيا... إلخ، ومن المعلوم أنَّ هذينِ المسلكينِ لا يسيرانِ بشكلٍ متوازٍ، فالعقلُ أسرعُ يقيناً من النفسِ بما رُكِّبَ فيها من الشهواتِ والغرائزِ.

وقد تقدّمَ الصحابةُ في الجانبِ الإيمانيِّ التصديقيِّ إلى مرتبةِ اليقينِ الجازمِ، وبدأوا في تلكَ السنينِ الأولى للبعثةِ يجاهدونَ أهواءَ أنفسهم فيرتقونَ مراتٍ ويضعفونَ مرةً حتى نزلت عليهم آيةُ العتابِ من سورةِ الحديدِ، إنَّه عتابٌ يقولُ لهم: بقدرِ ما تتابعَ على قلوبكم من آياتِ القرآنِ الباهرةِ المفعمةِ بموجباتِ الخشوعِ، وبقدرِ الحياةِ الإيمانيةِ التي عايشتموها برفقةِ نبيكم ﷺ كان ينبغي أن تكونوا أعلى خشوعاً مما أنتم عليه اليومَ، وهذا من بابِ قولهم حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربينَ، وبكلماتِ ابنِ القيمِ - رحمه الله - : " دَعَاهُمْ مِنْ مَقَامِ الْإِيمَانِ إِلَى مَقَامِ الْإِحْسَانِ. يَعْنِي: أَمَا أَنْ لَهُمْ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْإِحْسَانِ بِالْإِيمَانِ؟ وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ بِخُشُوعِهِمْ لِذِكْرِهِ الَّذِي أُنزِلَهُ إِلَيْهِمْ؟"<sup>(1)</sup>.

والمطلوبُ منهم هنا هي درجةٌ من وراءِ الإيمانِ، وذلك لزومُ الخضوعِ والخشوعِ والزهدِ في الفاني والرغبةِ في الباقي، ومواظبةِ التفكيرِ ولزومِ الذكرِ، وطلبِ اليقينِ والاشتغالِ بالعبادةِ والبكاءِ، ومحاذيةِ الحزنِ وإعطاءِ الجهدِ من النفسِ في ذلكِ والصدقِ.

ولذا حذرَ اللهُ - جلَّ ذكرُه - المؤمنينَ من سوءِ ما أصابَ أهلَ الكتابِ من كلِّ ما يُوجبُ ميراتَ التغافلِ والتربصِ، ومحادثةِ السهوِ واللهوِ"<sup>(2)</sup>.

وهكذا تتبيَّنُ لنا من خلالِ تفسيرِ هذه الآيةِ مرتبطةً بزمانِ نزولِها وحالِ مَنْ نزلت عليهم الأهميةُ الكبرى لمعالجةِ غرائزِ النفسِ والتركيزِ على تركيتها من رذائلِ شهواتِها وتطهيرها من رجائسِ رغباتِها ودنايا محبوباتها، فكم من إنسانٍ آمنَ وصدَّقَ بقلبه، ووقفَ مطأطئاً الرأسِ أمامَ عظمةِ هذا الكتابِ ثم نراه إذا خُلِّيَ بينه وبينَ هوى نفسه زلَّ وانقادَ وراءَ سطوةِ نفسه وتحكمت به رغباتُها فما زالَ كذلكِ حتى يقعَ الفصامُ بينَ التدينِ والسلوكِ.

نعودُ الآنَ إلى عنوانِ هذه الفقرةِ (حالُ المؤمنِ عندَ الاستماعِ للقرآنِ)، ففي أثناءِ نزولِ آيةِ العتابِ كانت قد نزلت آيةٌ تتحدَّثُ عن أحوالِ الأنبياءِ والمؤمنينَ في كلِّ عصرٍ عندَ استماعِ كلامِ

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن القيم، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1416 هـ - 1996 م، (ج2/477).

(2) تفسير ابن بركان (تتبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبا العظيم)، عبد السلام بن عبد الرحمن ابن بركان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1434 هـ - 2013 م، (ج5/296 - 297).

الله، وكأنها تقول للصحابه ﷺ هذا هو النموذج الذي ينبغي أن يُحتذى، تلك هي آية سورة مريم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58]، ففي هذه الآية دلالة على أن آيات الرحمن تأثراً في القلوب، قال ابن عباس: كانوا يسجدون ويبكون عند تلاوته<sup>(1)</sup>، "وقوله: ﴿وَبُكِيًّا﴾: خوفاً منه وشوقاً إليه، فوصفهم بسرعة الخشوع من ذكر الله الناشئ عن دوام الخضوع والناشئ عنه الإسراع بالسجود في حالة البكاء... وعبر بالاسم في كل من السجود والبكاء، إشارة إلى أن خوفهم دائم كما أن خضوعهم دائم لعظمة الكبير الجليل، لأن تلك الحضرة لا تغيب عنهم أصلاً"<sup>(2)</sup>.

ثم نهج القرآن نهج امتداح أهل الخشوع لآيات الله تحضياً للمؤمنين وتشبيهاً لهم على هذا الطريق الحق فجاءت آية الرعد ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، وآية الزمر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: 23]، وآية السجدة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: 15].

ثم امتدحهم بوصف آخر يتحقق لهم عند استماع القرآن أو نزول آيات جديدة هو زيادة الإيمان، قال في الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، "زادتهم إيماناً، أي يقيناً في الإذعان، وقوة في الإطمئنان، وسعة في العرفان، ونشاطاً في الأعمال، ويُطلق الإيمان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه وعلى كل منهما، والقرائن تُعِين المراد"<sup>(3)</sup>.

وقد اعتنى القرآن الحكيم بهذه الصفة خاصة، أعني صفة زيادة الإيمان بقوة التصديق وصدق الانقياد وزيادة العمل فكانت هي السمة الفارقة بين أهل الإيمان وأهل النفاق، وجاء المدح لأهلها والذم لمخالفيها في خواتيم ما نزل من القرآن بالمدينة، في سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًىٰ إِيْمَانًا فَآمَنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

(1) تفسير القرطبي، (ج11/121).

(2) نظم الدرر، البقاعي، (ج12/222).

(3) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، (ج9/492).

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٧﴾ أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٩﴾ [التوبة: 124-127].

لطيفة من آيات الرعد والأنفال والزمر:

فإن قيل: كيف وصف حال القلب في الرعد بالطمأنينة وفي الأنفال بالوجل مع تعارض الصفتين؟ قيل: لا تعارض بينهما وإنما هما وصفان يردان على القلب بتغيير أحواله، فالطمأنينة ثمرة معرفة الحق والانشراح له، والوجل إنما يكون عن خوف من الوعيد، وقد اجتمع هذان المعنيان المفترقان في هاتين الآيتين في آية الزمر ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٢٩﴾﴾ [الزمر: 23] (1).

ثامناً: القرآن عصمة للأمة من التفرق:

ومما ميز المؤمنين في علاقتهم مع القرآن المجيد أن ارتباطهم بهذا القرآن يشكّل عصمة لهم من الزلل والتفرق، فالقرآن بوحداية مصدره وكمال منهجه وسطوع نوره وقوة أثره لكفيل أن يجمع شعث هذه الأمة على طريق مستبين وصراط مستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: 103]، عن زيد بن أرقم (2) قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة" (3).

(1) انظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، ت: بدر الدين قهوجي وآخرون، دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، ط 2، 1413هـ - 1993م، (ج1/222-223).

(2) هو زيد بن أرقم بن قيس الخزرجي الأنصاري، صحابي، كان يتيماً في حجر عبد الله بن ربيعة، روى حديثاً كثيراً عن النبي ﷺ، توفي بالكوفة سنة ثمان وستين. انظر: أسد الغابة في تمييز الصحابة، علي بن أبي الكرم ابن الأثير الجزري، ت: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415هـ - 1994م، (ج 2/342)، برقم: (1819).

(3) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم / باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (ج4/1874): رقم الحديث 2408.

وقد جاء هذا الأمر الرباني في المدينة لما تشعبت الجماعات من المنافقين والمشركين واليهود، ولما اجتهد أعداء هذا الدين بإثارة النعرات العصبية والقبلية التي بُنيت عليها أركان المجتمع الجاهلي.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- امتدح القرآن الكريم المؤمنين بجميل صفاتهم وأحوالهم مع القرآن، وأبرز هذه الصفات بأسلوب رصين متزن لا مغالاة فيه ولا محاباة ولا جفاء، وهكذا يُعلمنا كتابنا كيف نتعامل مع الفئات المحسنة في مجتمعنا، سواءً أكانوا تلاميذ أو أبناء أو عاملين... إلخ، فإبراز جميل الفعّال يشكّل دافعاً قوياً للمواصلة والعطاء، وإنصاف كل فئة بما فيها من غير غلو ولا جفاء يدفع تلك الفئة من جهة إلى إدراك حقيقة أمرها فلا تغتر ولا تنفر، وهو من جهة أخرى لا يُوغر صدور الآخرين غير الفاعلين عندما يرون الإنصاف.

2- ظهر من خلال ما عرضناه في هذا المطلب بروز صفة مميزة للمؤمنين أهل القرآن، هذه الصفة هي سرعة الاستجابة لآيات الله والخشوع لها، وهذه الصفة العظيمة هي ثمرة الإيمان الناشئ أصلاً عن كثرة التفاعل مع آيات الله، سواءً الكونية أو المتلوة، وهذه الحال الطيبة في المؤمنين هي حال بناء إذ بوجودها تُطوى صفحات من الجدال العقيم في كثير من القضايا الجدلية التي يثيرها أعداء الإسلام ويتلقفها المتشككون فينشلون بها ويشغلون غيرهم، ولو وجد التسليم والاستجابة لتفرغ هؤلاء إلى الإنجازات العملية في عمارة هذه الأرض بالعلم والإيمان.

3- بعيداً عن أقوال الفقهاء في حكم الاستماع إلى القرآن، وبغض النظر عن تأويلات من يجيز مجرد تشغيل القرآن في البيت لحصول البركة، فإن آيات القرآن قد أحاطت الاستماع إلى القرآن والإنصات إليه بهالة عظيمة من الأهمية والقدسية بقدر قدسية هذا الكلام نفسه، فلم يأمر الله عباده بمجرد الاستماع المبني على الإصغاء والفهم، بل أمرهم بالإنصات الذي هو تفرغ القلب عن كل شاغل.

وهذه الطريقة في التعامل مع القرآن طريقة ربانية مقصودة لأنها الطريقة الوحيدة التي تقود إلى تحقيق التدبر وبلوغ الغاية التي لأجلها أنزل هذا الكتاب المبارك، ولا يقولن قائل إن كثرة التكرار تورث الفتور عن الإنصات، وبها يُستوعب الفهم فلا يزيد، فإن هذا يقال في كلام البشر المنتهية معانيه، أما كلام الله فهو روح تنبض بالحياة، لا تتقضي عجائبه، ولا تقنى معانيه، ولا يخلق على كثرة الترداد، ولا يشبع منه العلماء، نعم هناك من عوام الناس من لا يمتلكون من

أدواتِ الفهم والتدبرِ سوى النزيرِ اليسيرِ، فهؤلاءِ مهما ازدادوا تلاوةً فلهم من التدبرِ حدٌّ لن يجاوزوه، لكنَّهم على أيِّ حالٍ لن يملُّوا تلاوةَ القرآنِ لأنَّ القرآنَ روحٌ متجددةٌ تفيضُ عليهم بالرحمةِ والبركةِ، فهؤلاءِ قد يقالُ: إنَّ لهم حدًّا من الاستماعِ والإنصاتِ غيرَ حدٍّ من هم فوقهم في العلمِ.

4- يُفسِّرُ لنا التقريرُ الذي سقناه في تفسيرِ آيةِ سورةِ الحديدِ والتي حوت عتاباً للصحابَةِ الأوائلِ على عدمِ موائمةِ خشوعِ قلوبهم لما تلبَّسوه من مقاماتِ الإيمانِ ومرافقةِ النبيِّ ﷺ، يفسِّرُ لنا ما نراه اليومَ من حالٍ كثيرٍ من المتدينينِ الصادقينِ في إيمانهم، الذينَ قرأوا القرآنَ وأقاموا الأركانَ لكنَّهم إذا اختبروا في محكَّاتِ الحياةِ العمليةِ سقطوا في براثنِ شهواتهم وأُسروا من قبلِ غرائزِ نفوسهم، هذا الحالُ يوجبُ على المرينِّ والدعاةِ أن يعتنوا أيَّما عنايةً بمعالجةِ أحوالِ القلوبِ والسلوكِ ولا يكتفوا بمجردِ الاعتناءِ بالعباداتِ الظاهرةِ، فإنَّ من معاني الخشوعِ خُمودُ نيرانِ الشَّهْوَةِ، وَسُكُونُ دُخَانِ الصُّدُورِ، وَأَشْرَاقُ نُورِ التَّعْظِيمِ فِي الْقَلْبِ، ومن معانيه: تَذَلُّلُ الْقُلُوبِ لِعِلَامِ الْغُيُوبِ، وَالْخُشُوعُ مَعْنَى يَلْتَمِسُ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَالْمَحَبَّةُ، وَالذَّلُّ وَالْإِنْكَسَارُ<sup>(1)</sup>.

ولكي تتحقَّقَ هذه المعاني يجبُ الاعتناءُ بالعلمِ الموصلِ إلى تعظيمِ الخالقِ في النفوسِ، سيِّما علمُ أسماءِ الله وصفاته، وعلمُ آياته في الكونِ، وعلمُ آياتِ كتابه، والاعتناءُ بتهديبِ السلوكِ وكبحِ جماحِ النفوسِ، وتسخيرِ كلِّ القدراتِ لتربيةِ النشءِ على هذه المقاماتِ العاليةِ.

### المطلب التاسع: بدءُ ذكرِ أحوالِ أهلِ الكتابِ معِ كُتُبِهِم.

تأخَّرَ بدءُ ذكرِ القرآنِ الكريمِ لأحوالِ أهلِ الكتابِ معِ كتبِهِم إلى وقتِ نزولِ سورةِ الأعرافِ، تلكَ السورةُ التي نزلت معِ اشتدادِ التضييقِ على النبيِّ والمؤمنينِ معه بعدَ فشلِ المساوماتِ التي وَسَّطَ فيها عمُّ النبيِّ، ولم يكن هذا التأخُّرُ لعدمِ أهميةِ تينِكَ الأمتينِ: اليهودِ والنصارى في المواجهةِ معِ أمةِ الإسلامِ، ولكن لعدمِ وجودِ الاحتكاكِ المباشرِ بينهما وبينِ النبيِّ ﷺ وصحبِهِ في مكةَ، فإنَّ أكثرَ وجودِ اليهودِ في جزيرةِ العربِ كانَ في يثربَ وتيماءَ وخيبرَ بعدما هاجروا إلى الجزيرةِ العربيةِ فراراً من الرومانِ الذينَ أحمَدوا تمرُّداتِ اليهودِ المتكرِّرةِ<sup>(2)</sup>.

لكنَّ اليهودَ - مدفوعينَ بالنبؤاتِ المكتوبةِ عندهم في التوراةِ عن نبيِّ آخرِ الزمانِ وأتتهِ

(1) مدارج السالكين، ابن القيم، (ج1/517-518).

(2) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر، 1999م، (ج

سيخرجُ بأرضِ فاران، التي هي مكة<sup>(1)</sup> - كانت لهم صلاتٌ مع قريشٍ بوصفها أولاً سيدهُ العرب، وتربصاً بهذا النبي الذي يعلمونُ خروجه من تلك الناحية، وحيثُ كانت قريشُ تحترمُ اليهودَ لعلمهم أنَّهم أهلُ العلمِ والكتابِ الأول<sup>(2)</sup>.

فمن هنا جاءَ حديثُ القرآنِ عن هؤلاءِ الذينَ يتعالونَ على أهلِ الجزيرةِ بما عندهم من علمِ الكتابِ ليبينَ حقيقةَ حالهم مع كتبهم من جهة، وليرسمَ للمؤمنينَ منهجاً بيناً في تعاملهم مع كتبِ اللهِ فإنه بضدِّها تتميزُ الأشياءُ، وسينظّمُ حديثنا في هذه المنهجيةِ التدرجيةِ في النقاطِ الآتية:

أولاً: التنويهُ بشأنِ الكتابينِ وبيانُ دعوةِ الحقِّ فيهما.

تلك هي عادةُ القرآنِ الكريمِ في عرضه لكلِّ القضايا، الإنصافُ وبيانُ الفضلِ أولاً قبلَ بيانِ ما وقعَ من ضلالاتٍ وانحرافاتٍ، وهكذا هو مع أهلِ الكتابِ، فقد بدأً أولاً ما بدأً في الحديثِ عن الكتابِ الأولِ من حيثُ أصلُ نزوله مبيّناً ما يتضمّنه من خيرٍ وهدىٍ وبيانٍ وارشادٍ للناسِ، وهكذا هي كلها كتبُ الله، ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفِيكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَالِمِي فَاخْذُ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٥٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمُرَ قَوْمَكَ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: 144-145]، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَىٰ الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَابُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: 154]، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: 43]، ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: 154]، ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٥٨﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِن الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٩﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكُونُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١٦٠﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١٦١﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الصافات: 114-118]، ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأحقاف: 12]، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنبياء: 48]، ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴿١٦٥﴾﴾

(1) يُنظر: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد (من كبار علماء النصارى من الله عليه بالإسلام)، دار المنار، 1409هـ - 1989م، (ص 63) وما بعدها.

(2) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، (ص 128-129).

ونلاحظ من خلال سرد الآيات أمرين:

1- أن التنويه بالتوراة وبيان ما في نسختها غير المحرّفة من الهدى والخير حفلت به آيات العهد المكيّ على طول فترة تنزّلها من بداية الحديث عن أهل الكتاب في سورة الأعراف في أواسط العهد المكيّ حتى سورة الإسراء التي كانت في أواخره، وفي هذا التّأصيل القرآنيّ تهيئة لما سيكون عليه الحال بين المؤمنين واليهود خاصة في قابل أيام هذه الجماعة المؤمنة، حيث إن اليهود قومٌ غدرٍ ومكرٍ وبهتانٍ وكيدٍ كبيرٍ ودهاءٍ عظيمٍ فأراد القرآن أن يبيّن طرفاً وافياً من أحوالهم الخبيثة مع الله ومع أنبيائه ومع كتبه - وحديثنا في بحثنا هذا عن الكتب - ولذلك جاء قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ لَكُمْ مَا كُنْتُمْ فِيهِ يَافِيَةً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 76] في خصم سلسلة البيان القرآنيّ في العهد المكيّ متساوفاً مع هذا البيان الاستباقيّ التّأصيليّ.

وفي هذا العرض القرآنيّ المشرق المشرف عن التوراة تأسيس إيمانيّ عميق بكتب الله كلّها وخاصة أن الجماعة المؤمنة ستري من أحوال أهل الكتاب عامة واليهود خاصة ما سيشكل لها صدمة كبيرة إذا قرنت أفعالهم بكونهم أهل كتابٍ ودينٍ سماويّ، ولذا كان من حكمة هذا العرض الاستباقيّ تاصيل الإيمان بكتب الله ورد ما سيرون من اليهود إلى خبث طبائعهم وبشاعة ما فعلوه في كتبهم من تحريف.

2- لم يرد ذكر للإنجيل في معرض المدح والتنويه في آيات العهد المكيّ - وإنما ورد في معرض البشارات كما سنرى - فلماذا يا ترى؟

من المعلوم أن المواجهة والمخالطة بين المؤمنين وأهل الكتاب كانت في الجزيرة أصالة مع اليهود خاصة، أمّا النصارى فجاء اتصّالهم بالمسلمين متأخراً مع قدوم وفد نجران من اليمن عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة حيث نزلت آية المبالغة في عيسى عليه السلام<sup>(1)</sup>، ومن جهة أخرى فإنّ الفساد الذي دخل على النصرانية كان أصلاً بيد بني إسرائيل إذ إن عيسى عليه السلام مبعوث إليهم، فالنصرانية في أصلها شريعة اليهود جاءت تخفّف عنهم بعض آصار شريعة التوراة، قال الله في عيسى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، (ج 2/542).

بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِلْحَالَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾ [آل عمران: 49-50].

ويستمرُّ منهجُ القرآنِ في التنويهِ بالتوراةِ في العهدِ المدنيِّ، وهنا يندرجُ الإنجيلُ في التنويهِ والمدحِ فقد بدأتِ دعوةُ الحقِّ تأخذُ طابعَ العالميةِ والمواجهةِ مع أعداءِ الحقِّ خارجِ الجزيرةِ والذينَ يشكُّلُ الرومُ النصارى رأسَ حربتهم، فكانَ من إنصافِ القرآنِ الحكيمِ كما أنَّه يبيِّنُ ضلالاتِ النصارى، بيانُ حقيقةِ كتابه المستنيرِ الإنجيلِ.

وقد برزَ في هذا العهدِ وصفُ التوراةِ والإنجيلِ بأوصافِ (بيِّناتٍ وهدى ونورٍ وفرقان)، فعن التوراةِ يقولُ: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝﴾ [البقرة: 53]، ويقولُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝﴾ [المائدة: 44]، وعن الإنجيلِ يقولُ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَعَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [المائدة: 46]، وعنهما يقولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ۝﴾ [البقرة: 159]، فالذينَ يكتُمونَ ما أنزلَ اللهُ في هذه الآيةِ هم علماءُ اليهودِ والنصارى، والمكتومُ هو التوراةُ والإنجيلُ<sup>(1)</sup>، ويقولُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝﴾ [البقرة: 87]، ويقولُ: ﴿الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هَدَىٰ لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ۖ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝﴾ [آل عمران: 1-4].

ثانياً: تعاملُ أهلِ الكتابِ مع كتبهم.

وبموازاةِ التنويهِ بالكتابينِ، وتحقيقاً لبيانِ ضلالاتِ أهلِ هذينِ الكتابينِ، فقد بيَّنَ القرآنُ طريقةَ تعاملِ أهلِ الكتابينِ مع كتابيهما، فكما بدأ الحديثُ في سورةِ الأعرافِ عن شأنِ التوراةِ وعظيمِ ما

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 3/249).

فيها من هدي ورشاد، ذكر حالاً عجيباً لأهلها في أخذهم لها فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَابِ الْأَخْرَجُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: 169]، قال ابن عباس: يأخذون الطمع إذا عرض لهم حلالاً أو حراماً من الرشى وغيرها. قال المفسرون: (نم الله تعالى بهذه الآية اليهود وريثوا الكتاب فقرؤوه، وعلموه، وضيعوا العمل به، وخالفوا حكمه، يرتشون في حكم الله...<sup>(1)</sup>)، فذكر الله في هذه الآية أول طريق بني إسرائيل إلى تحريف كتبهم وهو مخالفة العمل بها بعد تمام علمها، وقد ضرب الله تعالى لهذا المسلك الشائن مثلاً حبراً كبيراً من أبحارهم في نفس السورة هو بلعام بن باعوراء<sup>(2)</sup>، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: 175-176]، أي: اتل عليهم يا محمد نبأ الذي علمناه كتابنا فصار العالم والحبر الكبير فخلع آيات الله كما يخلع اللباس فتركها وراء ظهره وبدل الأخلاق التي يأمر بها<sup>(4)</sup>.

ثم ذكر القرآن صورة أخرى من صور تعاملهم مع كتبهم هي تغييب ما يخالف أهواءهم من التوراة عن الناس وإظهار ما يحبون، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَاتِيَسَ ثُبُودِنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: 91]، أي: "يظهرون ما يحبون من ذلك ويخفون كثيراً"<sup>(5)</sup>.

(1) البسيط، الواحدي، (ج 432/9).

(2) هو بلعم ويقال بلعام بن باعوراء، ويقال: ابن أبر، ويقال: ابن أوبر، ويقال: ابن باعر بن شتوم بن قرشيم بن ماب بن لوط بن حران بن آزر، من بني إسرائيل، كان يسكن قرية من قرى البلقاء، وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه... انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، محمد بن مكرم جمال الدين ابن منظور الأفرقي، ت: روحية النحاس وآخرون، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا، ط 1، 1402هـ - 1984م، (ج 246/5).

(3) انظر: المحرر في أسباب النزول، خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، الدمام - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1427هـ - 2006م، (ج 544/1).

(4) انظر: تفسير السعدي، (ص 308).

(5) معاني القرآن، الزجاج، (ج 271/2).

وقد اكتفى القرآن المكي بذكر هاتين الصورتين من تحريف أهل الكتاب لكتبهم، وذكر الصور الأشنع من تحريفهم في العهد المدني حيث كان الاحتكاك المباشر بين المسلمين وأهل الكتاب.

قال تعالى مخبراً عن التحريف بتغيير النص تأويلاً أو كتابةً: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]، قال ابن عباس: كان تحريفهم بتأويل المعنى، ولفظ التوراة باقٍ، وقال آخرون: بل بدلوا ألفاظاً من تلقاء أنفسهم لأنهم استحفظوا التوراة بخلاف القرآن الذي حفظه الله<sup>(1)</sup>، وقال تعالى مؤكداً على المعنى الثاني: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسْتَ بِرَأْيِهِمْ وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ﴾ [البقرة: 79]، وقال في آل عمران: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78]، يلوون ألسنتهم: أي بالكذب والباطل الذي أحقوه بكتاب الله وما هو مما أنزله الله، بل هو مما أحدثوه من قيل أنفسهم افتراءً على الله<sup>(2)</sup>.

وتستمر آيات العهد المدني تحدت المسلمين وتخطب أهل الكتاب أنفسهم بما فعلوه في كتب الله من تحريف في تطبيق أوامرهم، وكتمان لما ائتمنهم الله عليه، وتغيير لمعانيها، وتبديل لألفاظها، واختلاق لكلام من عندهم ألقوه بها.

ولقد كان من غرض القرآن بذكر أحوال أهل الكتاب مع كتبهم أن يحذر المؤمنون من مشابهيهم في تعاملهم مع كتابهم القرآن العظيم، وقد رأينا مراتب أربعة للتحريف، وقع بعض المسلمين في ثلاثة منها: تبديل العمل، وتحريف المعنى، وإخفاء بعض الكتاب عند التحاكم أو الفتوى، فشابهوا بذلك أهل الكتاب بوجه من الوجوه.

**ثالثاً: بيان علم أهل الكتاب بالقرآن وإيمان بعضهم به:**

نزلت سورة الشعراء مع بدء مرحلة اشتداد التعذيب على النبي والمؤمنين معه، ومع شدة الحاجة لتثبيت قلوب المؤمنين، وفي طيات آيات هذه السورة المفعمة بنماذج الثبات من قصص السابقين تُشعُّ آيةً تحمل بشرى وتشبيهاً ونوراً من علماء السابقين ومن كان يهابهم أهل مكة وأهل

(1) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 1/168).

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 6/535).

الجزيرة عامةً لعلمهم بكتب الله وأنهم على درايةٍ بخبر السماء، إنهم علماء بني إسرائيل، وإنَّ البشارة المثبتة للمؤمنين تقول وهي تخاطبُ المشركين مُنكرةً عليهم كفرهم بهذا القرآن وبمن نزل عليه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٣٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٣٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٠﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُرُ غُلَامًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٤١﴾﴾ [الشعراء: 192-197]، ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾: أي ذكر القرآن وأنه ينزل على محمد ﷺ وبأنه من عند الله وبأنه صدقٌ وحقٌ، كلُّ هذا موجودٌ في كتب الأولين، أفغفلَ المشركون عن هذا؟! ألم يكن علمُ علماء بني إسرائيل به آيةٌ لهم على صدق القرآن ومن أنزل عليه؟! قال ابن عباس - رضي الله عنهما - بعث أهل مكة إلى اليهود بالمدينة، فسألوهم عن محمد ﷺ فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد نعتَه في التوراة، فكان آية على صدقه ﷺ (1).

وقد أردف القرآن هذه الشهادة المثبتة من علماء بني إسرائيل نموذجاً عملياً لطائفةٍ من أهل الكتاب آمنوا بهذا القرآن الذي يجدونه مكتوباً عندهم ذكره في كتبهم، وذلك في سورة القصص التي تلت الشعراء في النزول، ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءِِنَّهُ لَٰحِقٌ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمُ أَعْمَالُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَآ تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: 52-55]، فالآيات تتحدث عن طائفةٍ معهودةٍ من أهل الكتاب شهد الله لهم بأنهم يؤمنون بالقرآن، وهم بعضُ النصارى ممن كان بمكة كورقة بن نوفل، وصهيب، وبعضُ يهود المدينة ممن بلغتهم دعوة النبي ﷺ فأمنوا به سرّاً قبل هجرته ثم لما هاجر أظهروا إسلامهم كعبد الله بن سلام ورفاعة بن رفاعَة الفرظي، وقيل هم وفدٌ من نصارى الحبشة بعثهم النجاشي يستعلمون أمر النبي ﷺ فلما جلسوا معه آمنوا به (2).

وقد وجّه القرآن بعد هذه البشارة المثبتة وهذا النموذج العملي كلٌّ من يساوره شكٌّ في صدق القرآن إلى سؤال علماء بني إسرائيل الذين عندهم علم الكتاب الأول، كي يبقى الدليل قائماً من خارج آيات القرآن لكلٍ من طلبه، ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: 94]، فالخطابُ في

(1) انظر: حقائق الروح والريحان، الهري، (ج 20/330-331).

(2) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 20/143).

هذه الآية للنبي ﷺ والمقصود به غيره ممن يشك لأن النبي ما شك ولا سأل<sup>(1)</sup>.

وتتابعت الآيات التي تؤكد علم علماء بني إسرائيل بصدق القرآن ومن أنزل عليه في هود والأنعام والأحقاف، وقد جاءت آية الأحقاف تبكيتاً للمشركين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكْفُرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10]، فالراجح في الشاهد هنا أنهم علماء بني إسرائيل عموماً وإن كانت قد وردت آثارٌ صحيحةٌ بأنه عبد الله بن سلام خاصة وأن الآية نزلت بسبب إسلامه في المدينة، لكن هذه الآثار محتملة للتفسير والسببية، وقد ناقش صاحب المحرر في أسباب نزول القرآن المسألة باستفاضة وتحقيقٍ وخلص إلى أن الشاهد لفظ عام يقصد به السابقون من علماء بني إسرائيل فمن أراد مزيداً اطلاعاً فليرجع إليه<sup>(2)</sup>.

ويستمر الإنصاف القرآني المعهود لأهل الكتاب بذكر أحوال الصادقين منهم فتنزل آيات سورة الإسراء في أواخر العهد بمكة، آيات رقيقات مفعمات بالإيمان والخشوع تصف حال تلة من علماء أهل الكتاب عند الاستماع للقرآن ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٣٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٣٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [الإسراء: 107-109].

أما في العهد المدني فقد ظهرت بشكلٍ جليٍّ عداوة اليهود للقرآن الكريم واشتدت الحرب عليه واستعر أوارها، وطفق القرآن المجيد يكشف مؤامراتهم ويفضح دواخلهم، وقد تتابعت الآيات التي تتحدث عن أحوالهم مع هذا القرآن في سورة البقرة بدءاً من قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: 89] إلى قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: 105].

وتفضح سورة آل عمران طرفاً من مؤامراتهم ضد القرآن العظيم ﴿وَقَالَتْ طَافِقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهُ أَنْ يُوْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتَيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ

(1) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، (ج 3/143).

(2) انظر: المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة، خالد المزيني، (ج 2/885-889).

رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ [آل عمران: 72-73].

ثم تأتي دعوة القرآن لهم بالإيمان بما عرفوا من الحق المكتوب عندهم وتتوعددهم بأشد الوعيد بما افترفوا من معاداتهم القبيحة الشنيعة للقرآن، المشفوعة بالكيد والتأمر، فتتنزل عليهم آية النساء كالصواعق ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: 47].

ورغم هذا التهديد والوعيد فإن الختام يأتي بأسوأ من الابتداء، فتتنزل آيات المائدة في أواخر العهد بالمدينة تكشف اللثام عن نفسية لا تزداد مع الدلائل والبيانات والترغيب من جهة ولا مع التهديد والوعيد من جهة أخرى إلا طغياناً وكفراً ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالَّذِينَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: 64].

وفي وسط هذه الدياجير المدلهمة من كسف أهل الكتاب المظلمة على القرآن المجيد فإن القرآن يأبى إلا أن يتم لهم الإنصاف بأحسن ما يكون الإنصاف من رب حكيم رحيم فتذكر آيات العهد المدني نماذج خمسة لا واحداً أو اثنين لمؤمني أهل الكتاب الذين تفاعلوا بصدق ونفس متجردة عن الهوى مع القرآن العظيم.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: 121]، ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْخَدُونَ ﴿١٣٠﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: 113-115]، ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَلْسِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: 199]، ﴿لَكِنِ الرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: 162]، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيٌّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهْبَانًا

وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ [المائدة: 82-85].

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- تكمن أهمية دراسة أحوال أهل الكتاب مع كتبهم التي أنزلها الله إليهم في كون هذه الأحوال وهذا السلوك يرسم منهج أهل الكتاب في هذا الباب، والذي أمرنا نحن أمة الإسلام أن نجافيه ونخالفه، وذلك في دعائنا المتكرر سبع عشرة مرة على الأقل في كل يوم وليلة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: 6-7]، فالمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى<sup>(1)</sup>.

2- وقد ظهر من خلال تتبع حال أهل الكتاب مع كتبهم أن هناك صوراً من هذه الأحوال قد وافقت فيها أمتنا أممتهم، ومن أشهر هذه الأحوال نبذ العمل بالقرآن أو بعض ما فيه بعد العلم بأحكامه، ومنها إخفاء بعض أحكامه، ويقع هذا خاصة عند من أوتي العلم بالقرآن وسود منصب الفتوى أو القضاء، فيدفعه هواه في الحكم أن يغيب نصاً قد علمه يخالف هوى نفسه ومصالحته وقد خفي هذا النص عن عوام المحكوم أو المفتى لهم، ومن أسوأ هذه الصور التأويل الفاسد للنصوص، وهذا قد وقع عند العلمانيين الجدد الذين أشرنا إليهم سابقاً في هذا البحث<sup>(2)</sup>.

وكل هذا قد وقع بسبب عدم بناء علاقة متينة سليمة مع كتاب الله عز وجل عبر الأجيال المتأخرة في هذا الزمان، ولا علاج لهذه الظواهر المرضية الخطيرة إلا بإعادة النظر في كل المنظومة التربوية والدعوية التي من شأنها أن تصلنا بالقرآن الكريم وصلاً متيناً سليماً يبني جيلاً قرانياً فريداً في الفهم والسلوك والحياة.

ولعل من دقائق التعبير القرآني استعمال كلمة (الملة) بدل (الدين) في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: 120]، حيث قرن رضا

(1) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، (ج 1/31).

(2) انظر الفائدة الثالثة من الفوائد المنهجية والتربوية من المطلب السادس من هذا البحث، ص (95).

اليهود ورضا النصارى عن المؤمنين باتباع مَلَّتِهِمْ لا مجرد اتباع دينهم، فالدين لفظٌ يشمل أول ما يشمل العقائد، ونحن لا نرى في الأعم الأغلب مسلماً ينخلع من عقيدته متبِعاً عقيدة اليهود والنصارى، فما الملة تحديداً؟

"الملة ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه، من أملت الكتاب إذا أملتته"<sup>(1)</sup>، وقيل سميت ملة لميلك إليها بهوى نفسك حتى وإن كانت باطلة<sup>(2)</sup>، والمعنى الذي تضيفه كلمة الملة أنها طريقة في الحياة يجتمع الناس عليها<sup>(3)</sup>.

ولعلنا الآن نفهم كيف يقع بعض الرضا من اليهود والنصارى اليوم عن المسلمين رغم أن المسلمين لا يتبعون عقيدة اليهود ولا النصارى، ونفهم صدق وانطباق هذه الآية على الواقع، وذلك أن كثيراً من المسلمين اليوم اتبعوا طرائق اليهود والنصارى في حياتهم وسلوكهم وأحوالهم مع كتبهم دون أن يقولوا عيسى ابن الله أو عزيز ابن الله، فنسأل الله العافية والسلامة.

3- تتجلى الحقيقة القديمة الحديثة بعمق عداوة اليهود خاصة لأمة الإسلام وللقرآن حيث ركز القرآن الكريم على بيان ضلالتهم مع بدء المواجهة الخفية بينهم وبين المسلمين في مكة قبل الاحتكاك المباشر كي يهَيِّئَ نفوسهم للتصدي بعزم لهؤلاء المغضوب عليهم، ومن هنا يُرسل الباحث صرخةً مدويةً في المحافل التربوية في هذه الأمة أن ربوا أبناءكم منذ نعومة أظفارهم على معرفة حقائق هذه الأمة المغضوب عليها في بيوتكم ومناهجكم وكل ميادينكم التربوية، فإن أمة اليهود لن تكون يوماً حملاً وديعاً ما دام فيهم نفس ينبض ببغض هذا القرآن ومن نزل عليه وإليه.

4- وكما تعلمنا من القرآن الحذر من اليهود والتيقظ لمكرهم تعلمنا في المقابل منهج الإنصاف الذي يتكرر معنا في ثنايا هذا البحث، فإن منهج الإنصاف في القرآن منهج أصيل مضطرد، وقد رأينا كيف بنت الكتاب الكريم صوراً رائعة مشرقة من إيمان الصادقين من أهل الكتاب، وهذا يدعونا إلى أن نملاً قلوبنا بالأمل والهمة في دعوتهم وخاصة النصارى منهم الذين يشكّلون اليوم جُلَّ أهل الكتاب، فبمجرد استماع تلك الطائفة التي نُزِعَ من قلوبها الكبر على القرآن فاضت أعينهم من الدمع لما عرفوا من الحق، فنحن بحاجة إلى أولئك الدعاة الذين يحملون القرآن فيفتحون به قلوب البشر.

(1) تفسير البيضاوي، (ج 1/103).

(2) انظر: تفسير الشعراوي، (ج 1/562).

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 1/693).

5- نستفيد من منهج القرآن في بيان صدق هذا الكتاب والنبى ﷺ من علماء بني إسرائيل الصادقين أن هذه طريقة من طرق تثبيت المؤمنين عامة ومن لديهم شكوك حول القرآن خاصة، ودراسة نبوءات الكتب السابقة عن القرآن والنبى ﷺ استرعت عناية ثلثة من علماء هذه الأمة فكتبوا فيها كتباً طوالاً وقصاراً نحو: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / ابن قيم الجوزية - إظهار الحق / محمد رحمت الله الهندي - البشارة بالقرآن الكريم و هيمنته على كتب السابقين / هشام محمد طلبة - المؤيد القرآني: حل لغز البارقليط والمؤيد، شهادة النبوة المحمدية في العهد الجديد / جمال الدين الشرقاوي - محمد رسول الله: هكذا بشرت به الأنجيل / بشرى زخارى ميخائيل - تبشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ / نصر الله أبو طالب - محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتاب اليهود والنصارى / البروفسور عبد الأحد داوود... إلخ والقائمة أطول من أن يحصى معشارها هنا.

وهذه البشارات والدلائل كما تجدي مع أهل الكتاب المنصفين المتجردين فإنها أيضاً تثبت المؤمنين وتزيدهم إيماناً، نعم هكذا كانت هي في العهد المكّي وهكذا ينبغي أن يغتتمها الدعاء اليوم.

#### المطلب العاشر: الدفاع عن القرآن والجهاد به.

تبين لنا في المطلب السادس من هذا المبحث كيف ظهر حقد المشركين على القرآن من أول لحظات جهر النبي ﷺ والمؤمنين به، وذكرنا في ذلك المطلب تلك الأحوال والتهم التي رموا بها هذا الكتاب المبين من سخرية وطعن وتكذيب وإثارة للشبهات فيه، ولكن القرآن لم يعاجل الكفار بالرد على تلك المطاعن والأباطيل لعلمه التام أنها ما صدرت إلا عن نفوس جاحدة في الظاهر مستيقنة في الباطن، فكان أول الأمر يكلمهم إلى ما ينبغي أن يكون من إنصاف بقية من عقولهم وتجرّد بعض نفوسهم مع شفع ذلك بأسلوب التهديد والوعيد الناجع مع الجاحدين، ولكنهم لمّا سدروا في عنادهم وتمادوا في جحودهم وكاد ذلك يُشوّش على بعض المنصفين ولربّما المؤمنين بدأ القرآن يرد تلك الأباطيل ويدحض تلك الأكاذيب بما يناسبها في حجاج متين رصين لا يدع لتلك الأباطيل موطأ قدم في عقول الطالبين للحق، وسنتحدث عن تلك الطريقة القرآنية في النقاط الآتية:

#### أولاً: اتهام صاحب القرآن بالجنون.

لمّا سمع المبطلون أول ما سمعوا هذا القرآن المبين بهر عقولهم المنكرة، وألجم أفواههم المبطلّة، فوقعوا تلقاء بلاغة مبانيه وصدق معانيه في حيص بيص أنى لهم أن يردوه ويكذبوه،

فهدتهم عقولهم الجاحدة إلى الطعن في صاحب هذا القرآن، محمد ﷺ، فإنهم إن يطعنوا في شخصه الكريم ينسفوا كل ما جاء به من بعد، فكانت أول التهم موجهة إلى النبي ﷺ لا إلى القرآن، فرموا بالجنون في أوائل العهد قبل الجهر بالدعوة على الأتباع عنه ينفضون، والراغبين إليه ينكصون، فسجل الله فريتهم هذه في أوائل السور نزولاً، سورة التكويد، وهو يخاطب عقولهم بأن هذا النبي ﷺ صاحبهم، طالت صحبتهم لهم، فهم أكثر الناس علماً بأنه في غاية الكمال حتى إنهم وصفوه بالأمين<sup>(1)</sup>؛ فهم أعلم الناس ببعده عن تلك الفرية التي رموه بها، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ [التكويد: 15-22]، وقد تتابع ذكر رمي المبطلين النبي ﷺ بهذه الفرية الساذجة في سور القلم والحجر والدخان والصفوات والذاريات والطور.

ثانياً: الأباطيل التي رُمي بها القرآن الحق.

والناظر في كتاب الله عزّ وعلا يرى تهماً متعددة بل متناقضة قد رُمي بها هذا الكتاب الحكيم كوصفه تارة بقول الشياطين كحال الكهان، أو بالسحر، أو بأساطير الأولين وبكونه مفترىً مكذوباً، وتارة بوصفه بالشعر، وكل ذلك يصدر عن مجنون!!

ولكي ينجلي العجب عن هذه الحالة التي سجلها القرآن الكريم على المشركين نقول ما صدر عنهم ما صدر من تلك الأباطيل إلا عن تخبط بينٍ وحيرة واضحة، وهذا ما سجلته سورة الأنبياء: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ الْكَجُوى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ بَلْ قَالُوا أَضْغَثٌ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ۝﴾ [الأنبياء: 1-5]، "أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد"<sup>(2)</sup>.

ثالثاً: فرية الكهانة أولاً.

تعود بدايات هذه الفرية إلى أول العهد المكّي إبان نزول سورة التكويد التي ردت تهمة

(1) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 21/290-291).

(2) تفسير الزمخشري، (ج 3/103).

الجنون عن النبي ﷺ وكذلك ردت قول المشركين بأن القرآن قول الشياطين: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ١٥  
 الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ  
 ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ  
 عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾ [التكوير: 15-26]، فهذا  
 القرآن تنزيل رسول كريم هو جبريل عليه السلام وليس كما افترت قريش أن هذا القرآن من تعليم  
 شيطان يأتيه يقال له (الري)<sup>(1)</sup>.

وفي هذا الرد القرآني نفي تهمة الكهانة عن القرآن الكريم إذ كان من شأن الكهان أن  
 يتصلوا بالشياطين ليُلقوا إليهم بعض ما استرقوه<sup>(2)</sup>.

ونلاحظ هنا اقتران فريتي الجنون والكهانة في حق النبي ﷺ، فهما تخرجان من سوءة واحدة  
 هي عورة المشركين التي كشفها صبح القرآن الكريم الأبلج، فطفقوا على غير هدى يبحثون عن  
 حالة تشاكل حالة نزول الوحي على النبي ﷺ فما هدتهم عقولهم الجاحدة إلا إلى هذه الفري  
 الساقطة حيث تهيأ لهم أن يُلبسوا على الناس حالة الوحي بحال من يأتيه رأي من الجن يذهب  
 بعقله أو شيطان من طواعيت الكهان يخبله عن صوابه، ولذا وجدنا اقتران انتقاء هاتين الفريتين  
 في سورة الطور: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩﴾ [الطور: 29].

أما فرية كون القرآن من قول الشياطين فقد جرت على لسان أم جميل زوج عم النبي ﷺ؛  
 حيث كانت من أول الخائضين في هذا الأمر لجوار بيتها بيت النبي ﷺ واستماعها ما يكون من  
 أحواله عند نزول الوحي عليه، والتي لأجلها نزلت سورة الضحى التي تزامن نزولها مع سورة  
 التكوير في العهد الأول فليس بينهما سوى ثلاثة سور أو أربعة، فعن جندب بن سفيان رضي  
 الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة<sup>(3)</sup> فقالت يا محمد إني  
 لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً. فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى  
 والليل إذا سجى. ما ودعك ربك وما قلى﴾<sup>(4)</sup>.

وقد ناقش القرآن الحكيم هذه الفرية في الفترة الجهرية من العهد المكي في سورة الشعراء:

(1) انظر: البسيط، الواحدي، (ج 281/23).

(2) انظر: تفسير البيضاوي، (ج 291/5).

(3) وقد عيَّنها صاحب الفتح بأنها العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان، وهي حمالة الحطب أم جميل زوج أبي  
 لهب عم النبي ﷺ، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (ج 319/1).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الضحى، (ج 1892/4)، رقم الحديث: (4667).

﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٣﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمَعذِبِينَ ﴿٣٦﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئْيَاءِ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٤٠﴾ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤١﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤٣﴾ هَلْ أَنْتُمْ كُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٤٤﴾ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَقَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٤٥﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الشعراء: 210-223].

فجاء الردُّ القرآنيُّ في جملٍ ثلاثةٍ بأحسنٍ ترتيبٍ، فنفي أولاً تنزُّلِ الشياطينِ به، وهذه هي الدعوى، ثمَّ بيَّنَ علةَ هذه الدعوى من طريقتين:

- أولهما أنَّ الشياطينَ لا يمكنُ أن يكونوا أهلاً لهذا التنزُّلِ لفقدانهم القدرةَ عليه إذ إنَّهم معزولون عن خبرِ السماءِ لأنَّهم يُرجمونَ بالشهبِ لو تَسَمَّعوا.
- ثانيهما: دعاهم إلى عقدِ مقارنةٍ بينَ القرآنِ وصاحبه وما يزعمونه من أنَّه قولُ الشياطينِ وذلك من وجهين:

- الأول: أنَّ الشياطينَ تنزُّلُ على كلِّ أَقَاكٍ أَثِيمٍ، وهذا حالُ الكفارِ الداعينَ إلى طاعةِ الشيطانِ، ومحمدٌ ﷺ يلعنُ الشيطانَ ويدعو إلى البراءةِ منه.
- الثاني: قوله تعالى ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبُونَ﴾، فهم كانوا يقيسونَ حالَ النبيِّ ﷺ على الكهانِ، فلمَّا كانَ أكثرُ حالِ الكهانِ الكذبَ وجبَ أن يكونَ حالُ النبيِّ ﷺ كذلك، ولمَّا لم يظهر من أخبارِ المغيِّباتِ من النبيِّ كذبٌ قطُّ ولا عُرفَ به حاله بينهم مطلقاً علِمَ أنَّ حاله بخلافِ حالِ الكهنةِ فسقطَ قياسُهم الباطل<sup>(1)</sup>.

رابعاً: اتهامُ القرآنِ بكونه سحراً يُؤثرُ.

لمَّا لم يكن لتهمتي الجنونِ والكهانةِ سهامٌ تلجُ عقولَ الناسِ فتننيهم عن الاستماعِ لهذا القرآنِ لجأ المشركونَ المبطلونَ برميِ القرآنِ بتهمةٍ قد تشيِّرُ نفوسَ الحاقدينَ على هذا الدينِ الجديدِ، وهي تهمةُ السحرِ، فقد حملوا ما كانَ من هجرِ المؤمنينَ لمظاهرِ الشركِ، وكذا تركهم مخالطةَ أقربائهم المشركينَ فيما يقَعُ منهم من تلكِ المظاهرِ، حملوا هذا على هيئةِ السحرِ بالتفريقِ بينَ المرءِ وزوجهِ

(1) انظر: الباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي، ت: عادل عبد الموجود - علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ - 1998م، (ج 15/92-96).

وأهله، وهي الفرية التي ابتدراها الوليد كما بيئنا سابقاً<sup>(1)</sup>، وهذا ما سجلته سورة المدثر في بقية آياتها التي تأخر نزولها إلى العهد الجاهلي للدعوة، قال تعالى واصفاً حال من نزلت فيه الآيات وقد سيطر الاضطراب على نفسه التي كانت تغلي كالمرجل طلباً للطعن في القرآن بفرية تجد موقعها وأثرها في نفوس قومه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قَبَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَبَّأَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَفَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۗ﴾ [المدثر: 25-18].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَانَتْ رِفًّا لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنْ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا. قَالَ: لَمْ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَه فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِنُتْرُضَ لِمَا قَبْلَهُ قَالَ: قَدْ عَلِمْتَ فُرَيْشُ أَبِي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهِ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ «فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنْ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةٌ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ، وَإِنَّهُ لَمُنْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيُعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ» قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أَفْكَرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: "هَذَا سِحْرٌ يُؤْتَرُ يَأْتُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَانزَلْتُ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: 11]<sup>(2)</sup>.

وعند ابن هشام في سيرته زاد مبيناً معنى هذا السحر: " وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، ففترقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس، حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة، وفي ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾ الآيات [المدثر: 11 - 30]<sup>(3)</sup>.

وقد أعقب نزول سورة المدثر هذه نزول سورة القلم التي تكاد تؤلف مع سورة المدثر وحدة موضوعية في قرب وتشابه آياتها في الحديث عن نوع من طبائع البشر يمثل في الحياة أخبث

(1) انظر المطلب السادس من هذا البحث، ص (89).

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر، (ج 2/550)، حديث رقم (3872). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(3) انظر: الجامع الصحيح للسيرة النبوية، الأستاذ الدكتور سعد المرصفي، مكتبة ابن كثير، الكويت، ط 1، 1430هـ - 2009م، (ج 4/994).

أنواع الشرور الكامنة في نفوس بعض البشر، ولأن كانت آيات سورة المدثر من قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: 11]، نازلةً في الوليد بن المغيرة بإجماع المفسرين، وقد مثل الوليد هذا النموذج الأخبث في طبائع البشر، فإن تقارب موضوع السورتين يرجح أيضاً أن تكون سورة القلم نازلةً حديثاً عن الوليد أيضاً<sup>(1)</sup>، كما نقله القرطبي عن المفسرين وقال: " وَإِنَّمَا خُصَّ بِالذِّكْرِ لِإِخْتِصَاصِهِ بِكُفْرِ النِّعْمَةِ وَإِبْدَاءِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ يُسَمَّى الْوَحِيدَ فِي قَوْمِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الْوَلِيدُ يَقُولُ: أَنَا الْوَحِيدُ بْنُ الْوَحِيدِ، لَيْسَ لِي فِي الْعَرَبِ نَظِيرٌ، وَلَا لِأَبِي الْمَغِيرَةَ نَظِيرٌ، وَكَانَ يُسَمَّى الْوَحِيدَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ بِرِغْمِهِ وَحِيدًا لَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَدَّقَهُ بِأَنَّهُ وَحِيدٌ" (2).

وبناءً على هذا الاقتران بين السورتين تكون سورة القلم قد نزلت رداً على افتراءات الوليد خاصةً بأن القرآن سحرٌ يؤثر، وعلى أكاذيب المشركين عامةً والتي كانوا قد افتتحوها برمي النبي ﷺ بالجنون.

والناظر في طريقة هذه السورة في الرد على فرية السحر يجدها تنهج نهج التهديد والوعيد، وهي طريقة القرآن - التي قررناها قبل - عندما تكون الفرية مما لا يُمارى فيه أحدٌ لوضوح مجافاتها للحق فلا تكون قد صدرت عمّن صدرت عنه إلا عن حسدٍ وغيظٍ وحنقٍ، ولذا فإنك ترى فيما ترى من آياتها قوله تعالى تهديداً لصاحب الفرية: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: 44-45].

ورغم سقوط هذه الفرية فقد استمر مشركو مكة يرمون بها رسول الله واصفينه بالساحر، وواصفين القرآن بالسحر، وقد تنزلت الآيات تباعاً تذكر حالهم هذه:

ففي رمي النبي ﷺ بالسحر الآيات: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: 4]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كٰفِرٍ وَكٰفِرَةٍ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص: 48]، على قراءة من قرأ (ساحران) وهم جمهور القراء سوى الكوفيين<sup>(3)</sup>، ﴿أَكٰنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا

(1) انظر: الجامع الصحيح للسيرة النبوية، المرصفي، (ج 4/1053-1054).

(2) تفسير القرطبي، (ج 19/71).

(3) انظر: البذور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي، (ص 241).

لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ [يونس: 2]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ [هود: 7]، على قراءة (ساجر) وهي قراءة الأخوين: حمزة والكسائي، وخلف<sup>(1)</sup>.

وفي رمي القرآن بالسحر الآيات: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾ [القصص: 48]، على قراءة (سخران) وهي قراءة الكوفيين عاصم وحمزة والكسائي<sup>(2)</sup>، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ [هود: 7]، على قراءة (سحر) وهي قراءة جمهور القراء سوى الأخوين وخلف<sup>(3)</sup>، ﴿وَإِذَا تَثَّلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٦﴾ [سبأ: 43]، ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ [الصافات: 15]، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ [الزخرف: 30]، ﴿وَإِذَا تَثَّلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ [الأحقاف: 7]، ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ [الأنبياء: 3].

خامساً: اتهام القرآن بأنه مفتري وبدء جهاد الحجة به.

لم تغلخ تهمة الكهانة والسحر بثني الناس عن الدخول في الإسلام فانتحل المبطلون تهمة أخرى ظنوا أن سيكون لها وقع في قلوب الناس كي يثنوه عن اتباع هذا القرآن وصاحبه ﷺ، فلجأوا إلى تهمة هي أوهى من أختيها، ألا وهي رمي النبي ﷺ بالكذب على الله، وأنه افتري هذا القرآن من تلقاء نفسه وأن غاية هذا القرآن أن يكون أساطير الأولين أمليت على النبي ﷺ.

وقد اندرجت هذه التهمة أول ما اندرجت في الفرية التي قبلها، فرية السحر، فوصف الوليد وأضرابه القرآن الكريم بأنه أساطير الأولين ﴿إِذَا تَثَّلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ [القلم:

(1) انظر: البدور الزاهرة، القاضي، (ص 152).

(2) انظر: المرجع السابق، (ص 241).

(3) انظر: المرجع نفسه، (ص 152).

[15]، أي يقولُ في القرآن: "هذا مما كتبه الأولون استهزاء به وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله"<sup>(1)</sup>، وهذه الأساطير - على حدّ زعمه - كانت سحراً أثره عن غيره.

وقد اتخذَ المشركونَ هذه التهمةَ منهجاً يجابهونَ به القرآنَ كلما تُليَ عليهم قطعاً لطريقِ دعوتهم به، وقد بيّنَ اللهُ منهجهم هذا بأسلوبِ الجملةِ الشرطيةِ التي تُفيدُ ارتباطَ جوابها بشرطها على طريقِ الظرفِ المُشربِ معنى الشرط، وهو (إذا) الظرفيةُ، فقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 15]، وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: 43]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: 24]، وقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: 13]، وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 31].

فهم لم يدعوا نُوثرَ فيهم بل بادروا إلى القولِ عناداً إن هذا ليسَ قولَ اللهِ بل هو قولُ محمدٍ، وهذا في غايةِ المكابرةِ لأنَّ اللهُ قد تحدّاهم أن يأتوا بقطعةٍ من مثله فعجزوا<sup>(2)</sup>.

وقد ابتدأت الردودُ القرآنيةُ المصحمةُ على هذه الغريةِ الواهيةِ مع نزولِ سورةِ الفرقانِ - التي عُنيَت فيما عُنيَت بالدفاعِ عن القرآنِ - سيّما أنّ اسمها اسمُه، وهي السورةُ التي ابتدأَ معها وبها توجيهُ النبيِّ ﷺ والمؤمنينَ معه إلى جهادِ الكفارِ بالحجةِ والدليلِ دفاعاً عن القرآنِ العظيمِ، وكانت الردودُ على النحوِ الآتي:

عندَ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْتَرَنُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [النحل: 24]، وقالوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 4-5]، كانت الردودُ:

1- وصفُ الذي أنزلَ القرآنَ بأنه يعلمُ غيبَ السمواتِ والأرضِ؛ لذا فقد جاءَ القرآنُ بالصدقِ المطابقِ للواقعِ كما رأى المشركونَ بأنفسِهِم<sup>(3)</sup>.

2- وصفُ فريتهم بأنَّ محمداً قد أُعِينَ على افتراءِ القرآنِ بقومٍ آخرينَ أنّها إفكٌ وزورٌ،

(1) تفسير الطبري، (ج 521/23).

(2) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 268/8).

(3) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، (ج 19، 17).

وحاصل هذا الردّ البديع أنّه لو كانَ محمدٌ ﷺ قد استعانَ بقومٍ آخرينَ هم بشرٌ لأمكنَ مشركي مكةَ أيضاً أن يستعينوا بآخرينَ هم مثلُ من استعانَ بهم محمدٌ في اللغة، فلمّا لم يفعلوا علّمَ أنّ القرآنَ قد بلغَ الغايةَ التي لا تُجارى<sup>(1)</sup>.

3- التعبيرُ عن علمِ الله الغيبِ بكلمةِ (السّرِّ) ففي هذا التعبيرِ الدقيقِ إشارةٌ بديعةٌ إلى أنّ هذا القرآنَ العظيمَ ينطوي على أسرارٍ بديعةٍ لا تبلغُ إليها عقولُ البشرِ<sup>(2)</sup>، فتحقّقَ لمن عرفَ هذا أنّ هذا القرآنَ لا يمكنُ أن يكونَ كلامَ بشرٍ.

وعندَ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33]، في هذه الآيةِ ردٌّ عامٌّ شاملٌ، أي: لا يأتيتك هؤلاء المشركونَ بأمرٍ عجيبٍ يريدونَ من خلاله الطعنَ في نبوتك يا محمدٌ إلا دحضناها بالحقِّ الذي يقطعُ قولهم ويكونُ أحسنَ بياناً مما يقولون<sup>(3)</sup>.

ثمّ انتقلَ القرآنُ إلى رتبةٍ أعلى من الردودِ على هذه الفريةِ وذلكَ في سورتي يونسَ وهودٍ على التوالي، فجادلهم بأسلوبِ التنزّلِ معَ الخصمِ بدعواه فقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 37] أمّ يقولونَ أفترنّه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من أسطعتم من دون الله إن كنتم صديقين<sup>(4)</sup> [يونس: 37-38]، وقد اشتملت هاتان الآيتانِ على الحججِ الآتية<sup>(4)</sup>:

1- في قوله تعالى ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ حجةٌ بالغةٌ؛ فالنبيُّ ﷺ كانَ رجلاً أمياً لم يغادر مكةَ للتعلّم، وما كانت مكةُ بلدَ علمٍ، ثمّ هو يأتي في القرآنِ بقصصِ الأولينَ مما صدّأه في التوراةِ والإنجيلِ، والقومُ حينها على أشدِّ العداوةِ له فما أثارَ عنهم أنّهم طعنوا في قصةٍ بعينها مما جاءَ به ونُقِلَ لهم عن أهلِ الكتابِ خلافه، فلمّا كانَ ذلكَ كذلكَ علّمَ أنّ هذه القصصَ إنّما علمها النبيُّ ﷺ بوحيٍ من الله.

2- وقد وقعَ التصديقُ لما بينَ يديه أيضاً بما أخبرَ به القرآنُ من الغيوبِ المستقبليةِ التي وقعَ تصديقها في حياةِ النبيِّ ﷺ وعلى مرأى ومسمعِ المشركينَ، فعلمَ أنّ علمَ هذا لا يكونُ إلا

(1) انظر: حقائق الرُّوح والريحان، الهرري، (ج 480، 19).

(2) انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط 1، 1414هـ، (ج 4/72).

(3) انظر: تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 1، 1365هـ - 1946م، (ج 19/13).

(4) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 17/252-254).

بالوحي.

3- وفي قوله تعالى ﴿وتفصيل كل شيء﴾ دليل على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون قول بشر، فهذه العبارة دللت على أن القرآن يشتمل على بيان جميع العلوم الشريفة دينية وغير دينية، اشتمالاً يمتنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزاً، وقد زاد بيان ربانيته قوله ﴿لا ريب فيه﴾، والمعنى: أن كتاباً طويلاً كهذا لا بد أن يشتمل على نوع من التناقض، وحيث خلا هذا الكتاب عن أي تناقض علم أنه من عند الله.

4- ثم خُتمت الحجج في هاتين الآيتين بإفحام الخصم فتزلت معه في الحجاج: إن كنتم أيها المشركون تدعون أن محمداً قد اختلق هذا القرآن من عنده فاخلفوا أنتم قرآناً من عندكم يُشبهه في نظمه وبلاغته واستعينوا بمن شئتم أن تستعينوا به غير الله، فلما لم يفعلوا ثبت عجزهم وكذبهم وافترأهم على هذا القرآن.

وقد نصت سورة هود على قوة هذه الحجة مخاطبة المؤمنين بعد تحدي الكافرين: ﴿قَالَ لِمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: 14]. وفي سورة الشورى يذكر الله فريتهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: 24]، ثم يدحضها في خواتيم نفس السورة عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]، ففي هذه الآية ردٌ نسبتهم النبي ﷺ إلى الافتراء لأنه أولاً لم يختم على قلبه بل فتحه بالروح الذي أنزله عليه، ثم ثانياً لكونه مكث فيهم أربعين سنة قبل نزول الوحي عليه لم يعلم بشيء من هذا الوحي ولم يتفوه به، فجبلته كجبلتهم<sup>(1)</sup>.

وفي سورة النحل يتعجب الله من سذاجة كذبهم وبشاعة فريتهم حيث زعموا أن النبي ﷺ إنما تعلم هذا القرآن من عبد لابن الحضرمي<sup>(2)</sup>

(1) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 363/17).

(2) العبد هو غلام يهودي أو نصراني يقال له جبر، مولى لبني عبد الدار، سمع النبي ﷺ يقرأ سورة يوسف فأسلم وكنم إسلامه حتى فتح النبي ﷺ مكة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، (ج 452/1)، ترجمة رقم: (1070).

وأما ابن الحضرمي فهو عامر بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن أكبر الحضرمي، قُتل يوم بدر كافراً. انظر: المؤلف والمختلف، علي بن عمر البغدادي الدارقطني، ت: موفق عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ج 1803/4).

صاحب كتب<sup>(1)</sup>، فردَّ اللهُ عليهم: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103]، أي: " لقد كذبتكم - أيها المشركون - كذبا شنيعا صريحا، حيث زعمتم أن رسول الله ﷺ يعلمه القرآن بشر، مع أن لغة هذا الإنسان الذي زعمتم أنه يُعلِّم الرسول صلى الله عليه وسلم لغة أعجمية، ولغة هذا القرآن لغة عربية في أعلى درجات البلاغة والفصاحة، فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته، وتحداكم وأنتم أهل اللسان والبيان أن تأتوا بسورة من مثله.

فخبروني بربكم، من أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل وما حواه من العلوم، فضلا عن أن ينطق به، فضلا عن أن يكون معلما له!!"<sup>(2)</sup>.

وقد جمعنا في هذا السردِ جماعَ الحججِ القرآنية التي فنَّدَ بها القرآنُ العظيمُ هذه الفريةَ في تلكِ السورِ أعلاه وفي نظيراتها من الآياتِ.

أما في العهدِ المدنيِّ فلم يرد لهذه الفرية ذكرٌ سوى ما حكاها القرآنُ في سورة الأنفالِ عن حالِ المشركينَ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: 31]، فهذه الآيةُ فيها ذكرٌ لخبرٍ من أخبارِ كفرِ المشركينَ التي عدَّتها هذه السورةُ من لدنِ قوله تعالى ﴿وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(3)</sup>.

سادساً: فريةُ الشعرِ آخراً.

ثمَّ يسجِّلُ القرآنُ فريةً جديدةً أنتجتها عقولُ المشركينَ البائسةُ فتُذكرُ أولاً في سورة (يس) ألا وهي فريةُ رميِ القرآنِ بكونه شعراً، وإنما أخروا رميَه بتهمةِ الشعرِ لأنَّ تهمةَ الشعرِ كانت أبعدَ ما يكونُ عن التصديقِ بينَ العربِ، أربابِ البيانِ الذين عرفوا الشعرَ وعهدوه، فلمَّا باءت أباطيلهم بالفشلِ لجأوا لجوءَ العاجزِ الذي لا حيلةَ له إلى هذه الفريةِ ليختموا بها سلسلةَ مخازيهم، وهذه هي حالُ الباطلِ يبدأ ضعيفاً ثمَّ ينتفش قليلاً ثمَّ يبوءُ بالخزيِ فينتهي بخيبةٍ تجمعُ كلَّ مخازيه.

قال اللهُ تعالى نافيةً هذه التهمةَ عن القرآنِ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

(1) انظر: موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية، ط 1، 1420هـ - 1999م، (ج 3/206).

(2) التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 8/239).

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 9/329).

وَقُرْعَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ [يس: 69]، قِيلَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنْ الشَّعْرِ؟ قَالَتْ: كَانَ أَبْغَضَ الْحَدِيثِ إِلَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِبَيْتِ أَخِي بَنِي قَيْسٍ (1) يَجْعَلُ آخِرَهُ أَوْلَهُ وَأَوْلَهُ آخِرَهُ، وَيَقُولُ: وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَرَوْدْ بِالْأَخْبَارِ..

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَيْسَ هَكَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِشَاعِرٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِي» (2).

وقد قطع الله عز وجل دابر هذه الفرية من أصلها فنفي تهيؤ قول الشعر عن النبي ﷺ فضلاً عن كون القرآن شعراً، فإذا كان المتكلم بالقرآن لا يحسن قول الشعر ولا يتهيؤ له فأنى يكون القرآن شعراً؟! فمعنى قوله تعالى ﴿وما ينبغي له﴾: "ما يصح له ولا يتأتى له لو طلبه، لأننا صرّفناه عنه ولم نجعل له طبعاً متأنياً منقاداً لقوله. ولقد كان يتمثل بببيت من الشعر لغيره فيكسره" (3).

وتمت معنى آخر أدق مسلكاً من سابقه هو أنّ الشعر ما كان يليق بالنبي ﷺ ولا يصلح له، ذلك أنّ الشعر يدعو إلى تغيير المعنى مراعاةً للفظ والوزن؛ فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ، فالشاعر يقصد الوزن قصداً أولياً، أما من يقصد المعنى قصداً أولياً فيصدر منه كلامٌ موزونٌ مقفى فلا يكون شاعراً، وعلى هذا يتخرج ورود بعض أبيات الشعر على لسان النبي ﷺ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ يُحَقِّقُ ذَلِكَ الْمَعْنَى أَي هُوَ ذِكْرٌ وَمَوْعِظَةٌ لِلْقَصْدِ إِلَى الْمَعْنَى، وَالشَّعْرُ لَفْظٌ مُرْحَرَفٌ بِالْقَافِيَةِ وَالْوِزْنِ (4).

**لطيفةً بيانيةً:**

ذَكَرَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَطِيفَةً بَيَانِيَةً نَاشِئَةً عَنْ سَوْأَلٍ: لِمَاذَا خُصَّ الشَّعْرُ بِنَفْيِ التَّعْلِيمِ دُونَ تَهْمِ السَّحْرِ وَالْكَهَانَةِ فَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ (وَمَا عَلَّمَنَاهُ السَّحْرَ... وَمَا عَلَّمَنَاهُ الْكَهَانَةَ)؟ وَيَجِيبُ رَحْمَةُ اللَّهِ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ نِسْبَةَ الْكُفَّارِ السَّحَرَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ عِنْدَمَا يَفْعَلُ مَا

(1) هو طرفة بن العبد من بني قيس من بكر بن وائل، وبيته هذا (ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً... ويأتيك بالأخبار من لم تُرود) من معلقته (أطلال خولة). انظر: ديوان طرفة، طرفة بن العبد البكري الوائلي، ت: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط 3، 1423 هـ - 2002 م، (ص 3، 29).

(2) تفسير ابن أبي حاتم، (ج 10/3200).

(3) رموز الكنوز، الرسعني، (ج 6/358).

(4) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 26/305).

لا يقدرون عليه كشق القمر، ونسبتهم الكهانة إليه عندما كان يخبرهم بغيوب تقع، أما نسبتهم الشعر إليه عندما كان يتلو عليهم القرآن، والنبى ﷺ ما كان يتحداهم إلا بالقرآن فلما كان تحديه لهم بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفي التعليم<sup>(1)</sup>.

ثم فرق الحق سبحانه وتعالى بين طريقة القرآن وصاحبه ﷺ وطريقة الشعراء في سورة الشعراء التي تضمنت أقوى حجج دفع هذه الفرية حتى إنها سميت باسم (الشعراء) فقال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: 224-227].

فهذا استئناف ناشئ عن إبطال فرية الكهانة عن القرآن وأنه لا يمكن أن يكون من قول الشياطين، فكأن الكفار لما كُتبتوا من تلقاء فرية الكهانة نشأ في ذهنهم سؤال: إذن فماذا نقول عنه؟ فلم يجدوا بداً إلا إلى أن يرجعوا إلى الفرية التيت تأباها عقولهم، فرية الشعر، فجاء الجواب بهذا الاستئناف يعاجلهم قبل أن يستجمعوا قواهم، فهو استئناف بياني ينبئ عن جملة مضمرة تقديرها: إذن هو شعر، وهي طريقة قرآنية تكشف ما يكن المبطون في صدورهم فتعاجلهم بالجواب.

وقد دحض القرآن الكريم فرية الشعر هنا من طريقين<sup>(2)</sup>:

الأولى: أنه وصف أتباع الشعراء الغاوين بأنهم (في كل واد يهيمون)، دلالة على اختلاف طرقهم، وذلك أن الواحد منهم قد يمدح الشيء ثم يذمه وبالعكس، وقد يُعظم الشيء ثم يستحقره وبالعكس، وهكذا في كل مجال، وفي هذا دلالة على أنهم لا يطلبون الصدق.

أما النبى ﷺ فقد التزم الصدق في كل حياته فكان طريقه واحداً لم يتغير وهو طريق الدعوة إلى الله.

الثانية: أنه وصفهم بأنهم (يقولون ما لا يفعلون) وهذا شأنهم، فقد يرغب الواحد منهم في الجود ولا يفعل، وينفر عن البخل ويأتيه، ويقدح في الناس بأدنى شيء صدر عنهم، وهم واقعون في أفحش مما قدحوا فيه.

وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَإِنَّهُ بَدَأَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ

(1) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 26/304).

(2) انظر: المرجع نفسه، (ج 24/538).

مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ [الشعراء: 213]، ثُمَّ بِالْأَقْرَبِ فَأَلْقَرَبِ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَى خِلَافِ طَرِيقَةِ الشُّعْرَاءِ.

ثُمَّ تَتَابَعَتْ سُورَةُ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ تَنْفِي هَذِهِ التَّهْمَةِ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي سُورِ الصَّافَاتِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالطُّورِ وَالْحَاقَّةِ.

وَلَمْ يَرِدْ لِهَذِهِ الْفَرِيَةِ ذِكْرٌ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ كَوْنَهَا سَقَطَتْ وَتَلَاشَتْ فِي عَقْرِ دَارِ أَقْحَاحِ الْعَرَبِ فِي قَرِيشٍ فَلَمْ يَعْذِ لَهَا قَدَمٌ تَقُومُ عَلَيْهَا بَعْدُ.

### حُجَّةٌ جَامِعَةٌ:

مَنْ أَقْوَى مَا يُجَادَلُ بِهِ الْمَبْطُولُونَ الْمَفْتَرُونَ الْجَاحِدُونَ أَنْ تَقْفَهُمْ أَمَامَ نَفْسِهِمْ بَعِيداً عَنِ كُلِّ الْمَوَانِعِ الْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَخْلُو بِنَفْسِهِ لَا يَجِدُ سُلْطَاناً يَدْفَعُهُ إِلَى إِظْهَارِ خِلَافِ مَا يَبْطُنُ إِذْ هُوَ يَخَاطَبُ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ مِمَّنْ لِأَجْلِهِمْ يَمْتَنِعُ عَنِ قَوْلِ الْحَقِّ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ حَيْثُ قَالَ لَهُمْ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيتُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: 46].

بُدَأَ الْحِجَاجُ بِأَسْلُوبِ الْقَصْرِ بِ(إِنَّمَا) إِرْسَاءً عَلَى الْخِلَاصَةِ مِنَ الْمُنَازَرَةِ فَكَأَنَّهَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي لَا يُلْتَقَتُ إِلَى غَيْرِهَا.

وَقَالَ هُنَا (مِثْلِي وَفِرَادَى) تَسْلِيماً لِلْمُنَازَرَةِ عَنِ الْعَوَاقِقِ الصَّادَةِ لَهُ عَنِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ عِنْدَ التَّأَمُّلِ لَمْ يَرْضَ لَهَا بَغِيرَ النَّصْحِ، وَإِذَا خَلَا ثَانِي اثْنَيْنِ فَإِنَّمَا يَخْتَارُ أَقْرَبَ أَصْحَابِهِ لَهُ وَأَشَدَّهُمْ حِرْصاً عَلَيْهِ.

وَفَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالصَّاحِبِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ حَالَهُ مَعْلُومٌ لَدَيْهِمْ لِشِدَّةِ مَخَاطَبَتِهِ لَهُمْ، وَهَذِهِ تَوَطُّؤَةٌ لِنَفْيِ تَهْمَةِ الْجَنُونِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَاقْتَصَرَ فِي طَلَبِ التَّفَكُّرِ مِنْهُمْ عَلَى نَفْيِ تَهْمَةِ الْجَنُونِ لِأَنَّ صَرْفَهُمْ إِلَى الْإِدْعَانِ بِأَنَّ النَّبِيَّ عَاقِلٌ يَنْفِي عَنْهُ كُلَّ تَهْمَةٍ بَعْدَهَا.

فَبَقِيَتْ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ سَاحِرٌ وَأَنَّهُ كَاهِنٌ وَأَنَّهُ شَاعِرٌ وَأَنَّهُ كَاذِبٌ (حَاشَاهُ). فَأَمَّا السِّحْرُ وَالْكَهَانَةُ فَسَهْلٌ نَفْيُهُمَا بِنَفْيِ خَصَائِصِهِمَا فَأَمَّا انْتِفَاءُ السِّحْرِ فَبَيِّنٌ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مُعَالَجَةٍ تَعْلَمُ وَمَزَاولَةٍ طَوِيلَةٍ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيِّنٌ ظَهْرَانِيهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ، وَأَمَّا الشُّعْرُ فَمَسْحَنَةٌ مَنْفِيَّةٌ عَنِ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغْبِرَةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِي كِنَانَةِ مَطَاعِنِهِمْ إِلَّا زَعْمُهُمْ أَنَّهُ كَاذِبٌ عَلَى اللَّهِ،

وَهَذَا يَرُدُّهُ قَوْلُهُ: بِصَاحِبِكُمْ فَإِنَّهُمْ عَرَفُوهُ بِرَجَاحَةِ الْعَقْلِ وَالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ فِي شَبِيبَتِهِ وَكُهُولَتِهِ فَكَيْفَ يُصْبِحُ بَعْدَ ذَلِكَ كَاذِبًا كَمَا قَالَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ: فَلَمَّا رَأَيْتُمُ الشَّيْبَ فِي صُدْغَيْهِ قُلْتُمْ شَاعِرٌ وَقُلْتُمْ كَاهِنٌ وَقُلْتُمْ مَجْنُونٌ، وَوَاللَّهِ مَا هُوَ بِأَوْلَكُمْ. وَإِذَا كَانَ لَا يَكْذِبُ عَلَى النَّاسِ فَكَيْفَ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، كَمَا قَالَ هِرْقُلُ لِأَبِي سَفْيَانَ وَقَدْ سَأَلَهُ:

هَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ كَذِبًا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: لَا. قَالَ: فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتْرَكَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ<sup>(1)</sup>.

سابعاً: القرآن مُصَدِّقٌ وَمُصَدَّقٌ:

وينهجُ القرآنُ طريقةً أخرى في الدفاعِ عن صدقِ أخبارِهِ وربانيّةِ مصدرِهِ ألا وهي ارتباطُ هذا القرآنِ العزيزِ بكتبِ اللهِ السابقةِ من حيثِ كونها كَلِمًا نازلةً من عندِ اللهِ الحقِّ بحيثُ تصدِّقُ الكتبُ السابقةُ القرآنَ الكريمَ بكونِهِ من عندِ اللهِ، وبحيثُ يصدِّقُها القرآنُ الفصلُ بإثباتِ ما فيها من الحقِّ لاتحادِ مصدرِهِ.

أمّا كونُ القرآنِ مُصَدِّقًا، أي: صدَّقْتُهُ شهاداتُ علماءِ أهلِ الكتابِ الصادقينَ فقد سبقَ الحديثُ عنه بشيءٍ من التفصيلِ في المسألةِ الثالثةِ من المطبِ التاسعِ من هذا المبحثِ فليرجعِ إليه.

وأما كونُ القرآنِ مُصَدَّقًا لما بينَ يديه من الكتبِ السابقةِ فغايةُ ما فيه من الدفاعِ عن القرآنِ أنّه عندما يثبتُ لذوي العقولِ اتحادُ هذا القرآنِ مع بعضِ ما في الكتبِ السابقةِ مما لم تبلغه يدُ العبثِ البشريِّ ثمَّ يعلمُ أنّ تلكَ الكتبِ من عندِ اللهِ وجبَ بطريقِ قياسِ المساواةِ أن يكونَ هذا القرآنُ أيضاً من ذاتِ المصدرِ، من عندِ اللهِ.

ولعلامةِ الأزهرِ الدكتور محمد عبد الله دراز كلامٌ نفيسٌ في تقريرِ هذه الحجةِ القرآنيةِ عندَ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: 91] أسوفُهُ بنصِّهِ لجمالِ وقعِهِ وبهاءِ رونقِهِ:

ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه.

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم، بل يتركها مؤقتاً كأنها مسألة ليبيني عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب، فيقول: كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما

(1) التحرير والتنوير، (ج 22/231-235)، بتصرف.

هو حق مثله؟ - لا، بل هو الحق كله وهل يعارض الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر؟!.

ثم يترقى فيقول: وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق "فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً فلا يتكاذبان، ولكنهما في شأنين مختلفين فلا يشهد بعضهما لبعض. أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و ﴿مُصَدِّقًا﴾ لما بين يديه من الكتب. فأنى يكذب به من يؤمن بها؟!

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلاً: ولو أن التحريف أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملة لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن؛ إذ يحق لهم أن يقولوا: "إن البقية المحفوظة من هذه الكتب في عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصديق، فليس الإيمان بها موجباً للإيمان به" .. بل لو أن هذه البقية ليست عندهم ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين، لكان لهم مثل ذلك العذر. أما وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ويدرسونه بينهم فيماذا يعتذرون وأنى يذهبون؟! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة ﴿لَمَّا مَعَهُمْ﴾<sup>(1)</sup>.

وقد تضافرت الآيات في تقرير هذا المعنى في سورِ العهدينِ المكيِّ والمدنيِّ على حدِّ سواءٍ، في سورِ: يونسَ والأنعامِ والأحقافِ والبقرةِ وآل عمرانَ والمائدةِ.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- أكثر حال أهل الباطل مع الحق جعجة صوت وضحالة منطق، تلك الحقيقة التي يدركها أهل العلم والإنصاف في كل زمان، فقد رأينا كيف أثار المشركون نفع أباطيلهم حول القرآن الكريم وصاحبه ﷺ بحشدٍ كبيرٍ من الأباطيل التي يكاد الرائي للوهلة الأولى يظنها لتكاثرها قد صرعت الحق، حتى إذا خمد النفع وتشتتت بهرجة الباطل ظهر بريق معدن الحق الأصيل ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون.

وكما هو دوماً منهج الحق الرصين، المنبعث من قوته، المستند على أصلته يعالج الحق تلك الأباطيل بهدوء تامٍ ونقاشٍ عقليٍّ مبنيٍّ على حجاجٍ دامغٍ فيتسلل إلى عقول سامعيه فيستقر قرار الصيب النافع في الأرض النقية، وهكذا ينبغي أن يكون حال المسلمين الوائقين بدينهم اليوم

---

(1) النبا العظيم - نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، بعناية أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، بيروت، طبعة مزينة ومنقحة، 1426هـ - 2005م، (ص 155-156).

في حجاج أهل الباطل، فلن تنتفع الجعجعة التي يثيرها حماس بعض المندفعين دفاعاً عن القرآن الكريم ضدّ أباطيل المبطلين بل تزيد المبطلين غروراً أنّهم أثاروا حفيظة المسلمين وأطاروا صوابهم، ثم إنّ الاندفاع العاطفي المنفصم عن الحجاج العقلي يُفقد المرء قدرته على استجماع قواه العقلية كي يردّ كيد الباطل، وهذا ما يريده أهل الباطل.

وبعبارة أخرى نحن نريد عاطفة صادقة ممتزجةً بقدرة عقلية متينة تصدُر عن علمٍ راسخٍ ودراية تامة بأباطيل أهل الباطل كي يكون الردُّ هادئاً فعلاً مُفجماً، وهذه هي تماماً طريقة القرآن الكريم التي رأيناها في هذا المطلب.

2- وهناك من البشر من لا يجدي معه منهج الحجاج العقلي الهادي مهما أتيتّه من آية بينةٍ وحةٍ ساطعةٍ فقد استحوذت عليهم نفوسهم المتكبرة فسدروا في عنادهم وتمادوا في جحودهم وصدروا عن بغيٍ وحسدٍ فمهما تأت هؤلاء بآية لا يؤمنوا بها، فهؤلاء استعمل معهم القرآن المنهج الأنسب لنفوسهم وهو منهج التهديد والوعيد الذي ذكرناه في المطلب السادس من هذا المبحث، فالمسلم قويٌّ بحجته عزيزٌ بقوته لا يجادلُ جدل الضعيف ولا يطيشُ طيش ذي العقل الخفيف، فهو يضع كلَّ أسلوبٍ في المكان الأليق به.

وعلى هذا المفهوم القرآني فلا يحملنك أيها المسلم أن يقال (ضعفت حجته فلجأ إلى التهديد) أن تتوانى عن إبراز هيبته الحق أمام المعاندين الجاحدين بأن تملأ قلوبهم رعباً بالتهديد والوعيد فهم أصالةً مستيقنون بالحق جاحدون له فلن يجدي معهم حجة ولا تبصرة، ولن يثنيهم عن غيهم سوى قذف الرعب في قلوبهم فالحياة - ولو الدليلة - عندهم أعلى من كل شيء.

3- رأينا من خلال هذا المطلب كيف ركّز أهل الباطل على الطعن في صاحب الدعوة ﷺ وتجنّبوا في المقابل الطعن في القرآن ذاته إلا ما كان من آخر سهامهم الخائرة برمي القرآن بالشعر، وهذا لا يزال ديدن أهل الباطل إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فأنت ترى أن الحملات المحمومة على الإسلام في العصر الحديث تركّز نفث سمومها على شخص النبي ﷺ وتتجنّب الطعن في القرآن إلا ما يكون من محاولات بائسة تُوجّه إلى ضعاف العقول، وما أحداث الرسوم المسيئة لشخص النبي الكريم ﷺ في الدانمارك وفرنسا عنا ببعيد.

وما ذلك إلا لأن الباطل قد أدرك منذ القديم أنّ هذا القرآن نورٌ ساطعٌ بين الحجة قوي المنطق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلجأوا إلى الطعن في صاحب هذا القرآن ﷺ فإنهم إن يهدموا أساس البناء يسقط السقف، وقد كتب المستشرقون في هذا الصدد كتباً كثيرة

ودراساتٍ متنوعة<sup>(1)</sup>، ولذلك أقول: إنَّ فتحَ قلوبِ الناسِ اليومَ من غيرِ المسلمينَ بالقرآنِ هي أنجعُ طريقٍ لدعوةِ الناسِ إلى الإسلامِ فإنَّ هذا الكتابَ الخالدَ العظيمَ يجدُ مسلكه إلى العقولِ والقلوبِ كما يجدُ نورُ الشمسِ الساطعُ مسلكه في كلِّ ركنٍ تُشرقُ عليه الشمسُ.

### المطلب الحادي عشر: بدءُ التحدي الصريح لأعداءِ القرآنِ بأن يأتوا بمثله

لَمَّا اشْتَدَّتْ المواجهَةُ بينَ المشركينَ والنبيِّ ﷺ أواسطَ العهدِ المكيِّ، واشتدَّ أذاهم لرسولِ الله ﷺ وأتباعه، وزادَ جدلُ المشركينَ للنبيِّ ﷺ في القرآنِ - كما رأينا في المطلبِ السابقِ - بدأ القرآنُ الكريمُ يجابههُ هؤلاءِ المشركينَ بالتحدي الصريحِ والمعاجزةِ حسماً لكلِّ جدلٍ أو ريبٍ في القرآنِ وقطعاً لدابرِ الشكوكِ التي ما فتىَّ المشركونَ يثيرونها عليه، وحجةً بالغةً على مَنْ زعموا أنَّ النبيَّ ﷺ تقولهُ واكتتبهُ من أساطيرِ الأولينَ<sup>(2)</sup>.

وسنعرضُ هذا المطلبَ في المسائلِ الآتية:

### أولاً: مراحلُ التحدي بحسبِ الترتيبِ الزمانيِّ.

وبالنظرِ إلى الترتيبِ الزمانيِّ والتتبعِ التاريخيِّ الذي اعتمدناه في دراستنا هذه فقد جاءت آياتُ التحدي على الترتيبِ الآتي:

المرحلة الأولى: مرحلةُ اشتدادِ الجدلِ في القرآنِ أواسطَ العهدِ المكيِّ.

1- آيةُ سورةِ القصصِ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: 49].

أي: قل لهم يا محمد ﷺ: ايتوا يا كفارَ مكةَ بكتابٍ هوَ أفضلُ من القرآنِ الذي جئتكم به ومن التوراةِ التي جاءَ بها موسى كي أتبعه إن كنتم صادقين في زعمكم أنَّ التوراةَ والقرآنَ سحرانِ تظاهرا<sup>(3)</sup>.

2- آيةُ سورةِ يونسَ: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أم يقولونَ أَفْتَرَنَهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ

(1) ينظر لهذا: الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، سلسلة دعوة الحق، مطبعة رابطة العالم الإسلامي، (ص 16 وما بعدها).

(2) انظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط 3، (ص 66).

(3) انظر: البسيط للواحي، (ج 413/17).

مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ [يونس: 37-38].

3- آية سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [هود: 13].

المرحلة الثانية: تسجيل العجز عليهم أواخر العهد المكي:

1- آية سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: 33-34].

2- آية سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88].

المرحلة الثالثة: التحدي للناس كافة.

وهي آية سورة البقرة في العهد المدني: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا الْكُفَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 23-24].

وقد اعتمدت في تقسيمي هذا النظرة التدريجية الزمانية في التحدي لا الاعتبار التدريجي الكمي الذي اعتبره جمهور العلماء الذين تحدثوا عن آيات التحدي كما سنرى بعيد قليل، وإنما جاء التقسيم بهذه الطريقة موافقاً لمنهج البحث الذي أحاول فيه النظر في تساوق آيات القرآن تنزلاً مع أحداث السيرة والدعوة من أولها إلى آخرها باعتبار المرحلية الزمانية.

ثانياً: آراء العلماء في مراحل التحدي.

ويثير هذا التقسيم وهذه الطريقة إشكالات تحدت عنها العلماء وانقسموا حيالها ثلاثة أفرقة، وذلك من حيث كون الاعتبار الزمني لا يتوافق مع ما رآه جمهور العلماء طبيعة في التحدي من حيث وجوب تدرجه كميًا من الأعلى رتبة إلى الأدنى فيما سموه (إرخاء العنان)، فالترتيب الزمني يجعل التحدي بالقرآن كله أولاً في سورة القصص ثم بسورة في يونس ثم بعشر في هود - وهذا معكوس التدرج الكمي - ثم يعود للتحدي بالقرآن كله - أو ما نزل منه وقتئذ - في الطور والإسراء ثم يرجع إلى التحدي بالسورة الواحدة في البقرة، وقبل أن نخلص إلى رأينا في هذا التقسيم يحسن بنا أن نعرض لأقوال العلماء في هذه المسألة وقد ذكرنا أنهم انقسموا فيها أفرقة ثلاثة:

الفريقُ الأولُ: الذينَ اعتبروا التدرجِيَّةَ المرحليَّةَ الكميَّةَ في التحدي .  
وهم جمهورُ العلماء، وممَّن قالَ بهذا القولِ البيضاويُّ<sup>(1)</sup> والنسفيُّ<sup>(2)</sup> والقرطبيُّ<sup>(3)</sup> وابنُ  
تيميةً<sup>(4)</sup> وابنُ كثيرٍ<sup>(5)</sup> والزركشيُّ<sup>(6)</sup> والسيوطيُّ<sup>(7)</sup> والزرقانيُّ<sup>(8)</sup> والدكتور فضل حسن عباس<sup>(9)</sup>.

وحاصلُ أدلَّتْهم يتلخَّصُ في أنَّ التدرجَ في التحدي أمرٌ يطلبُه العقلُ فإنَّ المتحدي أولُ ما  
يبدأُ الخصمَ بالأتمِّ الأكملِ في التحدي، فإنَّ عجزَ أرخى له العنانَ في التحدي إمعاناً في بيانِ  
عجزه فلا يزالُ يُرخي له العنانَ حتى يبلغَ به أدنى الدرجاتِ، فإنَّ ثبتَ عجزُه عن أدنى الدرجاتِ  
في الكمِّ فقد ثبتَ عجزُه بالمطلقِ، ولا معنى لأنَّ يتحداهُ بعشرٍ بعدما عجزَ عن الواحدة.

وفي مقابلِ هذا التدرجِ المنطقيِّ فإنَّهم يقولونَ بأنَّ الترتيبَ الزمانيَّ الذي لا ينتظمُ معَ هذه  
التدرجِيَّةِ إنما هو ظنِّيٌّ مختلفٌ فيه لم يثبتَ بطريقٍ صحيحٍ فهم يُقدِّمونَ سورةَ الطورِ على ما  
سواها في النزولِ، ويقدمونَ سورةَ هودٍ على سورةِ يونسَ حفاظاً على هذه التدرجِيَّةِ الكميَّةِ؛ وعليه  
فإنَّ صريحَ العقلِ يُقدِّمُ على ضعيفِ النقلِ<sup>(10)</sup>.

الفريقُ الثاني: الذينَ ذهبوا إلى اعتبارِ زمانِ النزولِ دونَ النظرِ إلى التدرجِيَّةِ الكميَّةِ  
للتحدي.

وممن ذهبَ إلى هذا القولِ الشيخُ محمد رشيد رضا<sup>(11)</sup>، والأستاذُ سيد قطب، والدكتورُ

- 
- (1) انظر: تفسير البيضاوي، (ج 3/130).
  - (2) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل - تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي، ت: يوسف علي بدوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط 1، 1419هـ - 1998م، (ج 2/50).
  - (3) انظر، تفسير القرطبي، (ج 1/77).
  - (4) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحلِيم ابن تيمية، ت: علي بن حسن وآخرون، دار العاصمة، السعودية، ط 2، 1419هـ - 1999م، (ج 1/86، 426).
  - (5) انظر: تفسير ابن كثير، (ج 4/269).
  - (6) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (ج 2/91).
  - (7) انظر: الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، (ج 4/4).
  - (8) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 3، 1362هـ - 1943م، (ج 1/312-313).
  - (9) انظر: إعجاز القرآن الكريم، فضل عباس وسناء عباس، دار النفائس، عمان، الأردن، 1991م، (ص 17-18).
  - (10) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، (ج 6/130-131). التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 17/325).
  - (11) انظر: تفسير المنار، (ج 1/161).

عائشة عبد الرحمن<sup>(1)</sup>، وحاصل أدلتهم:

1- أن التحدي كان بنوع هذا القرآن لا بكمه والعجز كان عن الإتيان بشيء من جنس القرآن بغض النظر عن المقدار<sup>(2)</sup>.

2- أما كون التحدي بسورة أو بعشر فيرجع إلى مراعاة حالة المخاطبين في كل سورة وظروف القول دون اعتبار التدرج المرحلي<sup>(3)</sup>.

الفريق الثالث: الذين جمعوا بين التدرجية الزمانية والكمية. ومن هؤلاء ابن عطية<sup>(4)</sup> والثعالبي<sup>(5)</sup>.

فهذا الفريق يرى أنه لا يقوم دليل على استثناء آيات التحدي من ترتيبها في سورها، وقد تتبّع الدكتور محسن الخالدي نزول آيات التحدي في سورها فلم يجد أن هناك استثناءً قد نُصّ عليه في تقدّم أو تأخّر تلك الآيات عن سورها في النزول.<sup>(6)</sup>

ومن المعلوم أنّ الإشكال يتركز في ترتيب سورتي يونس وهود؛ فالتدرج الكمي يقتضي أن تكون سورة هود ذات التحدي بعشر سور قبل سورة يونس ذات التحدي بواحدة.

فابن عطية يُبقي ترتيبيهما النزولي كما هو ويحلّ الإشكال باعتبار أنّ التحدي بعشر في هود أوسع على الكفار من التحدي بسورة في يونس؛ ذلك أنّ التحدي في يونس كان بالمماثلة التامة في نظم القرآن ومعانيه وغيوبه ووعدّه ووعديه، ثمّ وسّع عليهم وأرخص لهم العنان في هود بأن جعل التحدي في نظمه فقط دون بقية وجوه المماثلة؛ حيث قيّد السور المتحدى بالإتيان بها بالمفتريات، والافتراء يكون في المعاني والغيوب لا في النظم<sup>(7)</sup>.

وقد ذكر صاحب تفسير المنار وجهاً آخر للتحدي بالعشر؛ حيث رأى أنّ وجه التحدي بعشر سور مفتريات في هود رغم كونها لاحقاً على يونس في النزول - والتدرج المنطقي

---

(1) يُنظر المرجع السابق، (66-69).

(2) انظر: تفسير الظلال، سيد قطب، (ج 4/1861).

(3) المرجع نفسه.

(4) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، (ج 3/155).

(5) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، ت: الشيخ محمد علي

معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1418هـ، (ج 3/275).

(6) انظر: التحدي بالقرآن الكريم، محسن سميح الخالدي، (1421هـ - صفر - 2000م، مايو)، بحث مقدم

للمؤتمر العلمي الثالث: الإعجاز في القرآن الكريم، (ص 24)، غزة، جامعة الأقصى.

(7) المحرر الوجيز، (ج 3/155).

يقتضي أن يكون التحدي من الأعلى إلى الأدنى - هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة، ولما كانت سورة هود والسور التي قبلها تذكر كثيراً من قصص السابقين وتعبّر عن القصة الواحدة بأفانين من القول ناسب أن يكون التحدي بعدد من السور كي يتسنى تنوع الأسلوب، فضلاً على أنه قد أرخى لهم العنان في هود بكون السور مفتريات في أخبارها دون أسلوبها ولم يكن هذا في يونس<sup>(1)</sup>.

فيتحصل من كلام ابن عطية ورضا أن التحدي في يونس بالسورة الواحدة أعلى رتبة من التحدي بالعشر في هود من حيث كونه أولاً اشترط المماثلة التامة في يونس واكتفى بمماثلة النظم دون المعاني في هود، ومن حيث كون العشر أيسر على القوم في تعدد الأساليب في سرد القصص.

### ثالثاً: رأينا في تدرج آيات التحدي.

بادئ ذي بدء فإن اعتبار الزمان في النظر في آيات التحدي منهجية علمية مفيدة في فهم تفاعل القرآن مع أعدائه - وقد ذكرنا طرفاً من الفوائد المنهجية للدراسة التاريخية لنزول سور القرآن في التمهيد من هذا الفصل -.

ثم إن تقسيم تنزل آيات التحدي في المراحل الثلاثة التي ذكرتها أعلاه يتناسب بشكل كبير مع أحداث السيرة وتدرج تفاعل القرآن مع المشركين في شتى مراحل الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة.

فالمرحلة الأولى هي مرحلة بدء التحدي مع اشتداد الجدل في القرآن أواسط العهد بمكة، وقد بدأ التحدي بعموم لفظه في سورة القصص ﴿فأتوا بكتاب﴾، فإن التحدي أول ما يبدأ يفتتح بمطلق التحدي لا بتفاصيله، ثم استمر التحدي في هذه المرحلة في سورتي يونس وهود - على الخلاف الفرعي الذي رأيناه في تقديم إحداهما على الأخرى -.

والمرحلة الثانية هي مرحلة تسجيل العجز والتي جاءت بعد السنة العاشرة للبعثة، فلما لم يكن بمقدور القوم على أن يأتوا بمثل القرآن ولا بمثل بعض سورهم أعاد عليهم التحدي في سورة الطور بما بدأهم به في القصص، ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾، وهذه الإعادة من باب تسجيل العجز عليهم مرة بعد مرة، فلما تبين عجزهم سجل الله عليهم الحقيقة المطلقة التي باتت مستقرة في أذهانهم فجاءت آية الإسراء ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا

(1) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (ج 1/161-162).

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: 88].

أمّا المرحلة الثالثة والأخيرة فمباينة لسابقتها في الزمان والسياق، فهي آية مدنية جاءت الخطاب فيها للبشر كافة لا لقريش والعرب كما في العهد المكي، ليتناسب ذلك مع عموم الدعوة الذي بدأ يبرز في آيات العهد المدني الذي هو ختام عهدي الدعوة.

إلى هذا القدر الذي قرّرتُه لا إشكال يبرز بين الأفرقة سوى بعض الفروق الطفيفة، فالفريق الأول يجعل آية الطور أول آيات التحدي، وقد جعلها الباحث من آيات تقرير العجز إذ هي من أواخر ما نزل، وكان مكانها آية القصص وهي بنفس معنى عموم التحدي الذي في آية الطور.

أما الإشكال الوحيد الذي يبرز فهو ما وقع من خلاف بينهم في موقعي سورتي يونس وهود تقديماً وتأخيراً، وقد رأيت ما كان لكل فريق من توجيهات في هذا.

وفي ختام هذا العرض أسجل الخلاصات الآتية والتي من خلالها سيظهر ما يرجّحه الباحث:

1- إن مدار عجز العرب على أن يأتوا بمثل هذا القرآن على النظم المعجز لهذا القرآن لا على الكم المعجز منه، فإن عجز العرب قائم سواء أكان التحدي بسورة واحدة أو بالقرآن كله، لا فرق مطلقاً بين هذا وذاك فالعجز نوعي لا مدخل للكم في زيادته أو تقليله، وعليه فلا وجه لمن يشترط التدرج الكمي لتحقيق التحدي والإعجاز، فإن القرآن فيه من النظم المعجز في السورة الواحدة منه ما يستحيل على الإنس والجن مجتمعين معارضته إلا أن تكون السورة نفسها هي نتيجة المعارضة، هذا مع التأكيد على أن مسألة التدرج الكمي في التحدي أمر منطقي معقول تطلبه العقول.

2- التدرج الذي تفرضه الدراسة الزمانية السياقية للآيات هو التدرج في الخطاب مع مراعاة الأحوال، فقد بدأ خطاب التحدي للمعاندين المجادلين في القرآن من أهل مكة في المرحلة الأولى، ثم سجّل عليهم العجز ليكون خطاباً لمن وراءهم وذلك في المرحلة الثانية، ثم ختم بخطاب البشر كلهم بالتحدي ليوائم عالمية الدعوة في العهد المدني وما بعده.

3- ابن عطية - رحمه الله - من أفاض المفسرين الذين لهم عناية خاصة بلغة القرآن ومفرداته، وقد لفت فيما نقلناه عنه إلى دقة التعبير القرآني إذ قيّد السور في هود بالمفتريات ولم يقيد في يونس، وقد علم المشتغلون ببلاغة القرآن وإعجازه أن كل كلمة في كتاب الله تعالى تؤدي دورها في مكانها أتم أداء وهي مقصودة بذاتها لا يمكن أن تكون فضلة زائدة؛ وعليه فإن قيد

(مفتريات) في هودٍ يقصُرُ التحدي على النظم اللغوي دونَ ما تتضمنهُ الألفاظُ من معانٍ بدعيةٍ فريدةٍ لا يقدرُ العربُ على مثلها، فيكونُ هذا القيدُ - رغمَ زيادةِ عددِ السورِ - توسعةً على الكفارِ وإرخاءً لهم في التحدي.

4- ولو استبعدنا قولَ ابنِ عطيةَ هذا وحملنا الآياتِ على خصوصيةِ الخطابِ لكلِّ سورةٍ دونَ النظرِ إلى حتميةِ التدرجِ الكميِّ - كما ذهبَ إليه سيد قطب - لكانَ حسناً أيضاً، فقد قرّرنا أعلاه أنَّ العبرةَ في التدرجِ هي الزمانُ والخطابُ لا الكمُّ.

5- ولو استبعدنا ذينِ القولينِ وصرنا إلى تقديمِ هودٍ على يونسَ في النزولِ تحقيقاً لمنطقِ التدرجِ الكميِّ لما كانَ لهذا الترتيبِ كبيرُ معارضةٍ لما ذهبنا إليه من اعتبارِ المرحلةِ الزمانيةِ الخطابيةِ؛ فإنَّ هوداً ويونسَ يندرجانِ كليهما في المرحلةِ الأولى من مراحلِ التدرجِ الزمانيِّ الذي اخترتهُ، وعليه فالخلافُ فرعيٌّ لا يبنيني عليه كبيرُ أثرٍ.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- إنَّ أولَ ما يلفتُ الانتباهَ في آياتِ التحدي أنَّ مدارَ التحدي في أولى آياته كانَ على هداياتِ القرآنِ ومعانيه لا على المشهورِ من أنَّ النظمَ اللغويَّ هو مدارُ التحدي في كلِّ آياتِ التحدي بالقرآنِ، وهذا ملحظٌ دقيقٌ يجبُ أنْ نقفَ عندهُ ونتدبّرهُ بعمقٍ:

أ- صحيحٌ أنَّ مبنى إعجازِ القرآنِ هو نظمُهُ اللغويُّ وأسلوبُهُ البيانيُّ، وهو الذي لأجله عجزَ العربُ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ، وأنَّ المثليةَ الموصوفَ بها القرآنُ المتحدى به هي مثليةُ النظمِ بجهاتهِ الثلاثِ: اللفظِ والتركيبِ والمعنى.

ب- بيدَ أنَّ هذه الجهةَ اللغويةَ لا يُدركُها إلا العربُ الخُصُّ بما عهدوا من أحوالِ النظمِ العربيِّ البليغِ وأفانينِ القولِ البديعِ، وإنَّ كانَ هذا الإدراكُ متاحاً عندَ فئةٍ خاصةٍ في العهدِ الأولِ هم العربُ فقد باتَ اليومَ من المتعسرِ أنْ تجدَ مَنْ يُدركُ بديعَ النظمِ اللغويِّ للقرآنِ من العربِ أنفسهمَ وقد صاروا إلى العُجمةِ أقربَ منهم إلى العربيةِ الفصحى، وإنَّكَ لتتَعَنَّى كلَّ التَعَنَّى كي تبُلِّغَ بالعربيِّ اليومَ فهمَ مناطِ الإعجازِ اللغويِّ بما يستجمعهُ من فكرهٍ بعدما كانَ يُعرفُ هذا لدى أربابِ العربيةِ بفطرتهم.

ت- وبناءً على ما سبق فقد اقتضتِ حكمةُ الله الباهرةُ أنْ يكونَ مناطُ التحدي في أولِ آياته على هداياتِ القرآنِ ومعانيه الناشئةِ عن نظمِهِ المعجزِ لا على نظمِهِ اللغويِّ، ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: 49]، فإنَّ القدرَ المشتركَ الذي تتحدُّ فيه كلُّ العقولِ السليمةِ هو إدراكُ ما يتضمنهُ القرآنُ

من هداياتِ تصلحُ بها البشريةُ في كلِّ شؤونها، ومعانٍ جليلةٍ تسمو بها قيمهم وأخلاقهم، تلك المعاني التي لو اجتمعَ الإنسُ والجنُّ على أن يُتجوا قانوناً يرقى بالبشريةَ إلى درجةِ الكمالِ في كلِّ شؤونها لما وسعهم إلا أن يكونَ القانونُ الذي تهتدي إليه عقولهم هذا القرآنَ العظيمَ.

ث- فأنت تلك البادئةُ القرآنيةُ الزمانيةُ التدريجيةُ في أحسنِ موقعٍ وهي تقولُ لكلِّ من يحملُ هذا القرآنَ ويدعو به ويتحدى به العالمينَ: ابدأوا خطابَ الناسِ بهداياتِ القرآنِ وجليلِ معانيه وعظيمِ مراميهِ وساميِ مقاصدهِ بإصلاحِ هذه البشريةِ، ولقد أدركَ الجيلُ الأولُ هذا المعنى فلم تكن مبادئُ جعفرِ النجاشيِّ - وهو أعجميٌّ - بالتعريفِ بالإسلامِ حديثاً عن نظمه اللغويِّ البديعِ إبانَ هجرةِ الحبشةِ - وهي الهجرةُ التي كانت بعدَ نزولِ آياتِ التحدي في مرحلتها الأولى -، بل كان أولَ ما بادأه بقوله: " أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَائِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَكُلِّ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ... "(1).

ج- وفي هذا رسالةٌ منهجيةٌ للدعاةِ اليومَ أن يجتهدَ علماءُهم في استخراجِ التوجيهاتِ القرآنيةِ المعجزةِ في أبوابِ العلمِ والأخلاقِ والتشريعِ والتربيةِ والعلاقاتِ المجتمعيةِ والسياسةِ والاقتصادِ... إلخ بأسلوبٍ سهلٍ مُيسَّرٍ يكونُ في متناولِ كلِّ داعٍ إلى الله يُبرِّرهُ للمدعوينَ، ومكتباتُ أقسامِ الدراساتِ العليا بالجامعاتِ الإسلاميةِ اليومَ - بفضلِ الله - تزخرُ بمثلِ هذه الأبحاثِ، فيبقى إخراجُها للدعاةِ.

ح- أمَّا نظمه اللغويُّ البديعُ فلا غنى لداعٍ عن فهمه وتدبره واستنباطِ الفوائدِ الجليلةِ من مكانه كي يدعو بها ويبلغها من يعقلها ويلتذُّ بتدبرها.

2- القرآنُ الكريمُ معجزةُ النبيِّ ﷺ، والتحدي ركنٌ في ماهيةِ المعجزةِ فلا تكونُ معجزةً بلا تحديٍّ، وبما أننا رأينا أن التحدي الصريحُ قد بدأ أوسطَ العهدِ المكيِّ مع سورةِ القصصِ فهل يعني

(1) سيرة ابن هشام، (ج 1/336).

هذا أن القرآن لم يكن معجزاً قبل؟

قطعاً لا، فإن المعجزة لا تنفك عن التحدي ولكن هذا التحدي يكون صريحاً أحياناً عندما يتطلب الأمر ذلك كما كان في سورة القصص لبروز عناد المشركين وجدالهم في القرآن، وقد يكون ضمناً كما كان قبل، ويستفيد الدعاء من هذه المنهجية أنك لا ينبغي أن تُبادئ المدعو بالتحدي لما في التحدي من استثارة غضبه ودعوته لاستجماع قوته، بل إن مقصود دعوة الإسلام أن تلج القلوب مع ولوجها العقول، وأن تتسلل إلى قلب المدعو باللين والرحمة والإقناع كي تستقر في قلبه وعقله أيما استقرار، فإن أبي إلا الجدال والعناد جابهناه بسلاح التحدي والمبارزة.

3- اختتام آيات التحدي بآية البقرة المدنية الواردة في سياق خطاب الناس كافة يؤكد ما قدمناه من أهمية وجوه إعجاز القرآن المتعلقة بمعانيه وهداياته إذ هو خطاب للعرب والعجم على حد سواء، تلك الوجوه المنبثقة عن وجه الإعجاز الأصلي وهو النظم، وهنا يرى الباحث ضرورة التفريق في الاسم بين الإعجاز اللغوي والإعجاز بالنظم والإعجاز البياني، فإن البياني أشملها فبيان القرآن الناشئ عن نظمه يدخل فيه اللفظ والتركيب والمعنى، وبالتالي كل المعاني والهدايات والموضوعات القرآنية المعجزة من غيوب وعقائد وعلوم ومناهج وقواعد وتشريعات وقيم... إلخ.

**المطلب الثاني عشر: بدء ذكر بعض التشريعات والحديث عن التدرج.**

كما كان القرآن الكريم هو الموجة الأولى لاتباعه في قضايا العقيدة والإيمان والعلم والعبادة والعلاقة العقيدية مع أصناف البشر فهو أيضاً المحرك الأول لأخلاق الناس والأحكام التي تنظم علاقاتهم فيما بينهم، وقد بنى القرآن المكي أسس العقيدة الخالصة من كل شائبة على مدار العهد المكي كله وفصل في مسائل الألوهية والعبادة بحيث صار الإيمان هو المحرك الرئيس بل والوحيد لأفعال الإنسان وسلوكه فلا يصدر منه حركة ولا سكون إلا عن انقياد تام لخالق هذا الكون، وإخلاص محض للمعبود بحق سبحانه وتعالى، ولذا فقد بدأ القرآن في حديثه عن نفسه يُشير في أواسط العهد المكي إلى بعض الأحكام التي وقع فيها الشرك من العرب من جهة ويربط أتباعه بالنبى ﷺ من جهة أخرى في باب التشريع تمهيداً لتفصيل الأحكام الذي سيكون في العهد المدني والذي لن يستقيم باب تفصيلاته وتفريعاته إلا ببيان النبي ﷺ، وسنعرض لهذا الموضوع في النقاط الآتية:

أولاً: بدء ذكر بعض التشريعات.

رَكَزَ الْقُرْآنُ فِي سَنِي نَزُولِهِ الْأُولَى عَلَى بِنَاءِ الْعَقِيدَةِ الْخَالِصَةِ الصَّافِيَةِ فِي نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ لَمَّا بَدَأَ الْجِدْلُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَزِيدُ وَطَالَ إِعْرَاضُهُمْ وَزَادَ تَكْذِيبُهُمْ بَدَأَ الْقُرْآنُ الْمَكِّيُّ يَتَوَسَّعُ فِي عَرْضِ الْقَضَايَا الْعَقِيدِيَّةِ وَيُرْبِطُهَا بِتَطْبِيقَاتِهَا الْعَمَلِيَّةِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، فَكَانَتْ أَوَّلُ السُّورِ الَّتِي فَصَّلَتْ فِي قَضَايَا الْعَقِيدَةِ بِشَكْلِ مُسْتَقْبِضِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي رَاوَحَ نَزُولُهَا السَّنَةَ الْخَامِسَةَ أَوْ السَّادِسَةَ لِلْبَعْتَةِ<sup>(1)</sup>.

وقد كانت المناسبة التطبيقية الحاضرة لهذه القاعدة العقيدية الكبرى في حياة الجماعة المسلمة إذ ذاك هي ما يزاوله المشركون من حق التحليل والتحریم في الذبائح والمطاعم، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور والثمار والأولاد متعديين بذلك على من له مطلق التحليل والتحریم والأمر، خالق هذا الكون ومالكه ورازقه ومُدبِّر أمره سبحانه<sup>(2)</sup>.

فتنزلت الآيات تبين أن القرآن الذي هو وحي الله وكلمته هو وحده الذي له حق التحريم والتحليل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَضْطَرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: 119] ... ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: 145].

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن قوله تعالى ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾ يشير إلى آية المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3]، وهذا لا يستقيم إذ الأنعام مكية باتفاقهم والمائدة من أواخر ما نزل بالمدينة باتفاقهم أيضاً، فلا يستقيم أن يشير المتقدم إلى المتأخر، والصحيح أنها تشير إلى الآية المذكورة بعدها بقليل ﴿قُلْ لَا أَجِدُ...﴾، وهذا القدر اليسير من التأخر لا يمنع عوداً

(1) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج 2/1020).

(2) انظر: المرجع السابق، (ج 2/1018).

الإشارة إلى متقدم<sup>(1)</sup> سيما أن السورة نزلت دفعةً واحدةً بإجماعِ المفسرين فيكون في حكم المقارن<sup>(2)</sup>. وقد ذهب ابنُ عاشورٍ إلى أن الإشارة في الآية إلى وحي غير القرآن - أي السنة - لمناقضة كون المتقدم في التلاوة متأخراً في النزول مع إجماعهم على نزول السورة دفعةً واحدةً<sup>(3)</sup>، والتحقيق القول الأول<sup>(4)</sup>.

ويأمر الله نبيه في نفس السورة أن يدعو جميع الخلق إلى الاستماع إلى القرآن وهو يتلى بذكر ما حرم الله، وهكذا ينبغي على العلماء بعد النبي ﷺ أن يبينوا للناس ما حرم ربهم عليهم في القرآن<sup>(5)</sup>.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيَّكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمُ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمُ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 151-153].

فذكر الله في هذه الآيات الثلاث ثلثة من الأحكام التي أجمعت عليها شرائع الخلق لم تُنسخ قط في ملة - كما ذكر ابنُ عباس -<sup>(6)</sup>، وهي الأحكام المنبثقة عن منظومة الأخلاق التي ما فتى القرآن يقررها منذ نزوله على النبي ﷺ، وإنما نكرها هنا لترسيخ ارتباطها بالعقيدة الصحيحة بخلاف ما كان للمشركين فيها من شرك، فالذي دفع المشركين إلى قتل أولادهم اعتقاد الشركة مع الله في الرزق وجلب النفع ودفع الضرر، وكذلك في أكل مال اليتيم، والذي دفعهم إلى قتل النفس بغير حقٍ وقربان الفواحش وعدم إيفاء الكيل والميزان غياب الإيمان باليوم الآخر والحساب

(1) انظر: تفسير الرازي، (ج 129/13).

(2) انظر: تفسير ابن أبي عادل، (ج 401/8).

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 34/8).

(4) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، 1415 هـ - 1995 م، (ج 491/1).

(5) انظر: تفسير القرطبي، (ج 131/7).

(6) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، (ج 361/2).

وعدم استحضار اطلاع الله على سرائرهم وخفي أفعالهم.

ويلاحظ أنّ هذه المحرّمات المذكورة في هذه الآيات الثلاث تسعى إلى تحقيق أمرين

رئيسيين:

1- تحريم ما يؤدي إلى الإخلال بالفطرة السليمة وإفساد الاعتقاد.

2- تحريم ما يؤدي إلى الإخلال بنظام المجتمع من عادات ومعاملات غير سويّة<sup>(1)</sup>.

### لطيفة بيانية:

ذكر صاحب نظم الدرر لطيفةً بيانيةً دقيقةً تُبرز روعة التعبير القرآني في كلّ كلمة من كلماته؛ حيث نادى الناس في أوائل كلمات آياتنا بكلمة (تعالوا) دون (هلموا أو أقبلوا) مثلاً، وأصل (تعالى) في اللغة أن يقولها من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه ثم كثر وأُتسع فيه حتى عمّ<sup>(2)</sup>، قال البقاعي: (قل تعالوا): أي أقبلوا إليّ صاعدين من حضيض الجهل والتقليد وسوء المذهب إلى أوج العلم ومحاسن الأعمال<sup>(3)</sup>.

وقد تكرر حديث القرآن عن وحي الله بهذه الثلة من الأحكام والأخلاق في سورة الإسراء، فبعد أن ذكر مجموعة من الأحكام المتعلقة بالإنفاق والقتل والزنا وأكل مال اليتيم والوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان وحرمة القول بغير علم أردف كلّ هذا بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 39].

والذي يتعلّق من هذا العرض بموضوع بحثنا أنّ القرآن الكريم بدأ في هذه المرحلة المتوسطة من البعثة بأمر النبي ﷺ بأن يتلو الآيات المتعلقة ببعض الأحكام والأخلاق تمهيداً لبيان أنّ دائرة ارتباط الإنسان بالقرآن لا ولن تتمّ إلا بأخذ القرآن عقيدة وسلوكاً وتشريعاً في كلّ نواحي الحياة.

### وقفه تدبرية:

ذكرت آيات سورة الأنعام وصايا عشرًا جامعاً لأسس العقيدة وأصول الشريعة ومكارم الأخلاق، وهي جماع الوصايا التي يُحفظ بها الفرد والأسرة والمجتمع، ولو تدبرنا هذه الوصايا

(1) انظر: ذلك وصاكم به: الوصايا العشر، محمد منير الجنباز، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط

1، 1420هـ - 1999م، (ص 10).

(2) تفسير الزمخشري، (ج 2/78).

(3) نظم الدرر، البقاعي، (ج 7/316).

التي جاءت على ثلاث مجموعات لوجدناها على النحو الآتي:

المجموعة الأولى: الوصايا الخمس: النهي عن الشرك بالله، الأمر بالإحسان للوالدين، النهي عن قتل الأولاد، النهي عن قربان كل ما عظم قبضه من الأقوال والأفعال، النهي عن قتل النفس إلا بالحق.

كل هذه الوصايا تشترك في ظهورها وتجاوبها مع الفطرة السليمة وفي كونها حقوقاً ثابتة في نفسها لا تتغير ولا تتبدل.

المجموعة الثانية: الوصايا الأربع: النهي عن أكل مال اليتيم، الوفاء بالكيل والميزان، قول الحق في كل حال، الوفاء بعهد الله.

وكلها وصايا قائمة على إقامة العدل في التعامل بين الناس.

المجموعة الثالثة: الوصية الخاتمة: وهي الوصية الجامعة لاتباع التكليف والتزام دين الله وعدم التفريق عنه.

وهي وصية قائمة على تقوى الله ومراقبته وخشيته.

فالمتمثل في هذه الوصايا يجدها قد بنت الأسس الصحيحة للمجتمع المسلم، فبدأت بالأساس الأول وهو العقيدة الصحيحة، ثم تلت ببناء الأسرة الفاضلة على أساس برّ الوالدين والرحمة بالأبناء، ثم عطفت بحفظ المجتمع من التصدع عن طريق تحريم انتهاك الأنفس والأموال والأعراض، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله التي هي ملاك ذلك كله<sup>(1)</sup>.

أمّا في العهد المدني فقد تضافرت الآيات التي تشير إلى أنّ هذا القرآن هو دستور الأحكام الذي يتلقى عنه البشر منهج حياتهم؛ إذ هو ميدان الأحكام وزمان التفصيل والتفريع لما كان من بناء المجتمع وإقامة الدولة وما نشأ عن ذلك من ضرورة وجود منظومة تشريعية تحكم الناس في علاقاتهم ومعاملاتهم.

فبيّن أنّ أحد المهام الرئيسية للكتاب الحكم بين الناس فيما يختلفون فيه ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213].

(1) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 5/218-222).

أي أنزل عليهم التشريع الأفضل الذي يحتكمون إليه في خلافاتهم ونزاعاتهم وينظم علاقاتهم فيجعلهم في راحة وطمأنينة<sup>(1)</sup>.

وبين أن هذا القرآن يحوي ثلثة عظيمة من أحكام صلاح الأسرة والمجتمع ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكرون﴾ [النور: 1].

وقد شملت هذه السورة كثيراً من آداب المخالطة والزيارة ومعاشره الرجال للنساء وحكم الزنا والقذف واللعان وأحكام الاستئذان وإفشاء السلام والأمر بالعفاف والتحريض على تزويج العبيد ومكاتبتهم... إلخ<sup>(2)</sup>.

وبين أهمية القرآن في الفصل في أحكام المفارقة بين الزوجين بالطلاق وغيره وأن هذا البيان القرآني من عظيم نعمة الله على عباده فلولا ه لفسدت أحوالهم ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً ليعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً وأذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله وأعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ [البقرة: 231].

وختم هذه البيانات بآيات الأمر بتحكيم القرآن في الناس والتحذير من نيذه واتباع الهوى والسير في طريق الجاهلية وذلك في آيات سورة المائدة آخر السور نزولاً قبل التوبة والنصر: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصديقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [النور: 48] وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفلسفون﴾ [النور: 49] أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ [النور: 50].

ثانياً: البيان النبوي للقرآن.

وبين يدي الهجرة إلى طابا حيث مرحلة تفصيل الأحكام والانتقال من التفصيل إلى التفرع يهتئ القرآن المؤمنين إلى أن هذا الكتاب العظيم لا يستقل بالأحكام وحده فهو صنو من نزل عليه

(1) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 1/105).

(2) انظر: التحرير والتنوير، (ج 18/140-141).

لا يتمُّ بيانهُ إلا به، فتنزَّلُ آياتُ سورةِ النحلِ التي هي من سورِ أواخرِ العهدِ المكيِّ بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43-44].

أي: لتبيِّن للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم في هذا الكتابِ من الأحكامِ والوعدِ والوعيدِ بقولِكَ وفعلِكَ، فالرسولُ ﷺ مبيِّنٌ عن الله عزَّ وجلَّ مرادُهُ ممَّا أجملَهُ في كتابِهِ من أحكامِ الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ، وغيرِ ذلك ممَّا لم يفصِّلهُ<sup>(1)</sup>.

وتتجلَّى أهميةُ هذه الآيةِ في بحثنا هذا من جهتين:

1- في مسيرةِ القرآنِ في ربطِ الإنسانِ به قد يغفلُ هذا الإنسانُ عن أهميةِ سنَّةِ النبيِّ ﷺ ويظنُّ أنَّ القرآنَ هو وحده المرجعُ الأصيلُ والمنبعُ الوحيدُ الذي ينبغي أن يُعتنى به وأنَّ ما سواه تنمَّاتٌ قد يُستغنى عنها فتأتي هذه الآيةُ كي تبديدَ ما قد يكونُ من وهمٍ وتزِيلَ ما قد ينشأُ من لبسٍ فنقرِّرُ أنَّ الذِّكْرَ لن يتضحَ كمالَ الوضوحِ إلا ببيانِ النبيِّ ﷺ له.

2- أنَّها توطئةٌ للمنهجيةِ التي بعدها في بيانِ تدرجِ نزولِ القرآنِ كي يتسنى تلقُّيه بيُسْرٍ وفهمه بجلاءٍ واستيعابِ الأحكامِ المنبثقةِ عنه والتي تعالجُ فروعَ المعاملاتِ بينَ الناسِ بما لا يناسبُ طبيعةَ القرآنِ المبنيِّ على الإيجازِ والإجمالِ فيأتي بيانُ النبيِّ ﷺ كي يستوعبَ هذه التفاصيلِ.

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ كثيراً من معاني القرآنِ لأصحابِهِ، فمن ذلك بعضُ المغيِّباتِ التي أخفاها اللهُ عن الناسِ وأطلعَ النبيُّ ﷺ عليها ليبلِّغها، وفسرَ لهم ما يحتاجُ إلى اجتهادٍ كبيانِ المِجْمَلِ وتخصيصِ العامِّ وتوضيحِ المشكِّلِ مما خفي عليهم<sup>(2)</sup>.

ولهذه الآيةُ أختٌ في سورتها هي نظيرتها: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64]، فأدخلت لأمِّ التعليلِ على فعلِ (تبيِّن) الواقعِ موقعَ المفعولِ لأجلِهِ لأنَّه من فعلِ المخاطَبِ لا من فعلِ فاعلِ (أنزلنا)؛ فالنبيُّ ﷺ هو المباشرُ للبيانِ بالقرآنِ تبليغاً وتفسيراً<sup>(3)</sup>.

وقد وردَ اقتراءُ الكتابِ بالحكمةِ في العهدِ المدنيِّ خمسَ مراتٍ في إشارةٍ واضحةٍ إلى دورِ

(1) تفسير القرطبي، (ج 10/109).

(2) انظر: التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 7، 2000م، (ج 1/42).

(3) التحرير والتنوير، (ج 14/196).

النبِيِّ ﷺ في بيانِ الكتابِ وتعليمِهِ للناسِ حيثُ باتَ دورُ السنَةِ المَبِينَةِ للقرآنِ بارزاً في هذا العهدِ معَ كثرةِ الأحكامِ وتفصيلاتها، وقد أسلفنا الحديثَ عن معاني هذه الآياتِ ولطائفها في المطلبِ الثالثِ من هذا المبحثِ<sup>(1)</sup> فلا معنى لإعادته هنا.

ثالثاً: حديثُ القرآنِ عن التدرجِ في تلقيهِ والدعوةِ به.

وفي خواتيمِ العهدِ المكيِّ، وحيثُ كانتِ الجماعةُ المؤمنةُ تنتهيًا للانقلابِ العمليِّ الكبيرِ انتقالاً من بناءِ العقيدةِ وتطبيقاتها العمليةِ في مكةَ إلى المواجهةِ العمليةِ الأكبرِ لتطبيقاتِ العقيدةِ والموالاةِ والبراءِ في المدينةِ من جهةٍ، وإلى الانخلاعِ من كلِّ مظاهرِ الانحرافِ العمليِّ في بابِ المعاملاتِ من جهةٍ أخرى، في تلكَ اللحظةِ الفارقةِ تنزَّلتِ على المؤمنينِ سورةُ الإسراءِ، تلكَ السورةُ التي عُنيَتِ فيما عُنيَتِ بالقرآنِ الكريمِ وطبيعةِ هذا القرآنِ وما يهدي إليه<sup>(2)</sup>، وتختتمُ السورةُ مشوارها الطويلَ في الحديثِ عن النبيِّ ﷺ والقرآنِ بهذه الآية: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 105-106].

فالحقُّ الأولُ الحكمةُ الإلهيةُ من إنزالِ القرآنِ، والحقُّ الثاني ما تضمَّنَه القرآنُ من عقائدِ وعباداتِ وآدابِ وأحكامِ ومعاملاتِ.

فلما كانَ القرآنُ العظيمُ مشتملاً على هذه القضايا الكبرى الملتبسةِ بالحقِّ اقتضتِ حكمتهُ الباهرةُ التي تلبَّست بنزولِ القرآنِ أن يكونَ نزولهُ مفرقاً، أي: مفصلاً في أحكامِهِ، منجماً في نزوله، كي يقرأهُ النبيُّ ﷺ على الناسِ على تُوَدَّةٍ وتأنٍّ على طولِ إقامتهِ فيهم كي يتيسَّرَ لهم حفظُهُ وأخذُهُ بسهولةٍ وتطبيقُ أحكامِهِ وتشريعاتهِ بدقةٍ<sup>(3)</sup>.

وهذا من أعظمِ المنهجياتِ العمليةِ التي أرشدَ إليها القرآنُ في طريقةِ أخذِهِ وتناولهِ ودعوةِ الناسِ به؛ فالناسُ مفطورونَ على ما أَلْفُوا، مجبولونَ على ما تعودوا، لا يكادونَ ينخلعونَ ممَّا أَلْفُوا عليه آباءهم ووجدوا عليه أسلافهم، فاقتضتِ حكمةُ اللهِ العظمى رحمةً بعبديه أن يتنزَّلَ عليهم هذا الوحيُّ الغضُّ النديُّ الممتلئُ بأسبابِ الحياةِ، المكتنزُ بأسرارِ النجاةِ، الوافرُ بأدواتِ التأثيرِ وآلياتِ التغييرِ، أن يتنزَّلَ عليهم شيئاً فشيئاً، يقرؤه الداعي عليهم ورداً فورداً، يعالجُ به صداً قلوبهم نكتةً فنكتةً، ينزعُ به أغلالَ عوائدهم قيذاً فقيداً، يرتقي بهم من الدرجاتِ درجةً فدرجةً،

(1) انظر: المطلب الثالث من هذا المبحث، ص (66).

(2) انظر: في ظلال القرآن، (ج 4/2208).

(3) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 8/448-449).

يُقَوِّمُ بِهِ اعْوَجَاجَهُمْ عَوْدًا فَعَوْدًا... وهكذا كي يصلَ بهم - على طولِ دعوتهِ بينهم - إلى مراقبي الكمالِ وبرزِ الأمانِ ووارفِ الظلالِ؛ فينقلبَ بهم إلى الهدى بعدَ الضلالِ، وينقلهم من القيعانِ إلى هامِ الجبالِ.

وقد عبرت الصِّدِيقَةُ بنتُ الصِّدِّيقِ - رضي الله عنها - عن هذا المعنى لما جاءها عراقيٌّ يسألُها، فقال: أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قالت: وَيْحَكَ، وَمَا يَصْرُكَ؟ " قال: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكَ؟ قالت: لِمَ؟ قال: لَعَلِّي أَوْلَفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قالت: وَمَا يَصْرُكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ " إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا تَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: 46] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ "، قال: فَأَخْرَجْتُ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمَلْتُ عَلَيْهِ آيَ السُّورِ (1).

#### إشكالٌ ودفعُهُ:

قد يُفهمُ من تصنيفنا آيةَ الإسراءِ هذه في أواخرِ العهدِ المكيِّ نزولاً والتي تتحدَّثُ عن تفريقِ نزولِ القرآنِ - في أحدِ معاني التفريقِ - أنَّ تفريقَ القرآنِ نجومياً لم يبدأ إلا في أواخرِ العهدِ المكيِّ، وهذا قطعاً لا يُرادُ من تصنيفنا ولا من لغةِ الآيةِ.

وردُّ هذا الإشكالِ في النقاطِ الآتية:

1- إنَّ هذه الآيةَ تتحدَّثُ عن حالةٍ قد قضاها الله في نزولِ القرآنِ وهي التنجيمُ ولم تقل الآيةُ إنَّ التنجيمَ قد بدأ وقتَ نزولِ سورةِ الإسراءِ، بل عبرتِ بفعالِ المضِيِّ.

2- هذه الآيةُ ليست الأولى في ذكرِ تنجيمِ القرآنِ بل سبقتها آيةُ الفرقانِ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: 32]، وقد فصلنا الحديثَ عنها في المطلبِ الثالثِ من هذا المبحثِ.

3- والفرقُ بينَ الآيتينِ أنَّ آيةَ الفرقانِ جاءتِ رداً على شبهةِ المشركينَ وبياناً لحكمةٍ عظيمةٍ من حكمِ التدرجِ وهي تشبيهُ قلبِ النبيِّ ﷺ والدعاةِ من بعده، أمَّا آيةُ الإسراءِ فجاءتِ في بيانِ حكمةِ التؤدةِ والتأني في إلقاءِ القرآنِ على الناسِ.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، (ج 4/1910)، رقم الحديث: (4707).

4- وخالصة القول أن آية الفرقان في بيان فائدة التنجيم في التأثير، وآية الإسراء في بيان فائدة التنجيم في التغيير، فالعهد المكي لا يكاد يغادر دائرة العقيدة والأخلاق وهذه دائرة عظيمة تحتاج إلى تتابع الآيات في تقريرها حتى يظهر الأثر، أما آية الإسراء فجاءت بين يدي العهد المدني لتُناسب مرحلة تغيير عوائد الناس وهجر ما أَلفوه من منكرات واستحداث مجتمع مسلم متكامل الأركان ببناء جديد في علاقته الداخلية والخارجية وقوانينه التي تحكم كل تعاملاته.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- اعتناء القرآن ببناء العقيدة الخالصة في قلوب المؤمنين وتركيزه على هذه القضية الكبرى وتأسيسها في النفوس بوسائل متعددة وإبراز أهميتها في تطبيقاتها العملية في العبادات والمعاملات يضع الدعوة أمام خطورة وضرورة الاعتناء أيما اعتناء بتأسيس العقيدة الخالصة في قلوب الناس سيما في باب صرف الأمر كله لخالق هذا الكون والخضوع له والانقياد لحكمه في كل ما أمر ونهى،

2- دعوة القرآن الناس للاستماع إليه تالياً عليهم أصول الأخلاق التي يستقيم بها بناء الفرد والمجتمع وتحفظ بها الأنفس والأعراض والأموال والابتداء بذلك في العهد المكي قبل بقية التشريعات يضع الداعي إلى الله أمام حقيقة أهمية البناء الأخلاقي للمجتمع وأنه مُقدم على الاعتناء بفروع العبادات - إلا ما دعت إليه ضرورة فقه الوقت والحال بحسبه -.

وهذا الخطاب القرآني الذي يرد الداعي إلى القرآن حيث إن مجرد تلاوة ما حرم الله كفيلاً بأن تستجيب له النفوس المتطلعة إلى ما يصلحها يبين للدعاة أهمية التسلح بآيات القرآن في نشر الفضيلة بين الناس.

3- وعطفاً على ما سبق يقترح الباحث أن يقوم بعض العلماء بكتابة تفاسير قرآنية خاصة بإبراز القيم والأخلاق من خلال آيات القرآن على غرار التفاسير التي عُنت بتفسير آيات الأحكام، كي يجد الدعاة فيها مادة ثرية تجمع بين ربط الإنسان بآيات القرآن من جهة - سواء الدعاة أو المدعوين - وبين تحقيق التأثير في أخلاق المجتمع بالقرآن الكريم.

4- تركيزنا في بحثنا هذا على القرآن الكريم لا يعني بحال عدم أهمية السنة المُطهّرة في بيان ما أشكل من القرآن، وقد أشار القرآن بنفسه إلى هذه الحقيقة كما رأينا، وهذه الإشارة القرآنية تُحتم علينا أن نتبع منهجية الربط بين آيات القرآن وكلام النبي ﷺ في بيانها وذلك بالاعتناء بصحيح التفسير بالمأثور عندما تُفسر القرآن الكريم للناس، وقد كُتبت في هذا الباب رسائل

علمية تجمع تفسير النبي ﷺ للقرآن<sup>(1)</sup>، فيندب بالدعاة والمرتبين أن يستخلصوا أقوال النبي ﷺ المسندة الصحيحة في التفسير ويعرضوها للطلاب كي يحفظوها - وهي ليست بالكثيرة - فينشؤوا الجيل على الارتباط الوثيق بين القرآن والنبي ﷺ مفسراً له.

5- إن في نزول القرآن منجماً على طول مكث النبي ﷺ بين المدعويين وإشارة القرآن إلى ذلك وبيانه أن الأداة الأبرز في العرض والتأثير والتغيير هي قراءة القرآن على الناس قراءة متتابعة متوالية لأكثر دليل على أهمية حضور النص القرآني بين الناس ليس مفصلاً عن الموعظة والتذكير والتربية به، فإن النص القرآني بحد ذاته ذو تأثير عظيم على النفس، فكيف إذا تنوع عرض آياته المرتبطة تارةً بالعقيدة وتارةً بالأخلاق وتارةً بالقصص وأخرى بالتشريعات... إلخ، فضلاً عن منهجية التدرج من العقائد والأخلاق إلى أصول العبادات والتشريعات.

---

(1) ينظر لهذا: المرويات عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن الكريم: من سورة الفاتحة إلى آخر سورة الإسراء..، عبد الناصر محمد قايد علي، رسالة ماجستير من جامعة صنعاء بتاريخ 2005م. وينظر: كتاب: التفسير النبوي مقدماتاً أصولية مع دراسة حداثيّة لأحاديث التفسير النبوي الصريح، خالد عبد العزيز الباتلي، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1432هـ - 2011م.

## المبحث الثالث: المنهجية المتدرجة لربط الإنسان بالقرآن في العهد المدني

ونطوي سجّل العهد المكيّ بما حواه من كنوزٍ ولطائفٍ، ودروسٍ ودقائقٍ، وعبرٍ وفوائدٍ، ومنهجياتٍ ووسائلٍ كي نلج الآن في سجّلٍ هو توأمٌ سابقه في المنهج، وشطرٌ قرينه في الزمان، ومتممٌ صنوه في الغاياتِ والنتائجِ، فها نحن أولاءٍ نفتحُ بابَ العهدِ المدنيِّ مقبلينَ على آياته التي تنزلت في زمانه، تحدّثنا عن ربط الإنسان بالقرآن في جميع أحواله، مستقين من علله بعد نَهْلِهِ، مستكشفينَ مناهجه، باحثينَ عن فوائده، مستتبطينَ لطائفه، مُنْقَبِينَ عن أسرارِهِ ودقائقه، بالغينَ بذلك - بعونِ الله - مقصدنا وبانينَ معَ القرآنِ علاقتنا.

### المطلب الأول: بدء دعوة أهل الكتاب للإيمان بالقرآن وموقفهم منه

فُتِحَ على الدعوة الإسلامية بابٌ جديدٌ في المدينة من قِبَلِ الطوائفِ التي تواجه المسلمين، أولئك هم أهلُ الكتابِ، فالإن كان أهلُ الكتابِ في العهدِ المكيِّ يرقبونَ الدعوةَ الجديدةَ عن بُعدٍ، ويُحَرِّضُونَ قريشاً عليها من وراءِ حجابٍ فقد باتتِ المواجهةُ الآنَ حتميةً بعدما انتقلت تلك الدعوةُ الحقةُ إلى عقرِ دارهم بيثرب التي حولتها الدعوةُ المباركةُ إلى المدينة المنورة برسولِ الله ﷺ، فانتسعت بذلك دائرةُ التطبيقاتِ العقيديةِ ليدخلَ فيها العلاقةُ معَ أهلِ الكتابِ، فإنَّ الخطابَ القرآنيَّ العقيديَّ لم ينفكْ يتنزّلُ إلى أواخرِ السورِ بالمدينة لخطورته وأهميته.

وقد أفتحت آياتُ ارتباطِ الإنسانِ بالقرآنِ في العهدِ المدنيِّ بتلك القضايا المرتبطة بأهلِ الكتابِ، وسنبحثُ تلكَ القضايا في النقاطِ الآتية:

#### أولاً: دعوة أهل الكتاب للإيمان بالقرآن.

بدأ القرآن الكريم اليهودَ بالمدينة بدعوة ملؤها تمحيضُ النصحِ لهم وإرادةُ الخيرِ بهم، فدعاهم إلى الإيمانِ بهذا القرآنِ الماثِلِ بينهم بحقائقه التي عرفوها بما يجدونه مسطوراً عندهم في كتبهم وخطابهم بخطابٍ هاديٍّ يجدُ مكانه في القلوبِ قبلَ العقولِ فناداهم في أوائلِ سورةِ البقرة التي كانت فاتحتها من أولِ ما نزلَ بالمدينة، وفي بداياتِ نداءاتِ بني إسرائيلَ في هذه السورة: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ﴿١٠١﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۗ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: 41-40].

يا أولادَ يعقوبَ - عليه السلامُ - المتتعمينَ بنعمي الجلييلة اذكروا واشكروا هذه النعمَ التي أنعمتُ عليكم وعلى أسلافكم وأوفوا بعهدي باتباعِ الهدى النازلِ على أنبيائي، واعلموا أنَّ علامةَ

وفائكم بعهدي إيمانكم بما أنزلت، سيماً بالقرآن الذي أنزلت على المؤيد بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة، مع كونه مصدقاً لما معكم من الكتب، مشتملاً على ما فيها من الأحكام والمواعظ، وإني ناصح لكم ألا تكونوا - بعد ظهور هذا الهدى - أول مبادر للكفر به، بل انتهزوا الفرصة للإيمان ولا تغفلوا عن هذا القرآن<sup>(1)</sup>.

ونلاحظ أسلوب خطاب العاطفة واستجاشة المشاعر في كلمات:

- (بني إسرائيل): أي أبناء هذا النبي الذي أنتم من سلالته وسلالة أولاده من الأنبياء، أفلا تكونون كآبائكم؟.
- (أنعمت عليكم): عليكم أنتم فخصصتكم بالنعمة الجليلة التي لم أعطيها أحداً من أهل زمانكم، فيثير هذا التذكير حس الشكر ووفاء المنة لدى المخاطب.
- (أول كافر به): في إساءة النصيحة لهم بتجنب هذه المكانة الشنيعة بأن يتصدروا قائمة الكافرين بأعظم كتب الله إشارة واضحة لحرص الله تعالى على إيمانهم وخلوص النصيحة لهم مما يثير لديهم مشاعر الامتنان للناصح.

ثم يعود القرآن فيكرر النداء لليهود في سورة النساء، ولكنه يدرج معهم هذه المرة النصارى، فيحثهم أجمعين على الإيمان بالقرآن، ولكن هذه المرة يرافق النداء تهديداً ووعيداً إن لم يستجيبوا لنداء الحق؛ ذلك لما بين الندائين من شوط طويل في عرض حقائق هذا الدين وبيان تصديق القرآن لما مع أهل الكتاب، وما كان منهم من كفر وصدود وإعراض وسخرية سنعرض لها بعيداً قليلاً، فقد كان نزول سورة النساء السنة الخامسة أو السادسة للهجرة، أي بعد القضاء على وجود يهود في المدينة بغزوة قريظة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدِّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: 47].

"خوفهم الله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي: صدقوا بالقرآن مُصَدِّقًا لما معكم أي: موافقاً للتوراة في التوحيد وبعض الشرائع.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدِّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾، وطمسها أن يردها على بصائر الهدى،

(1) انظر: الفواتح الإلهية والمفتاح الغيبية، الشيخ علوان، (ج 1/30).

ويقال: طمسها أن يحول الوجوه إلى الأقفية، ويقال: يخسف الأنف والعين فيجعلها طمساً، ويقال: من قبل أن يطمس أي تسوّد الوجوه، قال بعضهم: يعني به في الآخرة، ويقال: هذا تهديد لهم في الدنيا... ويقال: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا يَعْنِي وَجْهَ الْقَلْبِ، وهو كناية عن القسوة.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي: نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت القردة.

ثم قال ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كائناً، وهذا وعيد من الله تعالى لهم ليعتبروا ويرجعوا<sup>(1)</sup>.

وبعد أن افتتح القرآن العهد المدني ببدء الإيمان بالقرآن لليهود، ثم توسّطه ببدء الإيمان مشفوعاً بالتهديد لليهود وإخوانهم النصارى، ختم العهد المكي بتسجيل الحقيقة الدامغة على كلتا الفرقين في سورة المائدة الآخرة نزولاً بأنّ البيان قد تمّ والحق قد انبلج، فقد بيّن لكم نبينا ما صنعتم في كتبكم، وقد جاءكم القرآن الموصوف بالإبانة التامة والنور الهادي، فيهندي به من طلب الهدى، ويضلّ من ابتغى سبيل الرداء.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: 15-16].

ثانياً: موقف أهل الكتاب من دعوة القرآن.

رغم هذا الحرص القرآني على هداية أهل الكتاب، ورغم هذا البيان الشافي الذي يجد مكانه في قلوب أولي الألباب، إلا أنّ موقف أهل الكتاب من هذه الدعوة القرآنية كان على النقيض من المأمول، مخالفاً لما عندهم من المنقول، مجافياً لما يرضاه أولوا العقول، فبدلاً من إظهار القبول، جابهوا القرآن بالكفر والكيد والنكول، فناصروا القرآن العداء، بعدما عرفوه معرفة الأباء للأبناء، فسجّل عليهم القرآن هذه المواقف التي سنذكرها في النقاط الآتية:

1- كفرهم بالقرآن رغم معرفتهم له: قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ

(1) بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، ت: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، 1997م، (ج 1/333-334).

"عن قتادة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾: القرآن، ﴿مَصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾: من التوراة والإنجيل.

وعن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته! فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فنزلت<sup>(1)</sup>.

وقد استمر كفر أهل الكتاب بالقرآن رغم معرفتهم به على طول العهد بالمدينة فلم ينتصحا ولم يرعوا، فخطبهم الله خطاباً في غاية التبكيت المنبئ عن شدة الغضب ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: 70]، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، أي: يا من تدعون أنكم أهل العلم، ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، أي: كفراً يتجدد في كل وقت، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، أي: تعلمون علماً هو عندكم في غاية الانكشاف أن هذه الآيات هي آيات الله<sup>(2)</sup>.

وفي المائدة في خواتيم العهد المدني يُقرّر القرآن هذه الحقيقة المريرة بما يُضيق دائرة الرجاء في هؤلاء القوم دون طمسها بالكلية فيقول في جملة قرآنية تكررت مرتين: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 68]، فهذا إعلام من الله لنبيه ﷺ بأن هؤلاء القوم بمكان من العتو والبعد عن الحق أنهم إذا سمعوا هذه الحقائق عنهم والتي لا يمكن للنبي أن يعرفها إلا بوحى من الله طغوا وكفروا وكان عليهم أن يؤمنوا، وخص الكثير منهم لأن بعضهم لا يطعون<sup>(3)</sup>، وتكرار الآية لتوكيد معناها<sup>(4)</sup>، وتصدير هذه الجملة باللام الموطئة للقسم زيادة في توكيد مضمونها<sup>(5)</sup>.

2- حسد المسلمين على القرآن: وقد عرفت مما سبق أنهم كانوا يعرفون القرآن معرفة تامة، ويدركون الخير العميم المشحون فيه، ولذا كان كفرهم به حسداً وبغياً أن نزل الله على

(1) تفسير الطبري، (ج 2/332-333).

(2) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 4/456).

(3) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، (ج 2/216).

(4) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 12/401).

(5) حدائق الرّوح والريحان، الهري، (ج 7/397).

غيرهم ﴿بِتَسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ [البقرة: 90]، عن قتادة والسُّدِّيِّ وأبي العالِيَةِ والرَّبِيعِ: بَغِيًّا، أَي: حَسَدًا، السُّدِّيُّ: وَقَالُوا: إِنَّمَا كَانَتِ الرِّسْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَا بَالُ هَذَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَحَسَدُوهُ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ مَا يَشَاءُ<sup>(1)</sup>.

وَأَكَّدَ الْقُرْآنُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ غَيْرَ مَرَّةٍ: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: 105].

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: 54]، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ الْيَهُودُ، حَسَدُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ<sup>(2)</sup>.

3- معاداتهم لجبريل عليه السلام: وكما كانت معاداتهم للقرآن الكريم، فقد امتدت هذه المعادة لمن تنزل بالقرآن أيضاً كي تتم المعادة للقرآن ولكل ما يتصل به، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: 97-98]، أَخْرَجَ الْوَاحِدِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَقْبَلْتُ يَهُودَ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ نَسْأَلُكَ عَنْ أَشْيَاءَ فَأَنْ أَجِبْتَنَا فِيهَا اتَّبَعْنَاكَ، أَخْبَرْنَا مَنْ الَّذِي يَأْتِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ نَبِيًّا إِلَّا يَأْتِيهِ مَلِكٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالرِّسَالَةِ وَبِالْوَحْيِ، فَمَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: "جِبْرِيلُ"، قَالُوا: ذَلِكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَبِالْقِتَالِ، ذَاكَ عَدُونَا، لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْقَطْرِ وَالرَّحْمَةِ تَابَعْنَاكَ، فَنَزَلْتَ<sup>(3)</sup>.

وَالْمَعْنَى أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلْيَهُودِ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّ مِنْ أَحْوَالِ جِبْرِيلَ أَنَّهُ نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى قَلْبِكَ؛ فَهَمَّ بِذَلِكَ أَعْدَاءُ لُوحِي اللَّهِ الَّذِي يَشْمَلُ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ، وَلَيْسَ كَوْنُ جِبْرِيلَ قَد

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 2/342).

(2) انظر: تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر المخزومي، ت: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط 1، 1410هـ - 1989م، (ص 284).

(3) أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ت: ماهر الفحل، دار الميمان، ط 1، 1426هـ، 2005م، (ص 123).

جاء مُنذراً بخرابِ بيتِ المقدسِ حجّةً أن يتركوا هديّهُ، فهذه حججٌ تدلُّ على كمالِ حمقهم وللدلالة على أنّها لا تصلحُ أن تكونَ مانعةً للإيمانِ بالقرآن<sup>(1)</sup>.

4- تأمّرهم على القرآن: فلم يكتفِ أهلُ الكتابِ في حقّهم على القرآنِ بمجردِ الكفرِ والحسدِ بل تجاوزوه إلى الكيدِ والمكرِ، فاغتاظوا أن يروا الناسَ يؤمنونَ بهذا القرآنِ المبينِ فدبروا مكيدهً تقضي بأن يُظهروا للناسِ إيمانهم بالقرآنِ أولَ النهارِ ثمّ ينكلوا عن إيمانهم هذا آخرَ النهارِ متذرعينَ بأنهم عرفوا من زيفِ هذا الكتابِ ما لم يكونوا يرونَ وهم بعيدونَ عنه - في زعمهم - وكونهم أهلَ كتابٍ يجعلُ مشركي العربِ الذينَ لا كتابَ لهم يثقونَ بكلامهم، قالَ اللهُ تعالى فاضحاً مؤامرتهم هذه: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ ءَأَمِنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَءَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: 72-73]، وقد مضى الحديثُ عن هذه الآيةِ في المسألةِ الخامسةِ من المطلبِ السادسِ من المبحثِ الثاني من هذا الفصلِ فليُرجعَ إليه.

5- استهزأوهم بالقرآن: فبعدَ أن فشلت مؤامراتهم بتخذيلِ الناسِ عن هذا الكتابِ المبينِ سقطَ في أيديهم فما عادوا يملكونَ سوى إخراجِ أضغانهم، وإبداءِ ما كانوا يُكُونونَ من بغضائهم، فحولوا مجالسهم إذ يرونَ المؤمنينَ مستنقعاً للسخريةِ بالقرآنِ العظيمِ وبالنبِيِّ الكريمِ ﷺ، قالَ تعالى محذراً المؤمنينَ من مواقفهم مجالسهم وهذه حالتها: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: 140]، "وذلك أن المشركين بمكة كانوا يستهزئون بالقرآن، فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم، وهو قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَأْيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: 68]، فامتنع المسلمون عن القعود معهم، فلما قدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين، وكان اليهود يستهزئون بالقرآن، فنزلت هذه الآية<sup>(2)</sup>.

6- وعيدُ اللهِ لمن كفرَ بالقرآنِ من أهلِ الكتابِ: وبما أنّ اليهودَ خاصّةً وعلماءَ أهلِ الكتابِ

(1) انظر: تفسير المراغي، (ج 2/175-176).

(2) بحر العلوم، السمرقندي، (ج 1/349).

عامَّةً يعرفون أنَّ القرآنَ حقٌّ وأنه كلامُ الله الذي جاءت بشارته في كتبهم ثم كفروا وطغوا فقد عاملهم القرآن بما يُعاملُ به الجاحدين المجرمين - كما مرَّ بنا غيرَ ما مرَّة - فشهرَ عليهم سلاحَ التهديد والوعيد كي يملأ قلوبهم الكنودة رُعباً، ونفوسهم الجاحدة رهباً، فكم من قلوبٍ أحدثت فيها الترهيبُ ما لا يُحدثه الترغيبُ، فجاءت فاتحة آل عمران - النازلة السنة الثالثة للهجرة تقريباً - بترهيبهم، واستمرَّ أسلوبُ التهديد لأعداء القرآن فتراتٍ طويلةً في هذا العهد:

﴿الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران: 1-4].

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: 19].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: 21].

فهذه آياتٌ ثلاثٌ كلُّهنَّ من سورة آل عمران يتوعَّدُ الله فيهنَّ من يكفرُ بآياته، ونلاحظ استعمال القرآن لأسلوبِ الاسم الموصول في الآياتِ الثلاثة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾، لما في الصلة من الإيحاء إلى علة الحكم بذكر صفة من يقع عليه الوعيد لا اسمه، فتشمل كلَّ من هذه حاله، وتُعرفُ علة توعُّده، ويزول العجبُ عمَّن قد يُنكره.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: 155].

7- القرآن يُكرِّمُ المؤمنين به من أهل الكتاب: وكذاب هذا القرآن الحكيم رافعاً أبداً لواء الإنصاف، ورغم أنَّ كثيراً من أهل الكتاب جاحدون، يزدادون مع البيان طغياناً وكفراً، فقد سطر هذا الكتاب القويم نماذج ممَّن استجابوا لدعوة الحقِّ من أهل الكتاب فأمنوا بالقرآن، ورغم أنَّهم نزرَّ يسير - سيِّما من اليهود - إلا أنَّ الله خلدَ ذكرهم بأوصافهم ليبقوا منارةً لمن بعدهم:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: 113].

﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: 199].

﴿لَكِنَّ الرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: 162].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: 83].

إشكالٌ ودفعه:

قلنا قبلُ إنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للقرآنِ هم علماءُ يهودَ وأحبارهم، وهم المعنيون بقوله تعالى ﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، فكيف يستثنى هنا في آية النساءِ الراسخينَ في العلمِ منهم من عمومِ ضلالهم وكفرتهم؟

قال صاحبُ المنارِ: هؤلاء الذين لم يذهب عمى التقليدِ ببصيرتهم، الآخذون بالدليلِ دون التقليدِ، الثابتون في دينهم ثباتَ الأطوادِ بحيث لا يشترتون به ثمنًا قليلًا، بخلافِ عامَّةِ أحبارهم الذين أسرهم التقليدُ<sup>(1)</sup>.

لطيفةٌ سياقيةٌ:

ومن لطائفِ ذكرِ هذا النزيرِ اليسيرِ من أهلِ الكتابِ في هذا العددِ من الآياتِ هنا - وفي آياتِ آخرَ لم نذكرها - ذاكَ المقامُ العليُّ والصيِّتُ النديُّ الذي يتبوأه أهلُ الإيمانِ بالقرآنِ، فرغم كونهم نزرًا لا يكادُ يُذكرُ في جموعِ الكافرينِ من أهلِ الكتابِ إلا أنَّ القرآنَ قد أفرَدَ لهم من آياته ما يُعظَّمُ شأنهم ويُبهرُّ ذكركم، وإن كانوا نم قبلُ في جموعِ الكافرينِ لا وزنَ لهم.

الفوائدُ المنهجيةُ والتربويةُ المستفادةُ ممَّا سبقَ

1- الأصلُ في خطابِ أهلِ الكتابِ خاصَّةً - والكفارِ عامَّةً - اللينُ وإظهارُ الحرصِ عليهم وتمحيضُ النصحِ لهم، سيِّما في دعوتهم إلى الإيمانِ بالقرآنِ الكريمِ الذي هو منبعُ الرحمةِ ودستورُ الأخلاقِ الفاضلةِ، فلا يستقيمُ بالداعي إلى هذا القرآنِ بما يحويه من عظيمِ الأخلاقِ أن يسلكَ في سبيلِ إيصالِ الناسِ إليه مسلكاً غليظاً وأسلوباً فظاً، وهكذا رأيتَ كيف أنَّ

(1) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (ج 6/52).

القرآن أول ما دعا يهود إليه تَلَطَّفَ معهم في الأسلوبِ وأظهرَ لهم شديدَ الحرصِ وبالغِ النصحِ.

وقد رأيتُ كثيراً ممن يشتغلون بدعوةِ النصارى خاصَّةً يفتتحونهم الجِدالَ بإبرازِ تهافتِ كتبهم وتحريفها وسقوطِ ما فيها، ويجتهدون أيَّما اجتهدا في تعريتها أمامَ أتباعها بإظهارِ تناقضها وسفسافِ معانيها، فهل هذا منهجٌ قويمٌ في الدعوة؟

أقولُ واللهُ المستعانُ: إنَّ دراستنا لمنهجِ القرآنِ في دعوةِ أهلِ الكتابِ إليه تُظهرُ أولويةَ دعوةِ هؤلاءِ إلى القرآنِ لا إلى النظرِ في تحريفِ كتبهم، صحيحٌ أنَّ القرآنَ ذكَّرَ طرفاً من تهافتِ كتبهم وتحريفها، لكن لم تكن تلكَ منهجيةً أولى في دعوتهم، فإنَّ فتحَ القلوبِ بالحقِّ يلجأُ فيطردُ الباطلَ خيراً من طردِ الباطلِ أولاً ثمَّ التحليةُ بالقرآنِ، فليسَ كلامٌ في الكونِ أقوى ولا أبلغَ من كلامِ اللهِ يمحو اللهُ به الباطلَ.

فإن أبوا إلا عناداً وجحوداً لجأنا إلى نقاشهم في كتبهم وإبرازِ باطلها، أما وإنَّ هناكَ صنفاً آخرَ قد أُعدَّ مسبقاً لجدالِ المسلمينَ والظعنِ في كتبهم، قد أغلقَ دونَ الحقِّ عينيه وأوصدَ دونَ القرآنِ بابَ قلبه، فذلكمَ ليسَ لنا معه إلا تعريةً باطله وكشفُ زيفِ كتبه، لا لأجلِ أن يؤمنَ، بل لأجلِ أن يُكَبَّتَ ويكونَ لمن خلقه آيةً.

2- أهلُ الكتابِ - وخاصَّةً علماءهم - حربٌ على القرآنِ في كلِّ زمانٍ، يتفنَّنونَ في الطعنِ فيه وصدِّ الناسِ عنه والسخريةِ به، وهم معَ كلِّ هذا أكثرُ الناسِ من غيرِ المسلمينَ درايةً بصدقه وهيمته على كلِّ ما سبقه من الكتبِ، ولذا فإنَّك - أيُّها الداعي - ستجدُ هذه الثلثةَ من أشدِّ الناسِ عداوةً للقرآنِ ورفضاً للحقِّ فليسَ من الحكمةِ أن تصرِّفَ كلَّ جهودك أو جُلِّها في دعوتهم، بل إنَّ عوامَّ النصارى لديهم من الاستعدادِ للإيمانِ ما لا يُكلِّفُك معشَرَ جهدك معَ أحبارهم.

نعم إنَّ إيمانَ واحدٍ من هؤلاءِ الأحرارِ يعدلُ إيمانَ عشراتٍ ممن سواه لما له من حُظوةٍ وأتباعٍ، ولذا قالَ النبيُّ ﷺ: "لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، لَأَمَّنَ بِي الْيَهُودُ"<sup>(1)</sup>، أي: لو آمنَ بي عشرةٌ من رؤسائهم وزعمائهم لتابعهم الكلُّ"<sup>(2)</sup>.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، (ج 3/1434)، رقم الحديث: (3725).

(2) انظر: اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، محمد بن عبد الدائم شمس الدين البرماوي، بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ط 1، 1433 هـ - 2012 م، (ج 10/523).

وقد أسلم من هؤلاء عددٌ يُحصون في كلِّ جيلٍ<sup>(1)</sup>، فكان إسلامهم فاتحةً خيرٍ على من خلفهم..

### المطلب الثاني: نِكْرُ أحوالِ أصحابِ الأهواءِ مع القرآنِ.

علت رايةُ الحقِّ في المدينة النبويَّة، وبنى النبي ﷺ أسس الدولة، وتسَلَّحت بأسبابِ القوة، ووحدت قبائل المسلمين رابطةً العقيدة والأخوة، وطمست وحدة الأمة رياتِ العصبية، وبدأ أصحابُ الأهواءِ يفقدون زعاماتهم المبنية على الاستغلال والطبقية والتبعية، وأدركوا من الوهلة الأولى أنَّ هذا القرآن العظيم والدستور القويم ينازعهم أهواءهم الدنيَّة، فغلبتهم أهواءهم وشهواتهم وجمحت بهم إلى المهاوي الرديَّة، فناصربو هذا القرآن العظيم كلَّ صنوفِ العداءِ الخفيَّة، إذ منعهم إظهارهم الإسلام إعلان تلك الحرب إلا ما كان من طافحِ حقدِهم الذي ما استطاعوا أن يحبسوه في الطويَّة.

تلكم هي طائفةُ المنافقين أصحابِ الهوى والزيغ والضلال الذين ظهروا مع أول نصرٍ مبین للمسلمين في بدرٍ، فأعلنوا إسلامهم وأبطنوا كفرهم، وإنما دفعهم لهذا قوة الإسلام وخشيئتهم على مصالحهم من جهة، والمرض الذي في قلوبهم من جهةٍ أخرى.

وسترى أنَّ كلَّ المواقفِ السلبية التي صدرت من هؤلاء ضدَّ القرآن الكريم إنما أساسها مرضٌ قلوبهم وزيغها عن الحقِّ واتباعُ أهوائهم؛ ذلك بما أشربوه من الشكِّ والنفاقِ وحبِّ الدنيا والميلِ إلى شهواتِ أنفسهم.

ولنتبَّع أولاً صفاتِ قلوبِ المنافقين التي وردت في سياقِ عداوتهم للقرآن الكريم:

فقد وصفها أولاً بالزيغ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

(1) يُنظر لهذا: قساوسة ومبشرون ومنصرون وأخبار أسلموا، الحسيني الحسيني معدي، من سلسلة: نماذج حية للمهتدين إلى الحق، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، 2006م. - عظماء أسلموا، د. راغب السرجاني، دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2012م. - Conversion To Islam, Ali Kose, Published July 17, 2014 by Routledge. <http://www.routledge.com/Conversion-To-Islam/Ali-Kose/book/9781136000000> ويحجب على أسئلة من قبيل: لماذا يسلم هؤلاء؟ ما هي خلفيتهم الثقافية؟... إلخ. - موقع إلكتروني، صفحة بعنوان: قائمة أشخاص اعتنقوا الإسلام على موقع (ويكيبيديا)، عنوان الموقع: [قائمة أشخاص اعتنقوا الإسلام](http://ar.wikipedia.org/wiki/قائمة_أشخاص_اعتنقوا_الإسلام) -

الْأَلْبَبِ ﴿٧﴾ [آل عمران: 7].

الزَيْغُ: الميلُ عن الحقِّ والانحرافُ عنه<sup>(1)</sup>.

ووصفها بأنها ممتلئة شكاً ونفاقاً وضعفاً<sup>(2)</sup>، قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْيِبِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد: 20].

ووصفها بأنها مقلقة: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

أصلُ القفلِ ما يُجعلُ مانعاً من فتحِ البابِ ثمَّ استُعيِرَ هنا لمنعِ وصولِ الحقِّ إلى قلوبِ هؤلاء<sup>(3)</sup>.

ووصفها بأنها تتطوي على حسدٍ وعداوةٍ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنِّي اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: 64].

قال الواحدي: والمعنى: يُظهرُ ما في قلوبِهِم من الحسدِ لرسولِ الله ﷺ والمؤمنين وما كانوا ينطوون عليه من العداوة لهم<sup>(4)</sup>.

ووصفها بأنها مصروفةٌ عن الخيرِ بسببِ تلكِ الصفاتِ السابقة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: 127].

قال أبو جعفر: "صرفَ الله عن الخيرِ والتوفيقِ والإيمانِ باللهِ ورسوله قلوبَ هؤلاءِ المنافقين" <sup>(5)</sup>.

فالخلاصةُ أنَّ قلوبَ هؤلاءِ قلوبٌ منحرفةٌ مائلةٌ عن الحقِّ، ممتلئةٌ شكاً ونفاقاً، مقلقةٌ لا

(1) تفسير الطبري، (ج 6/183).

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 22/175).

(3) عمدة الحُفَّاطِ في تفسيرِ أشرفِ الألفاظِ، شهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمِينِ الحلبي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط 1، 1417 هـ - 1996 م، (ج 3/328).

(4) البسيط، الواحدي، (ج 10/533).

(5) تفسير الطبري، (ج 14/582).

تستقبل الحق، ممتلئة حسداً وعداوةً للقرآن وأهله، مصروفةً بكل ذلك عن الخير والإيمان.

وسنتحدث عن موقف أصحاب الأهواء من القرآن الكريم، وموقف القرآن الكريم منهم في

المسائل الآتية:

**أولاً: اتباع متشابه القرآن طلباً للفتنة:**

عندما يضغف أهل الباطل عن مواجهة الحق جهاراً يعمدون إلى التشكيك فيه طلباً لتقويض بنائه من الداخل وإثارة الشكوك في نفوس المؤمنين وتبرير انحراف قلوبهم وسلوكهم بما قد يوهم من نصوص القرآن المتشابهات التي يحملونها على غير منزعها.

وقد قرّر القرآن هذه الحالة لأصحاب الأهواء في آية عظيمة رسمت منهجاً واضحاً وأسست قواعد بينة في التعامل مع النصوص القرآنية التي جعلها الله منقسمة إلى محكمة ومتشابهة امتحاناً للناس وتمييزاً لأهل الحق من الباطل.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ غَائِبًا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: 7].

وللعلماء كلامٌ طويلٌ في تحرير معنى المحكم والمتشابه ليس غرضنا هنا ذكره<sup>(1)</sup>،

وخاصةً معنى الآيات المحكمات والمتشابهات:

أن الآيات المحكمات هي الآيات المبيّنات المفصلات واضحات الدلالة، أحكمت عبارتها من احتمال التأويل والاشتباه، وهي أصل الكتاب الذي يُعول عليه في الأحكام ويُعمل به في الحلال والحرام، ويرد إليه ما تشابه من آياته وأشكال من معانيها.

أما الآيات المتشابهات فهي آيات يشبه لفظها لفظ غيرها، ومعناها يخالف معناها، لا يتعيّن المراد منها إلا بضمّها إلى المحكم<sup>(2)</sup>.

وهذه الآية تعم كل كافر وجاهل وزنديق وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها وقتئذٍ إلى

نصارى نجران.

(1) ينظر لهذا: الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، (ج 3/3).

(2) المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد بن أحمد مكي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع - دار نوادر المكتبات للنشر والتوزيع، ط 1، 1431هـ - 2010م، (ص 69).

والمعنى: أن حكمة الله اقتضت أن يشتمل القرآن على آياتٍ محكماتٍ وأخرٍ متشابهاتٍ فأما الفاسقون الذين في قلوبهم ميلٌ عن الحقِّ وانحرافٌ عن المنهج القويم يتعلّقون بالمتشابه وحده ويعكفون على الخوض فيه، ويلازمونه دون رده إلى المحكم لموافقته اعوجاج نفوسهم وسوء نواياهم وتحكّم أهوائهم وشهواتهم بهم<sup>(1)</sup>.

ومن دقائق التعبير القرآني المعجز أنه جعل قلوب هؤلاء ظرفاً للزيغ ومستقرّاً له ﴿في قلوبهم زيغ﴾، وذلك على طريقة جعل الخبر ظرفاً للمبتدأ بتعديته بحرف الجر الذي يفيد الظرفية والحوّل (في)، فكان قلوبهم صارت منبعاً للفتنة والفساد، يصدر عنها كلُّ زيغ وضلالٍ.

وقد وجد هؤلاء المنافقون في الاشتباه ما يوافق اعوجاج نفوسهم وانحراف تفكيرهم. فإن اعوجاج النفوس يكون من تحكّم الهوى وسيطرة الشهوات، كشهوة السلطان وحبّ المال والنساء وشهوة الإفساد في الأرض.

أما انحراف التفكير فينشأ عنه التأويل الفاسد لإثارة الشكوك حول حقائق الدين وتضليل الناس<sup>(2)</sup>.

#### ثانياً: رفض أحكام القرآن واتباع الهوى:

فالمناقض شاك القلب في أحكام القرآن، يرتاب في أنها كلها خيرٌ وصلاحٌ للبشر، فهو لما قدّم هوى نفسه على إحقاق الحقّ باتّ متتبّعاً هواه في الآيات، فإن وجد حكم الله يوافق مصلحته أقبل عليه وإن كان الحقّ القرآني مع غيره رفض حكم الله.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضَلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: 60-63].

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن محمد بن إسحاق، عن ابن عباس قال: كان

(1) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 2/29-30).

(2) انظر: زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي، (ج 2/111-112).

الجلال بن الصامت<sup>(1)</sup> قبل توبته فيما بلغني، ومعتب بن قشير<sup>(2)</sup>، ورافع بن زيد<sup>(3)</sup>، وبشير<sup>(4)</sup> كانوا يدعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الكهان حكام الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك... الآيات﴾<sup>(5)</sup>.

وفي جمع الآية بين دعوتهم إلى التحاكم إلى القرآن بكلمة (تعالوا) المنبئة عن إرادة الخير والارتقاء بهم وبين حالهم بالصد الشديد إبرازاً لمدى النفور عن القرآن والعداوة له.

ثالثاً: نداءات التدبر في سياق خطاب المنافقين:

ورد الذكر الصريح لتدبر القرآن في كتاب الله عزّ وعلا أربع مراتٍ - كما مرّ بنا<sup>(6)</sup> - مرتين في العهد المكيّ ومرتين في العهد المدنيّ، وجاء الأمر بالتدبر في آيتي المدينة في سياق الحديث عن المنافقين.

فجاءت آية النساء أولاً: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُكْرَعَانَ وَوَكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

ثمّ آية محمد: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُكْرَعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ [محمد: 24].

وقد فصلنا القول في أسرارٍ ولطائفٍ ومعاني هاتين الآيتين في المسألة الثالثة من المطلب السابع من المبحث الثاني من هذا الفصل فليُرجع إليه.

(1) هو الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري، كان من المنافقين ثم تاب وحسنت توبته. انظر: الإصابة، ابن حجر، (ج 1/599)، برقم: (1179).

(2) هو مُعْتَب بن قُشَيْر ابن مليل بن زيد بن العطف الأنصاريّ الأوسيّ، قيل إنه كان منافقاً، وإنه الذي قال لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا، ذكره فيمن شهد بدرًا والعقبة، وقيل إنه تاب. انظر: الإصابة، ابن حجر، (ج 6/137)، برقم: (8137).

(3) هو رافع بن زيد ويقال: ابن يزيد، بن كرز بن سكن بن زعوراء بن عبد الأشهل الأنصاري الأشهلي، شهد بدرًا، واستشهد يوم أحد، وقيل سنة ثلاث. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (ج 2/480)، برقم: (729).

(4) هو بشير بن عبد المنذر، أبو لبابة الأنصاري، من الأوس، كان نقيباً، شهد العقبة، وشهد أحدًا وما بعدها، كان ممن تخلف عن تبوك، ربط نفسه في سارية أسبوعاً حتى أغشي عليه، وتاب الله عليه. انظر: الاستيعاب، (ج 4/1740)، برقم: (3149).

(5) موسوعة الصحيح المسبور، حكمت ياسين، (ج 2/72).

(6) انظر المطلب السابع من المبحث الثاني من هذا الفصل، ص (96).

والذي أريدُ أن أقفَ عليه هنا مراعاةً القرآنِ الحكيمِ التدرجِ في معالجته ظاهرةً معاداةِ القرآنِ الكريمِ؛ فقد كانَ خطابُ سورةِ النساءِ خطاباً لعقولٍ هؤلاءِ المنافقينَ ناعياً عليهم إعراضهم عن تدبرِ كتابٍ من شأنه أن يُتدبَّرَ لما فيه من كمالِ الانسجامِ وتَمَامِ الإِتقانِ بحيثُ يتعذَّرُ وجودُ اختلافٍ بينَ آياته أو بينها وبينَ الواقعِ، ففي هذا الخطابِ نداءً للعقولِ وتحريضاً لها على النظرِ كي تصلَ إلى حقيقةٍ أنَّ هذا القرآنَ من عندِ الله، وما كانَ من عندِ الله فهوَ الخيرُ كُلُّه للبشرِ .

فلما تَمَادَى المنافقونَ ولم يستجيبوا لنداءِ العقلِ وزادوا على الإعراضِ عن القرآنِ استهزاءً بهم به غَلَطَ القرآنُ عليهم الخطابِ فزادَ على الإنكارِ توبيخهم على عدمِ تدبرهم وردَّ هذه الحالةَ من الإعراضِ والاستهزاءِ إلى انطباقِ قلوبهم على باطلها وهواها وعدمِ استعدادها لقبولِ الحقِّ .

#### رابعاً: الاستهزاءُ بالقرآنِ وأحكامه:

تلكَ هي الحالةُ التي تحدثنا عنها قبيلَ قليلٍ، فلم يكتفِ أصحابُ الأهواءِ بالانحرافِ عن آياتِ الكتابِ وتأويلها بما يوافقُ هواهم ورفضِ التحاكمِ إلى أحكامِ القرآنِ، بل زادوا على ذلكَ السخريةَ والاستهزاءَ بهذا القرآنِ الكريمِ .

ويحدِّثنا القرآنُ عن هذه الصفةِ الذميمةِ في سورةِ النساءِ التي نزلت في أواسطِ العهدِ المدنيِّ، أي بعدَ ازديادِ ظاهرةِ النفاقِ بنصرِ المؤمنينَ في الأحزابِ والمصطلقِ، وفي هذا السياقِ يمكننا فهمُ سببِ الاستهزاءِ حيثُ ازدادَ حنقُ المنافقينَ على الإسلامِ وأهله فما عادوا يطبقونَ كظمَ بعضِ ما في صدورهم فتراه يخرجُ على شكلِ سخريةٍ واستهزاءٍ .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140].

فلما هاجرَ المسلمونَ إلى المدينةِ وظهرَ النفاقُ وأصبحَ للمنافقينَ مجالسُ خاصةً يخوضونَ فيها في آياتِ الله بالاستهزاءِ والسخريةِ ذكَّرَ اللهُ المؤمنينَ بما أنزلَ عليهم في مكةَ في سورةِ الأنعامِ، وحثَّهم من مجالستهم حالَ خوضهم هذا بحيثُ إن فعلوا صاروا مثلَ المنافقينَ في الإثمِ والجزاءِ<sup>(1)</sup>.

وقد تجاسرَ المنافقونَ على الاستهزاءِ بحملةِ القرآنِ وحفظته جهاراً أمامَ المؤمنينَ في غزوةِ

(1) انظر: أيسر التفسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر المعروف بأبي بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط 5، 1424 هـ - 2003 م، (ج 1/559).

تبوك فتنزلت آياتٌ شديدةُ الوقعِ على المنافقينِ فاضحةٌ لما في قلوبهم من الكفرِ الدفينِ:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٧﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: 64-66].

عن زيد بن أسلم: أن رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما لقرآنا هؤلاء أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنةً، وأجبنا عند اللقاء! فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق! لأخبرن رسول الله ﷺ! فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. قال زيد قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقًا بحَقَبِ ناقةِ رسول الله ﷺ تتكبهُ الحجارة، يقول: (إنما كنا نخوض ونلعب)! فيقول له النبي ﷺ: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون)؟ ما يزيدُه<sup>(1)</sup>.

فأنت ترى كيف تعدى استهزاؤهم النصَّ القرآنيَّ إلى حاملِ هذا النصِّ من القرآءِ والحفظِ لتكتمل أركانُ العداوةِ للقرآنِ ابتداءً بنصِّه ثم بمن يحملونه.

وفي الردِّ القرآنيِّ الشديدِ عليهم إشارةٌ بيّنةٌ إلى مقامِ حاملِ القرآنِ وكرامته على الله حيث انتصرَ للقرآءِ بتولي الردِّ بنفسه على من استهزأ بهم، وبسرعة الردِّ حيث تنزلت الآيات قبل أن يصلَ عوفٌ - رضي الله عنه - شاكيًا إلى رسولِ الله ﷺ.

#### خامساً: بغضُ القرآنِ والتفُلتُ من أوامره:

وقد انتهى الحالُ بالمنافقين أتباعِ الهوى إلى حالٍ هي أسوأ من سابقاتها؛ حيث تحوَّلَ الزبغُ والمعاداةُ والاستهزاءُ - والتي تكونُ بالظاهرِ عادةً - إلى شيءٍ وقرَ في قلوبهم هو بغضُ القرآنِ الكريمِ وسوره وآياته وكرهتهم لما أنزلَ الله.

وقد تجلَّى هذا البغضُ في أواخرِ العهدِ بالمدينةِ في سورتي محمدٍ ﷺ والتوبة.

وأكثرُ الذي دفعهم إلى هذا البغضِ لآياتِ الله فريضةُ قرآنيةٌ عظيمةٌ هي ذرؤه سنامِ الإسلامِ، إنها الجهادُ في سبيلِ الله؛ لما في الجهادِ من كرهٍ ومشقةٍ ومظنةِ القتلِ، وتلك الصفاتُ تخالفُ ما طُبعت عليه قلوبُ المنافقين من حبِّ الشهواتِ وتقديمِ الهوى على ما سواه.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ

(1) تفسير الطبري، (ج 14/333). قال الشيخ محمود شاکر: إسناده صحيح.

رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ [محمد: 20-21].

وفي الآية تصويرٌ بديعٌ لما انطوت عليه نفوس المنافقين من جبنٍ خليعٍ، فإذا دعا القرآنُ إلى القتالِ فإنك تراهم رأيَ العينِ ينظرونَ إليك كمن حضرته الوفاةُ فشخصت عينه لا يقوى على تحريكها لشدةِ فزعهِ<sup>(1)</sup>، فكأنَّ مجردَ التفكيرِ بالخروجِ للقتالِ شلَّ أركانهم وجمدَ الدمَ في عروقهم، وفي هذا إشارةٌ قرآنيةٌ واضحةٌ إلى مستوى الرعبِ الموجودِ في قلوبِ أعداءِ القرآنِ من الجهادِ في سبيلِ الله.

وقد تكرَّرَ هذا المشهدُ النفاقيُّ برفضِ الخروجِ للجهادِ في سورةِ براءة: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْدَدْنَا أُولَئِكَ أَطْوَلَ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة: 86].

وأخطرُ من فرَّقهم من القتالِ الذي يعودُ في مجمله إلى شهواتِ النفسِ - وإن كان بعضُهُ راجعاً إلى كراهيةِ نصرِ المؤمنينِ وعلوهم على الكافرينِ - موالاتهم لأعداءِ القرآنِ وتحالفهم معهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [محمد: 25-26].

فقد رجع هؤلاء إلى الكفرِ بعدما تبينَ لهم الهدى بالدلائل الواضحة وقد خدعهم الشيطانُ بالأمانيِّ الباطلة، وسببُ ارتدادهم قولهم لبعضِ يهودِ المدينةِ سنطيعكم في بعضِ أحوالكم بالخروجِ معكم إن أخرجتم<sup>(2)</sup>.

وقد اضطرت نفوسُ هؤلاءِ المنافقينِ ناراً لما كانت تعالجه نفوسهم من الخوفِ أن يفضحهم القرآنُ فيهنك سترَ ضغائنهم ويكشف مكنونَ صدورهم، فقال مخبراً عنهم مُعرضاً عن توجيهِ الخطابِ لهم تحقيراً: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: 29-31].

وأخبر عنهم في سورةِ التوبةِ التي سُميت بالفاضحة لأنَّ المنافقينِ افْتُضِحوا عندَ نزولها،

(1) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 13/237).

(2) انظر: تفسير المراعي، (ج 26/69).

وبالمبعثرة لأنها بعثت أسرار المنافقين، وبالحافرة لأنها حفرت قلوب أهل النفاق، وبالبحوث لأنها تبحث عن نفاق المنافقين<sup>(1)</sup>، أخبر عنهم أنهم يحذرون أن تنزل السورة من القرآن تكشف مكنون قلوبهم.

قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 64].

فالمنافقون يخافون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين<sup>(2)</sup>.

ويأتي المشهد الختامي في العهد المدني عن أعداء القرآن في خواتيم آيات سورة براءة حيث يصور القرآن منتهى بغضهم للقرآن وتفلتهم من مجالسه:

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًىٰ أَمْ إِنَّمَا أَلْدَيْنَا فِتْنَةً وَأَمْنًا فَأَمَّنُوا فَمَزَّادَتْهُمُ إِيمَانًا وَهُمْ يُسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْ لَا يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِنُكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 124-127].

فالآيات تعقد مقابلة بين فريقين تباينا وتفاضلا هما فريق المؤمنين الذين يقبلون على آيات الله ويستبشرون بها فتزيدهم إيماناً وفريق آخر هم فريق المنافقين الذين يفرون من آيات الله سراعاً قبل أن يراهم المؤمنون ولا يزدادون بسماحها إلا مرضاً في قلوبهم.

وهذا المشهد الختامي يفتح الصراع بين أهل القرآن وأعدائه على مر الزمان فهم هكذا أبداً: فريق قرآني متمسك بالقرآن متبع للآيات مستبشر بها، وفريق صاّد عن القرآن متفلسف من أحكامه بكل سبيل لا يكاد يجد فرصة سانحة غفل فيها المؤمنون إلا تمردوا على أحكام القرآن وانصرفوا عنها.

ويشي التعبير القرآني ﴿رجساً إلى رجسهم﴾ بخطورة تتابع تكذيب سور القرآن والتقلت منها؛ فتكذيب سورة بعد سورة يعني انضمام كفر إلى كفر أو لأن حصول الحسد والغل على

(1) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، (ج 1/227-228).

(2) انظر: السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربنا الحكيم الخبير، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، 1285هـ، (ج 1/627).

القرآن مرة بعد مرة ينشأ عنه ملكة ذميمة في النفس، وخطورة هذه الملكة أنّ الملكة الراسخة لا تزول إلا بموت صاحبها<sup>(1)</sup>.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة ممّا سبق

1- الرسوخ في العلم سبيلُ تحصين الأمة من أعداء القرآن الذين يتتبعون متشابهة ليضلوا الناس ويفتوهم عن كتابهم ودينهم، وسبيلُ هذا الرسوخ الدراسة العلمية المتعمقة المبنية على حسن القصد أولاً وسلامة الفهم ثانياً، ثم المنبثقة عن تزلج العلوم الخادمة للكتاب العزيز، علوم الآلة، ثم الاستفاضة والتعمق في دراسة علوم القرآن والتفسير ومناهجه، ثم الوقوف على أسرار التعبير القرآني ودقائقه وإعجازه.

بهذا تبني الأمة علماء راسخين رسوخاً يؤهلهم للدفاع عن القرآن الكريم ضدّ هجمات المستشرقين وأتباعهم المنافقين وأصحاب الأهواء الذين يقولون في القرآن بغير علم سوى اتباع أهوائهم، فيقفون سداً منيعاً أمام زيج أصحاب الأهواء وانحرافاتهم.

والناظر في حال أعداء القرآن اليوم يجد لهم حضوراً قوياً في ساحاتٍ خاصة لا يعتني بها أكثر عوام المسلمين، كالصفحات المتخصصة على شبكات التواصل الاجتماعي وغرف الحوار على برامج الدردشة... إلخ، إلا ما يكون من بعض أصحاب الأهواء الذين يتجراؤون ببيتٍ شبهاتهم على الفضائيات التي يشاهدونها ملايين المسلمين، كالذي كان من المدعو (إسلام البحيري)<sup>(2)</sup> في برنامجه المثير للجدل (مع إسلام) الذي كانت تبثه إحدى الفضائيات المصرية الخاصة، والذي تمّ إيقافه عام 2017 م بدعوى قضائية قدّمها الأزهر الشريف<sup>(3)</sup>.

أمّا معظم أصحاب الأهواء، والذين يسمون أنفسهم (الحدثيون العرب)، فيوجهون سمومهم إلى الطبقة المتقفة المتوسطة من شباب الأمة الذين فقد كثير منهم للأسف القاعدة الصلبة التي ينطلق منها في فهم القرآن، ولذا وجب على مجموع الأمة تحصين هذه الفئة المهمة جداً باتخاذ آليات مناسبة لحماية شبابها وكبح جماح منافقيها.

(1) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان - تفسير النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري، ت: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416هـ، (ج 3/549).

(2) إسلام بحيري هلال، مواليد 1974م، مصري، حاصل على ماجستير طرائق التعامل مع التراث من جامعة (ويلز) بإنجلترا، كان يعمل صحفياً لدى صحيفة اليوم السابع. انظر: إسلام البحيري، على موقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)، عنوان الموقع: <https://ar.wikipedia.org>

(3) موقع بوابة الأهرام الإخبارية على الإنترنت: <https://gate.ahram.org.eg/News.aspx1634153>

2- وأول سبيل هذا التحصين ما ذكرناه سابقاً من بناء علاقة قوية متينة مع كتاب الله منذ المراحل الأولى لتعليم أبنائنا في المدارس، ثم اتباع طريقة القرآن في مجادلة أصحاب الأهواء بإرشادهم إلى أعمال عقولهم والتجرد من هواهم، فإن أبوا إلا العناد كما كان دأب أكثر منافقي مدينة رسول الله ﷺ وجب على الأمة تعريفهم وفضح مكنونات صدورهم والإغلاظ عليهم حتى ينكشف حالهم للمسلمين.

3- اقتضت حكمة الله البالغة أن يُنزل من بين آيات هذا الكتاب المعجز آيات يشتهب معناها على كثير من الناس اختباراً لهم، هل يحملهم إيمانهم بجلي الآيات على الإيمان بكل ما أنزل الله بجامع وحدانية المصدر للجميع؟ أم يحملهم هواهم على تتبع المتشابه، وبطبيعة النفس البشرية فإنها تميل دوماً إلى فهم الغامض وتستشككه إن لم تفهمه، وقد وقع من ذلك أسئلة كثيرة من صحابة رسول الله ﷺ ومن التابعين حول آيات أشكل فهمها عليهم، فوجدوا حلّاً إشكاليها عند الراسخين في العلم، وهنا ينبغي على علماء أمتنا - بالتسويق مع أهل التربية فيها - أن يتنبَّعوا المواضع التي تُثار حولها شبهات المغرضين فيجلبوا مبهماتهما ويحلوا إشكالاتها ثم يلقوها واضحة مبسطة للفئة المتوسطة أو العليا من طلاب المدارس بحسب خصوصية كل بلد؛ كي يحمو هذا الجيل من تلوّث عقولهم وتشكيكهم في كتابهم.

4- تكريم الله لحملة كتابه والدفاع عنهم بذاته العلية من فوق سبع سماوات بتنزيل الآيات تفضح عدوهم لأكبر دليل على علو مقام قرآء القرآن وحفظته ومقرئيه، وفي هذا المقام والتكريم خطاب للأمة ومسؤوليها أن يزيدوا عنايتهم بهذه الفئة التي نجدّها اليوم للأسف مهمشة بين فئات موظفي الدولة ومستخدميها، فإن أكثر الدول الإسلامية تعامل حافظ القرآن ومقرئه كأدنى موظفيها أو تجعله في المستوى المتوسط في أحسن الأحوال مما يثير الألم الشديد لما وصل إليه مقام القرآن في أولويات هذه الدول، فهذه صرخة ملؤها الألم أثبتنا من بين سطور هذا البحث:

يا أمة تروبو على المليار في العدد  
بذلت نفيس المال في لهو وفي لعب  
رفعت لأهل الخنا رايات مبهرجة  
أفيقي أيا أمتي بالله وانتبهي  
جعلت كتاب الله فيك آخر العدد !!  
وعند بني القرآن تقنير وضيق يد  
وأهل كتاب الله في هجر وفي بُعد  
فأهل كتاب الله عزك للأبد

المطلب الثالث: القرآن عصمة للأمة من التفرق.

مع نشوء الدولة الإسلامية في المدينة، وتأسيس بنائها على العقيدة، وظهورها قوية بين

الطوائف المحيطة بها من مشركي العرب وقبائلهم واليهود، أبطلت هذه الدولة الفتية تحالفات الجاهلية وغيّرت مفاهيم الولاءات العصبية، وقد أخذ القرآن الكريم شوطاً طويلاً يبطل هذه الولاءات ويؤسس لمفهوم عقيدة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من كل مظاهر محادّة الله ورسوله.

وقد بقيت بعض رواسب العصبية القبلية، والولاءات المبنية على المصالح الدنيوية في نفوس بعض الداخلين في هذا الدين، فتنزلت سورة آل عمران تعالج هذه القضية العقيدية الكبرى<sup>(1)</sup>، ونجحت - مع بقية السور - في ترسيخ مفهوم الموالاة بين المؤمنين بحيث يكون أتباع دين الإسلام أمة واحدة من دون الناس؛ فإن الاجتماع على كلمة التوحيد يجمع الأمة، وتفرّق ولاءاتها يشتت صفوفها ويجعلها فرقا وجماعات متناحرة بحسب مصلحة وولاء كل جماعة.

ومن الآيات المفصلية في جمع شمل هذه الأمة وتوحيدها على كلمة سواء قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

وفي هذه الآية يبرز دور القرآن العظيم في عصمة أمة الإسلام من التفرّق، وجمعها على حبل الله المتين وكتابه المستقيم وصراطه المستبين.

وقد فسّر النبي ﷺ حبل الله بالقرآن الكريم:

عن زيد بن أسلم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً، بماء يدعى حُمًا<sup>(2)</sup> بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ ودكر، ثم قال: "أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به " فحتم على كتاب الله ورغب فيه... ومن طريق أخرى بنحوه: غير أنه قال: " ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة"<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج 1/351-352).

(2) هو غدير خم: موضع ماء بين مكة والمدينة بالجحفة. انظر: معجم البلدان، (ج 2/389).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي رضي الله عنه، (ج 4/1874)، رقم الحديث: 37 - (2408).

وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: "كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ"<sup>(1)</sup>.

وعن عبد الله بن مسعودٍ وقتادةٍ والسُّدِّيِّ والضحاكِ، حبلُ اللهِ: القرآنُ<sup>(2)</sup>.

ونكرَ الطبريُّ أقوالاً أخرى في معنى حبلِ اللهِ: الجماعةُ وعهدُ اللهِ في القرآنِ والإِخْلَاصُ<sup>(3)</sup>، والقولُ الأولُ أرجحُ من جهةِ الأثرِ؛ إذ صحَّحَ عن النبي ﷺ، ومن جهةِ النظرِ إذ هو يجمعُ كلَّ الأقوالِ الأخرى.

### سببُ نزولِ الآياتِ:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ حَرْبٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَوْمًا جُلُوسٌ إِذْ ذَكَرُوا مَا بَيْنَهُمْ حَتَّى غَضِبُوا، فَقَامَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِالسِّلَاحِ فَنَزَلَتْ: وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ الْآيَةَ كُلَّهَا<sup>(4)</sup>.

وقد بيّنت روايةٌ عندَ ابنِ هشامٍ المُحرِّكَ لهذهِ الفتنَةِ التي وقعتَ بينَ الأوسِ والخزرجِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَمَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ<sup>(5)</sup>، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا<sup>(6)</sup>، عَظِيمَ الْكُفْرِ شَدِيدَ الضَّغَنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ، عَلَى نَعْرِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ، يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ، فَعَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ، وَصَلَّاحَ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي

---

(1) جزء من حديث، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، عبد الله بن محمد بن إبراهيم المعروف بأبي بكر بن أبي شيبة، ت: سعد بن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيلية، الرياض، ط 1، 1436هـ - 2015م، (ج 16/440)، رقم الحديث: (32076). وأخرجه الترمذي بجزء منه في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب بيت النبي ﷺ، (ج 5/663)، رقم الحديث: (3788)، وقال الترمذي: حسن غريب.

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 7/71-72).

(3) انظر: المرجع السابق، (ج 7/70-74).

(4) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير، (ج 3/720). وقال صاحب موسوعة الصحيح المسبور، (ج 1/442): الحديث حسن بمتابعاته.

(5) من رؤوساء يهود بني قينقاع، من أشهر سادات يهود الذين وقفوا موقفا معاديا من الرسول، وعارضوه معارضة شديدة، وصمموا على الإيقاع به. انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقى، ط 4، 1422هـ - 2001م، (ج 12/122).

(6) أي: أسنَّ واشتدَّ. انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، (ج 4/316).

قَبِيلَةَ<sup>(1)</sup> بِهَذِهِ الْبِلَادِ، لَا وَاللَّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلُؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ. فَأَمَرَ فَتَى شَابًّا مِنْ يَهُودَ كَانَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: اعْمِدْ إِلَيْهِمْ، فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمَّ أَدْكُرْ يَوْمَ بُعِثْتُ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ وَأَنْشِدُهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنَ الْأَشْعَارِ، فَفَعَلَ. فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى تَوَاشَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيَّيْنِ عَلَى الرُّكْبِ، أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ، أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ، مِنَ الْأَوْسِ، وَجَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ، أَحَدُ بَنِي سَلَمَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَتَقَاوَلَا ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَدْعَةً، فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا، مَوْعِدَكُمْ الظَّاهِرَةَ - وَالظَّاهِرَةَ: الْحَرَّةُ - السِّلَاحَ.

فَخَرَجُوا إِلَيْهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى جَاءَهُمْ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُ اللَّهُ، أَيْدَعُوِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَسْتَنْفَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَاللَّفَّ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَبَكَوْا وَعَانَقَ الرِّجَالُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، قَدْ أَطَقَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوِّ اللَّهِ شَأْسِ بْنِ قَيْسٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَاتِ<sup>(2)</sup>.

هذه رواية ضعيفة<sup>(3)</sup> لكننا نسوقها هنا كي نستأنس بها في بيان الأثر الصحيح الذي رواه ابن عباسٍ رضي الله عنهما، فأصل سبب النزول صحيح وهو ما كاد يقع من اقتتال بين الأوس والخزرج، ويقوي معنى هذه الرواية، بأن سبب الفتنة اليهود، نص الآيات النازلة في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 100]، فالآيات نص في أن سبب الفتنة اليهود وهذا ما ذكرته رواية ابن إسحاق عند ابن هشام.

فيظهر من هذا الأثر - ومن عموم ما عُرف عن اليهود خاصة وأهل الكتاب عامة - مدى غيظ هؤلاء من اجتماع كلمة المسلمين وحدثهم، وأن أخطر ما يسعون إليه تفريق كلمة المسلمين وتمزيق وحدتهم وتشتيت صفهم.

(1) بنو قبيلة بطن من بني قحطان تفرع عنهم أوس وخزرج بنا حارثة بن ثعلبة، ومنهما قبيلتا الأوس والخزرج. انظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن علي القلقشندي، ت: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، 1400هـ - 1980م، (ص 404).

(2) سيرة ابن هشام، (ج 1/555-556).

(3) انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، محمد بن عبد الله العوشن، دار طيبة، 1428هـ - 2007م، (ص 135).

"فليس هناك في السياسة العامة أسوأ من تفرق الأمة وتمزق صفوفها وانقسامها فرقا وأحزابا، لذا حرص الإسلام إبان عهده الأول على وحدة الصف، واجتماع الكلمة، وتحقيق الألفة، وإشاعة المحبة، والسبيل التي وحد الله بها الأمة هو اتحاد دستورها، واعتصامها بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ" (1).

وفي سياق ترسيخ معنى الوحدة في الدين وعدم التفرق يُذَكِّرُ اللهُ المسلمينَ بنعمةٍ عظيمةٍ أنعمَها عليهم، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]، أي: اذكروا إنعامَ الله عليكم نعمته الدنيويَّة والأخرويَّة بهدايتكم إلى الإسلام المؤدي إلى الألفة وزوال الغلِّ، فقد كنتم أعداءً متناحرين متباغضين فقذف في قلوبكم المحبة بتوفيقكم للإسلام، فأصبحت إخواناً في الدين متحابين مجتمعين عليه، حتى بلغت محبتكم لبعضكم أن تتقاسموا أموالكم ودياركم بينكم، وأن يؤثر نو الخصاصة أخاه على نفسه، وأنقذكم ممَّا هو أدهى وأمرُّ وهو عذابُ الآخرة، فقد كنتم قريبين من الوقوع في النار بسبب كفركم فأنقذكم بالإسلام (2).

**وقفاتٌ بيانيةٌ مع عبارة (واعتصموا بحبلِ الله جميعاً):**

عبارتنا المركزية التي يدور حولها هذا المطلب ﴿واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرقوا﴾، وفي هذا التعبيرِ بهذه الألفاظ لطائفٌ بيانيةٌ نفقُ على بعضها:

1- اعتصموا: العينُ والصادُ والميمُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على إمساكٍ ومنعٍ وملازمةٍ (3)، والاعتصامُ افتعالٌ من العصمةِ فيه معنى تكلفِ الطلبِ، فمعنى هذا الخطابِ من الله للمؤمنين: أي اجتهدوا وكلفوا أنفسكم في طلبِ المنعةِ من كلِّ شرٍّ يكونُ بالفرقةِ، وذلك بأن تمتنعوا بحبلِ الله الذي هو كتابه ودينه.

2- حبلُ الله: أصلُ الحبلِ ما يتوصَّلُ به إلى البغيةِ، فكلُّ من يمشي على طريقٍ دقيقٍ يخشى السقوطَ، فإذا تمسَّك بحبلٍ وشدَّ نفسه إليه أمِنَ من ذلك (4).

(1) التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 1/221).

(2) انظر: حدائق الرُّوح والريحان (ج 5/33).

(3) مقاييس اللغة، ابن فارس، (ج 4/331).

(4) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 5/15-16).

3- وفي التعبير بالحبل دون غيره معنى دقيق آخر إذ الحبل ما يُشدُّ به للارتقاء أو التدلي النجاة، ففي هذا التعبير تمثيل لهيئة اجتماع المسلمين على دين الله وكتابه بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقى إليهم من مُنقذ لهم من غرقٍ أو سقوطٍ<sup>(1)</sup>.

4- ومعنى جميل رابع: فالحبل أداة الربط والحفظ، ففي التعبير به إشارة إلى أن الكتاب بتعاليمه وأحكامه يربط العاملين به بعضهم ببعض، ويربطهم جميعاً بربهم، ويكون عصمة لهم من التردى في مهاوى الأهواء والشهوات<sup>(2)</sup>.

5- جميعاً: حال من فاعل الاعتصام، أي: اعتصموا حال كونكم مجتمعين، فليس المقصود اعتصام كلِّ مسلمٍ منفرداً بل المقصود الأمرُ باعتصام الأمة كلها، ويحصل في ضمن ذلك أمر كلِّ واحدٍ بالاعتصام<sup>(3)</sup>.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- أمةٌ يجمعها - في مجملها - دينٌ واحدٌ، عقيدتهم التوحيد، كتابهم القرآن، تنبثق منه منظومة أخلاقية واجتماعية واقتصادية واحدة، ثمَّ تجدهم جماعاتٍ متفرِّقين، وأعرافاً متناحرين، وطوائف متباغضين، وأشتاتاً مُشرذمين، لهي أمةٌ قد ضلَّت سبيلَ وحدتها، وتكَّبت صراطَ قوتها، فلا سبيلَ إلى عرَّتِها وقوتها ومنعتها إلا بما أرشدها إليه ربُّها ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

وهذا الكلام النظريُّ المعلوم لدى أهل العلم خاصة، وكلِّ أصحاب العقول السليمة عامَّةً يحتاجُ إلى خطواتٍ عمليةٍ قويَّةٍ لتحقيقه من قبيل الدعاة والمصلحين في هذه الأمة، وقد برزت في العصر الحديث تجاربٌ دعويةٌ كثيرةٌ عبر الجماعات الإسلامية التي تسعى إلى استعادة تحكيم الشريعة وإحياء الخلافة الإسلامية في الأمة، ويرى الباحث من خلال هذه الدراسة المنهجية المتدرجة أن سبيلَ وحدة الأمة اجتماعها على كتاب ربِّها وذلك بتحقيق عناصر الاتحاد التي تجمع فرقته ابتداءً بترسيخ العقيدة الصحيحة في أبنائها وإعادة الاعتبار لمكانة القرآن فيها،

(1) انظر: التحرير والتوير، ابن عاشور، (ج 4/31).

(2) تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، دار الشروق، 2009م، (ص 109).

(3) انظر: التحرير والتوير، (ج 4/31).

فإنَّ الأُمَّةَ متى ربت على حبِّ القرآنِ وفهمه والعملِ به التقت لا محالةً على طريقٍ واحدٍ ونهجٍ واضحٍ، وإنَّ في الصورة التمثيلية الدقيقة لوحدة الأُمَّة بالاعتصام بحبلِ الله أوضَحَ مثالٍ على طريقِ الوحدة، فالحبلُ - الذي هو القرآنُ - طرفُهُ بأيدي الناسِ وطرفُهُ الآخرُ بيدِ الله، فمن أخذَ به وتعلَّقَ به وصلَ إلى الله وعصِمَ من الضلالِ، قال النبيُّ ﷺ: "... فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرْفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرْفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا"<sup>(1)</sup>.

وهذه النتيجة تراكميةٌ لن تبلغها الأُمَّة إلا بما بلغها الأوائلُ، لا أقولُ طبعاً إننا نريدُ لكلِّ واحدٍ من أبناءِ الأُمَّة أن يسيرَ في هذا الطريقِ التراكميِّ فهذا متعذَّر قطعاً، ولم يكن صلاحُ المجموعِ كلُّه يوماً شرطاً لوحدة الأُمَّة، لكن صلاحُ الثلثة التي تحملُ لواءَ هذا الدينِ علماءً ودعوةً وجهاداً هو الشرطُ.

2- إنَّ من لبناتِ الاتحادِ على طريقِ الوحدة توحيدُ دساتيرِ الدولِ الإسلامية، ولمَّا كانَ القرآنُ الكريمُ هو دستورُ المسلمين وجبَ على كلِّ القوى السياسيةِ المخلصة لهذه الأُمَّة أن تستنبطَ منه - ومن سنة رسولِ الله ﷺ وبقيةِ مصادرِ التشريع - دستوراً مُقنناً ينطلقُ من أصولِ الشريعة وقواعدها ويحقِّقُ متطلباتِ الدولة المعاصرة بما تميزت به مرونة الشريعة، وقد وُجدت تجاربٌ متميزةٌ في عصرنا الحاضرٍ لتقنينِ الشريعة لكنَّها تحتاجُ إلى رؤيةٍ أوسعٍ على نطاقِ الأُمَّة ككلِّها، فإنَّ الشعوبَ متى دفعت بقوةٍ إلى تحكيمِ الشريعة وقعَ التغييرُ ولو شيئاً فشيئاً حتى يقضيَ الله بوقوعِ التغييرِ الشاملِ عندما تبلغُ الأُمَّة بمجملها لا بكلِّ فردٍ فيها مع القرآنِ علاقةً الاستيثاقِ، فتتال درجةُ الاستحقاقِ.

#### المطلب الرابع: القرآنُ هو الحَكْمُ بينَ الناسِ في شؤونهم

خلقَ اللهُ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ، بدأ خلقَهُ من طينٍ، ثمَّ جعلَهُ خلقاً من بعدِ خلقٍ في قرارٍ مكينٍ، ثمَّ أخرجَهُ سوياً في أحسنِ صورةٍ فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقينَ، أحاطَهُ بجميلِ عنايته فخلقَ فسوياً، وقدَّرَ فهدى، أتاهُ من كلِّ ما سألَ، ويسَّرَ له كلَّ السبلِ، لأجلِهِ خلقَ ما في الأرضِ وسخَّرَ، وأخرجَ له كنوزَ البرِّ والبحرِ، وجعلَهُ سيِّدَ هذه الأرضِ، فكانَ حريّاً وحقيقاً بمن أحسنَ الصورةَ وعدلَ الخلقَةَ وأتمَّ النعمةَ أن يُجَمِّلَ خُلُقَهُ، ويبيِّنَ له في هذه الدنيا ما يُصلِحُ شأنَهُ، ويحييَهُ حياةً طيِّبةً، فكانت من الله الفطرةُ السمحاءُ، والشريعةُ الغراءُ، والدينُ القويمُ، والمنهجُ المستبينُ، فأنزلَ إلى البشرِ كُتُباً تترأً، فيها ما يُصلِحُ أحوالَهُم، ويهديهِم سُبُلَ رشادِهِم، ويُقوِّمُ اعوجاجَهُم، ثمَّ

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب العلم، ذكر نفي الضلال عن الآخذ بالقرآن، (ج 329/1)، رقم الحديث: (122).

ختم كُتِبَهُ بأفصحها بياناً، وأبينها سلطاناً، وأقومها منهاجاً، وأتمها نبراساً، فما من خيرٍ يُصلِحُهُمْ إلا أودعهُ في هذا الذكرِ الحكيمِ، وما من شرٍ يُفسِدُهُمْ إلا بيَّنهُ هذا التبيانُ المبينُ.

أرأيتَ رحمةً أوسعَ ومنَّةً أتمَّ وحفظاً أعظمَ من هذه الطريقةِ الربانيةِ في هدايةِ البشرية؟

تلك الطريقةُ التي يسمونها اليومَ (تطبيقُ الشريعةِ) أو (تحكيمُ الدينِ) أو (إقامةُ الملةِ)، والتي نرى ثلَّةً من المسلمينَ اليومَ ينافحونَ لأجلِ تطبيقها وتفعيلها وكأنَّها باتت قانوناً أجنبياً عن البشرِ، يسعونَ لفرضه بخلافِ رغباتِ الأكثرِ!!، وما ذاكُ إلا لأنَّ أكثرَ الفطرِ قد فسدت، والأهواءُ في بني البشرِ قد حكمت، وموجةُ الباطلِ قد علت، فتعالَ معي نستجلي المنهجَ القرآنيَّ في ربطِ الإنسانِ بكتابهِ الحكيمِ حكماً عدلاً في كلِّ شؤونِ حياته:

**أولاً: خطابُ العقلِ.**

بدأت الشذراتُ الأولى في التأسيسِ لتحكيمِ القرآنِ في حياةِ الناسِ من أوائلِ العهدِ المكيِّ عندما وصفَ اللهُ كتابه بأوصافٍ تُنبئُ عن قِيومِيتهِ لإصلاحِ حياةِ البشرِ كُلِّها.

وأولُ اسمٍ سمى اللهُ به القرآنَ - كما مرَّ في المطلبِ الثاني من المبحثِ الأولِ من هذا الفصلِ - (الذِّكْرُ)، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 27]، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10].

ومن معاني هذا الاسمِ أنه ذكَّرَ اللهُ به عبادهَ فعرفَهُم فيه حدوده وفرائضه وسائرَ ما أودعهُ من حكمه، وهو أيضاً شرفُهُم وفخرُهُم<sup>(1)</sup>، فكانَ في البداية بهذا الاسمِ في أولِ العهدِ قبلَ أن يكونَ هناكُ أيُّ حديثٍ عن الأحكامِ الفرعيةِ تمهيداً لطيفاً وخطاباً عقلياً متيناً بأنَّ هذا النازلَ بينَ يديكم فيه كلُّ الخيرِ لكم، وفيه صلاحُ شؤونِكم، ورفعَةُ شأنِكم.

وقد تتابعت الأسماءُ والصفاتُ المنبئةُ عن عظيمِ نفعِ هذا الكتابِ للبشرِ تمهيداً لتنزُّلِ سائرِ أحكامِهِ، كأسماءِ: حكيم - هدى - رحمة - نور - بيان... إلخ.

**ثانياً: ربطُ تحكيمِ الشريعةِ بالعقيدةِ.**

إنَّ من أعظمِ منهجياتِ الكتابِ الحكيمِ في التمهيدِ لتطبيقِ الشريعةِ ربطُ تطبيقِ أوامرِ اللهِ تحليلاً وتحريماً بعقيدةِ العبوديةِ لله والخضوعِ المطلقِ له، والانقيادِ التامِّ لمنهجه؛ فهو خالقُ هذا الكونِ ومالكه ورازقُه، وهو وحده المستحقُّ لأن يُطاعَ.

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 1/99).

وقد كانت سورة الأنعام أول سورةٍ تعالجُ هذه القضيةَ بتفصيلِ القضايا العقيدية وربطها بتطبيقاتها العملية، وقد فصلنا القولَ عن هذه المنهجية في المطلب الثاني عشرَ من المبحث الثاني من هذا الفصلِ فليرجع إليه.

ثالثاً: بيان استقلالِ الله بالحكم وإرادته الخيرة للناسِ.

حتى بعدَ تأسيسِ الدولة في المدينة لم يبدأ القرآنُ مباشرةً بالحديثِ عن الأحكامِ التفصيلية، بل استمرَّ يخاطبُ العقلَ ويرسخُ معنى ارتباطِ الحاكمية بالألوهية، فخاطبَ الناسَ في سورة البقرة، في آياتها النازلةِ أولاً، ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106-107].

فنلاحظُ هنا أنَّ القرآنَ بدأ يتحدثُ عن النسخِ، وهو وسيلةٌ من وسائلِ التشريعِ يرفعُ بها اللهُ أحكاماً ويثبتُ أخرى، وفي هذه الآيةِ وقفاتٌ:

1- نسبةُ النسخِ إلى اللهِ بضميرِ المتكلمِ (ننسخ)، فيه إشارةٌ واضحةٌ إلى مصدرية التشريعِ وأنه فقط لله.

2- التكلمُ بنونِ العظمةِ يشي بعظمةِ التشريعِ النازلِ لاقتراحه بمشرعٍ عظيمٍ.

3- في قوله ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ بيانٌ لإرادةِ اللهِ الخيرةِ بالبشرِ فهو يُشرعُ لهم ما ينفَعُهُم ويصلحُ أحوالَهُم فجديرٌ بكلِّ من يعلمُ هذا أن يُقبلَ على أحكامِ اللهِ بلا أدنى تردُّدٍ حتى وإن خالفت هوى نفسه فهي خيرٌ كلها.

4- في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ... وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ تهديدٌ خفيٌّ لمن ابتغى الولايةَ والنصرةَ في غيرِ شرعِ الله؛ فإنَّ اللهَ قادرٌ أن يَنْقَمَ منه لا يُعجزُهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ.

رابعاً: بدءُ ذكرِ التشريعاتِ وربطها بالقرآنِ.

أولُ التشريعاتِ العملية التي نزلت في المدينة حكمُ توزيعِ الغنائمِ، وذلك بعدَ بدرٍ في سورة الأنفالِ، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

فهذا هو التشريع القرآني الأول، ويلاحظ أن هذا التشريع جاء مالياً يأخذ بموجبه السلطان جزءاً من أموال الغنيمه لمصلحة الطبقات الفقيرة في المجتمع: (اليتامى والمساكين وابن السبيل)، فكانت الشريعة بهذا أسبق الشرائع إلى جعل مساعدة الطبقات الفقيرة أساساً في النظام المالي الإسلامي<sup>(1)</sup>.

وقد ربط القرآن هذا التشريع به - مع كونه معلوماً بدهاهة أنه تشريع قرآني - فقال ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، أي: إن كنتم آمنتم بما أنزلنا من القرآن على النبي ﷺ إيماناً إذعاناً وقبولاً فاقبلوا حكم الله في الغنائم<sup>(2)</sup>، فهذا الربط إذن لاستجلاب معنى الخضوع والإذعان لأوامر الله وأحكامه سيماً في أمر تهوأة النفوس وهو الغنائم والأموال، فمن علم المكانة العظمى لهذا القرآن من الدين والتشريع لا بدّ يستسلم ويخضع له حتى وإن خالف كل أهوائه.

ثم بدأت الأحكام التفصيلية تتوالى نزولاً حتى إذا توسّط العهد المدني وكانت هناك ثلثة من الأحكام في سور آل عمران والحشر والأحزاب والنور والنساء تكّره من جديد بوجوب الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في كل ما يقع بينهم من خلافات، سيماً مع اتساع المجتمع الإسلامي وتداخله مما يستتبع وقوع النزاعات بين الناس.

فنزلت آيات سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾<sup>(3)</sup> ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم ءامنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً<sup>(4)</sup> وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً<sup>(5)</sup> ﴿[النساء: 59-61].

فطاعة الله عز وجل هي امتثال أوامره ونواهيه في كتابه<sup>(3)</sup>، وطاعة الله بمعنى طاعة شريعته فإن الله هو منزلها ورسوله مبلغها والحاكم بها<sup>(4)</sup>، ففي الآية نداء للمؤمنين بأن يتجهوا إلى كتاب الله المبين ملتصقين ما فيه من أحكام، مظهرين طاعتهم لربهم بالتمسك بكتابه.

(1) انظر: التفسير الحديث، دروزه، (ج 50/7).

(2) انظر: حدائق الروح والريحان، (ج 12/11).

(3) المحرر الوجيز، ابن عطية، (ج 70/2).

(4) انظر: التحرير والتنوير، (ج 96/5).

وتبيّن الآية أيضاً بأنّ القرآن العظيم - ومعه السنة المطهّرة - مَفْصِلُ النزاعِ بينَ الناسِ فيما تنازَعوا فيه من الخصوماتِ والدعاوى في الحقوق، وبينَ الناسِ والحاكم، وبينَ العلماءِ في الأحكامِ الشرعيةِ التي طرِيقُها النظرُ، وبينَ أهلِ الحلِّ والعقدِ في مصالحِ العبادِ، فالتنازُعُ هنا يعمُّ كلَّ تنازُعٍ بقريّةٍ وقوعٍ (شيءٍ) في سياقِ الشرطِ إذ تفيّدُ العمومَ، فالحلُّ إذن لِكُلِّ هذه النزاعاتِ الرُدُّ إلى كتابِ الله وسنةِ نبيّه ﷺ.

ومعنى ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ...﴾ مع أنّهم خوطبوا —(يا أيها الذين آمنوا) أي: إيماناً حقاً يحملكم على التزام أمر الله<sup>(1)</sup>.

وقد اقترنَ هذا الموضوعُ الأوّلُ بالأمرِ برَدِّ النزاعِ إلى القرآنِ والسنةِ بذكرِ المنافقينِ أصحابِ الأهواءِ الذين كانتِ علاقتهم بالقرآنِ علاقةً شكِّ وريبةٍ في أحكامه، وقد فصلنا الحديثَ عن أحوالهم هذه في المطلبِ الثاني من هذا المبحثِ.

وقد أكّدت سورة النساءِ مرّةً ثانيةً على مركزيةِ القرآنِ الكريمِ في الحكمِ بينَ الناسِ بوصفه كتابَ حقٍّ وعدلٍ لا يحابي أحداً في أحكامه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَاتًا أَثِيمًا ١٧ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٨ هَآئِنَّمْ هُوَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ١٩﴾ [النساء: 105-109].

وسببُ نزولِ هذه الآيةِ مروّيٌّ في حديثٍ طويلٍ عندَ الترمذيّ<sup>(2)</sup> ذكرَ حاصله القاضي ابنُ العربيّ: " هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَنِي أَبِيرِقٍ؛ سَرَقُوا طَعَامَ رِفَاعَةَ بِنِ زَيْدٍ، وَاعْتَدَرَ عَنْهُمْ قَوْمُهُمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ خَيْرٍ، «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ ذَلِكَ، فَطَالَبَهُمْ عَنْ عَمِّهِ رِفَاعَةَ بِنِ زَيْدٍ، فَقَالَ رِفَاعَةُ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَنَصَرَ رِفَاعَةَ وَأَخْرَى اللَّهُ بَنِي أَبِيرِقٍ بِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: 105]" أَيِّ بِمَا أَعْلَمَكَ، وَذَلِكَ بِوَحْيٍ أَوْ بِنَظَرٍ، وَنَهَى اللَّهُ

(1) انظر: المرجع السابق، (ج 5/98-101).

(2) انظر: سنن الترمذيّ، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، (ج 5/244)، رقم الحديث: (3036). وقد حكم عليه الشيخ الألباني بالحسن، انظر: صحيح وضعيف سنن الترمذيّ، الترمذيّ، ت: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1420هـ - 2000م، (ج 3/223).

عَزَّ وَجَلَّ رَسُولُهُ ﷺ عَنْ عَضُدِ أَهْلِ التُّهَمِ وَالذِّفَاعِ عَنْهُمْ بِمَا يَقُولُهُ خَصْمُهُمْ مِنَ الْحُجَّةِ<sup>(1)</sup>.

فمن المعاني المستفادة من هذه الآيات:

1- أن الله تعالى لما بيّن في هذه السورة الأحكام الكثيرة بيّن أنها كلها بإنزال الله في كتابه، وأنه لا يجوز للنبي ﷺ أن يحدّ عنها طلباً لرضا قومه.

2- أن الله لما أمر بمجاهدة الكفار بيّن أنه رغم ذلك لا يجوز خيانتهم، وأن كفر الكافر لا يبيح الممانعة عليه، بل يجب الحكم له أو عليه بموجب ما أنزل الله<sup>(2)</sup>.

وتتابعت الآيات تنتزّل في بيان مركزية الكتاب العزيز في الحكم بين الناس وإقامة القسط في الأرض، ففي الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]، وفي البقرة مما نزل منها متأخراً: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]، وفي الحجر: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: 1].

ويُختم العهد المدني بسورة المائدة التي جاءت مشحونةً بآياتٍ تحكيم كتب الله التي أنزلها على أنبيائه بدءاً بالتوراة فالإنجيل وختاماً بالقرآن الذي وصفه الله بين ثنايا تلك الآيات بأنه مصدق لما بين يديه ومهيمٌ عليه، أي: رقيبٌ على الكتب السابقة وشهيدٌ عليها، فكلُّ خبرٍ وافقه فهو حقٌّ، وما خالفه فباطلٌ، وهو كذلك حاكمٌ على الكتب التي قبله<sup>(3)</sup>.

وقفاتٌ سياقيةٌ مع (اتبِعُوا وَتَعَالُوا):

وردَ هذانِ الفعلانِ بصيغةِ الأمرِ في سياقِ اتباعِ كتابِ اللهِ ستَّ مراتٍ، ثلاثةٌ للفعلِ (اتَّبِعُوا)، آيتينِ مكثرتينِ وآيةً مدنيةً، وثلاثةٌ للفعلِ (تَعَالُوا) - الذي لا يكونُ إلا بصيغةِ الأمرِ -:

(1) أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر ابن العربي المعافري الإشبيلي، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 3، 1424هـ - 2003م، (ج 1/626).

(2) انظر: التفسير الكبير، (ج 11/211).

(3) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن عبد الرحمن الحسيني الإيجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ - 2004م، (ج 1/471).

في آية مكيّة وأبيّتين مدنيّتين:

آيات (اتَّبِعُوا):

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾<sup>[3]</sup>  
[الأعراف: 3].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَانِ الشَّيْطَانِ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾<sup>[21]</sup> [القمان: 21].  
وهاتان مكيّتان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَانِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>[170]</sup> [البقرة: 170].  
وهذه مدنيّة.

آيات (تعالوا):

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَيْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَلَّيْتُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>[151]</sup> [الأنعام: 151].  
وهذه مكيّة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُتَنَفِّعِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾<sup>[61]</sup>  
[النساء: 61].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَانِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>[104]</sup> [المائدة: 104].  
وهاتان مدنيّتان.

فالاتباع أمر عام بالتزام كتاب الله والسير وراء هديه، من قولنا: تبعته إذا سرّ وراءه، وقد ورد هذا الأمر مرتين في العهد المكيّ ومرّة في المدنيّ ليتناسب مع عموم الأمر التأسيسيّ للاهتداء بهذا القرآن والسير وراءه، وهذا يتناسب مع طبيعة العهد المكيّ الذي يركّز على عموم اتباع الرسالة دون الخوض في تفاصيل التشريعات، ولذا فقد كانت الآية المدنيّة منها خطاباً

للمشركين الذين يفضلون البقاء على ما ألفوه من اتباع ما ألفوا عليه آباءهم.

أما الفعل (تعالوا) فيفيد الأمر بالإقبال نحو الشيء من سفلى إلى علو، وهو لا يفيد في أصل معناه اتباعاً أو التزاماً، بل معنى الاتباع فيه متضمن في معنى الأمر الذي يدعى إليه، فالدعاء في الآيتين المدنيتين إلى ما أنزل الله كي يكون حكماً في مسألة بعينها، وفي المكية كي يستمعوا إلى آيات تشرع قضايا بعينها.

وعليه فإن آيات (تعالوا) تفيد تحكيم القرآن في ما وقع فيه نزاع بين الناس وهذا يتناسب طبعاً مع العهد المدني الذي أنزلت فيه التشريعات الفرعية وفرض فيه تحكيم القرآن بين الناس في نزاعاتهم، ويشير إلى هذا المعنى آية النور: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرَضُونَ﴾ [النور: 48]، هذه في المنافقين، والتي بعدها في المؤمنين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51]، ونلاحظ هنا أن الدعاء قد علل بالفعل (ليحكم)، فتحمل الآيات معنى الإقبال والإذعان والاستسلام لحكم الله في كل مسألة.

أما آية الأنعام المكية فكان الدعاء فيها للاستماع فضلاً عن الإذعان والاستسلام، نعم الاستماع ينبغي أن يورث إذعانا، لكن طبيعة المرحلة المكية كانت تفرض خطاب العقل والإقناع قبل خطاب الأمر والإذعان، ولذلك كان من دقيق التعبير القرآني أنه ختم تلك الآيات الثلاث التي تبعت النداء للاستماع بجملة (لكم وصاكم به) على طريقة الوصية الصادرة عن الناصح المخلص.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- يتضح من البحث أنه كلما زادت أهمية وخطورة القضية من قضايا هذا الدين اعتنى الشارع بالقائها إلى الناس عن طريق التدرج حتى تستقر في نفوسهم، فإن منهجية التدرج التي تبدأ عادة بخطاب العقل وطريقة الإقناع أثبت في العقل وأرسخ في النفس وأمتن في الخلوص شيئاً فشيئاً إلى كيان الإنسان كله، وهكذا رأينا كيف تدرج القرآن في ربط الإنسان به في قضية تحكيمه في شؤون الناس بدءاً بخطاب العقل ثم ربط تحكيمه في الناس بعقيدة الألوهية ثم التأكيد على استقلالية الله بالتشريع حتى إذا استقر هذا في عقول الناس وتشرّبه نفوسهم ألقى إليهم الأوامر والنواهي والتشريعات العملية فاستقبلوها بتسوّف إلى الاستجابة لأمر ربهم الذي ربوا على حبه.

2- وانطلاقاً من هذه المنهجية ينبغي على الحركات العاملة في ميدان العمل الإسلامي والتي

تسعى إلى تحكيم الشريعة في مجتمعاتها أن تسير وفق هذه المنهجية فتجتهد أولاً في ترسيخ الارتباط الوثيق بين الحاكمية والألوهية في عقول الناس ونفوسهم وتحببهم في شريعة الله حتى يصل الناس إلى حدٍ يطلبون هم فيه شريعة الله ليحكموها بينهم، وأنبه هنا على أمرٍ في غاية الأهمية:

قد يقول قائل إنَّ الناس اليوم قد وصلوا إلى هذه القناعة والمرحلة بدليل ما نرى من فوز كبير للحركات الإسلامية في الانتخابات التي تُعقد في بعض البلاد الإسلامية - إن كانت نزيهة - ولما كان شعار تلك الحركات تطبيق الشريعة وحصدت الأغلبية دلَّ ذلك على رغبة الناس في تطبيق الشريعة.

أقول لا شك بأنَّ عاطفة المسلمين تميل مع شريعة الله ولن تجد أحداً في الأغلب يجاهر برفض الشريعة إلا أولئك الموتورون في دينهم، لكن ينبغي أن نفرق بين درجة الميل العاطفي ودرجة الإذعان العملي المشفوع بالرضا، فكم من أناس نادوا بتطبيق أحكام الله بأفواههم وبميل قلوبهم فلماً دُعوا إلى تطبيق أحكام الله عليهم ورأوا أنَّ حكم الله سيأخذ منهم مكاسبهم الدنيوية التي أخذوها بشهوات أنفسهم وظلمهم لغيرهم نكسوا على أعقابهم وأخذوا يبحثون عن طريقة يتقلتوا فيها من حكم الله.

فمقصداً إذن أن نصل إلى مجتمع يسعى هو بكلِّ الرضا إلى تطبيق أحكام الله عليه فيخرج الواحد منهم إلى الحاكم يقول له كما قال ماعز<sup>(1)</sup> لرسول الله ﷺ "طهرني"<sup>(2)</sup>، لا أن نعاجل بتطبيق الشريعة على مجتمع يتقن في اختراع طرق التغلّب منها!!.

3- بيّنت الآيات أنَّ أعدى أعداء القرآن حكماً بين الناس اليهود والمنافقون، وإننا نرى هذا العداء اليوم عملياً في أمّتنا حيث سعت الحركة الصهيونية وأولياؤها من النصارى وأفلحوا في إسقاط الخلافة العثمانية - مع عدم إهمال العوامل الداخلية لسقوطها - بوصفها آخر سدود حماية الشريعة الإسلامية واستبدالها بأوليائهم الذين غيَّبوا شرع الله وحكّموا في الأمّة قوانين كسرى وقيصر، فباتت الأمّة واقعةً بين اليهود وأوليائهم المنافقين؛ ولذا فيرى الباحث أنَّ إسقاط دولة اليهود اليوم في فلسطين من أوجب الواجبات التي ستؤدي إلى انفراط عقد

---

(1) هو ماعز بن مالك الأسلمي، له صحبة، هو الذي رُجم في عهد النبي ﷺ، ويقال: اسمه غريب، وماعز لقب. انظر: الإصابة، ابن حجر، (ج 5/521)، برق: (7603).

(2) القصة خرّجها مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، (ج 3/1321)، رقم الحديث: (1695).

الهيمنة الصهيونية واندحار أوليائها وبالتالي انفكاك القبضة المطبقة على المسلمين، وقد أثبتت التلة المجاهدة في فلسطين اليوم والتي حملت راية الدفاع عن القدس وتحرير أرض فلسطين من الصهاينة واقعية وعملية إمكانية تحرير فلسطين وإسقاط دولة الصهاينة، وقد رأيتُ طرفاً من تلك الواقعية أثناء كتابتي لهذه السطور عبر المعركة التي سمّاها مجاهدو فلسطين (سيف القدس) والتي ساءت وجوه الصهاينة المحتلين وأرغمتهم على طلب إيقاف النار<sup>(1)</sup>.

4- مناهجنا المدرسية ضعيفة جداً في جانب الحديث عن شمولية شريعة الله وضرورة تحكيمها في المجتمع، صحيح أن مناهجنا تذكر بعض تطبيقات الشريعة الجزئية لكنها لا تُركّز على أصل مسألة أهمية تطبيق الشريعة في الأمة، فنحن بحاجة حقيقية إلى دروسٍ تطرح قضية أهمية الشريعة ومعنى شموليتها وضرورة تطبيقها وبيان مثالب وعوار القوانين الوضعية المعمول بها في بلاد المسلمين.

#### المطلب الخامس: النهي عن التنتع في القرآن

وها هي ذي مسيرة الارتباط بالقرآن العظيم تبلغ منتهاها، ويجني المؤمنون حلّ جناها، وتمتلئ نفوسهم بمحبة كتابهم حتى قدّموه على هواها، وفاضت عليهم سيول الإيمان حتى رفّت الأفتدة في جواها، فبدأ بعض المؤمنين يطلبون كمال الإيمان في الغلو، ويتكفّفون في كلّ صغيرة ودقيقة ظناً منهم أن في هذا رضا الإله واتباعاً للنصّ المتلو، فرأيت بعض الصحابة الكرام يظنّ أن كمال الإيمان في زيادة التكليف وأنه يودّ أن يرى بين كلّ آيتين آية في التكليف فيسأل رسول الله ﷺ لما أعلم صحابته بفرض الحجّ: أفي كلّ عام هو يا رسول الله؟

وترى الآخر قد ثارت مشاعره الإيمانية حتى ما يبالي أن تُفصح أمه على المأل على أن يعرف حقيقة نسبه ولا يبقى في ظنون شبهة أنه ابن زنى!!

---

(1) قال العميد احتياط غيورا عنبر: يجب وقف هذه الحرب لأننا لم نحقق شيء، وما نراه أننا نخسر في مجالات كثيرة، أطفالنا لا يذهبون إلى المدارس، الشوارع مشتتة... المصدر: مقابلة متلفزة على القناة 12 العبرية بتاريخ 2021/5/20

الرابط: <https://www.youtube.com/watch?v=eGgsYZcEtv0>

وينظر: مقابلة مطولة مع رئيس معهد أبحاث الأمن القومي اللواء احتياط عاموس يدلين أجراها معه الصحفي يواف ليمور ونشرت على موقع صحيفة "إسرائيل اليوم" بتاريخ 2021/6/25. الرابط:

<https://www.israelhayom.co.il/magazine/shishabat/article/2617749>

ولكن الله قد جعل لكل شيءٍ نصاباً، وجعل هذه الأمة بين الأمم وسطاً صواباً، فنزلت الآيات تضع لهذا المنتهى حداً، وتضبط فورة الإيمان الجارف في قلوب المؤمنين ضبطاً جداً، وتبين لهم أن هذا القرآن يعطي كل سائلٍ فمن طلب التشديد وقت نزوله شدّد عليه واستحقّ بهذا أعظم الجرم، ومن ترك التتطّع في المسائل ولم يسأل إلا عن ما احتاج لبيانٍ فاز وسلم وسلم.

قال الله تعالى في أواخر السور نزولاً بالمدينة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ نَسْوُهُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: 101-102].

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء خفيّة لا فائدة منها، أو عن دقائق لم تكلفوا طلبها، أو عن أمورٍ سكت الشارع عنها، فيشقّ التكليف بها على بقية المؤمنين.

وإن تسألوا عن تلك الأشياء المسكوت عنها أو الشائكة أو التكاليف الثقيلة وقت نزول القرآن يُظهرها الله لكم فيكون سؤالكم سبباً في التشديد والتضييق على الأمة.

أما إن كان السؤال في بيانٍ مجملٍ أو غامضٍ قرآنيّ فلا حرج فيه للحاجة إليه.<sup>(1)</sup>

وقد وردت في سبب نزول هذه الآية روايتان صحيحتان:

الأولى: عن أنس بن مالك، قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيءٍ فخطب فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُّ منه، قال: غَطُّوا رُءُوسَهُمْ وَلَهُمْ حَنِينٌ، قال: فقام عمرُ فقال: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا. قال: فقام ذلك الرجلُ فقال: مَنْ أَبِي؟ قال: «أَبُوكَ فُلَانٌ». فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ نَسْوُهُمْ﴾ [المائدة: 101]<sup>(2)</sup>.

ومن حديث أبي موسى في نفس السبب: قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب، ثم قال للناس: «سألوني عمّ سننتم» فقال رجلٌ: مَنْ أَبِي؟ قال: «أَبُوكَ خُدَافَةُ» فقام آخرُ فقال: مَنْ أَبِي؟ يا رسول الله قال: «أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَى شَيْبَةَ»، فلما رأى عمرُ ما في وجهه

(1) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 1/506).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيه ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك، (ج 4/1832)، رقم الحديث: 134 - (2359).

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْغَضَبِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ (1).

قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْبَةَ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُذَافَةَ، لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُذَافَةَ: مَا سَمِعْتُ بِأَبْنٍ قَطُّ أَعَقَّ مِنْكَ؟ أَمِنْتَ أَنْ تَكُونَ أُمُّكَ قَدْ قَارَفَتْ بَعْضَ مَا تُقَارِفُ نِسَاءَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَفْضَحَهَا عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خُذَافَةَ: وَاللَّهِ لَوْ أَلْحَقَنِي بِعَبْدِ أَسْوَدَ لَلْحَقِيقَةُ (2).

الثانية: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خطب، فقال: "يا أيها الناس إن الله قد افترض عليكم الحج"، فقام رجل فقال: أكل عام يا رسول الله؟ قال: فسكت عنه حتى أعادها ثلاث مرات، قال: "لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ما فمتم بها. دروني ما تركتم، فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم عن أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء، فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء، فأثروا منه ما استطعتم". وذكر أن هذه الآية التي في المائدة نزلت في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤُهُمْ﴾ [المائدة: 101] (3).

ولا ضير في تكرر حوادث النزول إذا صحت الروايات وصرح بالسببية وتقارب زمانها، وذلك باب يعرف عند علماء القرآن ب(تعدد السبب والنازل واحد) (4).

والجملة التي تخص بحثنا قوله تعالى ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدل لكم﴾، "فنزول القرآن عند السؤال موجب لتعجيل الجواب" (5).

فهذه الجملة تحمل معنى الوعيد لمن يسأل زمان الوحي فيترتب على سؤاله عبء ومشقة على المسلمين (6).

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك، (ج 4/1834)، رقم الحديث: 138 - (2360).

(2) المرجع نفسه، جزء من حديث، (ج 4/1832)، رقم الحديث: 136 - (2359).

(3) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج، (ج 9/18)، رقم الحديث: (3704). قال شعيب الأرنؤوط محقق الكتاب: إسناده صحيح.

(4) يُنظر لهذا الموضوع: الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، (ج 1/121).

مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط 3، 1421هـ - 2000م، (ص 89).

(5) تفسير القرآن، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي المعروف بسلطان العلماء، ت: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1416هـ - 1996م، (ج 1/416).

(6) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 2/246).

أما وقد انقضى زمانُ الوحي وتمَّ نزولُ القرآنِ فيُحْمَلُ الوعيدُ على مَنْ تتطَّعَ في استنطاقِ آياتِ القرآنِ بما لا تنطقُ به، ونَقَّبَ عمَّا لا يبلغُه عقلُه، وكَلَّفَ نفسَه ما لم يُؤمَّرَ بتكليفه، فشَدَّدَ وغلا، وسارَ في دروبِ أهلِ الضلالة؛ فإنَّ من نهجِ نهجِ التكلفِ والغلوِّ ظانًّا أَنَّهُ يطلبُ الكمالَ قاذِه غلوهُ إلى الانحرافِ والجفاءِ فتجدُه يُشَدِّدُ على نفسِه وعلى الناسِ حتى إذا بلغَ ما لا تطيقُه نفسُه التي فطرها اللهُ على المنهجِ الوسطِ انفرطَ عقدهُ دفعةً واحدةً فهوى في مراتعِ الجفاءِ وانقلبَ على عقبيه ونكصَ على دابره.

وقد رأينا نماذجَ كادت تتحرفُ عن منهجِ الحقِّ الوسطِ لولا تقويمُ رسولِ الله ﷺ لمنهجهم وتصحيحه لطريقتهم، فعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنه قال: جاء ثلاثَةٌ رهطٍ إلى بيوتِ أزواجِ النَّبِيِّ ﷺ، يسألونَ عن عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَرْتُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: "أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْفُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" (1).

وكانَ أولُ من أظهرَ التنطُّعَ في القرآنِ (2) بعدَ رسولِ الله ﷺ وبعدَ أن قطعَ القرآنُ هذه الطريقةَ صبيغَ بنِ عِسلٍ (3)، لَمَّا قَدِمَ المدينةَ وكانت عندهُ كتبٌ، فجعلَ يسألُ عن متشابهِ القرآنِ ابتغاءَ الفتنة، فلَمَّا علمَ عمرُ بما يصنعُ ضربَه على رأسه حتى شجَّه وأدماه حتى انتهى به الأمرُ أن يقولَ: حسبك يا أميرَ المؤمنينَ فقد واللهُ ذهبَ الذي برأسي (4).

وقد كانَ الغلوُّ في القرآنِ الكريمِ بعدُ أصلَ كلِّ ضلالٍ ومبدأ كلِّ انحرافٍ، فانبثقت عن أولاءِ المنتطِّعينَ أمثالَ صبيغِ ونافعِ ابنِ الأزرقِ والجعدِ بنِ درهمٍ وواصلِ بنِ عطاءٍ فرقُ الضلالِ من الخوارجِ والقدريةِ والمعتزلةِ والمرجئةِ وغيرهم من فرقِ الضلالِ الذين بلغَ بهم التنطُّعُ أن يحرفوا

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، (ج 5/1949)، رقم الحديث: (4776).

(2) انظر: دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم: الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين، عبد المحسن بن زين بن متعب المطيري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ - 2016م، (ص 43-44).

(3) هو صبيغ بن عِسل، وقيل: بن سهل الحنظلي، له إدراك، وقصته مع عمر مشهورة، وقد نفاه عمر إلى البصرة، ومنع من مجالسته. انظر: الإصابة، ابن حجر، (ج 3/370)، برقم: (4143).

(4) انظر: الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الأجرى البغدادي، ت: عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط 2، 1420هـ - 1999م، (ج 1/483).

معاني نصوص القرآن عن ظواهرها لتواطئ ضلالاتهم وتنسجم مع أهوائهم.

### الفوائد المنهجية والتربوية المستفادة مما سبق

1- كتاب الله تعالى هو الفصل المبين، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو المنهج القويم، لا تزيغ به الأهواء، ولا يضل من قصد هداة، ولا يشبع منه العلماء، يتربع على عرش العدل والقسط والوسط في الإسلام، يضبط أراء البشر بالقسطاس والميزان، يذني إليه الجافي فيمحو جفوتة، ويعيد إليه الغالي فيكبج كبوتة.

ولذا فقد عالج القرآن انحطاط الروح حتى سمي بها إلى أعلى مقامات الوجد حتى ذاق حلاوة الإيمان، وهو في ذات الوقت يضبط أوارها كي لا تبلغ حد الشطط في مجافة الجسد الذي تحيا فيه، وعالج بهيمية الجسد حتى ارتقى به من درك الشهوات إلى نور الفضيلة، وهو في ذات الوقت يضبط عنفوانه فلا ينحى إلى الرهبانية التي تقتل الفطرة ولا إلى البهيمية التي تمسح الأدمية.

وهذا هو منهج القرآن الحق الذي ينبغي أن يربى عليه أبناء الأمة، فهم يقرؤون ﴿... وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]، ويقرؤون: ﴿... كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾ [الزمر: 23]، ويقرؤون: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ...﴾ [الملك: 15]، ويقرؤون: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ [السجدة: 16]، ويقرؤون: ﴿وَأَبْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾ [القصاص: 77]... إلى غيرها كثير من الآيات التي تبني الشخصية الوسط بين إفراط الغالين وتفريط الجافين.

2- قال النبي ﷺ: "إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته"<sup>(1)</sup>، هكذا علمتنا آية المائدة، وأنا أقول مهتدياً بآية المائدة وبنصيحة النبي الرائدة: إن أعظم المسلمين اليوم في المسلمين جرماً من شاد نصوص الكتاب حتى غلا فيه، ونقب عما لا يعنيه ثم يحمل الناس على غلوائه ويفرض عليهم شططه وفاسد آرائه، فيحمل الناس ما لا يطيقون فيجعلهم بذلك أسرع الناس من دينه الذي فرضه عليهم تفلتاً، وإلى الجفاء والبعث عن الشريعة برمتها انحداراً، فهؤلاء الغلاة يلحقون الضرر بالدين وبالمسلمين ربما أكثر من

(1) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، (ج 6/2658)، رقم الحديث: (6859).

نظرائهم على الطرف الآخر من العلمانيين والليبراليين والحدائين الجدد، خصوصاً إذا تبوءوا مكانةً يكون لهم من خلالها سيطرةً على بعض الناس كالحكم أو سلطان الفتيا في بلد من البلاد.

## خلاصة منهجية

### مخطط منهجي للخطوات التدرجية لبناء العلاقة بين الإنسان والقرآن

من خلال الدراسة السابقة التي تتبع الباحث فيها الآيات القرآنية التي رسمت العلاقة بين الإنسان والقرآن بحسب التدرج العملي التنزلي للقرآن الكريم من أول العهد بمكة إلى آخر العهد بالمدينة نستطيع أن نرسم المخطط الآتي بحسب الأولويات والخصوصيات السياقية والمكانية والزمانية:

ملاحظة: يجب أن ننبة على التفريق بين التدرج التنزلي والتدرج التطبيقي فقد يُقدّم في التدرج التطبيقي ما كان مؤخرًا في التنزلي باعتبار أننا نتعامل مع أمة مسلمة تتفاوت فيها البناءات التربوية من مجتمع إلى آخر ومن قضية تربوية إلى أخرى، فالعبرة بالأولويات والقضايا الأكثر أهمية التي أبرزتها الدراسة المنهجية فتأخذ كل واحدة مكانها بحسب أولويتها في الحالة الخاصة بمجتمعها.

المرحلة التأسيسية							
بناء العلم الموصل إلى معرفة الله		الدعوة بالقرآن على قدر العلم به		البناء الروحي بالقرآن		إنشاء منظومة التدبير	
تعليم اللغة العربية لأبناء الأمة	النظر في آيات الله في الكون	إبراز معاني أسماء القرآن وصفاته	بيان المنافع الدنيوية للقرآن في حياة الناس	مركزية صلاة القيام	تعلم التلاوة التدبرية أثناء القيام	تقريب معاني القرآن للناس وربطها بالعمل	إحياء الإيمان بالتدبير وسرعة الاستجابة لأمر الله
مرحلة الانطلاق بالقرآن							
الدفاع عن القرآن				تعريف المسلمين بأحوال أهل الكتاب مع كتبهم			
إبراز وجوه إعجاز القرآن الكريم		بناء ثلثة متخصصة تعتمد الحجج العقلية لرد الشبهات		التنكيل والوعيد للجاحدين أعداء القرآن، وهي مهمة أولياء الأمور		الحنز من مشابهة أحوال أهل الكتاب مع كتبهم	
إبراز روائع القرآن البيانية بأسلوب قريب للناس	تحسين جيل الشباب من شبهات أهل الباطل والأهواء	تسلح من يدعون أهل الكتاب بالإيمان والحجج القوية وبدء دعوتهم إلى القرآن قبل كشف زيف كتبهم	تعريف المسلمين بخطورة عداء أهل الكتاب للقرآن	العناية بوجوه الإعجاز في جوانب الهداية وإصلاح البشرية	إبراز روائع القرآن البيانية بأسلوب قريب للناس	إبراز روائع القرآن البيانية بأسلوب قريب للناس	إبراز روائع القرآن البيانية بأسلوب قريب للناس
مرحلة هيمنة الكتاب							
تفعيل المكانة الدستورية والتشريعية للقرآن				إبراز صبغة الوسطية والمقاصدية لهذا القرآن			
ترسيخ عقيدة الحاكمية في المسلمين	تحقيق عصمة الأمة بالقرآن	تربية الأمة على حب الشريعة وتطبيقها فيهم	تنشئة الجيل في المدارس على هذه المفاهيم	التحذير من الغلو والجفاء وتحسين الأمة من خطرهما	إبراز روائع القرآن البيانية بأسلوب قريب للناس	إبراز روائع القرآن البيانية بأسلوب قريب للناس	إبراز روائع القرآن البيانية بأسلوب قريب للناس

## الفصل الثاني

الوسائل القرآنية لربط الإنسان

بالقرآن

## الفصل الثاني

### الوسائل القرآنية لربط الإنسان بالقرآن

#### تمهيد: التعريف بالوسائل

الحمد لله الذي بيّن لنا كتابه بياناً شافياً، فخطّ لنا منهاجاً قيماً، ورسم لنا حدوداً بيّنة، وأتمّ علينا نبراسه فأرشدنا إلى الوسائل التي تُعين على بلوغ الغاية، فهذان الطُرق الموصلة إلى المقصد.

أما وقد انتهينا من الدراسة المنهجية التأصيلية التي حدّدت الهدف القرآني الذي يريد أن يبلغه بنبي البشر في علاقتهم معه، والمراحل التدريجية التي ينبغي أن يسلكها الإنسان لبلوغ هذه الغاية والهدف، فإننا نشرع الآن بعون الله ومعينته في بيان الوسائل التي أرشد إليها القرآن الكريم في سياق حديثه عن منهجية الارتباط بينه وبين بني الإنسان، تلك الوسائل التي هي الأدوات المعينة على بلوغ الغاية، ونبدأ أولاً بتعريف الوسيلة.

أولاً: الوسيلة لغةً.

"وسّلت إلى ربي وسيلة، أي: عملت عملاً أتقرب به إليه. وتوسّلت إلى فلان بكتاب أو قرابة، أي: تقربت به إليه"<sup>(1)</sup>.

"ويقال: توسّلت فلان إلى فلان بوسيلة، أي: تسبّب إليه بسبب، وتقرب إليه بحرمة أصرة تعطفه عليه"<sup>(2)</sup>.

وأضاف صاحب اللسان: الوسيلة: المنزلة عند الملك، والوسيلة: الدرجة<sup>(3)</sup>.

فمعنى طلب البلوغ إلى الغاية بسبب من الأسباب ظاهر في هذا الأصل، فالوسيلة في اللغة تجمع بين الرغبة في الوصول والسبب الموصول.

ثانياً: الوسيلة اصطلاحاً.

الوسيلة في اصطلاح كلّ الفنون: "الأداة، الألوّب، الطريقة التي يتحقّق بها غرض مُحدّد"<sup>(4)</sup>.

(1) العين، الخليل بن أحمد، (ج 7/298).

(2) تهذيب اللغة، الأزهري، (48/13).

(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور، (ج 11/724).

(4) معجم المغني الزاهر، د. عبد الغني أبو العزم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2013م، (ج 4/29358).

ثمَّ يتحدّد معناها بحسبِ الفنِّ الذي تضافُ إليه فتكونُ وسيلةً فيه، فعندَ الفقهاءِ مثلاً يعرّفونها في بابِ الذريعةِ في مفهومِ سدِّ الذرائعِ: "منعُ كلِّ ما يُفضي إلى الحرامِ"<sup>(1)</sup>.

وفي القانونِ: "هي السَّببُ أو الوجهُ القانونيُّ أو الفعليُّ الذي تُبنى عليه الدعوى ويُدلُّ عليه أمامَ المحكمةِ"<sup>(2)</sup>.

وقد وردت لفظةُ (الوسيلة) في القرآنِ الكريمِ في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]، قال الراغبُ: "وحقيقةُ الوسيلةِ إلى الله تعالى: مراعاةُ سبيله بالعلم والعبادة، وتحزّي مكارمِ الشريعة، وهي كالقربة، والوأسلُ: الراغب إلى الله تعالى"<sup>(3)</sup>، فاعتبرَ العلمَ والعبادةَ ومكارمَ الشريعةِ وسائلَ موصلةً إلى الله تعالى.

أمّا مصطلحُ بحثنا (وسائلُ الارتباطِ بالقرآن) فلم أقف على من خصّه بتعريفٍ، ويمكنُ تعريفُه بأنّه:

الأمورُ الحسيّةُ والمعنويّةُ التي يُتوصّلُ بها إلى ربطِ الإنسانِ بالقرآنِ.

وسنشرعُ الآنَ في بيانِ هذه الوسائلِ التي ذكرها كتابُ الله عزَّ وعلّا في معرضِ الحديثِ عن العلاقةِ معَ القرآنِ الكريمِ والتي من شأنها أن تربطَ الإنسانَ بهذا الكتابِ العظيمِ، علماً بأننا ذكرنا طرفاً من هذه الوسائلِ بالشرحِ أثناءَ حديثنا عن مراحلِ الارتباطِ بالقرآنِ الكريمِ في الفصلِ الأولِ من هذا البحثِ، ولكنَّ دراستنا في هذا الفصلِ موضوعيّةٌ لا تأصيليّةٌ، فما فصلناهُ هناكُ نثبتهُ هنا دونَ تفصيلٍ من بابِ اكتمالِ عرضِ الوسائلِ القرآنيّةِ في أماكنها.

---

(1) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبيي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، 1408 هـ - 1988 م، (ص 214).

(2) المحيط: معجم اللغة العربية، أديب اللجمي وآخرون، دار المحيط، بيروت، ط 2، 1414 هـ - 1994 م، (ج 2121/3).

(3) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط 1، 1412 هـ، (ص 871).

## المبحث الأول: أدوات تلقي القرآن وأدائه

أول وأسرع الوسائل تأثيراً في الإنسان الوسائل الحسيّة الماديّة حيث تؤثر بشكل مباشر على حواسّ الإنسان التي تُعدّ وسائل الإدراك لديه؛ وعليه فإنّ أولى وأول وأسرع الوسائل التي تربط الإنسان بالقرآن تلك التي تتصل مباشرة بحواسّه من السمع والبصر، وسنحدث عن هذه الوسائل الحسيّة المرتبطة بتلقي الإنسان للقرآن وأدائه له في المطالب الآتية.

**المطلب الأول: الاستماع للقرآن.**

أول الحواسّ الإدراكيّة عند الجنين حاسة السمع، وهي أول ما يفتتح به الوليد حياته، وقد أثبتت دراسات علم النفس المعرفي أنّ الانطباعات الحسية السمعية تستمرّ لفترة زمنية أطول في المسجل الحسيّ السمعيّ من المؤثرات البصرية<sup>(1)</sup>، ومن هنا تبرز الأهميّة الأولى لهذه الحاسة في تلقي المعرفة، ولذا فقد قدّمها القرآن على حاسة البصر في أدوات الإدراك، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]، فالترتيب في الآية ترتيب إيجاب، فأول حاسة يدرك بها المولود حاسة السمع لا البصر؛ لأنّ حاسة البصر تكون في أيامه الأولى غير مكتملة بعد<sup>(2)</sup>.

وسنفضّل حديث القرآن عن هذه الأداة كوسيلة تربط الإنسان به في النقاط الآتية:

**أولاً: السمع أداة الفهم والتدبير.**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]، فجعل الله السمع المدخل إلى الفهم والإقبال على معاني القرآن وتدبيره، وقد مرّ بنا الحديث عن هذه الآية في الفصل الأول من هذا البحث<sup>(3)</sup>.

**ثانياً: الاستماع للقرآن من أدوات الدعوة إلى الله.**

علاقة الإنسان بالقرآن لا تقتصر على تلاوته وفهمه وتدبيره والعمل به فحسب، بل هو أداة الدعوة الأولى والأولى والأنجع في سبيل فتح قلوب المدعوين إلى الإسلام، وقد وجّه الله تعالى

---

(1) انظر: علم النفس المعرفي، رافع النصير الزغلول - عماد الرحمن الزغلول، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، (ص 56).

(2) انظر: التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، سامي وديع القدومي، دار الوضاح، الأردن، عمان، (ص 157).

(3) انظر المطلب السابع من المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث ص: (96).

المسلمين إلى تلاوة القرآن على المشرك الذي تحصل بينه وبين المسلم حالة من السلم النفسي بدخوله في أمان المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6]، والمراد بالسماع أن يسمع من القرآن القدر الذي تقوم به الحجة؛ فإن إلقاء السمع مظنة ظهور الحق له إن لم تصده العصبية، فالتخليّة بين المشرك والاستماع للقرآن هي الطريقة المثلى لتعليم هؤلاء هدايتهم(1).

وقد تلقى الجن دعوة الله عن طريق الاستماع للقرآن الكريم، ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: 1]، فكان ذلك سبب هدايتهم ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأْمَنَّا بِهِ ؕ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: 13].

وعندما يواطئ الاستماع قلباً صادقاً في طلب الحق فإن ثمره الاستماع تجيء سريعاً ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِن الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَاكُتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83].

### المطلب الثاني: تلاوة القرآن

وهي العملية الانعكاسية التكاملية مع الاستماع للقرآن، فالاستماع تحلّ والتلاوة أداء، وقد جاء حديث القرآن عن هذه الوسيلة في ربط الإنسان به في المسائل الآتية:  
أولاً: الأمر بالتلاوة المتأنية.

كانت العناية بترتيل القرآن من أول أوامر الوحي للنبي ﷺ، وذلك مع نزول سورة المزمل في أول العهد بمكة، ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ۝ فَمِ الْلَيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ يَصْفَهُ ۚ أَوْ أَنْقِصُ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۚ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝﴾ [المزمل: 1-4]، وأصل الترتيل التفريق ومجيء الكلمة بعد الأخرى بسكون يسير دون قطع النفس(2).

وتلك هي وسيلة الوحي في تعليم النبي ﷺ القرآن، ﴿... كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32]، أي: شيئاً بعد شيء علمناك إياه يا محمد حتى تحفظه وتثبته(3).

(1) انظر: حدائق الرّوح والريحان، (ج 11/135-136).

(2) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي، (ج 8/481).

(3) انظر: تفسير الطبري، (ج 19/266).

وتلاوة القرآن على معنيين: إتباع اللفظ اللفظ، وإتباع اللفظ بتدبير المعنى<sup>(1)</sup>.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ط  
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ط فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ  
فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 91-92]، "يعني: أمرت أن أقرأ القرآن عليكم يا أهل  
مكة"<sup>(2)</sup>، وهذا في مقام تلاوة القرآن على الآخرين للدعوة به وإليه.

ومن الثاني قول الله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ  
بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]<sup>(3)</sup>.

عن ابن عباس وعكرمة وابن مسعود وعطاء وأبي رزین: "يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ"، وعن ابن  
عباس وابن مسعود: "يَحْلُونَ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ وَيَقْرَأُونَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَلَا يَحْرِفُونَهُ"، وعن  
مجاهد: "يعملون به حق عمله"<sup>(4)</sup>.

فالتلاوة الحقيقية المقصودة هي ما أخبر عنه هؤلاء السلف رحمهم الله، وهي صفة  
المؤمنين وطريق الفوز في الدارين، قال الله تعالى مخبراً عن عبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَقْدِمًا أَوْلَى وَأَعْظَمَ  
صِفَاتِهِمْ وَهِيَ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا  
وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿١٠١﴾ لِيُؤْتِيَهُمُ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٠٢﴾﴾  
[فاطر: 29—30]، فهم عبادٌ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ مُؤْمِنِينَ بِهِ عَامِلِينَ بِمَا فِيهِ<sup>(5)</sup>.

ثانياً: التلاوة على كل حال.

لم يُرَخِّصِ الرَّبُّ الْحَكِيمُ فِي تَرْكِ تِلَاوَةِ كِتَابِهِ الْمُبِينِ حَتَّى فِي أَصْعَبِ الْأَوْقَاتِ وَشَتَّى  
الظُرُوفِ، فَهَاهُوَ يَسْرُدُ طَرَفًا مِنْ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَرَضٍ وَطَلَبِ الرِّزْقِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَهُوَ فِي كُلِّ هَذَا يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَقْرَأُوا مَا تَبَيَّنَ مِنَ الْقُرْآنِ تَجَنُّبًا لِهَجْرِهِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ

(1) انظر: تفسير الراغب الأصبهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، ت: محمد  
عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، ط 1، 1420 هـ - 1999 م، (ج 1/175).

(2) بحر العلوم، السمرقندي، (ج 2/596).

(3) انظر: المرجع السابق، (ج 1/307).

(4) انظر: تفسير الطبري، (ج 2/566-568).

(5) انظر: تفسير ابن كثير، (ج 6/545).

يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَعَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخِرُونَ يَقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَعْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾ [المزمل: 20].

وفي قوله تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ قولان:

الأول: فصلوا ما تيسر من صلاة القيام والسياق يُقَوِّيه، والثاني: مطلق القراءة حملاً على ظاهر اللفظ<sup>(1)</sup>.

وعلى كلا القولين فقراءة القرآن حاصلة مأموراً بها إما على سبيل الندب - وهو قول الأكثر - أو على سبيل الوجوب<sup>(2)</sup>.

وقد نقل الإمام النووي عن السلف أن أكثرهم كان يختتم القرآن في سبع، وكثيراً منهم في ثلاث، وبعضهم في شهرين، وبعضهم في شهر، وبعضهم في عشر، وبعضهم في ثمان، وبعضهم في ست، وبعضهم في خمس، وبعضهم في أربع، وبعضهم في ليلتين، وختم بعضهم القرآن في يومٍ وليلة مرةً أو مرتين أو ثلاثاً، ثم قال بعد أن سرد الروايات بهذه الأحوال:

"والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهزيمة"<sup>(3)</sup>.

وحاصل ما نقله الإمام النووي عن السلف أنه لا ينبغي لمسلم أن يترك تلاوة القرآن ولو بالقدر الذي يمتنع به وصفه بالهاجر لكتاب الله عز وجل.

(1) انظر: تفسير الماوردي، (ج 6/132).

(2) المرجع نفسه.

(3) التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ت: محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ط 3، 1414هـ - 1994م، (ص 59-61).

ثالثاً: اتّخاذ الأسبابِ المعينةِ على التلاوة.

وقد ذكر القرآن الكريم منها سببين:

الأول: الاستعاذة من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98]، أي: أن تلجأ إلى الله لجوءاً صحيحاً كي يطرد عنك الشيطان ويمنع وسوسته<sup>(1)</sup>.

الثاني: إسماعُ التالي قراءة نفسه:، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110]، فهذا من إطلاقِ الكلِّ وإرادةِ الجزء، فالجهرُ والمخافتة من صفاتِ الصوتِ لا من صفاتِ الصلاة، والمعنى: لا ترفع صوتك بالقراءة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن، ولا تُسرَّ بها فلا يسمعك أصحابك فلا يأخذوا عنك القرآن، وقد روي أنَّ أبا بكرٍ - رضي الله عنه - كان يخفضُ ويقول: أناجي ربِّي وقد علمَ حاجتي، وعمر - رضي الله عنه - كان يرفعُ ويقول: أطرُدُ الشيطانَ وأوقظُ الوسنانَ، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ أمرَ النبي ﷺ عمرَ أن يخفضَ قليلاً وأبا بكرٍ أن يرفعَ قليلاً<sup>(2)</sup>.

ويُفهمُ بدلالةِ الاقتضاءِ من النصِّ الأمرِ بالتوسُّطِ بينَ الجهرِ والإخفاتِ أنَّ هذا الأمرَ يقتضي أن يُسمعَ التالي نفسه كما يُسمعُ غيره سميماً إن كان وحده كما في حالةِ عمر - رضي الله عنه - وهذه الحالةُ أعونٌ على متابعةِ التلاوةِ وأهيوٌ للنفسِ في التيقُّظِ والانتباهِ من حالتي الإسرارِ أو الرفعِ عالياً.

فوائدُ تطبيقيةٌ مستفادةٌ من الوسائلِ السابقةِ

1- أولُ أوامرِ ربطِ الإنسانِ بالقرآنِ الاستماعُ له، وقد تبدأُ علاقةُ الإنسانِ معَ القرآنِ من قبل أن يوجدَ هذا الإنسانُ على وجهِ الأرضِ، وذلكَ أنَّ اللهَ يخلقُ فيه حاسةَ السمعِ التي هي أولُ الحواسِّ وجوداً، وهو جنينٌ في بطنِ أمِّه، فينبغي على الأسرةِ الحريصةِ على تنشئةِ أبنائها على القرآنِ أن تحوِّطَ أبناءَها بهذا القرآنِ سماعاً قبل أن يعقلَ الأولادُ القراءةَ والكتابةَ كي يتشربوا النشوءَ على صوتِ القرآنِ الآخِذِ منذُ نعومةِ أظفارهم بل ومنذُ وجودهم في بطونِ

(1) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، دار الجيل الجديد، بيروت، ط 10، 1413هـ، ج (337/2).

(2) انظر: حدائق الروح والريحان، (ج 16/256-257).

أمهاتهم<sup>(1)</sup>.

2- للاستماع للقرآن أهمية توازي تلاوته فلا ينبغي التقصير في هذا الجانب على حساب التلاوة، صحيح أن التالي يسمع تلاوة نفسه، لكن هناك من القراء أصحاب الأصوات الندية من يفتح القلب لتلاوتهم وينشرح الصدر لأصواتهم، وقد طلب خير من تلى القرآن على وجه الأرض أن يسمعه من غيره، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: اقرأ عليّ قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فأبى أحب أن أسمع من غيري فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41] قال: أمسك، فإذا عيناه تذرفان"<sup>(2)</sup>.

وفي هذا الصدد لو أن المسؤولين عن التعليم في بلاد المسلمين زادوا عنايتهم بفقرة تلاوة القرآن في إذاعة الصباح في المدارس بحيث يُعنى بانتقاء أندى الأصوات أو الاستيعاض بتسجيلات ندية، وبحيث يُزاد وقت فقرة الاستماع حتى يفتح الطالب يومه بالقرآن فيتعود سماعه منذ صغره فيربي على حبه.

3- لا يخفى ما لاستماع القرآن من أثر على المدعويين؛ فلصوت القرآن سحرٌ يتسلل إلى القلب والوجدان مع خلوص معانيه إلى العقل، فينبغي على المسلم ألا تقتصر علاقته مع القرآن مستمعاً وتالياً وعاملاً بل تتجاوزها إلى أن يكون به داعياً.

4- تلاوة القرآن أداة لا تنفك - ولا ينبغي لها - مطلقاً عن المسلم، فالمسلم الحق الذي لا يمر عليه يومٌ إلا نهل من معين القرآن العذب فورد به على قلبه فسقاؤه إيماناً وخشيةً ويقيناً وطمأنينةً وهدى وراحةً وانشراحاً وثباتاً وعزماً وهمّةً فيحیی به قلبه وروحه، فيمشي بين الناس بنور القرآن، أما من حرم الاتصال بالروح التي بها حياة القلوب فميت يمشي على الأرض بجسد لا روح فيه، ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122].

والتلاوة الحقّة هي التي تحقّق معنى الترتيل بحيث يتلوه القارئ متأنياً مترسلاً طالباً للفهم

(1) انظر: مقال بعنوان: أهمية قراءة القرآن للحامل، موقع صحيفة صدى البلد على الإنترنت:

<https://www.elbalad.news/4177256>

وانظر: سماع الجنين لصوت أمه أثناء تلاوتها للقرآن، استشارات موقع الشبكة الإسلامية على الإنترنت:

<https://islamweb.net/ar/consult/index.php?page=Details&id=2107200>

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة النساء، (ج 4/1673)، حديث رقم: (4306).

والعمل، فهذا هو مقصدُ إنزالِ القرآن، ولقد رأينا للأسفِ في أمتنا كثيراً ممن يعتنون بإقامة حروفِ القرآنِ دونَ إقامةِ معانيه في حياتهم، وتجذُّ الواحدَ منهم يشغله عددُ الختماتِ عن فهم الآياتِ، نعم هناك أوقاتٌ مخصوصةٌ يُوازَنُ فيها بينَ الكمِّ والكيفِ كرمضانَ مثلاً، لكنَّ تعلقَ كثيرٍ من الناسِ بهذه الهيئةِ في التلاوةِ جعلها ديناً لهم في كلِّ ختماتهم فضيَّعوا المقصدَ الأعظمَ وهو الفهمُ والتدبُّرُ والتفاعلُ مع الآياتِ.

## المبحث الثاني: الأمر بتدبر القرآن

وهذه الوسيلة منبثقة عن أداة الاستماع والتلاوة، بل هي قرينتها لما رأينا من أنّ المعنى الأتمّ للترتيل والتلاوة لا يكون إلا بحصول الفهم والتدبر، وقد مرّ بنا معنى التدبر ومفهومه في هذا البحث<sup>(1)</sup>، وسنتحدث عن هذه الوسيلة الرئيسة من وسائل ربط الإنسان بالقرآن في المطالب الآتية:

### المطلب الأول: تيسير الله كتابه للتدبر.

اقتضت حكمة الله منزل هذا الكتاب هدى للبشر، وبما أودعه فيه من جلائل أنواره، ونفائس حكمه، ودقائق أسراره أن يجعل طريق فهم كتابه سهلاً ميسراً تنقطع دونه حجة كل متعلّل، وعذر كل متعذر، فأنزل القرآن بأفصح لسان، وأوضح بيان، فكان أيسر مسكاً إلى قلوب البشر، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: 17]، والمعنى: والله لقد سهّلنا لفظ هذا القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر، لمن أراد أن يعتبر، فهل من متعظ به؟

وقد وردت هذه الجملة القرآنية في هذه السورة أربع مرات بعد قصص قوم نوح وعاد وثمود ولوط تنبيهاً للمخاطبين به أنّ هؤلاء الأقوام لو أنهم تدبروا ما أنزل إليهم من ربهم على لسان رسّلم واتعظوا به والتزموا أوامر ربهم ما عرضوا أنفسهم للهلاك الدنيوي والعذاب الآخروي<sup>(2)</sup>.

وقد بيّن سبحانه علّة تيسير القرآن الكريم، وهي وقوع البشارة والندارة به، وهذا هو الغرض الأسمى لإنزال الكتب وإرسال الرسل، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِئُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: 97]، ويفهم من أسلوب القصر بـ(إنما) أنّ القرآن ما نزل إلا للبشارة والندارة، فعلى قدر عظم المقصد بيّنت الوسيلة فهو أقطع للعذر.

### المطلب الثاني: التدبر أداة معرفة مراد الله تعالى من كتابه.

ولمّا بيّن السبيل، ونصب الدليل، ويسرّ التنزيل فُتحت أبواب الولوج إلى هذا النصّ الجليل، فكان القرآن البيّن داعياً لكل قاصد مستقبلاً كلّ طالب، كي يحصل الغرض من التنزيل والتيسير، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

(1) انظر المطلب السابع من المبحث الثاني من الفصل الأول، ص: (96).

(2) انظر: المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد مكي، (ص 548).

وجاءَ فعلُ (التدبُّرِ) على صيغةِ (التفعلِ) ليدلَّ على أمرين:  
الأول: أنَّ التدبُّرَ والنظرَ في الآياتِ يحتاجُ إلى تكلفٍ واجتهادٍ.

الثاني: التفعلُ يفيدُ تكرارَ الفعلِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ<sup>(1)</sup>.

فنفهمُ من استعمالِ هذا الفعلِ بهذه الصيغةِ أنَّ هذه الوسيلةَ ينبغي أن تلازمَ المسلمَ فيُجِيلَ  
بنظره في كلامِ ربِّه مراراً عديدةً ويُكابِدَ مدارسَ القرآنِ والنظرِ في آياته لاستنباطِ بعضِ من أسرارهِ  
ودقائقِ معانيهِ وبعيدِ مراميهِ، وهذا يكونُ بقدرِ ما لدى الإنسانِ من علمٍ وأدواتٍ للفهمِ والتدبُّرِ فكلُّ  
بحسبِ ما عنده.

### المطلب الثالث: سلامةُ الحواسِّ لحصولِ التدبُّرِ.

ورغمَ ما يسرَّ اللهُ من كتابٍ، وأوجبَ من نظرٍ وتدبُّرٍ، إلا أنَّ كثيراً ممَّن ذرأَ عن آياتِ اللهِ  
غافلونَ، وعن العملِ بها معرضونَ، وما ذاكُ إلا لأنَّهم غلَّفوا قلوبهم بالشهواتِ، وأصمُّوا أسماعهم  
بالمنكراتِ، وأعمَّوا أبصارهم بالشبهاتِ، فحُجبت عن مكاشفةِ أنوارِ الآياتِ النِّيناتِ، وصُرِفَت عن  
فهمِ الواضحاتِ، وقد حدَّثنا القرآنُ عن تعطلِّ حواسِّ السمعِ والبصرِ والإدراكِ في سياقِ تدبُّرِ  
آياتِ اللهِ:

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]،  
ألقي السمعَ وهو شهيدٌ: أي صرفَ سمعهِ إلى هذه الأنباءِ الواعظةِ وأثبتته في سماعها وهو مقبلٌ  
على الأمرِ غيرَ معرضٍ عنه ولا مُنكرٍ له<sup>(2)</sup>.

وقد بيَّنت هذه الآيةُ أنَّ لحصولِ أثرِ القرآنِ والتذكُّرِ به أركاناً أربعةً:

المؤثِّرُ المقتضي: وهو القرآنُ - المحلُّ القابلُ: وهو القلبُ الحيُّ - الشرطُ: وهو الإصغاءُ  
- انتفاءُ المانع: وهو اشتغالُ القلبِ وذهولُهُ عن معنى الخطابِ<sup>(3)</sup>.

فالقلبُ أداةُ الإدراكِ، وهو محلُّ التدبُّرِ والانتفاعِ بالقرآنِ، فمتى شُغِلَ هذا القلبُ بالصوارفِ  
وطُمِسَ بالشهواتِ وماتَ بالذنوبِ امتنعَ الانتفاعُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ

(1) انظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبير والمفسر، مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي  
للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 2، 1427هـ، (ص 185).

(2) تفسير ابن عطية، (ج 5/168).

(3) انظر: الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قِيمِ الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1393هـ -  
1973م، (ص 3).

مُتَّبِعِينَ ﴿٦٦﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ [يس: 69-70]، أي: لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا الْقَلْبِ يَعْقِلُ مَا يُقَالُ لَهُ<sup>(1)</sup>.

وقد سَمِيَ اللهُ تعالى هذه الحاسة المُدْرِكَةَ (البصيرة) ووصفَ من انتفت عنه بالأعمى، ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: 19]، "والمعنى: الذي يؤمن بما جئت به يا محمد، كمن لا يؤمن (وهو) الأعمى عن الإيمان، لا يبصره بقلبه، قال قتادة: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله عز وجل ووعوه والأعمى: الذي عمي عن الخير، فلا يبصره. وإنما يتعظ بآيات الله (سبحانه)، ويتذكر بها، وينتفع بها أهل العقول، والحجى"<sup>(2)</sup>.

والسمعُ أداةُ الإصغاءِ والإقبالِ على القرآن، فلو كان القلبُ حيًّا ولكنَّ السمعَ مشغولًا بالشواغلِ لم ينتفعْ لاستماعِ القرآنِ لم يتأتَّ الأثرُ، فقد نقلَ ابنُ عبدِ البرِّ عن أنسِ بنِ أبي شيخ<sup>(3)</sup>، أحدِ البلغاءِ أنه قال: "من كان حسنَ الفهمِ رديءَ الاستماعِ لم يقمَّ خيرُهُ بشره"<sup>(4)</sup>.

#### المطلب الرابع: الإنكارُ على من لم يتدبر القرآن.

عابَ اللهُ تعالى على مَنْ بلغه هذا القرآنُ ثمَّ لم ينظرْ في بليغِ آياته، ولم يسترعه صدقُ بياناته، ولم يقفْ عندَ لطيفِ أسرارِهِ ومعجزاتِهِ، ولم يُعملْ قلبه في حُججهِ وبيِّناتِهِ، فنكَّرَ في محكمِ آياته أسبابَ ثلاثةٍ تدعو إلى تدبُّرِ القرآنِ وتحملُ على الوقوفِ عنده والإيمانِ به، وأنكرَ على مَنْ لم تحمله هذه الأسبابُ على النظرِ والإيمانِ، وهذه الأسبابُ هي:

السببُ الأولُ: بيانُ القرآنِ وسموُّ معانيه.

قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 20/549).

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، مكي بن أبي طالب حموش بن محمد القيرواني ثم القرطبي، مجموعة رسائل علمية بإشراف: أ. د. الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط 1، 1429هـ - 2008م، (ج 5/3723).

(3) كان من الفضلاء البلغاء، كاتب جعفر بن يحيى البرمكي، صلبه الرشيد في نكبة البرامكة على الزندقة. انظر: لسان الميزان، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، ت: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط 1، 2002م، (ج 2/222)، برقم: (1324).

(4) جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، ت: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1414هـ - 1994م، (ج 1/448)، برقم: (699).

[68]، أي: أفعلوا ما فعلوا من النكوص والإعراض والهديان بالباطل فلم يتدبروا هذا القرآن المشتمل على التوجيهات الحكيمة والعظات والآداب والتشريعات التي فيها سعادتهم<sup>(1)</sup>، والاستفهام في الآية للإنكار وللتقرير معاً<sup>(2)</sup>، فمعنى كونه للتقرير: أي لحمل المخاطب على الإقرار بما يعرف، ومعنى كونه للتوبيخ: أي على ما هم فيه من عدم التدبر واستقبحه<sup>(3)</sup>.

فَعَلِمَ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ وَالْهُدَايَاتِ وَعَظِيمِ النِّفْعِ لِلْبَشَرِ مَا يُوجِبُ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ وَيَتَدَبَّرَهُ.

السبب الثاني: إعجاز أسلوبه وصدق أخباره.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، وقد فصلنا القول في معنى الاختلاف المقصود في هذه الآية ومعنى الاستفهام فيها وبعض لطائفها في الفصل الأول من هذا البحث<sup>(4)</sup>، وحاصله أن الاستفهام فيها إنكاري مشوب بلوم دون توبيخ تقديماً لفسحة إعمال العقل إذ هو يوجه عقولهم إلى النظر في بديع صنعة النظم القرآني بحيث لا يجد فيه الناظر مهما نظر وكرّر النظر أي تناقض بين نصوصه أو مع الواقع؛ فهو كتاب معجز بلفظه ونظمه ومعانيه.

السبب الثالث: امتلاك القلب الحي.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]، فهي قلوب مقفلة لا يصل إليها تكرّر، وأضيفت الأقفال إلى القلوب لإرادة أقفال خاصة وهي الأقفال التي استغلقت فلا تفتح، وتكررت القلوب للإبهام، فكأنه جعل قلوبهم جنس القلوب التي اكتمل فيها معنى القسوة<sup>(5)</sup>.

(1) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 50/10).

(2) انظر: إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى الدرويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية - دار اليمامة، دمشق / بيروت - دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط 4، 1415هـ، (ج 526/6).

(3) انظر: حاشية الجمل على الجلالين: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان الجمل، المطبعة العامرة الشرقية بمصر، ط 1، 1302هـ، (ج 215/3).

(4) انظر المطلب السابع من المبحث الثاني من الفصل الأول ص: (96).

(5) انظر: الكشاف وحاشية الطيبي عليه، (ج 352/14-353).

## فوائد تطبيقية مستفادة من الوسيلة السابقة

1- أكرم الله الدعوة خاصةً والمسلمين عامةً بسلاحٍ عظيمٍ في دعوتهم إلى الله، ألا وهو تيسير القرآن للناس تلاوةً وفهماً، فقد تميّز كلامُ الله القرآن من بين كلِّ الكلامِ بأنَّه يصلُّ منه لمن يسمعه ويقرؤه بقدر ما عنده من همّةِ الطلبِ وأدواتِ العلمِ، فلا يُحرّمُ منه إنسانٌ ولو بالحدِّ الأدنى الذي تقومُ به الحجةُ، فينبغي على الدعوة أن يجعلوا هذه الخصيصةَ سلاحاً بين أيديهم فيجعلوا النصَّ القرآنيّ ذاته مادّةً للدعوة إلى الله إلى جانبِ تفسيره واستنباطِ معانيه.

2- تعلّمنا صيغةً (التفعل) في التدبُّرِ منهجيةً مهمّةً هي أن يُجعلَ تدبُّرُ القرآنِ منهجاً دائماً في حياةِ المسلمِ، فلا يفصلُ تلاوةَ الحروفِ عن تدبُّرِ المعاني، وأكثُرُ وأكثُرُ دعوتي من خلالِ بحثي هذا على الجانبِ التعليميِّ في أمّتنا، فأدعو القائمينَ على وزاراتِ التعليمِ والمسؤولينَ عن إعدادِ المناهجِ التعليميةِ إلى إفرادِ حصصٍ تعليميةٍ دائمةٍ لتدبُّرِ القرآنِ بشتى مستوياته بدءاً بالتفسيرِ الميسرِ لطلابِ المراحلِ الدنيا ثمّ ترقياً إلى التدبُّرِ للمراحلِ العليا، وهكذا تعملُ هذه الوزاراتُ التي هي عمادُ بناءِ الأمةِ على بناءِ جيلٍ قرآنيٍّ حقيقيٍّ ينهضُ بالأمةِ نهضةً حقيقيةً تعيّرُ وجهَ الأرضِ.

3- وإلى جانبِ الدعوةِ إلى تدبُّرِ القرآنِ وإقراره في مناهجِ التعليمِ ثمتَّ واجباً أوجبَ من ذلكَ هو تخليةُ مستقبلاتِ القرآنِ من السمعِ والبصرِ والإدراكِ عن الصوارفِ التي تُميتُ القلبَ وتحجبُ السمعَ والبصرَ، فإنَّ أخطرَ ما يحجبُ أمّتنا عن القرآنِ انتشارُ المنكراتِ والانغماسُ في الشهواتِ والترديِّ في الشبهاتِ، وهنا مسؤوليةٌ مزدوجةٌ بينَ الفردِ ومن يعولُ بالحفاظِ على نفسه وأسرتهِ من هذه الصوارفِ، وبينَ الدولةِ بأجهزتها الكثيرةِ المتنقّذةِ بحيثُ تقومُ على نشرِ الفضيلةِ ومحاربةِ الرذيلةِ والحدِّ من تأثيرِ هذه الصوارفِ وبناءِ منظومةٍ قيميةٍ كاملةٍ بينَ المسجدِ والمدرسةِ وشتى مرافقِ الحياةِ.

4- من عجيبِ أمرنا في أمّتنا أنّنا نجدُ القرآنَ يعيبُ على من لا يتدبّرهُ وينكرُ عليه ويؤبّخُه ويجعله في مصافِّ المنافقينَ ثمّ نحنُ لا نحرِّكُ ساكناً أمامَ هذا الأمرِ الذي يُعدُّ ظاهرةً بارزةً في أمّتنا، فكم من تالٍ للقرآنِ لا يجاوزُ حروفه، وكم من غافلٍ عن القرآنِ، وكم من معرضٍ عنه، وكم من صادٍ عنه، وكم من محاربٍ له، كلُّ هؤلاءِ بيننا في أمّتنا، فلا إنكارَ ولا شينَ ولا توبيخَ إلا من رحمَ الله.

### المبحث الثالث: العلمُ بخصائص القرآن وصفاته.

لا ريب أن التدبّر الصحيح لكتاب الله تعالى يثمر العلم بهذا الكتاب المبارك والعمل به، وأول وأولى ما ينبغي أن يتصدّر قائمة العلوم المتدبّرة من كتاب الله عزّ وعلا تلك العلوم الناطقة بمدح هذا الكتاب العظيم، وهي العلمُ بأسمائه وصفاته وخصائصه الموضوعية والأسلوبية، فلماذا هذه العلوم تحديداً؟

لأنّ عظمة المعلوم تورث تعظيمه والانقياد له، وكلّما زاد العلم بالصفات والخصائص زاد التعظيم، ومن المعلوم أن مقصودنا الأعظم مع القرآن اتباعه والانقياد له والحياء به، وبقدر ما يستقرّ في نفوسنا من الهيبة والإجلال والتعظيم للقرآن يتحقّق هذا المقصد.

وستحدّث عن هذه الوسيلة الجليلة في المطلبين الآتيين:

#### المطلب الأول: صفات القرآن الكريم وخصائصه.

لم ولا ولن يُوجدَ كتابٌ بل ولا موجودٌ - سوى الله - حظي من الصفات والخصائص الموجبة للتعظيم والإجلال كالقرآن العظيم، وقد ذكر الله تعالى منزل هذا الكتاب والمتكلم به صفات هذا الكتاب المبارك وخصائصه في ثنايا آياته المتلوة، وقد فصلنا القول في أسماء القرآن وصفاته في الفصل الأول من هذا البحث<sup>(1)</sup>، وسنضيف هنا الحديث عن خصائصه الموضوعية ثمّ نتبي بالأسلوبية في المطلب الذي يأتي، وسنكتفي في عرضنا لهذه الوسيلة بسرّ تلك الصفات والخصائص إذ ليس غرضنا التفصيل بقدر ما هو التأصيل، لكننا سنبدأ بعرض سمات خاصة ميّزت علاقة النبي ﷺ مع القرآن العظيم؛ فالنبي ﷺ أسوة للأمم سيّما علمائها ودعاتها.

#### أولاً: من خصائص النبي ﷺ مع القرآن.

1- كمال عناية الله بالنبي ﷺ بإعطائه القرآن: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ...﴾ [القصص: 85]، والمعاد في أحد أقوال السلف عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ والضحاكٍ مكةٌ بعد أن خرج منها<sup>(2)</sup>، فيكون المعنى: أي أن الذي أعطاك القرآن مقدرٌ نصرك وكرامتك لأنّ إعطاء القرآن لا نظير له فهو دلالةٌ على كمال عناية الله بالمعطي<sup>(3)</sup>.

(1) انظر المبحث الأول من الفصل الأول من هذا البحث ص: (22).

(2) انظر: الدر المنثور، السيوطي، (ج 6/445).

(3) انظر: التحرير والتنوير، (ج 20/192).

2- التلاوة أهم شؤون النبي ﷺ: قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ...﴾ [يونس: 61]، فالخطاب للنبي ﷺ والضمير في (منه) للشأن لأن تلاوة القرآن من شأن النبي ﷺ بل هي معظم شأنه<sup>(1)</sup>.

وقد كانت تلاوة الآيات أول مذكورٍ قُدِّمَ للاعتناء به ولأوليته في الحديث عن شأن النبي مع أمته:

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129].

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

﴿وَأذْكُرَنَّ مَا يُلْتَمَسُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34]، ونظيراتها من الآيات.

3- الله تكفل بجمع القرآن في صدر النبي ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ رَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَمَا يُخْفَى ۝٧﴾ [الأعلى: 6-7].

4- الرسول ﷺ مبلِّغ للقرآن: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

5- الرسول ﷺ مبين للقرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۗ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٣﴾ [النحل: 43-44].

6- لا عاصم للنبي لو تقول على الله: ﴿رَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لِأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة: 44-47]، أي لو أن محمداً نسب إلينا قولاً لم نقله لمنعناه عن ذلك إما بإقامة الحجة عليه بتقييض من يعارضه فيظهر كذبه، وإما بأن نسلبه القدرة على التكلم بموت أو غيره

(1) انظر: تفسير الزمخشري، (ج 2/354).

اقتضاءً للحكمة لئلا يلتبس الصادق بالكاذب<sup>(1)</sup>.

ثانياً: صفات القرآن وخصائصه.

وهي جليلة عظيمة كثيرة لو وقفنا عند كل خصيصة منها لبيّضنا فيها صحائف، ولكننا هنا نسوقها مشفوعةً بآياتها على سبيل إبراز عنواناتها لاستجماع مناسبات عظمة هذا الكتاب الباهر:

1- القرآن حق لا باطل فيه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108] ... ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، والآيات في هذا كثيرة.

2- القرآن محفوظ من عند الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

3- القرآن مصدق لما بين يديه من كتب الله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 37].

4- القرآن بيان لكل شيء: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

5- القرآن حجج بينات: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: 174].

6- القرآن داعم للباطل: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: 49]، عن قتادة: الحق: القرآن<sup>(2)</sup>.

7- القرآن فرقان بين الحق والباطل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1] ... ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق: 13-14]، فصل: حق يفصل بين الحق والباطل ببيانه<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 635/30).

(2) انظر: تفسير الطبري، (ج 420/20).

(3) انظر: المرجع السابق، (ج 362/24).

8- القرآن رافعٌ للخلافِ المذموم: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64] ... ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

9- القرآن مُكْرَمٌ عالي المقام: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: 77] ... ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4] ... ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: 21] ... ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۗ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۗ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۗ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۗ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۗ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۗ﴾ [عبس: 11-16].

10- القرآن عزيزٌ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: 41].  
11- القرآن حكيمٌ صادقٌ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1]، الحكيم: قال مقاتل: المحكم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف، والحكيم: من الإحكام أي المنع من الفساد، والحكيم: أي فيه الحكم بين الناس (1) ... ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33]، يعني محمداً ﷺ جاء بالقرآن (2).

12- القرآن كتابٌ هدايةٌ لا خوارق: ﴿وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا سُورَتٍ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِيعَتٍ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٍ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: 31]، والمعنى: لو أنَّ كتاباً من الكتب السابقة اشتمل على أكثر من الهداية فكان مصدراً للخوارق والعجائب لكان هذا القرآن كذلك، ولكن لم يكن كذلك إذ ليس من سنن الكتب الإلهية الاشتمال على العجائب المادية (3).

13- التحدي والإعجاز: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

14- القرآن منه آياتٌ محكماتٌ وأخرٌ متشابهاً: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ

(1) انظر: البسيط، الواحدي، (ج 11/116-117).

(2) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، ت: صفوان عدنان داودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط 1، 1415هـ، (ص 933).

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 13/143).

تُحَكِّمْتُ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ [آل عمران: 7].

15- القرآن كتاب أخلاقٍ وتشريعاتٍ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿١٥﴾ ... ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 29-39] ... ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105].

16- القرآن مباركٌ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155].

17- القرآن يُكْرِهُ من قصده: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: 27-28]، أي: هو موعظةٌ للناس أجمعين لمن أراد منهم أن يستقيم على الحق فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن<sup>(1)</sup>.

18- القرآن حياةٌ: ﴿وَكُنَّا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]، روحاً: الروح: القرآن، والتكبيرُ للتعظيم والإجلال، أي من خالطه صار قلبه حياً ومن فارقه كان قلبه ميتاً<sup>(2)</sup> ... ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَئِنَّكَ رُيِّنَ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122]، عن ابن عباسٍ وقتادة: نوراً: كتابُ الله<sup>(3)</sup>.

19- القرآن عجيبُ الوقع على النفس: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: 1] ... ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٣٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: 107-109].

20- القرآن نورٌ: ﴿وَكُنَّا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ

(1) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 3/2833).

(2) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 17/362).

(3) تفسير الطبري، (ج 12/91).

وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْرًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: 52﴾.

21- القرآن هدى ورحمة وشفاء: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57].

22- القرآن تذكرة وموعظة: ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكِّرًا لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ [طه: 1-3].

23- القرآن بشيرٌ ونذيرٌ: ﴿كَتَبْنَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ [فصلت: 3-4].

24- القرآن سبيلُ النجاة: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43] ... ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15-16].

### المطلب الثاني: الأسلوب القرآني المعجز.

يُعرِّف العلماء أسلوب القرآن بأنه: طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه<sup>(1)</sup>.

ولهذا الأسلوب القرآني خصائصٌ تميَّز بها عن غيره، وقد كانت تلك الخصائص ماثراً الإعجاب عند العرب وإلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة، وقد أدرك العرب الخلل هذه الخصائص فراحوا يُنتنون على القرآن رغم عداوتهم له ولصاحبه، فيصفونه بصفات الجمال والروعة، وهذه الخصائص منها ما يغلب عليه جانب اللفظ كفواتح السور والتكرار اللفظي وفواصل الآيات ... إلخ، ومنها ما يغلب عليه جانب المعنى كترادف المعاني، وتنوع أغراض السورة، ودقة النظم بين التراكيب ... إلخ<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني، (ج 2/303).

(2) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، ط 1، 1413هـ - 1992م، (ج 1/190-191).

والمعجزُ في أسلوبِ القرآنِ أنَّ القرآنَ لم يخرجَ عن معهودِ العربِ في لغتهم من حيثُ ذواتِ الكلماتِ والجملِ وقوانينها، ولكنَّه وظَّفَ هذه الألفاظَ والجملَ في أساليبٍ أعجزتِ العربَ فلم يستطيعوا مجاراته وهم أهلُ الميدانِ ومنافسو حليته<sup>(1)</sup>.

قال اللهُ تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: 41]، أي: صرَّفنا لهؤلاءِ المشركينَ الآياتِ والعبرَ والأمثالَ والتخويفَ والإنذارَ والوعدَ والوعيدَ<sup>(2)</sup>.

وأصلُ التصريفِ في اللغةِ صرفُ الشيءِ من جهةٍ إلى جهةٍ كتصريفِ الرياحِ، ثمَّ جُعِلَ التصريفُ كنايةً عن التبيينِ لأنَّ من حاولَ أن يبيِّنَ فإنَّه يصرفُ كلامه من نوعٍ إلى نوعٍ آخرَ، ليوضِّحَ ويبينَ مراده<sup>(3)</sup>.

فتصريفُ آياتِ القرآنِ يكونُ بتلويينٍ وتنويعِ الأساليبِ من وعدٍ ووعيدٍ وأمرٍ ونهيٍ ووعظٍ وزجرٍ وتبكيثٍ وحضٍّ وتخويفٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ومدحٍ وذمٍّ وتكريمٍ وتوبيخٍ وتلويينٍ في الخطابِ وقصصٍ وضربٍ للأمثالِ ... إلخ، كلُّ بحسبِ سياقه وموضوعه في أفصحِ ألفاظٍ وأبلغِ عبارةٍ وأبينِ كلامٍ وأعلى أسلوبٍ.

فمثلُ هذه الطريقةِ الباهرةِ المعجزةِ حريٌّ بها أن تجذبَ السامعَ والقارئَ للقرآنِ فيتعجَّبَ من أسلوبه وينبهرَ بطريقتهِ فيقفَ على معانيه وينشرحَ له قلبه ويهوي إليه فؤاده فلا يجدَ بداً من الانقيادِ له والعملِ به لتحصيلِ ما فيه من الوعدِ بالفلاحِ المبينِ، واجتتابِ ما فيه من الوعيدِ بالخسرانِ المبينِ.

وقد بيَّنَ اللهُ أنَّ الغرضَ من تصريفِ القرآنِ بما فيه من وعدٍ ووعيدٍ وضربٍ للأمثالِ الاتِّعاضُ وتحصيلُ تقوى اللهِ عزَّ وعلا، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 27].

فوائدُ تطبيقيةٌ مستفادةٌ من الوسائلِ السابقةِ

1- بقدرِ حبِّكَ للنبيِّ ﷺ يكونُ التأسيُّ به، وبقدرِ التأسيُّ به تتميُّزُ علاقتك مع القرآنِ الكريمِ كما تميَّزتِ علاقةُ النبيِّ ﷺ معه، فيا أيها الباحثُ عن أماراتِ حبِّ نبيِّك ﷺ اجعلْ تلاوةَ القرآنِ

(1) مناهل العرفان، (ج 2/304).

(2) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، (ج 6/4208).

(3) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 20/345).

العظيم الشأن الأول في حياتك كما كان نبيك ﷺ، اجعل بلاغ كتاب ربك وبيانه للناس همك كما كان نبيك ﷺ، اجعل حياتك في ليلك بكلام حبيبك المَنَّان كما كان نبيك ﷺ مع خليله الرحمن، ومن ثمَّ ستدرك معنى قول عائشة - رضي الله عنها - لَمَّا سألها حكيم بن أفلح<sup>(1)</sup> عن خُلُقِ النبي ﷺ، قالت له: "ألسْتَ تقرأ القرآن؟" قال: "بلى"، قالت: "فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآن"<sup>(2)</sup>.

2- إنَّ العلمَ بصفاتِ هذا القرآن العظيم وخصائصه الأسلوبية والموضوعية من أهمِّ الأسبابِ الموصلة إلى التعلُّقِ به والاندماجِ معه والتفاعلِ والتأثرِ به، وطريقُ هذا العلمِ التدبُّرُ الذي ذكرناه آنفاً، وقد ذكرنا طرفاً من الفوائدِ المستقاة من هذه الخصيصة في المبحثِ الأول من هذا البحث<sup>(3)</sup>.

---

(1) هو حكيم بن أفلح المدني الحجازي، أحد رواة الحديث، من الطبقة الثالثة، ذكره ابن حجر في التقریب، وقال: مقبول. انظر: تقریب التهذیب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط 1، 1406هـ - 1986م، (ص 176)، برقم: (1466).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، (ج 512/1)، رقم الحديث: 139 - (746).

(3) انظر الفوائد المنهجية والتربوية من المطلب الثاني من المبحث الأول من الفصل الأول من هذا البحث ص: (42).

## المبحث الرابع: عباداتٌ مخصوصةٌ لتوثيق الارتباطِ بالقرآن.

لم ينزل هذا القرآن ليكون ترنيمَةً في الأفواه، ولا تعويذةً تُتمتمُ بها الشِّفاهُ، ولا مُحَرِّناً في المآتمِ، ولا مُفْتَتِحاً للمراسمِ، ولا لشيءٍ من هذه الأشباهِ، وإنما هذا القرآنُ منهجٌ عمليٌّ وحياءٌ، نزلَ ليكونَ من اللحظةِ الأولى مُمَحِّصاً للقلوبِ، مطمئناً للنفوسِ، مُحَرِّكاً للهِمَمِ، مُعَيِّراً للسلوكِ، مؤثِّراً في البشرِ، فنزلت آياته أول ما نزلت تأمرُ النبي ﷺ بالتفاعلِ العمليِّ معَه فأمرتهُ بصلاةِ القيامِ بالقرآنِ لتكونَ هذه الصلاةُ فيما بعدُ مدرسةً عظمتُ تؤسِّسُ لمنظومةَ ارتقاءِ الإنسانِ بالقرآنِ، وقد وقفَ الباحثُ من خلالِ آياتِ القرآنِ على ثلاثِ وسائلٍ عمليةٍ عباديةٍ تفاعليةٍ تصوغُ الإنسانَ بالقرآنِ كسبيكةٍ ذهبٍ، سنعرضُها في المطالبِ الآتية:

### المطلب الأول: صلاةُ قيامِ الليل.

مع بداياتِ تنزُّلِ الوحيِ على صاحبِ الدعوةِ به ﷺ جاءَ الأمرُ الربَّانيُّ للنبي ﷺ أن يتلقَّفَ هذا القرآنَ ويصطحبه معه في أعظمِ رحلةٍ إيمانيةٍ فرديةٍ روحانيةٍ في دياجيرِ الظلمِ ينصبُ فيها العبدُ بينَ يديِ الربِّ مُتَغَنِّياً مُحَبِّراً صوتَه بكلامِ ربِّه، مقبلاً عليه بجمعيته، مُرْتَلِّلاً آياته، متدبراً معانيها، متأملاً مقاصدها ومراميها، مستمداً من روحها قوته على مواجهة الدنيا بأسرها إذا انبلجَ الصبحُ، فنزلت على النبي ﷺ إذ ذاك سورةُ المزمِّلِ<sup>(1)</sup> تأمرُه أن يتركَ دنياه ويهَبَّ إلى القيامِ بينَ يديِ ربِّه مُرْتَلِّلاً آياته، ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمِلُ ﴿ فَمِ الْإِلِ إِلَّا قَلِيلاً ﴿ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الْإِلِ هِيَ أَشَدُّ وَظًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿﴾ [المزمل: 1-7].

"إن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غيبش الحياة اليومية وسفسافها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوَّة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملاء الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة واستقبال إشعاعاته وإيقاعاته وإيقاعاته في الليل الساجي.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير"<sup>(2)</sup>.

(1) وقد رجَّحنا نزولها في أوائل العهد بمكة بعد سورة المدثر مباشرة. انظر: المطلب الثاني من المبحث الثاني من الفصل الأول ص: (62).

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج 6/3745).

هكذا يكون التفاعل بين القرآن والقائم به في صلاة الليل، فتهيئ هذه الصلاة بخصوصية وقتها حين ينزل الرب عزّ وعلا إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله<sup>(1)</sup> فيدنو برحمته وفيض عظمته على عباده، وبخصوصية ترتيلها حين يصفو القلب من غبش الدنيا فيخلو بربه وبكلامه تالياً له بتؤدة ومهلٍ ونظرٍ وتأثيرٍ وتفاعلٍ وخشيةٍ، تهيئ هذه الصلاة أفضل بيئة لاندماج العبد بالقرآن بحيث يُشكّل القرآن شخصيته ويسري في كلِّ بضعة من جسده ونبضة من روحه.

وهكذا يكون قيام الليل أعظم وسيلة عملية عبادية لربط الإنسان بالقرآن ارتباطاً حقيقياً متيناً، ولذا فلا غرو أن تكون هذه الصلاة أفضل صلاة بعد المكتوبة من بين كلِّ النوافل، قال النبي ﷺ: "أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ..."<sup>(2)</sup>.

فإذا اتّصل الإنسان بهذه الأداة فصارت له ديدناً أورث مقام العلم بالقرآن والخشية من الرحمن، وصار من أولي الألباب، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيئٌ عَائِلٌ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9].

فلما أورث مقام أولي الألباب والخشية من الرحمن جاءت الثمرة العظمى المرجوة من ارتباط الإنسان بالقرآن على مستوى الفرد، ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حُرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾<sup>(15)</sup> تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ<sup>(16)</sup> فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(17)</sup> [السجدة: 15-17].

وهاك قطعاً براقية من الأثر العملي الذي أحدثه القيام في تدبير القرآن، في حياة خير البشر محمد ﷺ، فعن حذيفة قال: "صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رُكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسِلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا نَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ

(1) ورد هذا في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يُنزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ". أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، (ج 1/521)، رقم الحديث: 168 - (758).

(2) جزء من حديث، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، (ج 2/821)، رقم الحديث: 203 - (1163).

سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ... الحديث<sup>(1)</sup>، وعند النسائي: "... لَا يَمُرُّ بِآيَةٍ تَخْوِيفٍ أَوْ تَعْظِيمٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا ذَكَرَهُ"<sup>(2)</sup>.

### المطلب الثاني: صلاة الفجر.

فرض الله على عباده تزكيةً لنفوسهم ووصلاً لهم بربهم خمس صلوات في اليوم والليلة، يفرعون من خلالها إلى ربهم يُحصِنون بزادها أنفسهم من شرور يومهم.

ولكنه ميّز من بين هذه الخمس صلاةً هي مُفتتحةٌ يومهم ومبدأ حياتهم بعد موتهم، ومنبعُ بركة نهارهم، ومأمئهم في ذمّة ربهم، إنها صلاة الفجر، فما خصوصيةُ علاقة هذه الصلاة العظيمة بالقرآن في حين أن القرآن يُتلى في كلِّ الصلوات؟

لقد سمى الله تعالى صلاة الفجر قرآناً في الآية التي عدت الصلوات الخمس: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78]، عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة ومسروق: ﴿قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾: صلاة الصبح، قال الطبري: و(قرآناً) معطوفٌ على (الصلاة)، أي: وأقم قرآن الفجر<sup>(3)</sup>.

فالآية جامعةٌ للصلوات الخمس، فقوله ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الظهر والعصر، وقوله ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾: صلاة المغرب والعشاء<sup>(4)</sup>.

وفي فصل صلاة الفجر عن قريناتها حيث جمع الأربعة في جملة ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وخصّ الفجر بـ﴿قُرْآنِ الْفَجْرِ﴾، وفي التعبير عن صلاة الفجر بـ﴿قُرْآنِ الْفَجْرِ﴾ لطائف:

- 1- ما لهذه الصلاة من خصوصية وأهمية وأفضلية لإفرادها بالذكر مع جمع أخواتها في عبارة.
- 2- وتتجلى هذه الأهمية في تسمية هذه الصلاة قرآناً، وهذا من باب إطلاق معظم الشيء على

(1) جزء من حديث، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل الصلاة في قيام الليل، (ج 1/536)، رقم الحديث: 203 - (772).

(2) جزء من حديث، أخرجه النسائي في سننه، المجتبى من السنن - السنن الصغرى، أحمد بن شعيب النسائي، ت: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط 2، 1406هـ - 1986م، كتاب التطبيق، باب الدعاء في السجود - نوع آخر، (ج 2/224)، رقم الحديث: (1133).

(3) انظر: تفسير الطبري (ج 17/520-521).

(4) انظر: رموز الكنوز، الرسعني، (ج 4/214).

كله كتسمية الصلاة ركوعاً وسجوداً<sup>(1)</sup>، لكن لماذا آثر تسميتها هنا بركن القراءة لا بركن الركوع أو السجود؟

أقول - والله أعلم - إنَّ لخصوصية صلاة الفجر بكونها أول صلاة النهار، وبكونها بعد هجوع، يُحتاج فيها إلى جرعة زائدة من القرآن الذي هو حياة الروح سيمًا بعد بعثها من الموتة الصغرى، وهي جرعة يحتاجها القلب ليمتلئ برهبة الرب وخشيته فيتخذ ذلك سلاحاً أمام شهوات الدنيا في نهاره، وهي دفقة نورانية تُضيئ عقل تاليها بتدبيرها فيستتير بها أمام ظلمات الشك والشبهات في سائر يومه.

قال البقاعي ما ملخصه: عبّر عن صلاة الفجر بالقرآن لأنه مع كونه أعظم أركانها فالقراءة به تطول فيها أكثر من غيرها<sup>(2)</sup>.

3- ولأهمية القرآن في هذه الصلاة وتعظيماً له وتبويهاً به أعاده مُظهراً دون الإضمار ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ...﴾<sup>(3)</sup>.

4- ومعنى كون قرآن الفجر مشهوداً أي تشهده ملائكة الليل والنهار معاً، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: "وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح". يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾<sup>(4)</sup>، وفي هذا المشهد المهيّب بحضور كلّ الملائكة الموكّلين بحضور الصلوات في هذه الصلاة المعنونة بصلاة القرآن إثارةً لنفس المؤمن أن يُصيخ بسمعه ويتدبّر بقلبه الآيات التي تتلى بحضرة ملائكة الرحمن، فيتحقق هدف ارتباط الإنسان بالقرآن وتفاعله معه.

### المطلب الثالث: شهر رمضان.

ولا تتوقف علاقة الإنسان بالقرآن على العبادات اليومية بل تتجاوزها إلى عبادة جامعة تتوج رحلة القلب مع القرآن بالجرعة القرآنية الأعظم وبالارتباط الأتم وذلك في شهر عنوانه القرآن، قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْقُرْآنِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ

(1) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف، (ج 9/357).

(2) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 11/492).

(3) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، (ج 7/98).

(4) جزء من حديث، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل، (ج 4/1748)، رقم الحديث: (4440).

اللَّهُ بِكُمْ أَلْيَسَرَ - وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ - وَاشْكُمِلُوا الْعِدَّةَ وَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَانَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿البقرة: 185﴾.

يصفُ اللهُ شهرَ رمضانَ في هذه الآيةِ أو يُخبرُ عنه بأنَّه أنزلَ فيه القرآنَ (1)، وفي هذا الوصفِ مدحٌ لشهرِ رمضانَ بأن اختاره اللهُ من بينِ سائرِ الشهورِ لإنزالِ القرآنِ فيه (2)، وفي هذه الطريقةِ القرآنيةِ بعقدِ المزاجِ بينَ القرآنِ وشهرِ الصيامِ لطائفُ نقفُ على بعضها:

1- أشعرَ الجمعُ بينَ نزولِ القرآنِ وعبادةِ الصيامِ بأنَّ في هذه العبادةِ حُسْنَ تلقٍّ لمعاني القرآنِ ويُسرًا لتلاوته؛ ولذلك جمعت عبادةُ الصومِ بينَ صومِ النهارِ والتهجُّدِ بالقرآنِ في الليلِ (3).

2- قالَ الفخرُ في بيانِ فلسفةِ اختصاصِ شهرِ القرآنِ بعبادةِ الصيامِ من بينِ العباداتِ ما حاصله: لَمَّا حَصَّ اللهُ شهرَ القرآنِ بعبادةِ الصيامِ بيَّنَ علَّةَ هذا التخصيصِ، فنزولُ القرآنِ أعظمُ آياتِ الربوبيةِ، والصيامُ من أعظمِ آياتِ العبوديةِ، والقرآنُ أنوارُ الله الصمديةِ المتجليةِ أبدًا بحيثُ يمتنعُ إخفاؤها إلا أنَّ العلائقَ البشريةَ مانعةٌ من ظهورها في الأرواحِ البشريةِ، والصومُ أقوى الأسبابِ في إزالةِ هذه العلائقِ، فثبتَ أنَّ بينَ الصومِ وبينَ نزولِ القرآنِ مناسبةٌ عظيمةٌ (4).

3- وقريبٌ من كلامِ الفخرِ كلامُ البقاعيِّ، قالَ ما ملخصُه: في مدحِ شهرِ رمضانَ بإنزالِ القرآنِ فيه إشعارٌ بأنَّ من أعظمِ مقاصدِ مشروعيةِ الصيامِ في شهرِ القرآنِ تصفيةُ الفكرِ لأجلِ فهمِ القرآنِ (5).

4- وفي وصفِ القرآنِ الذي اختصَّ بنزولهِ شهرُ الصيامِ بأنه هدى للناسِ وبيِّناتٌ من الهدى والفرقانِ، إشعارٌ بأنَّ الصومَ يُعلي الناسَ ويهيئُهم لتدبُّرِ القرآنِ وفهمه (6).

5- ومعنى كونِ القرآنِ هدى للناسِ أي: بمجمله من محكمٍ ومتشابهٍ وناسخٍ ومنسوخٍ تحصلُ به

---

(1) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، (ج 2/193).

(2) انظر: تفسير ابن كثير، (ج 1/502).

(3) انظر: تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، علي بن أحمد بن حسن التجيبي الأندلسي الحرالي، ت: محمادي بن عبد السلام الخياطي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط، ط 1، 1418هـ - 1997م، (ص 339).

(4) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 5/251-252).

(5) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 3/55).

(6) انظر: تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، الحرالي، (ص 340).

الهداية للبشر، ثم شرفَ بالذكرِ منه الآياتِ البيناتِ، أي الحلال والحرام والمُحكّم والمواظم، ثم وصفَه بكونه فارقاً بين الحقِّ والباطل<sup>(1)</sup>، وفي كلمة (بيّنات) إشارةً إلى ما يجده الصائم في نفسه من وضوح معاني القرآن التي تهديه إلى الهدى الأتمّ الأكمل، ثم بلوغ رتبة الفرقان والتي هي ظهور الحقِّ للصائم<sup>(2)</sup>.

6- جاء فرضُ صيامِ هذا الشهرِ خاصّةً تذكيراً للمسلمينَ بنعمةِ إنزالِ القرآنِ فيصومَه المسلمُ شكراً لهذه النعمةِ العظيمة، ومن الشكرِ أن تكونَ هدايتنا بالقرآنِ في مثلِ وقتِ نزوله أكمل، فإذا لم ننتفع بالقرآنِ في أخلاقنا وسائرِ أعمالنا فأينَ الشكرُ على هذه النعمة؟! وقد كانَ جبريلُ يدارسُ النبيَّ ﷺ القرآنَ في رمضانَ، وكانَ السلفُ يفعلونَ ذلكَ ويقومونَ ليلاً بهم لزيادةِ الاهتداءِ والاعتبارِ<sup>(3)</sup>.

تتضحُ من خلالِ اللطائفِ السابقةِ مركزيةُ شهرِ رمضانَ في بناءِ علاقةٍ عميقةٍ بينَ الإنسانِ والقرآنِ؛ فهذا الشهرُ بما هيأتهُ عبادةُ الصيامِ من تضيقِ مجاري الشيطانِ، وكبحِ شهواتِ البدنِ، وإزالةِ العلائقِ الشهوانيةِ، وما رافقها من مكرماتِ الرحمنِ بتفتيحِ أبوابِ الجنانِ وإيصادِ أبوابِ النيرانِ وتصفيدِ الشياطينِ ومضاعفةِ الأجورِ، قد فتحَ أبوابَ الإقبالِ على القرآنِ وتدبّره والانتفاعِ بهداياته على مصارعها، سيماً أنّ الشارعَ الحكيمَ قد ضاعفَ الجرعةَ القرآنيةَ فيه من وجهين:

الأول: الحضُّ على تلاوته بالعمومِ في أيامِ الشهرِ، وقد كانَ جبريلُ يخصُّ النبيَّ ﷺ بمدارسةِ القرآنِ في رمضانَ، فعن ابنِ عباسٍ قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ"<sup>(4)</sup>.

"وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها كان الأسود يقرأ في كل ليلتين في رمضان وكان النخعي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة وفي بقية الشهر في ثلاث وكان قتادة يختم في كل سبع دائماً وفي رمضان في كل ثلاث وفي العشر الأواخر كل

(1) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 1/254).

(2) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 3/58).

(3) انظر: تفسير المنار، رضا، (ج 2/129).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (ج 1/6)، رقم الحديث:

(6).

ليلة وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة وعن أبي حنيفة نحوه وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام، وكان مالك إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف، وكان سفيان الثوري: إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن، وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان فإذا طلعت الشمس نامت<sup>(1)</sup>.

الثاني: قراءة القرآن في قيام الليل خاصة، فقد كان النبي ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره، وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان قال: فقرأ بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران لا يمر بأية تخويف إلا وقف وسأل فما صلى الركعتين حتى جاءه بلال فأذنه بالصلاة<sup>(2)</sup>. وعند النسائي أنه ما صلى إلا أربع ركعات<sup>(3)</sup>.

وكان عمر قد أمر أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوموا بالناس في شهر رمضان فكانوا القاريء يقرأ بالمائتين في ركعة حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر.

ثم كان في زمن التابعين يقرؤون بالبقرة في قيام رمضان في ثمان ركعات فإن قرأ بها في اثنتي عشرة ركعة رأوا أنه قد خفف<sup>(4)</sup>.

وأختم هذا المطلب بحديث عظيم في هذا الباب قرن فيه النبي ﷺ بين الصيام والقرآن وأخبر بأنهما يأتيان يوم القيامة ينافحان عن صاحبهما الذي قدّمهما على حظوظ نفسه وشهواتها، فعن عبد الله بن عمرو، أنّ رسول الله ﷺ، قال: " الصَّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ، يَقُولُ الصَّيَامُ: رَبِّ مَنْعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنْعْتُهُ

---

(1) لطائف المعارف، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط 1، 1424هـ- 2004م، (ص 171).

(2) هذه الرواية أخرجها أحمد في مسنده، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، مسند حذيفة بن اليمان، (ج 38/406)، رقم الحديث: (23399).

(3) هذه الرواية أخرجها النسائي في الصغرى، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب تسوية القيام والركوع، والقيام بعد الركوع، والسجود والجلوس بين السجدين في صلاة الليل، (ج 3/226)، رقم الحديث: (1665).

(4) لطائف المعارف، ابن رجب، (ص 169-170).

النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفَّعَنِي فِيهِ، فَيُشَفَّعَانِ" (1).

### فوائد تطبيقية مستفادة من الوسائل السابقة

1- لن تستعيد الأمة شرفها وعزها إلا عندما يستعيد أبنائها شرفهم، وما شرف المؤمن إلا قيامه بالليل، هكذا أخبر جبريل النبي ﷺ، فعن سهل بن سعد، قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، فقال: "... يا مُحَمَّدُ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَعِزُّهُ اسْتِعْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ" (2)، فمتى عرف أبناء الأمة طريق مجاهدة النفس ضد شهواتها، وأحيوا ليلهم في تدبر كتاب ربهم حيث ادعى وقت وحال للتفاعل مع القرآن، عرف العز سبيله إلى ديارهم، وأحيا الله أمتهم كما أحيوا هم بالقرآن قلوبهم، وحيث بحياة أمتهم كل الأمم المتعطشة اليوم إلى الحياة الحقيقية بالرحمة والعدل بمنهج القرآن.

2- وعطفاً على هذه المعاني الراقية وجب على الأمة بمجموعها، وخاصة ولاية أمورها بدءاً بولي أمر الأسرة ومروراً بمن يتولون مهمة الدعوة والتربية في بلادهم وانتهاءً بولي أمر المسلمين أن يضعوا برامج عملية لإحياء عبادة القيام بالليل بمعناها النبوي الذي رأيناه بارزاً في سنة النبي ﷺ، وإن كانت هذه العبادة فردية سرية خاصة يصعب توجيهها في المحاضن العامة إلا أن اغتنام شهر رمضان حيث تقام صلاة التراويح والقيام في المساجد له كبير الأثر في تربية الجيل على هذه الصلاة.

ومن هنا، ومن هذا البحث أوجه رسالة إلى القائمين على صلوات القيام في مساجد المسلمين أن عودوا إلى هدي نبيكم ﷺ وسلفكم الصالح وكفى تفريراً لهذه الصلاة من مضمونها حيث باتت في بعض المساجد أقرب إلى التمارين الرياضية منها إلى العبادة الروحانية التي تُغذي الروح وتبني العلاقة مع القرآن، وإن كان من تعلق بتحبيب الناس في صلاة القيام فلنكن

---

(1) أخرجه الطبراني في الجامع الكبير، باب العين، أبو عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو، (ج 38/13)، رقم الحديث: (88). قال البوصيري: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجالهما رجال الصحيح، ورواه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن والحاكم وصححه، انظر: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري، ت: دار المشكاة للبحث العلمي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط 1، 1420هـ — 1999م، كتاب الصوم، باب الدخول في الصوم بالنية الصالحة، (ج 66/3)، رقم الحديث: (2192).

(2) جزء من حديث، أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب الرقاق، (ج 360/4)، رقم الحديث: (7921). قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

هناك موازنة بين الغرضين بحيث لا تفقد هذه الصلاة مضمونها بالمطلق.

وليعلم القارئون على هذا الشأن أنّ الناس على ما عودوا، فقد صليّ في مساجد كثيرة خارج بلدي كان الإمام فيها يقرأ جزءاً من القرآن في الليلة الواحدة من رمضان في ثماني ركعاتٍ لا عشرين، فتجد الناس كبيرهم ومسنهم قبل صغيرهم لا يتركون ركعة مع الإمام دون أن أسمع كلمة انتقادٍ واحدة، وقد كانت لنا في مسجدٍ حيناً تجربةً بإحياء صلاة التهجد على نحو من هيئة صلاة النبي ﷺ فبدأنا أول ما بدأنا قبل عشرين سنة تقريباً بستة نفرٍ ثم بارك الله حتى بات المسجد يُقصد من الكثيرين من أنحاء مدينتنا، ونشأ على إثر هذه الصلاة جيلٌ يدرك حقيقة التفاعل مع القرآن حتى ما عاد الواحد منهم يطيق ترك هذه الصلاة.

3- ظهر من هذا المبحث أهمية عبادات الصلاة والصيام في بناء علاقة قوية مع القرآن، فتحصّل لدينا وسيلةٌ مثلثة الأركان: (الصيام + القيام + القرآن) في بناء الفرد القرآنيّ الفريد، فإنّ القيام يُهيئُ خلوةً، والصوم يُطفئُ شهوةً، والقرآن حينها يُشعلُ من الإيمان جذوةً.

وانطلاقاً من هذه الوسيلة المثلثة أوجّه دعوةً إلى كلّ المحاضن التربوية أن يعيدوا إحياء وسيلة المخيمات الشبابية المنقطعة عن الناس، والتي كانت تنشط في عقدها بعض الجمعيات الدعوية أيام الإجازات<sup>(1)</sup>، ولكن بصيغة قرآنية مهيمنة ينقطع فيها الشباب عن الناس أسبوعاً أو شهراً أو ما يناسب، يُمضون الأيام في صيامٍ وقيامٍ وتدبّرٍ وتفاعلٍ حميمٍ مع القرآن، يطبقونه بينهم في مجتمعهم النقيّ فتحيا فيهم روح القرآن والعمل به.

4- رأينا أهمية الإقبال على القرآن في شهر رمضان وتفرغ الأوقات له، كي تُكثف الجرعة القرآنية التي بها تكون حياة الروح وسعادة الدنيا والآخرة، ولن يتحقّق هذا بنوع القراءة المتعجّلة التي لا يدري تاليها ما يتلو في أكثر آياتها ولا يكون همّه إلا أن يضيف ختمه إلى ختمه دون أدنى أثرٍ!! وقد ذكر ابن الجوزي أنّ إبليس قد لبس على قومٍ بكثرة التلاوة فهم يهزؤون هزاً من غير ترتيلٍ ولا تثبّت، وهذه حالة ليست بمحمودة<sup>(2)</sup>، وهذه بعض الآثار التي توضح هذا الأمر الخطير:

---

(1) يُنظر لهذا الباب الثاني / الوسائل الخاصة / المخيم، من كتاب: وسائل التربية عند الإخوان المسلمين - دراسة تحليلية تاريخية، علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط 4، 1411هـ - 1990م، (ص 262 وما بعدها).

(2) تلبس إبليس، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ - 2001م، (ص 128).

- جاء رجلٌ إلى عبد الله بن مسعودٍ فقال له: "... إِنِّي لِأَقْرَأُ الْمُفْصَلَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «هَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ، إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ ...»<sup>(1)</sup>.
- وَعَنْ أَبِي جَمْرَةَ الضُّبَيْعِيِّ<sup>(2)</sup> قَالَ : قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، إِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ ، قَالَ : لِأَنَّ أَقْرَأَ الْبَقْرَةَ فِي لَيْلَةٍ ، فَأَتَدَبَّرُهَا ، وَأُرْتُلُّهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ كَمَا تَقُولُ<sup>(3)</sup>.
- وَسُئِلَ مُجَاهِدٌ عَنْ رَجُلٍ قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَالْإِسْرَاءَ وَرَكَعَهُمَا وَرَكَعَهُمَا ، وَجَلُوسُهُمَا أَيُّهُمَا أَفْضَلُ ؟ ، قَالَ : الَّذِي قَرَأَ الْبَقْرَةَ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْتَهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء: 106]<sup>(4)</sup>.
- وعن عبد الله بن مسعودٍ قال: "لَا تَهْدُوا الْقُرْآنَ هَذَا الشَّعْرِ، وَلَا تَنْزِرُوهُ نَنْزِرَ الدَّقْلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هُمْ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ"<sup>(5)</sup>.

(1) جزء من حديث، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيب القراءة، واجتنب الهذ، وهو الإفراط في السرعة، وإباحة سورتين فأكثر في ركعة، (ج 1/563)، رقم الحديث: 275 - (822).

(2) هو نصر بن عمران الضبيعي البصري، أحد الأئمة الثقات، وأحد رواة الحديث، مات بسرخس سنة سبع وعشرين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، (ج 5/243)، برقم: (105).

(3) الأثر أخرجه الأجرى في كتابه، آداب حملة القرآن، أبو بكر محمد بن الحسين الأجرى، ت: أحمد شحاته الألفي، دار الصفا والمروة، الإسكندرية، ط 1، 1426هـ - 2005م، (ص 95)، رقم الحديث: (90).

(4) الأثر أخرجه الأجرى في المرجع السابق، (ص 96)، رقم الحديث: (91).

(5) أخرجه البيهقي في شعبه، الجامع لشعب الإيمان، أحمد بن الحسين الخسروجدي أبو بكر البيهقي، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي، ط 1، 1423هـ - 2003م، تعظيم القرآن، فصل في إيمان تلاوة القرآن، (ج 3/406-407)، رقم الحديث: (1883-1884).

## المبحث الخامس: التدرُّج في التلقي والتعليم.

هذه وسيلة منهجية في أصلها، فإن مبنى نزول القرآن الكريم كان على التدرُّج، وقد رأينا طرفاً من ضرورة وفوائد هذا النزول في الفصل الأول من هذا البحث<sup>(1)</sup>، وكما كان نزول القرآن ضرورة نفسية وتشريعية وتربوية ودعوية فكذا يكون تلقيه وتعليمه بين الناس، وما قلناه هناك في منهجية التدرُّج يقال هاهنا في وسيلة التدرُّج إلا أن الأمر ثم قائم على النزول وهاهنا على التطبيق، وهذه الوسيلة وسيلة مطبوعة لا يستقيم تلقي القرآن وتعليمه إلا بها، وسنحدث عن هذه الوسيلة في المطلبين الآتين:

### المطلب الأول: التدرُّج لتيسير القراءة والحفظ.

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل في أمة أمية يصعب عليها تلقي كتاب كامل دفعة واحدة، فكان من حكمة الله أن نزل القرآن خمس آيات خمس آيات، أو سورة سورة، أو نحو ذلك؛ ليسهل عليهم تلقيه وحفظه، ولو نزل عليهم دفعة واحدة لشقَّ عليهم تلقيه وحفظه<sup>(2)</sup>.

وكذلك الحال في تلقي القرآن وتعليمه للناس بعد رسول الله ﷺ؛ فإنه يتعذَّر على الإنسان كبيراً كان أو صغيراً حفظ واستيعاب كمية كبيرة من الكلام دفعة واحدة؛ ولذلك درجت الأمة على عقد مجالس الإقراء وحلق التحفيظ من لدن عهد الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا<sup>(3)</sup>.

وهذه الوسيلة تبني علاقة مهمة جداً بين المرء والقرآن هي ذلاقة اللسان بالنص القرآني أولاً ثم الارتقاء درجة بحفظ هذا النص.

وقد امتدح الله الذين تلهج ألسنتهم بتلاوة القرآن، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: 29]، فالتعبير بالمضارع (يتلون) يفيد تجدد التلاوة منهم بحيث يكونون مستمرين محافظين عليها في كل وقت حتى يصبح ذلك شأنهم ودينتهم<sup>(4)</sup>.

(1) انظر المطلب الثاني عشر من المبحث الثاني من الفصل الأول، ص: (150).

(2) انظر: دراسات في علوم القرآن، فهد عبد الرحمن الرومي، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط 12، 1424هـ - 2003م، (ص 214).

(3) يُنظر لهذا: العناية بالقرآن الكريم وعلومه من بداية القرن الرابع الهجري إلى عصرنا الحاضر، نبيل محمد آل إسماعيل، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، بدون طبعة ولا سنة نشر، (ص 3 وما بعدها).

(4) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 49/16).

وامتدح أيضاً الذين يحملون كتابه في صدورهم، وعدّ هذا من سمات أهل العلم، ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْقَابِ الْمُبِطِلُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ [العنكبوت: 48-49]، والمعنى: أنّ المؤمنين يقرؤون القرآن بالحفظ عن قلب تلقياً عن النبي ﷺ، وبعضهم من بعض، والنبي تلقاه عن جبريل من اللوح المحفوظ، فكون القرآن محفوظاً في الصدور من خصائص هذا القرآن؛ فهذا القرآن ليس مما يُشكك فيه لكونه محفوظاً في صدور من أوتوا العلم<sup>(1)</sup>.

وقد ذم النبي ﷺ من لا يحمل في قلبه شيئاً من القرآن فقال: "إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالنَّبْتِ الْخَرِبِ"<sup>(2)</sup>، وحفظ القرآن من خصائص هذه الأمة وقد جاء في وصفها: صدورهم أناجيلهم<sup>(3)</sup>.

وعليه فقد أمر النبي ﷺ بتعهد القرآن لئلا ينساه صاحبه فقال: "تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسٌ مَحَمَّدٌ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ ثَقُلًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا"<sup>(4)</sup>، تعاهد الشيء، وتعهدته: محافظته، وتجديد العهد به؛ أي: واطبوا على تلاوته، وداوموا على تكراره ودرسه كيلا ينسى<sup>(5)</sup>.

### المطلب الثاني: التدرج لحصول العلم والعمل.

ذكرنا في غير ما موضع أنّ التلاوة الحقة للقرآن هي التي تقترن بالفهم والتدبر والعمل، وقد كانت تلك مهمة النبي ﷺ حيث أرفق القرآن تلاوة الآيات بتعليم النبي ﷺ الصحابة الكتاب والحكمة وتزكية أنفسهم في أكثر من آية متشابهات بحثناها قبل<sup>(6)</sup>، قال الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]، وقال أيضاً مبيناً إحدى حكّم التنجيم في النزول ﴿وَقُرْءَانًا

(1) انظر: حدائق الروح والريحان، (ج 20/22-21).

(2) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، (ج 5/177)، رقم الحديث: (2913). قال الترمذي: حسن صحيح.

(3) انظر: حاشية الشهاب على البيضاوي - عناية القاضي وكفاية الراضي، شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، دار صادر، بيروت، بدون سنة نشر، (ج 7/105).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، وكراهة قول نسيت آية كذا، وجواز قول أنسيته، (ج 1/545)، رقم الحديث: 231 - (791).

(5) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، دار ابن الجوزي، ط 1، 1426هـ - 1436هـ، (ج 16/240).

(6) انظر المطلب الثالث من المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث، ص:

فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿ [الإسراء: 106].

وقد حكى لنا الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعون كيف كان حالهم في تلقي القرآن الكريم:

1- فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»<sup>(1)</sup>.

2- وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «إِنَّمَا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ أَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأَخِيرِ حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعَمَلِ، قَالَ: فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا، وَأَنَّهُ سِيرَتْ الْقُرْآنَ بَعْدَنَا قَوْمٌ يَشْرِبُونَهُ شُرْبَ الْمَاءِ لَا يُجَاوِزُ هَذَا، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَنَكِهِ»<sup>(2)</sup>.

3- وعن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ فِتْيَانُ حَرَاوِرَةَ<sup>(3)</sup>، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازِدْنَا بِهِ إِيمَانًا»<sup>(4)</sup>.

4- وعن ابنِ عُمَرَ قَالَ: «لَقَدْ لَبِثْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرٍ، وَأَخَذْنَا لِيُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ تَنْزِيلِ السُّورَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَتَعَلَّمْ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَأَمْرَهَا وَزَجْرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا كَمَا يَتَعَلَّمُ أَحَدُكُمْ السُّورَةَ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ يَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، مَا يَعْرِفُ حَلَالَهُ وَلَا حَرَامَهُ، وَلَا أَمْرَهُ وَلَا زَجْرَهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ وَيَنْتَهِرُ نَتْرَ الدَّقْلِ»<sup>(5)</sup><sup>(6)</sup>.

(1) أخرجه الطبري في التفسير، (ج 35/1).

(2) أخرجه الفريابي في فضائل القرآن، أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي، ت: يوسف جبريل، مكتبة الرشد، الرياض، ط 1، 1409هـ - 1989م، باب صفة الخوارج والتغليظ عليهم، (ص 241)، رقم الحديث: (169).

(3) قال السندي: جمع الحزور، بفتح الحاء المهملة، وسكون زاي معجمة، وفتح واو، ثم راء، ويقال له: الحزور -بتشديد الواو- وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم. حاشية السندي على سنن ابن ماجه - كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، محمد بن عبد الهادي التتوي نور الدين السندي، دار الجبل بيروت، بدون طبعة، (ج 31/1).

(4) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب في الإيمان، (ج 42/1)، رقم الحديث: (61). قال محقق الكتاب: إسناده صحيح.

(5) الدقل: رديء التمر أو يابسه، يكون لرداءته ويبسه منثورا لا يجتمع بعضه إلى بعض. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، ت: طاهر أحمد الزاوي وآخرون، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ - 1979م، (ج 127/2).

(6) أخرجه ابن منده في كتابه الإيمان، أبو عبد الله محمد بن إسحاق ابن منده العبدى، ت: علي الفقيه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1406هـ، دِكْرُ صِفَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْزِلَتِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِهِمُ الْقُرْآنَ، (ج 369/1)، رقم الحديث: (207).

فمن خلال الآيات والأحاديث السابقة تظهر جلياً طريقة السلف في تلقي القرآن وتعلمه، فهم يأخذون القرآن علماً وفهماً وعملاً، قطعةً قطعةً، عيّر عنها ابن مسعود - رضي الله عنه - والسلمي بـ(العشر آيات)، وهم يقصدون القطعة من القرآن التي تُشكّل وحدةً للفهم والتطبيق، وقد يقابل هذه الوحدة اليوم التقسيم الموضوعي بما يُسمى (دروس السورة) والذي درج عليه المفسرون في أكثر تفاسيرهم.

وقد يعكّر على هذا الفهم قول جندب بن عبد الله رضي الله عنه: "فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن"، وقول ابن عمر رضي الله عنه: "وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن"، فيظن أن تعلم القرآن متأخر عن استقرار الإيمان في القلب، والحق أن القرآن أقوى أدوات الإيمان وزيادته، والرد على هذا الإيراد من وجوه:

1- أن مقصد ابن عمر بالإيمان الذي تعلموه قبل القرآن أصله وهو التصديق الحامل لهم على تعلم وفهم وتطبيق ما يسمونه من القرآن، ألا ترى أنه فسّر قوله "وأحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن" بقوله في الجملة التي تليها: "تنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فننقل حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها"، فالذي حملهم على أخذ الآيات علماً وعملاً هو تصديقهم بالله وكتابه ورسوله.

2- ويقوي هذا المعنى وصفه لبعض من جاء بعده بأنهم "يؤتى أحدكم القرآن قبل الإيمان يقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يعرف حلاله ولا حرامه، ولا أمره ولا زجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه"، ففقدان التصديق حملهم على مجرد التلاوة بالألسن حتى إن أحدهم لينثره نثر التمر الرديئ المبعثر، وهذا وصف ينم عن عدم مبالاتهم أو انتفاعهم به.

3- ويؤيد هذا أن جندباً - رضي الله عنه - نكر أن تعلمهم القرآن زادهم إيماناً، أي: إلى أصل الإيمان الذي اكتسبوه بدخولهم في هذا الدين.

4- وقد فسّر بعض المعاصرين الإيمان في حديث جندب - رضي الله عنه - بالشهادتين وأصل الدين<sup>(1)</sup>.

### فوائد تطبيقية مستفادة من الوسائل السابقة

1- المواظبة على تلاوة القرآن سمة المؤمنين، وهي الأداة الأولى من أدوات التدرج في تلقي

---

(1) انظر: شرح الراجحي على سنن ابن ماجه، عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، دروس صوتية مفرغة، الدرس الرابع.

النصّ القرآنيّ وفهمه والعمل به، فإنّ المرء متى جرى لسأته بالقرآنِ دونما كُلفةٍ حتى يصيرَ أيسرَ عليه من نطقِ اسمه يتفرَّغُ لما هو أعلى من مثلِ الحفظِ والفهمِ والتدبُّرِ والعملِ، وإنَّ أُمَّةً تجدُ كثيراً من أبنائها يتتبعونَ في نطقِ النصّ القرآنيّ ولكأنَّه أجنبيٌّ عنهم لعجيبِ أمرها ولبعيدٍ عن الطريقِ الصحيحِ شأنها، بل وتجدُ الواحدَ منهم يعتني أيّما اعتناءً بتعليمِ ابنه اللغاةِ الأجنبيةّ من صغره حتى لتكادُ تظنُّه أجنبيّاً حين يتكلّمُ وهو لا يُحسنُ تلاوةَ كتابه الذي فيه ذكره وعزّه!! وإنّنا في هذا الصددِ لَنحتاجُ إلى ثورةٍ حقيقيةٍ على جميعِ المستوياتِ التربويّةِ والدعويّةِ لنجعلَ أحدَ أهمِّ اهتماماتِ الأسرةِ المسلمةِ تلقينَ أبنائهم النصّ القرآنيّ منذُ نعومةِ أظفارهم بحيثُ يربوا على نطقه وترداده فنغتئمَ بذلكَ مقتبلَ أعمارهم في جهدِ الفهمِ والتعليمِ والعملِ.

2- ينبغي على وزاراتِ التعليمِ في بلادنا الإسلاميّة، وكذا مساجدنا ومراكزنا القرآنيّة، أن يضعوا خطةً منهجيّةً متدرّجَةً لتعليمِ أبنائنا تفسيرَ كتابِ الله تعالى بحيثُ يبدأونَ معهم من مستوى تعليمِ الغريبِ ثمَّ يرتقونَ شيئاً فشيئاً مع تقدّمِ الأبناءِ في العمرِ حتى يبلغوا بهم مستوى أعمالِ الفكرِ وعمقِ النظرِ في استنباطِ لطائفِ وكنوزِ القرآنِ الكريمِ الذي لا ولن تتقضي عجائبه.

3- حفظُ القرآنِ من سماتِ المؤمنينِ العالِيَةِ، وهذه السمةُ تجدُ عنايةً كبيرةً من قِبَلِ كثيرٍ من أبناءِ الأُمّةِ، وإنّه لمن الجميلِ أن يحفظَ أبناءُ أمتنا كتابهم، فيحملوا النورَ في صدورهم حافظاً لهم بحفظِ الرحمنِ، مرشداً لهم بنوره، أداةً لهم في دعوةِ الناسِ، سلاحاً لهم ضدَّ الشبهاتِ، وعلى العنايةِ التي يتلقاها تحفيظُ القرآنِ في بلادنا إلا أنّنا بحاجةٍ إلى جهدٍ أكبرٍ في تحفيظِ القرآنِ وتوسيعِ دائرتهِ ليوافقَ الهدفَ المرجوَّ من الأُمّةِ غداً بنشرِ الرحمةِ للعالمينَ وقيادةِ الدنيا إلى طريقِ الرشادِ، مع التأكيدِ على منهجيةِ التعليمِ المتدرّجَةِ التي ذكرناها في النقطةِ السابقةِ.

4- وينبغي إدراكُ أنّ منهجيةَ التدرّجِ هذه تسيّرُ على ساقِي إتقانِ التلاوةِ أو الحفظِ مع العلمِ والعملِ، فالتركيزُ على الحفظِ مع إهمالِ العلمِ والعملِ يُنتجُ جيلاً أعرجَ يسيّرُ على ساقٍ واحدةٍ، يضلُّ طريقه ويُفسدُ بعرجتهِ دينه، فينشأ بيننا جيلٌ يحملُ القرآنَ لفظاً ويُبأينُ أخلاقه عملاً، ومثلُ هذا يأبى القرآنُ أن يبقى في صدره، فلن يبرحَ على هجره حتى يتقلّت منه كما تتقلّت الأبلُ من عُقلها.

## المبحث السادس: ثواب الله لصاحب القرآن وتثبيته عليه.

ثواب الله الذي وعده صاحب القرآن أحد أعظم ثمرات الارتباط بالقرآن، ولكن هذه الثمرة والنتيجة تصبح وسيلة من وسائل الارتباط بالقرآن بالنظر إلى كونها مُحَفِّزاً لتالي القرآن العامل به أن يستمر ويستزيد من علاقته مع القرآن.

### المطلب الأول: ثواب الله لصاحب القرآن.

عندما يعلم صاحب القرآن الأجور العظيمة التي وقَّعها الله له يزداد حماساً وهمّة في الإقبال على القرآن والارتباط به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٣١﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: 29-30]، ففي هاتين الآيتين أجور:

1- ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾: أي: ربح الثواب بما قدّموا من كونهم أهل القرآن والصلاة والنفقة، وهذه تجارة لن تكسد أبداً فقد وصفها بقوله ﴿لَّن تَبُورَ﴾.

2- ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾: أي: على ما قدّموا أجوراً تامة غير منقوصة.

3- ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾: أي: يزيدهم من خزائن إنعامه فلا يكتفي بالتوفية.<sup>(1)</sup>

وقد خُتِمَت الآيات بالفاصلة ﴿غفورٌ شكورٌ﴾، (غفور)، أي: عظيم المغفرة يستر العظيم من ذنوبهم ولا يحاسبهم عليها، (شكور)، أي: كثير الشكر على طاعتهم يجازيهم أوفى الجزاء على اليسير من أعمالهم<sup>(2)</sup>.

وقد أومأت آية سورة يونس بأن المشتغل بشؤون تلاوة القرآن والدعوة به والعمل الصالح يكون في رضا الله ويحصل ثوابه، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61]، ففي قوله تعالى ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ تعريضٌ بحصول رضا الله والوعد بالثواب؛ لأنهم يعلمون أن عمل النبي ﷺ وعملهم ما كان إلا في رضا الله، وهذا على طريقة قوله تعالى ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٣١﴾ وَتَقَلُّبِكَ

(1) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط 1، 1393 هـ - 1973 م، (ج 8/324).

(2) انظر، المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد مكي، (ص 456).

في السَّجِدِينَ ﴿٢١٨﴾ [الشعراء: 218-219]<sup>(1)</sup>.

المطلب الثاني: ثبات القرآن في القلب برحمة الله.

ومن وسائل ربط الإنسان بالقرآن أن تنزل رحمة الله على صاحب القرآن فيعينه على الثبات على تلاوته والتمسك والعمل به، وهذا يُعدُّ من ثواب الله لصاحب القرآن؛ فإنَّ التثبيت على القرآن ثوابٌ من الله لصاحب القرآن على ما كان منه من إقبالٍ عليه.

قال تعالى مخاطباً نبيه وأتباعه من بعده: ﴿وَلَيْنِ شَيْئًا لَنُذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء: 86-87]، أي: والله إن شئنا يا محمد ﷺ لنزيلن هذا القرآن من صدرك ومن صدور أتباعك ولنمحوه من الصحف حتى لا يبقى له أثر، ثم لا تجد من يتعهّد لك برده بعد أن نُذهبه، لكننا لم نشأ ذلك بل أبقيناه في صدرك رحمةً منا<sup>(2)</sup>.

"وهذا امتنان عظيم من الله - تعالى - ببقاء القرآن محفوظاً، بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه. فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما. وهما منة الله عليه بحفظه العلم، ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ"<sup>(3)</sup>.

وقد أرشدنا الله تعالى إلى شكر هذه النعمة وطلب الثبات عليها وذلك بأن علمنا أن نسأله الثبات على القرآن سبع عشرة مرة على الأقل في اليوم والليل في ركعات الصلوات المفروضات في سورة الفاتحة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، فإن من معاني الصراط المستقيم عند السلف القرآن الكريم كما رواه الطبري عن عليّ وابن مسعود - رضي الله عنهما -<sup>(4)</sup>، ومعنى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: وَفَّقْنَا لِلثَّبَاتِ عَلَيْهِ<sup>(5)</sup>.

وبهذه المعاني تتضح هذه الوسيلة العظيمة إذ إنها متصلة اتصالاً مباشراً بالله عن طريق الدعاء الذي هو العبادة وسلاح المؤمن، فلا غنى لصاحب القرآن عن استمداد المعونة من ربه بأن يُثبَّت القرآن في قلبه وبأن يُثبَّتَه على القرآن تلاوةً وعملاً.

(1) انظر: التحرير والتنوير، (ج 11/211).

(2) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 8/424).

(3) تفسير الزمخشري، (ج 2/691).

(4) انظر: تفسير الطبري، (ج 1/173).

(5) المرجع السابق، (ج 1/166).

وبهذه الوسيلة العظيمة ينجو المؤمن صاحب القرآن من فتن ذكر النبي ﷺ أنها تكون في آخر الزمان تنفرط فيها عرى الإسلام بما أحدثه الناس من البعد عن كتابهم ودينهم فيعاقبهم برفع القرآن من صدورهم، عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: " يذرس الإسلام كما يذرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صدقة ولا نسك، ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه أية، ويبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يقولون: أدر كنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله فنحن نقولها " قال صلة بن زفر<sup>(1)</sup> لحذيفة: فما تُعني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرُونَ ما صيام ولا صدقة ولا نسك؟ فأعرض عنه حذيفة، فرددها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: «يا صلة تُنجيهم من النار»<sup>(2)</sup>.

### فوائد تطبيقية مستفادة من الوسائل السابقة

1- لقد رأينا ما للتحفيز الرباني بالثواب والرحمة والثبات من أثر على صاحب القرآن أن يتمسك به ويثبت عليه ويزداد ارتباطاً به وعملاً بما فيه، ولنا في منهاج ربنا أسوة حسنة، فينبغي على القائمين على برامج ربط الإنسان بالقرآن ألا يغفلوا جانب الثواب والتحفيز، والحقيقة المشاهدة - في بلدي على الأقل - أن جانب تحفيز حفظ القرآن ضعيف قائم في أكثره على اجتهادات شخصية، وهو غير منضبط ببرامج شاملة، وغير محفّ به بحيث لا تتجاوز المحفزات للطالب بضع قطع من الحلوى أو مبلغاً زهيداً لا يكاد يذكر، والحق أن أعظم مال تُنفقه الدولة والمؤسسات هو الذي يُبنى به أهل القرآن، فهم الذين - إن أحسن بناؤهم - ستبنى بهم وعليهم دولة العز للإسلام، فهذه إذن مناشدة أخرى في سبل مناشادات هذا البحث أن يا أمة الإسلام وجهوا ملياراتكم التي تُهدر على الفواحش والفجور والترف والمجون إلى مراكز تعليم القرآن فإن الاستثمار الحقيقي ثم.

(1) بكسر الصاد ولام خفيفة، أحد الحاضرين في مجلس حذيفة وهو يُحدث، انظر: شرح مسند أبي حنيفة، أبو الحسن نور الدين علي بن محمد الملة القاري، ت: خليل محيي الدين الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1405هـ - 1985م، (ص 563).

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب الفتن والملاحم، حديث أبي عوانة، (ج 4/520)، رقم الحديث: (8460). وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري، ت: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط 2، 1403هـ، (ج 4/194).

2- إنَّ من أخطرِ ما ينخلعُ له القلبُ ويضطربُ له الفؤادُ أن يُحرمَ الإنسانُ حلاوةَ القرآنِ في قلبه فيصبحَ عنه غافلاً حتى يبلغَ الأمرُ أن يُحَا من قلبه كما أخبرَ الصادقُ عليه السلام آخرَ الزمانِ، ولذا وجبَ على كلِّ مؤمنٍ أن يهبَّ فزعاً من هذا الخبرِ النبويِّ فيقبلَ على القرآنِ يرتبطُ به ويجعله كأحدِ أبناءه بل أعزَّ، يتلوه آناءَ الليلِ وأطرافِ النهارِ، يحفظُه، يعتني به فهماً وعلماً وتدبُّراً، يعملُ بآياته، يتمثُّله في حياته، حتى إذا أدركته تلكَ اللحظاتُ الرهيبةُ لم تجدَ الفتنةَ طريقها إلى فصامه عن روجه التي بها حياته إلا أن يكونَ ثَمَّت موته.

## المبحث السابع: تجنبُ الصوارفِ عن القرآن.

وهذه وسيلةٌ جامعةٌ مجملَةٌ، أمَّا كونُها جامعةً فلأنَّ كلَّ وسيلةٍ من الوسائلِ التي سبقَ ذكرُها يكتنفُها صارفٌ من الصوارفِ يشغلُ طالبَ القرآنِ عن بُغيتهِ فوجبَ على قاصدِ طريقِ القرآنِ وسالكِ الارتباطِ به أن يُخلِّصَ نفسه وطريقَه من هذه الصوارفِ حتى تُؤتِيَ الوسائلُ ثمارَها. وأمَّا كونُها مجملَةٌ فلأنَّ هذه الصوارفَ قد فُصِّلت في كتابِ اللهِ عزَّ وعلَّا في مواضعِها التي سنخصُّها بفصلٍ كاملٍ من البيانِ، وهو الفصلُ الآتي بإذنِ اللهِ علا وعزَّ.

وتلتقي كلُّ الصوارفِ في بابِ فسادِ حواسِّ السَّمعِ والإدراكِ، ومرضِ القلبِ، وقد قال اللهُ تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]، وقد تحدَّثنا عن هذه الآيةِ آنفاً في هذا الفصلِ<sup>(1)</sup>.

---

(1) انظر المطلب الثالث من المبحث الثاني من هذا الفصل، ص: (213).

## الفصل الثالث

الصوارف عن ارتباط الإنسان

بالقرآن

## الفصل الثالث

### الصوارف عن ارتباط الإنسان بالقرآن

#### تمهيد

خلق الله عباده حنفاءً موحّدين، فاجتألتهم الشياطين، وقعدوا لهم صراط الله المستقيم، وأتوهم عن أيمانهم وشمائلهم ومن بين أيديهم ومن خلفهم مترصّدين، فبعث الله برحمته رسلاً مبشّرين ومنذرين، وأنزل معهم كتباً فيها الهدى المستبين، وختّمها بخير كتبه القرآن المبين، المعجزة الخالدة للإنس والجنّ أجمعين، وبين لهم طريق الارتباط بهذا القرآن العظيم، فأجلب عليهم إبليسُ بخيله وجنّده الملعونين، ودخلت عليهم أنفسهم بما زوّج لها من حبّ المال والبنين، فاجتمعت على الإنسان نفسه الأمارّة والهوى والشياطين، يزرعون العوائق بينه وبين كتاب الله المبين، ويصرفونه عن الإقبال على هذا السفر العظيم، ويضلّونه ويمنّونه ليحرّفوه عن النهج القويم، فكان من رحمة الله به أن بيّن له تلك العوائق والصوارف بياناً شافياً في كتابه الحكيم، وحدّره كلّ التحذير من اتباع سبيل المضلّين، وسيعرض الباحث في هذا الفصل تلك العوائق والصوارف التي وضعتها النفس الأمارّة وإبليس بين الإنسان والقرآن الكريم، فنبدأ هذا العرض بحول الله مستعينين، ومن فيض بركاته مستمدّين، وبنور علمه الذي أودعه في كتابه مستنيرين.

## المبحث الأول: عدم سلامة الحواس.

خلق الله الإنسان كائناً حياً يتفاعل مع ما يحيط به من موجوداتٍ، وركب فيه قنواتٍ تستقبل تلك المؤثرات وتتفاعل معها، فجعل له حاسة السمع يستقبل بها الأصوات، وحاسة البصر يستقبل بها الضوء وما ينشأ عنه من صورٍ، وحاسة القلب يدرك بها كل هذه المدخلات ويعقلها على حقيقتها، ويصنّفها في أنصبتّها، ثم يستنبط منها ما بدواخلها وما وراءها، ويركّب بحاسة الإدراك هذه الحقائق فوق بعضها، فينشئ علماً جديداً بعد علمٍ، وفهماً عميقاً بعد فهمٍ، وهكذا يمضي ابن آدم مع حواسه ينتفع بها وينفع، ويهتدي بها ويهدي.

لكن هذه العملية الإدراكية لم تستمر مع ابن آدم طويلاً حتى دخلت عليها الحُجُب فأفسدتها، فأورث سمعه صمماً وهو يسمع، وبصره عمى وهو يبصر، وقلبه مرضاً وهو يدرك، فأبى من قبل جهله وشهوته، وهوى نفسه وشبهاته، فأصمّت تلك الشهوات والشبهات سمعه، وأعمت بصره، وأكنت ورائت على قلبه، فاستحالت حواسه وبالأعلى عليه بعد أن كانت له نبراساً يستهدي بها، وصارت تُشكّل عائقاً بينه وبين الصواب والهدى، وسنحدث عن هذه الصوارف في المطالب الآتية:

### المطلب الأول: الأكنة والوقر.

لاحظ الباحث عند استعراض الآيات التي تتحدث عن سبب عدم قبول الكفار للقرآن خاصة اقتران حاستين رئيسيتين معاً في التسبب في إعراض المشركين عن القرآن هما حاسة الإدراك بالقلب، وحاسة السمع بالأذن، وقد وردتا مقترنتين معاً خمس مرات في معرض الحديث عن إعراض الكافرين ومرة في بيان من يقع له الإدكار بالقرآن الكريم، فلماذا التركيز على هاتين الحاستين تحديداً رغم ذكر القرآن لحواس أخرى في معرض الإعراض عن كتاب الله تعالى؟

والجواب من وجوه:

1- بيئاً سابقاً أنّ حاسة السمع أقوى المستقبلات الحسية الإدراكية عند الإنسان، وهذا من الناحية الفسيولوجية المعرفية كما هو مقرر في علم النفس المعرفي<sup>(1)</sup>.

2- وهذه الحاسة أوسع استقبالاً للمعلومات من حيث دخول دائرة الأخبار التاريخية الماضية والبعيدة التي لا تُرى بالبصر فيها، في حين أنّ البصر لا يدرك إلا ما يحيط به في الآن.

(1) انظر المطلب الأول من المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا البحث، ص: (205).

3- وهي من جهة أخرى أوسع الحواس استقبالاً للنص القرآني بوصفه متلوّاً مقروءاً قبل أن يكون منظوراً مكتوباً.

4- أضف إلى ذلك أنّ تلقّي القرآن استماعاً هي الوسيلة السائدة في زمان نزوله؛ إذ العرب حافظتها ذاكرتها لا ما تُسطره.

5- والمشاهد المعلوم أنّ من يقرأ نظراً دون أن يُحرّك بالقراءة شفّيته أقل إدراكاً واستيعاباً لما يقرأ من الذي يُسمع نفسه قراءته، فتحصّل أنّ الاستماع أقوى الحواس المعينة على الإدراك.

وللقنويّ كلام في هذه المسألة في حاشيته على البيضاويّ أسوفه بتمامه لتتضح المسألة: " فالوجه أن استفادة العقل في أبواب الدين إنما هو بالقوّة السامعة والباصرة، والانتفاع بالقوّة الباصرة إذا كانت القوّة السامعة سليمة عن الآفات وإلا فلا انتفاع بالباصرة،، في أكثر المبصرات بخلاف العكس، وأيضاً الأدلة السمعية من قبيل المسموعات، والانتفاع بها لا يكون بمجرد الأبصار، وكذا أكثر الأدلة العقلية؛ ولذا ترى الأصمّ محروماً عن الكمال بالمرّة بخلاف الأعمى فإن بعضهم يرتقي في الكمال مبلغاً لا يصل إليه بعض المبصرين.

وناهيك دليلاً على كون استفادة العقل من السمع أكثر وللتبنيه على شرافته أنّه قدّم على البصر في أكثر مواضع من القرآن ومن الأخبار<sup>(1)</sup>.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا وَعَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25]، أي: يسمع صوتك يا محمد ﷺ وقراءتك وكلامك ولا يعقل عنك ما تقول لأنّ الله جعل على قلبه أكنة وفي أذنيه وقراً<sup>(2)</sup>.

الأكنة: كُن الشيء صانه وستره من الشمس، وأكنه في نفسه: أسرّه، واحده كنان، والكنان: الغطاء، واكتن واستكن: استتر، والكنانة: التي تجعل فيها السهام<sup>(3)</sup>.

الوقر: أوقرت الإبل واستوقرت شحماً، أي: أثقلها السم، وبأذنه وقر، أي: ثقل، وأوقره الدّين: أثقله، وأذن وقرة وموقرة، ووقرت أذني عن استماع كلامه، ورجل وقور، أي: رزان،

(1) حاشية القنوي على البيضاوي، (ج 14/566-567).

(2) تفسير الطبري، (ج 11/305).

(3) انظر: مختار الصحاح، زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي، ت: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط 5، 1420هـ - 1999م، (ص 274).

ويُقال: قرَّ في مجلسك، وقرَّ في بيوتك، وقرَّته توقيراً إذا بجلَّته ولم تستخفَّ به، وكلمته كلمةً وقرت في أذنه، أي: ثبتت، يُقال: قرَّ في السمع ووعاه القلب<sup>(1)</sup>.

ومعنى الآية على ضوء المعنى اللغوي: "ومن هؤلاء المشركين يا محمد من يستمع إليك حين تقرأ القرآن وقد جعلنا - بسبب عنادهم وجحودهم - على قلوبهم أغطية تحول بينهم وبين فقهه، كما جعلنا في أسماعهم صمما يمنع من سماعه بتدبر وتعقل"<sup>(2)</sup>.

"وَجَعَلُ الْأَكِنَّةَ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْوَفْرَ فِي الْأَذَانِ فِي الْآيَةِ مِنْ تَشْبِيهِ الْحُجُبِ وَالْمَوَانِعِ الْمَعْنَوِيَّةِ، بِالْحُجُبِ وَالْمَوَانِعِ الْحِسِّيَّةِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الَّذِي لَا يَفْقَهُ الْحَدِيثَ وَلَا يَتَدَبَّرُهُ كَالْوَعَاءِ الَّذِي وُضِعَ عَلَيْهِ الْكِنُّ أَوْ الْكِنَانُ وَهُوَ الْغِطَاءُ حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهِ شَيْءٌ، وَالْأَذَانَ الَّتِي لَا تَسْمَعُ الْكَلَامَ سَمَاعَ فَهْمٍ وَتَدَبُّرٍ كَالْأَذَانِ الْمُصَابَةِ بِالثَّقَلِ أَوْ الصَّمَمِ لِأَنَّ سَمْعَهَا وَعَدَمَهُ سَوَاءٌ"<sup>(3)</sup>.

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 57]، وهي في نفس معنى سابقتها من حيث الصوارف عن القرآن.

#### المطلب الثاني: مرض القلب من الصوارف.

نكرنا أعلاه أنَّ السمع والبصر سبيلان إلى القلب أداة الإدراك والفهم، يوردان عليه ما يلتقطان من خيرٍ أو شرٍّ، والنفوس تتمنى وتشتهي، فتصبُّ هي الأخرى أمنياتها على القلب، فذنوبُ السمع والبصر، وهوى النفس، كلُّهنَّ يجتمعن على القلب حتى يُمرضنه، قال النبي ﷺ: "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَحْطَأَ حَاطِيَةً نُكِنَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْنَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَعْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ" ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]"<sup>(4)</sup>.

فإذا استحكَمَ المرضُ من القلب استقلَّ القلبُ بنفسه في إضلالِ العبدِ حتى وإن سلمت الحواسُ الأخرى من السمع والبصر، ولذا وجدنا القرآن عدَّ القلبَ المريض سبباً وحدَه في عدم

(1) انظر: الأساس في البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ - 1998م، (ج 2/349).

(2) التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 5/58).

(3) تفسير المنار، رضا، (ج 7/290).

(4) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين، (ج 5/434)، رقم الحديث: (3334). قال الترمذي: حسن صحيح.

قبول القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ - عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۝ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۝ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۝ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝﴾ [محمد: 20-24].

"فالانغماس في المعاصي والسيئات يورث القلب - الذي هو وسيلة فهم القرآن والانتفاع به والتأثر - الطبع والختم وهما مانعان من فهم القرآن والانتفاع به.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَايَةً إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۝﴾ [التوبة: 124-125].

وفي هذه الآيات يخبرنا الله جل وعلا أن مرض القلب بشبهة أو بشهوة ليس فقط مانعاً من فهم القرآن والتأثر به، بل هو زيادة على ذلك جاعل تلك الآيات تزیده رجساً ومرضاً<sup>(1)</sup>.

ومن دقائق التعبير القرآني وصف قلوب الكافرين المغطاة عن قبول القرآن والانتفاع به أنها في غمرة، قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ [المؤمنون: 63]، أي: قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها من الذي بيّن في القرآن من أنه تعالى لديه كتاب ينطق بالحق ويظهر لهم أعمالهم السيئة يوم القيامة فيجزون بها<sup>(2)</sup>.

**لطيفة بيانية:**

الغمر: الماء الكثير المغرّق، يغمر من دخله ويُعطّيه، يقال: ما أشدّ غمورة هذا النهر، وبحارّ غمارٍ وغمورٍ<sup>(3)</sup>.

فمن هذا المعنى اللغوي ندرك الإشارة الدقيقة اللطيفة التي يوحىها التعبير عن غطاء القلب بأن القلب في غمرة:

(1) الأثر الإيمانى لتعليم القرآن الكريم على الفرد والمجتمع، (1429هـ - 2008م) العباس بن حسين بن علي الحازمي، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، الجمعية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، (2) 13-58، ص 27.  
(2) انظر: تفسير أبي السعود، (ج 6/141).  
(3) انظر: لسان العرب، (ج 5/29).

1- فحرف (في) أولاً يفيد الظرفية، أي أن قلوب هؤلاء الكافرين داخله مظلومة في الوسط الذي يغمرها، وهو هنا كفرهم وتكذيبهم وشهواتهم التي أشربوها.

2- ثم التعبير بالغمرة فيه دلالة على غرق قلوبهم في هذه الشهوات حتى باتت تحيط بها من كل جانب فتحجبها بحجاب سميكة عن الحق والقرآن، فهي بمثابة الغريق في بحر لجي إذا أخرج يده لم يكذ يراها.

3- وثمت معنى لطيفاً ثالثاً ذكره الشيخ الشعراوي - رحمه الله - في خواطره وهو أن المغمور بالماء يفقد التنفس سريعاً فيؤدي هذا إلى موته، وهذا معلوم من حال الغريق في البحر، وكذلك قلوب هؤلاء المشركين إذا غمرت في كفرها وشهواتها أدى ذلك إلى موتها؛ إذ إن القلب محل المدركات التي تؤخذ من العقل وهو مستقر العقائد، فإذا مات القلب انحرفت العقائد وأظلم الطريق<sup>(1)</sup>.

### المطلب الثالث: عمى الأبصار من الصوارف.

علمنا أن البصر من مستقبلات المعلومات التي يوردها على آلة الإدراك، القلب، وعلمنا أن البصر يأتي في المرتبة الثانية بعد السمع في قوة التأثير في القلب، ولذا فإنه يأتي في سياقات خاصة في معرض الحديث عن صوارف قبول القرآن.

والبصر في القرآن الكريم حيثما ورد فيراد به حصول الاعتبار بهذا البصر في رؤية الحق، لا مجرد العين الباصرة، لكن العين الباصرة داخله في هذا البصر تبعاً لأصالة، بمعنى أن عين الإنسان الذي حجب قلبه عن الحق تصيح غافلة عن النظر في آيات الله المنظورة أو المتلوة فلا تلتفت إليها، والعمى الذي توصف به الأبصار على ذلك هو عمى الآلة المدركة لما يورده البصر عليها، وقد فصلت هذه الآية هذه المسألة فقال الله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، ففي تذييل الآية إشارة إلى أنهم وإن كانوا ذوي أبصار ترى وتتنظر إلا أنهم عموا عن الحق، فقلوبهم هي التي عمت عن الإدراك، وفي هذه الجملة استعارة ترشيحية إذ شبه عدم إدراك عقولهم للحق بالعمى بجامع عدم الإدراك في كل، وقوله: ﴿التي في الصدور﴾ ترشيح للاستعارة إبعاداً لتوهم إرادة عمى العين الباصرة لأنها في الوجه<sup>(2)</sup>.

وقد جاء البصر مقترناً بالفؤاد في آية الأنعام ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَّتَهُمْ وَأَبْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا

(1) انظر: تفسير الشعراوي، (ج 16/1072-1073).

(2) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، (ج 9/5000).

بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿﴾ [الأنعام: 110]، أي: "تَقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَأَبْصَارَهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ عِنْدَ نَزْوْلِ الْآيَةِ الَّتِي اقْتَرَحَوْهَا فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهَا"<sup>(1)</sup>.

فالسِّيَاقُ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْمُنَاسِبَ بِالذِّكْرِ الْأَبْصَارُ دُونَ السَّمْعِ لِمُنَاسِبَةِ الْآيَاتِ الْمُرْتَبِئَةِ الَّتِي طَلَبُوهَا، فَهَمَّ يَرُونَ الْآيَاتِ لَكِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، فَالْبَصْرُ نَافِذٌ وَالْبَصِيرَةُ عَمِيَاءُ.

وَجَاءَ وَصْفُ عَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ رَغْمَ إِدْرَاكِهِمْ لِبِلَاغَةِ لُغَتِهِ وَمَعَانِيهِ بِالْعَمَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44] عمى، قَالَ السُّدِّيُّ: عَمِيَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْهُ، وَالْمَعْنَى: هَذَا الْقُرْآنُ عَمَى عَلَى قُلُوبٍ مِنْ يُكَذِّبُ بِهِ لَا يَبْصُرُونَ حُجَجَهُ وَمَوَاعِظَهُ<sup>(2)</sup>.

وَجِيءَ بِحَرْفِ الْإِسْتِعْلَاءِ (عَلَى) مَعَ الْعَمَى ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِيْلَاءِ الْعَمَى عَلَيْهِمْ<sup>(3)</sup>، فَهَوَ قَدْ غَطَّى أَبْصَارَهُمْ وَأَحَاطَ بِهَا فَلَا تُدْرِكُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ وَاصْفَاءً حَالَهُمْ مَعَ الْقُرْآنِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿١٥﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٦﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: 99-101]، أَي: كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ كَثِيفٍ وَغِشَاوَةٍ غَلِيظَةٍ تَحِيطُ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَنِ الْآيَاتِ الْمُؤَيَّدَةِ إِلَى ذِكْرِي، أَوْ عَنِ الْقُرْآنِ<sup>(4)</sup>.

المطلب الرابع: الشرك بالله.

حَكَى الْقُرْآنُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ تَذَرُّعَهُمْ بِهَذِهِ الصُّورَاتِ الْحَسِيَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ حِينَ تَذَرَعُوا أَقْفَلُوا دُونَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنِ كُلِّ بَابٍ فَلَمْ يَكْتَفُوا بِوَصْفِ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّ عَلَيْهَا أَكِنَّةً، وَلَا أَنَّ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، بَلْ أَطْبَقُوا كُلَّ الْحَوَاسِ دُونَ الْقُرْآنِ فَزَادُوا عَلَيْهَا الْبَصَرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَاكِيًا قَوْلَهُمْ هَذَا فِي فَاتِحَةِ سُورَةِ فَصَّلَتْ: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلًا ﴿٥﴾﴾ [فصلت: 1-5]، فَهؤُلاءِ

(1) تفسير النسفي، (ج 1/530).

(2) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي، (ج 10/6539).

(3) تفسير الألوسي، (ج 12/381).

(4) انظر: تفسير أبي السعود، (ج 5/247).

المشركون انصرفوا عن الإصغاء إلى القرآن وتدبره واتباعه فلم ينتفعوا به فهم لا يسمعون سماع تدبر، وقالوا للنبي ﷺ: قلوبنا في أغطية متكاثفة لا ينفذ إليها شيء مما تدعونا إليه، وفي آذاننا صمم فلا نسمع ما تعرضه علينا، ومن بيننا وبينك ساتر غليظ يمنعنا من التواصل معك وهو الخلاف في الدين<sup>(1)</sup>.

وقد عبر المشركون في هذه الآية عن تمام إفعال حواسهم عن قبول القرآن تعنتاً واستخفافاً به، قال في البحر: "وَلَمَّا كَانَ الْقَلْبُ مَحَلَّ الْمَعْرِفَةِ، وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ مُعَيَّنَانِ عَلَى تَحْصِيلِ الْمَعَارِفِ، ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ مَحْجُوبَةٌ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا مِمَّا يُلْقِيهِ الرَّسُولُ شَيْءٌ"<sup>(2)</sup>.  
وقد يثار سؤال في الأذهان: كيف يجعل الله الأفعال على القلوب والوقر في الأسماع والغشاوة على الأبصار ثم يُعذب الكفار على أمر جبروا عليه لا يستطيعون العدول عنه؟  
هذا سؤال قديم ومغالطة ساذجة وقعت فيها الجهمية الجبرية<sup>(3)</sup>، وقد ذكرت الآيات الرد الشافي عليهم فبينت أنه ما يصيب هؤلاء من ختم وطبع وأكنة وغشاوة إنما هو بسبب كفرهم وتكذيبهم الرسل فجاءت هذه الموانع جزاءً وفاقاً على ما بادروا هم به، قال الله تعالى: ﴿... بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 155]، وهذا نص قرآني صريح بأن كفرهم السابق هو سبب الطبع، وقوله: ﴿... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5]، فسبب إزاغة الله قلوبهم زيغهم السابق، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ...﴾ [المنافقون: 3]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا...﴾ [البقرة: 10]، وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار عقاب من الله على الكفر السابق<sup>(4)</sup>.

### المطلب الخامس: أوصاف قرآنية للحواس المصروفة عن الحق.

(1) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر، (ج 677/8).

(2) البحر المحيط، أبو حيان، (ج 286/9).

(3) لتفصيل الردود على الجهمية في هذا المعتقد ينظر: القدر، أبو بكر الفريابي، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1421هـ — 2000م. - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1398هـ - 1978م، الباب السابع وما بعده. - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، هبة الله بن الحسن اللاكائي الشافعي، دار ابن حزم، 2005م.

(4) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، (ج 311/3-312).

وصفَ القرآنُ الكريمُ الحواسَّ المصروفةَ عن القرآنِ وعن الحقِّ والهدى بأوصافٍ كثيرةٍ يشيرُ كلُّ وصفٍ منها إلى خصيصةٍ من خصائصِ هذه الحالةِ التي تلبَّست بها هذه الحاسَّةُ وعوقِبَ بها الكفارُ والمكذِّبونَ على كفرهم وتكذيبهم، وإليك هذه الأوصافُ:

أولاً: القلبُ: وسأصنِّفُ أوصافَهُ في فئاتٍ:

1- الأغطيةُ والحجبُ التي تمنعُ القلبَ من الحقِّ، وسأذكرُها من الأدنى إلى الأعلى بحسبِ معانيها:

الختمُ: التغطية، والطبعُ: ختمٌ لازمٌ يصيرُ سَجِيَّةً، والكِنَانُ: غطاءٌ مع سترٍ وإخفاءٍ، والغطاءُ: هو للقلبِ ويسري منه إلى العينِ، والغلافُ: قلبٌ أغلَفُ أي في وعاءٍ، والقفلُ: والرَّيْنُ: تراكمُ الذنوبِ حتى يسوِّدَ القلبُ وهو من أغلظِ الحُجُبِ، والغمرَةُ: انغماسُ القلبِ بالكليَّةِ في الذنوبِ.

2- انتقالُ القلوبِ عن الحقِّ:

إزاعةُ القلوبِ، وتقليبُ الأفئدةِ، والحوْلُ بينَ المرءِ وقلبه، وصرْفُ القلبِ.

3- الشهواتُ والأهواءُ والأمراضُ:

لهوُ القلبِ، وغفلةُ القلبِ، والتزيينُ في القلبِ، والضلالُ، ومرضُ القلبِ.

4- أمراضُ النفاقِ:

الرَّيْبُ، وإنكارُ القلبِ، والنفاقُ.

5- حالةُ القلبِ من حيثِ الاستجابةُ للحقِّ:

ضيقُ الصدرِ، والغِلُّ، والشدُّ على القلبِ، وقسوةُ القلبِ، وموتُ القلبِ.

ثانياً: السمعُ: الورقةُ: تَقَلَّ في السمعِ، والصمُّ: عدمُ السمعِ بالكليَّةِ.

ثالثاً: البصرُ: الغشاوةُ: الغشاءُ على البصرِ يحجبُ الرؤيةَ، والحجابُ: المانعُ والحائلُ عن رؤيةِ الحقِّ، والسدُّ: حائلٌ أقوى من الحجابِ يَسُدُّ الأفقَ، والعمى: انطفاءُ البصرِ بالكليَّةِ.<sup>(1)</sup>

مسألةٌ في أهميةِ القلبِ:

رأينا من التصنيفاتِ أعلاه أنَّ القلبَ قد حازَ أكبرَ عددٍ من الصفاتِ المانعةِ عن الحقِّ

---

(1) انظر بتصرف وزيادة: شفاء العليل، ابن القيم، (ص 92-94).

بشتى فئات التصنيفات، وهو أيضاً مقدّم على السمع والبصر في كل الآيات، وهذا يضعنا أمام حقيقة خطورة القلب من حيث الصلاح والفساد في التأثير على كل سلوك الإنسان سيّما مع القرآن، وقد يلتبس على قارئ هذا البحث أنّ الباحث قد جعل حواسّ السمع والبصر هي المؤثّرة في القلب تُوردُ عليه الغوايات فتتطبّع فيه فيزيغ ويضلّ، سيّما ما نقلناه عن العلماء من أنّ زيغ القلب وضلاله إنما كان جزاءً وفاقاً بسبب كفر الكافرين وتكذيبهم وذنوبهم.

أقول: إنّ العلاقة بين القلب والمستقبلات الحسية علاقة تفاعلية انعكاسية يؤثّر كلٌّ من طرفيها في الآخر، فالسمع والبصر يوردان الذنوب على القلب فتفسدُهُ، والقلب الفاسد يُفسدُ سمع المرء وبصره فلا يسمع ولا يرى إلا الباطل، ويصمّ ويعمي عن الحقّ.

ومن جهة أخرى - هي الأهم - فإنّ السمع والبصر ليسا هما وحدهما مفسدات القلب، بل إنّ هوى النفس ومداخل الشيطان الكثيرة على الإنسان من الكبر والشبهات والشهوات والأمنيات لها عظيم الأثر على فساد القلب ومرضه والطبع عليه.

وها هنا كلمة دقيقة للإمام الفخر الرازي يوضّح فيها هذه المسألة: "وإنّما قدّم الله تعالى ذكر قلب الأفتدة على قلب الأَبصار في قوله تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَّتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110] لأنّ موضع الدواعي والصّوارف هو القلب. فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليه شاء أم أبى وإذا حصلت الصّوارف في القلب انصرف/ البصر عنه فهو وإن كان يُبصره في الظاهر. إلا أنّه لا يصير ذلك الإبصار سبباً للوقوف على الفوائد المطلوبة. وهذا هو المراد من قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا فَلَمَّا كَانَ الْمَعْدِنُ هُوَ الْقَلْبُ وَأَمَّا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ فَهُمَا آلتَانِ لِلْقَلْبِ كَانَا لَا مَحَالَةَ تَابِعِينَ لِأَحْوَالِ الْقَلْبِ. فَلِهَذَا السَّبَبِ وَقَعَ الْإِبْتِدَاءُ بِذِكْرِ تَقْلِيْبِ الْقُلُوبِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ تَقْلِيْبِ الْبَصَرِ وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى وَقَعَ الْإِبْتِدَاءُ بِذِكْرِ تَحْصِيلِ الْكِنَانِ فِي الْقَلْبِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ السَّمْعِ" (1).

ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: "... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" (2).

فصلاح الجسد بأن يتعدّى بالحلال فيصفو القلب ويستنير، فينعكس نوره إلى الجسد فتصدر عنه الأعمال الصالحة، فيصير القلب المعنيّ بصلاح الجسد، وإذا تغدّى بالحرام صار

(1) التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 13/115-116).

(2) جزء من حديث، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، (ج 28/1)، رقم الحديث: (52).

مرتعاً للشيطان والنفس، فيتكدر ويتكدر القلب بتكدره، فيظلم وتنعكس ظلّمته إلى البدن، فلا يصدر منه إلا المعاصي<sup>(1)</sup>.

### فوائد تطبيقية مستفادة من معرفة الصوارف السابقة

1- القلب سيد أعضاء الجسد، وصلاحه صلاح حال صاحبه، وفساده فساد صاحبه، ومن ثمّ أسرته فمجتمعه؛ ولذا فإنّ مسؤولية كبرى تقع على عاتق الدعاة والمريّين والمسؤولين ببذل كلّ الوسائل لإصلاح قلوب الناس والاعتناء بهذا الشأن العظيم، وقد اتّجه كثير من الدعاة في عصرنا الحاضر إلى العناية بالجوانب الشعائرية التعبديّة، وإقامة السنن الظاهرة، وأهملوا - أو لم يُكثّفوا جهودهم - في جانب العبادات القلبية والجوانب السلوكية، فنشأ عندنا جيلٌ يظهر عليه الصلح في هيئته لكنّ قلبه ما زال متشرّباً أمراض الشهوات فتراه يتلو آيات الله بلسانه ويقع في نقبها بأفعاله.

2- وقد اعتنى القرآن كثيراً بإصلاح القلب وتطهيره من كلّ مرض وإثارة خشية الله وتعظيمه ومراقبته في أكثر آياته، فوجب على الدعاة والمريّين توظيف هذه الآيات القرآنية واستنباط الأساليب منها لغمر الناس بالرفائق والزهديات التي تصلح القلوب.

3- إنّ ممّا ابتلينا به في عالمنا اليوم المفسدات السمعية والبصرية الطامّة التي دخلت كلّ بيت من بيوت المسلمين، وقد رأينا ما لهذه المفسدات من أثرٍ على حجب المرء عن القرآن وتدبره والعمل به، فإذا أردنا أن ننشئ جيلاً قرآنياً علينا أن نحارب مثل هذه المفسدات، والمسؤولية تتوجّه أول ما تتوجّه إلى الأب في الأسرة بوصفه راعياً مسؤولاً يعلم أبناءه منذ صغرهم خطورة النظرة الحرام والاستماع إلى المنكرات، ثمّ إلى الحاكم بوصفه قادراً على أن يحدّ من وصول مثل هذه المفسدات عبر الشبكات الإلكترونية بما لديه من سلطات الحظر التي نجدّها تتفدّ سراعاً ضدّ من يعارضه سياسياً أو يمسّ بجنايه الرئاسي!!

---

(1) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح - الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ت: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، ط 1، 1417هـ - 1997م، (ج 2101/7).

## المبحث الثاني: الانحراف في السلوك.

جعل الله عزّ وعلا هذه الدارَ الدنيا الفانية ممراً للدارِ الآخرةِ الباقية، وجعلها داراً للاختبارِ والابتلاءِ، والدارُ الآخرةُ دارُ الجزاءِ، فركبَ في هذه الفانية من الشهواتِ ما يتحقّقُ به الاختبارُ ويتميّزُ به الأشرارُ والأخيارُ، ومن رحمته ركزَ في نفوسِ البشرِ من الفطرِ ما يترجّحُ به لديهم الخيرُ على الشرِّ، وزادهم دليلاً فأَنْزَلَ إليهم أصدقَ الكتبِ تبياناً شافياً للحقِّ من الضلالِ، فكانَ خاتمها القرآنُ المبينُ، والنورُ المستبينُ، ينيرُ لهم الدربَ أيّما ضياءً، ويُبلِغُ لهم الحقَّ أيّما جلاءً، ولكنَّ نفوساً منهم عن النورِ قد عمت، وفي غياباتِ حبِّ الدنيا قد غرقت، فصارت الدنيا همّها، وسلكتْ كلَّ سبيلٍ لنيلها، فصرِفَ القلبُ بهذه الدروبِ الدنيئةِ عن النورِ العليِّ، وباتت شهواتُ الردي حجاباً عن نبراسِ الهدى، فتملّكت مساوئُ الأخلاقِ وردائلُ الأعمالِ نواصي هؤلاءِ فتكَبَّوا صراطَ القرآنِ، وسنذكرُ تلكَ الصوارفَ في المطلبينِ الآتيينِ:

### المطلب الأول: حبُّ الدنيا والإترافُ فيها.

#### أولاً: إرادةُ الدنيا صارفةً عن القرآنِ.

ما اجتمع حبُّ الدنيا وحبُّ الله وكلامه في قلبٍ، فإذا دخلَ حبُّ الدنيا في القلبِ فسيطرُ متربّعاً خرجَ كلامُ الله من هذا القلبِ مُسرِعاً، وطالبُ الدنيا لا ريبَ غارقٌ في شهواتها فتُمْرِضُ قلبه عن مكاشفةِ كلامِ ربِّه فيُحالُ بينه وبينه بتلكِ الحُجُبِ التي عرضناها في المبحثِ السابقِ، وقد بيّنَ القرآنُ حقيقةَ عدمِ اجتماعِ إرادةِ الدنيا والقرآنِ معاً فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29-30]، قال ابنُ عباسٍ: يريدُ القرآنَ (1)، والمعنى: دع يا محمّداً من أدبرَ عن الإيمانِ بالقرآنِ وطلبِ الدنيا ولم يطلبِ ما عندَ الله (2).

فهؤلاءِ قومٌ لم يريدوا من حياتهم إلا التشبُّعَ من زينتها وشهواتها، فأعرضوا عن القرآنِ، ومن كانَ كذلك فلن تستطيعَ أن تهديه لأنّه آثرَ العيَّ على الرُّشدِ (3).

وهم قومٌ لم يُحصِّلوا من العلمِ إلا ما ينفَعُهُم في أمرِ معاشهم ونبذوا أمرَ الآخرةِ وراءَ

(1) انظر: البسيط للواحدى، (ج 51/21).

(2) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكى، (ج 7163/11).

(3) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 74/14).

ظهورهم<sup>(1)</sup>، وفي الإشارة إلى حالهم هذه بقوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ تصغير لرأيهم وإزاراً بهم حيث كان إيثار الدنيا نهاية علمهم وقدر عقولهم<sup>(2)</sup>.

وقد بيّن القرآن أنّ هذه الدنيا تُطغي وتشغل أهلها عن الاستماع إلى الذكر والاعتاظ به، قال الله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾<sup>(3)</sup> مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ<sup>(4)</sup> لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ السَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ<sup>(5)</sup> [الأنبياء: 1-3]، ففي هذه الآيات ذم للكفار وأشباههم الذين شابها البهائم في الاستماع للقرآن إذ استمعوا إليه وهم يلعبون لاهين، واللّهو: الذهول والغفلة عن الشيء، وقدّم اللعب على اللّهو وجعله حالاً من فاعله تنبيهاً على أنّ الاشتغال باللعب الذي هو السخرية والاستهزاء بالذكر نتيجة لذهولهم وغفلتهم عن الحق<sup>(3)</sup>.

وقد حدّر الله تعالى من الاشتغال بشهوات الدنيا ومالها وبنينها بحيث يصرف هذا الانشغال العبد عن ذكر الله، فيصير من الخاسرين، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9]، وذكر الله عام يدخل فيه القرآن الكريم، وقد حدّر الله المؤمنين في هذه الآية أن يشابهوا أخلاق المنافقين الذين شغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله<sup>(4)</sup>.

ومن لطائف التعبير في الآية تقديم الأموال على الأولاد في باب الاشتغال، ومعلوم أنّ اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم، وهذا مشاهد حتى إنّ الرجل ليشغله جمع المال عن مجالسة ولده وأهله<sup>(5)</sup>.

#### ثانياً: الترف سبب الإعراض عن القرآن:

أول فئة من الناس تنصدى لما يُنزل الله من الحق وترفضه المترفون بالنعيم، الغارقون في الشهوات، أهل الرياسة في أقوامهم، وتلك سنة الله في عباده، وقد قرّر القرآن هذه السنة: ﴿وَمَا

(1) انظر: معاني القرآن، الزجاج، (ج 74/5).

(2) انظر: معاني القرآن للفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي الفراء، ت: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط1، (ج 100/3).

(3) انظر: تفسير اللباب، ابن عادل الحنبلي، (ج 449/13).

(4) انظر: تفسير القرطبي، (ج 129/18).

(5) انظر: بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت: هشام عبد العزيز عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط 1، 1416هـ - 1996م، (ج 83/1).

أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ لَكٰفِرُونَ ﴿سبأ: 34﴾، وإنما كان التكذيب طبيعة المترفين وديدهم لما شغلوا به من زخرف الدنيا وبهجتها، وما غلب على قلوبهم منها، فهم منهكون في الشهوات، ولأن الأديان جميعها جاءت تقرّر حقوق الإنسان من حرية ومساواة وعدالة اجتماعية وهذه كلها أمور ليست في مصلحتهم، كما أن الأنبياء جاءوا بمناهج من السماء، فيها أوامر ونواهٍ، واتباع الأنبياء، والإيمان بدعوتهم يتطلب فعل الأوامر واجتناب النواهي، وهذا يشقّ على المترفين أولي النعمة والثروة والرياسة وأصحاب الرفاهية، ولهذه الحقيقة كان على رأس المكذبين لدعوات المرسلين ومناهج السماء المترفون الغارقون في الملاهي والشهوات من الرؤساء والجبابة<sup>(1)</sup>.

وقد افتخر مشركو مكة على المؤمنين بما أوتوه من نعيم الدنيا وجعلوه دليلاً على كونهم على الحق، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: 73]، أي: وإذا تلى القرآن على المشركين قالوا لفقراء المؤمنين أنحن خير أم أنتم؟ فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس، فأجابهم الله بأنه أهلك قلوبهم من هم أكثر نعيماً وأحسن منظرًا<sup>(2)</sup>.

وكان من غرض هؤلاء المشركين إثارة الشبهة في نفوس المؤمنين إذ إنهم إذا قرئ عليهم القرآن تعزّزوا بالدنيا وقالوا للمؤمنين الفقراء: فما بالنا إن كنا على باطل أكثر أموالاً وأعز نفراً، إيهاماً للمؤمنين أنه من كثر ماله دل ذلك على أنه المحق في دينه وكانهم لم يروا في المشركين فقيراً ولا في المؤمنين غنياً، وما دروا أن الله أبعد أولياءه عن الميل إلى الدنيا والاعتزاز بها<sup>(3)</sup>.

ويُسجّل الله تعالى على المترفين موقفاً هو موقف الحسرة الأبدية والخيبة الأزلية عندما تتبرأ منهم آلهتهم المزعومة يوم القيامة، فيسأل الله تلك المعبودات من الإنس والملائكة والأصنام التي يُنطقها الله سؤالاً على سبيل التقرير: أنتم أوقعتم عبادي في الضلال حقاً أم هم ضلوا السبيل الصحيح بأنفسهم؟ فيجيب المعبودون متعجبين ممّا سُئلوا عنه: تنزيهاً لك يا رب ممّا نسبته إليك المشركون، ما كان يصح لنا أن نتخذ أنصاراً من دونك فليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، فما دعوناهم لعبادتنا بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم ولكنهم انشغلوا بالتمتع

(1) التفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر، (ج 8/278).

(2) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، (ج 3/144).

(3) انظر: تفسير القرطبي، (ج 11/141-142).

بالشهوات والملذات هم وآباؤهم حتى نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك<sup>(1)</sup>.

قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ ﴿١٨﴾ [الفرقان: 17-18].

فجعلوا النعم التي منعمهم الله بها، والرزق الذي وسع عليهم، والعمر الذي أمد لهم فيه ذريعة إلى الغفلة عن ذكره والتدبر لكتابه والنظر في عجائب صنعه<sup>(2)</sup>.

### المطلب الثاني: الأخلاق الذميمة.

تواتر عن السلف قولهم: إن الدنيا رأس الخطايا وأصلها<sup>(3)</sup>، فلما ارتكز حبها في قلب طلابها تفرغ عنه كل خطيئة، ونشأ عنه كل خليقة ذميمة، ولما كان القرآن الكريم مجمع مكارم الأخلاق وكل فضيلة، والدنيا الدنيئة مرتع كل رذيلة، بات اجتماعهما في قلب ضرباً من اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما، فصارت تلك الرذائل صارفة لحاملها عن حمل أقدس الكلام، وممانعة له من قبول كلام الرحمن، وستحدث عن هذه الصوارف الخلقية السلوكية في المسألتين الآتيتين:

### أولاً: الكبر العدو الأول للقرآن:

أول ذنب عصي به الله في السماء الكبر، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]، فمن استكبر على الحق لم ينفعه إيمانه<sup>(4)</sup>.

وقد توعّد الحق عزّ وعلا المتكبرين في الأرض المتطاولين على الخلق بأن يحرمهم من الانتفاع بآياته المتلوة والمرئية؛ ذلك لأنفتهم عن اتباع الحق وإصرارهم على تمسكهم بباطلهم حتى باتت قلوبهم بكبرهم مقفلة عن قبول القرآن، عمياء عن طريق الهدى، سالكة طريق الغي رغم اتضاحه لأصحابها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ

(1) التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 2/1788-1789).

(2) انظر: فتح القدير، الشوكاني، (ج 4/78).

(3) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت/مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط 3، 1409 هـ - 1989 م، (ص 219).

(4) انظر: الكبائر، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ت: مشهور آل سلمان، مكتبة الفرقان، ط 2، 1424 هـ - 2003 م، (ص 192).

بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ  
الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿[الأعراف: 146]﴾<sup>(1)</sup>.  
وفي الآية لطائف<sup>(2)</sup>:

1- التكبرُ تكلفٌ من الكبرِ يفيدُ معنى أنهم يُعجبونَ بأنفسهم ويعدونَ أنفسهم عظماءَ فلا يأتَمرونَ  
بأمرٍ ولا ينتصِحونَ بناصحٍ.

2- تقديمُ المجرورِ على مفعولِ (سأصرفُ) للاهتمامِ بالآياتِ.

3- زيادةُ (في الأرضِ) تشهيراً بهم بأن كبرهم مفضوحٌ منتشرٌ في الأرضِ ليس خفياً مقتصرأً  
على أنفسهم.

4- التعبيرُ بالموصولِ عن المصروفينَ عن الآياتِ إيماءً بعلةِ الصرفِ، وهي تكبرهم، وعدمُ  
إيمانهم بالآياتِ، وعدمُ اتباعهم لسبيلِ الرشدِ، وتفضيلهم سبيلَ الغيِّ.

ثانياً: صفاتٌ ذميمةٌ صارفةٌ عن القرآنِ.

لا شكَّ أنَّ كلَّ الخلالِ الذميمةِ صارفةٌ عن الحقِّ والقرآنِ وعن قبوله والتأثرِ به، ولكنَّ  
القرآنَ الكريمَ خصَّ صفاتٍ هي أكذٌ من غيرها في صدِّ صاحبها عن القرآنِ والتفاعلِ معه، وقد  
وردتْ جُلُّ هذه الصفاتِ وصفاً للوليدِ بنِ المغيرةِ الذي رجَّحنا في هذا البحثِ نزولَ صدرِ آياتِ  
سورةِ القلمِ فيه<sup>(3)</sup>، قال اللهُ عزَّ وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٥﴾ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبِينٍ ﴿١٦﴾ مَتَّاعٍ  
لِّلْخَبِيرِ مَعْتَدٍ ﴿١٧﴾ عَثَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ ﴿١٨﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٩﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ  
أَسْطِيرُ الْأُولَئِينَ ﴿٢٠﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ﴿٢١﴾﴾ [القلم: 10-16].

هذه الآياتُ نزلت في الوليدِ بنِ المغيرةِ - كما رجَّحنا - أو الأحنسِ بنِ شريقٍ أو الأسودِ  
بنِ عبدِ يغوثٍ، ولا يعني نزولها فيهم عدمَ تناولها لغيرهم، بل إنَّ (كلَّ) الدالَّةُ على العمومِ لا  
تسمحُ بالنهايَةِ عن واحدٍ معيَّنٍ<sup>(4)</sup>.

وقد ذكرت الآياتُ تسعَ صفاتٍ ذميمةٍ لمن نُهي عن طاعته بسببِ تكذيبه بالآياتِ:

(1) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر، (ج 1511/3).

(2) انظر: التحرير والتتوير، ابن عاشور، (ج 104/9).

(3) انظر رابعاً من المطلب العاشر من المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث، ص: (129).

(4) انظر: التحرير والتتوير، ابن عاشور، (ج 71/29).

- 1- حَلَّافٌ: كثيرُ الحلفِ بالباطلِ.
- 2- مهينٌ: حقيرٌ ذليلٌ وضعيفٌ من المهانةِ، وهي ضعفُ الرأيِ والتمييزِ.
- 3- هَمَّازٌ: عيَّابٌ للناسِ، أو كثيرُ الاغتيابِ لهم، من الهمزِ، أي: الطعنُ في الشيءِ بعودٍ أو نحوهٍ ثمَّ استُعيِرَ للذي يؤذي الناسَ بلسانهِ أو بعينهِ أو بإشارتهِ.
- 4- مشاءٌ بنميمٍ: نَقَّالٌ للحديثِ السيِّئِ كي يُفسدَ بينَ الناسِ.
- 5- مَنَاعٌ للخيرِ: شديدُ المنعِ لكلِّ أمرٍ فيه خيرٌ، ولكلِّ مَنْ يستحقُّه، خصوصاً إذا كانَ مَنْ يستحقُّه مؤمناً.
- 6- مُعْتَدٍ: كثيرُ العدوانِ على الناسِ.
- 7- أثيمٌ: مبالغٌ في ارتكابِ الآثامِ، لا يتركُ سيئةً إلا ارتكبها.
- 8- عُتْلٌ: الجافي الغليظُ، القاسي القلبِ، الغضُّ الطبعِ، الأكلُ الشروبُ بدونِ تمييزٍ بينَ حلالٍ وحرامٍ.
- 9- زنيمٌ: اللصيقُ في قومِهِ، الدعيُّ فيهِم وليسَ هوَ منهم، أو هوَ الذي يُعرفُ بالشرِّ واللؤمِ بينَ الناسِ.

وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 15]، استئنافٌ جارٍ مجرى التعليلِ، أي لا تطعه لأنه مُكذَّبٌ بآياتنا واصفٌ لها بالأساطيرِ.

وقد جاءت صفاتُ الذمِّ هذه بصيغةِ المبالغةِ للإشعارِ برسوخِ هؤلاءِ ومسارعتهم فيها<sup>(1)</sup>.

ولا يُشترطُ اتِّصافُ المكذِّبِ بالقرآنِ بهذه الصفاتِ مجتمعةً، بل إنَّ كلَّ واحدةٍ منها تُشكِّلُ بحدِّ ذاتها صفةً صارفةً لصاحبها عن القرآنِ بقدرِ تمكُّنها فيه وتأثيرها في قلبه، وكلِّما ازدادت الصفاتُ اجتماعاً في المرءِ زادَ حظُّه من إقفالِ قلبه عن القرآنِ، حتى إذا حازَ تلكَ الصفاتِ كلَّها كانَ بأشْرٍ المنازلِ كالوليدِ وأضرابه، والعياذُ باللهِ.

أمَّا بقيةُ الصفاتِ فوردت في آيةِ المائدةِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمُرُ وَالْمَيْسِرُ— وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْزَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحُمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ

(1) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 15/44-45).

مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ [المائدة: 90-91]، ومعنى الذكر في هذه الآية - كما في معجم الجمل - :  
الاستحضار في القلب مع التدبر<sup>(1)</sup>.

وقد أخرج الترمذي<sup>(2)</sup> وأبو داود<sup>(3)</sup> والحاكم<sup>(4)</sup> وغيرهم رواية عن عليّ ؓ تبين أثر الخمر في سوء العلاقة مع القرآن، فعن عليّ ؓ قال: "صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ، فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُونِي فَقَرَأْتُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ". قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ...﴾ [النساء: 43]."

وسبب الصدّ عن ذكر الله في هذه الآية الخمر والميسر خاصة، ولذلك أعاد ذكرهما وحدّهما دون الأنصاب والأزلام، لأنّ تولّد العداوة ناشئ عن الخمر والميسر خاصة<sup>(5)</sup>.

وأما كيفية صدّ الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة، وهما مفسدتهما الدينية التي هي أظهر من مفسدتهما الاجتماعية بإيقاع العداوة، فلأنّ كلّ سكرة من سكرات الخمر وكلّ مرة من مرات لعب القمار تصرف اللاعب والسكران عن ذكر الله الذي هو روح الدين، وعن الصلاة التي هي عماد الدين؛ فالسكران لا عقل له يذكر به الله، والمقامر تتوجّه كلّ قواه العقلية إلى اللعب الذي يرجو منه الربح ويخشى الخسارة، فلا يتوجّه همّه إلى ذكر الله ولا يتذكر أوقات الصلاة لشدة انشغال قلبه بالمقامرة<sup>(6)</sup>.

#### فوائد تطبيقية مستفادة من معرفة الصوارف السابقة

1- إنّ من بلايا الزمان المدلهمّة، ومن الشرور التي عصفت بالأمّة، انكباب جمع ليس باليسير من أبنائها على الدنيا طلباً وتعلّقاً وإترافاً حتى ما تركوا باباً من أبواب النعيم في هذه الدنيا

---

(1) مخطوطة الجمل - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن عز الدين الجمل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط 1، 2003 - 2008م، (ج 143/2).

(2) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، (ج 238/5)، رقم الحديث: (3026). وقال: حسن صحيح غريب.

(3) انظر: سنن أبي داود، أول كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، (ج 515/5)، رقم الحديث: (3671). قال محقق الكتاب: إسناده صحيح.

(4) انظر: المستدرک على الصحيحين للحاكم، كتاب الأشربة، (ج 159/4)، رقم الحديث: (7222).

(5) انظر: تفسير الراغب الأصبهاني، (ج 438/5).

(6) انظر: تفسير المراغي، (ج 24/7).

إلا طرّقه، ولا درباً موصلأ إلى شهواتِ قلوبهم إلا سلكوهُ، فأصبحت ترى العجائب من التفننِ في النعيم في بعضِ بلادِ المسلمين مما جاوزَ حدَّ السرفِ إلى التبذيرِ، وحدَّ المعقولِ إلى اللامعقولِ!!

وقد أفلحَ أعداءُ هذه الأمةِ بأن يفتحوا عليها أبوابَ الترفِ والفجورِ في طلبِ الدنيا حتى عُلفت بها قلوبُ كثيرٍ من أبنائها فأشربت حُبَّها فدنت همَّتُها وحقرت مقاصدُها، وما ذلك إلا ليلسوخوهم عن كتابِ ربِّهم ومنهجهم الذي به فلاحهم وسيادتُهم.

فالواجبُ الثقيلُ على الدعاةِ والمصلحينَ والمربينَ أن يبيّنوا للناسِ النصابَ الصحيحَ والميزانَ الدقيقَ لهذه الدنيا في منهاجِ الإسلامِ؛ فلا تتعلّقَ بها قلوبُهم ولا تكونَ غايةَ همَّتِهم ولا مبلغَ علمِهم، وعليهم أن يُحقِّروا هذه الدنيا في عيونِ طلابِها إلا ما كانَ منها موصلأ إلى الله أو العلمِ النافعِ أو عمارةِ الأرضِ بالخيرِ، ومعرفةُ هدفِ وجودِ الإنسانِ على هذه الأرضِ أعظمُ سبيلٍ يعينُ على هذه الغايةِ.

2- الطريقُ إلى مكارمِ الأخلاقِ القرآنِ، والطريقُ إلى القرآنِ اجتنابُ مساوئِ الأخلاقِ، فالعلاقةُ بينَ القرآنِ والأخلاقِ تأثراً وتأثيراً علاقةٌ تناظريةٌ انعكاسيةٌ، يصبُّ كلُّ من طرفيها في قناةِ الآخرِ، فيا أيها الأبُّ، أيُّها الأمُّ، أيُّها المعلمُ، أيُّها الداعي: علِّموا أبناءكم أخلاقَ القرآنِ واربطوهم بالقرآنِ، اجعلوا مكارمَ الأخلاقِ والقرآنِ صنوانِ لا ينفصلانِ في حياةِ كلِّ طفلٍ حتى ينشأ الواحدُ منهم على الفضائلِ والمكارمِ، فإنَّ أخطرَ ما ينسفُ العلاقةَ بينَ المرءِ والقرآنِ سوءُ الأخلاقِ، وهذا المنهجُ التربويُّ يحتاجُ من المصلحينَ جهداً عظيماً ونفساً طويلاً وهمّةً عاليةً ووضوحاً في الغايةِ.

### المبحث الثالث: الانحراف في طلب العلم.

العلمُ النافعُ سبيلُ الارتباطِ بالقرآنِ، وكلُّما ازدادَ المرءُ علماً ازدادَ بالقرآنِ تعلقاً؛ إذ القرآنُ سفرُ العلمِ الأعظمِ على وجهِ هذه الأرضِ، العلمُ الذي به حياةُ القلوبِ وصلاحُ الفردِ والمجتمعِ والأممِ، وكلُّما قلَّ العلمُ حلَّ مكانه الجهلُ، فحيلَ بينَ العبدِ وكتابِ ربِّه، وكلُّما فسدتِ النيةُ في طلبِ العلمِ، فطُلبتِ الدنيا بالدينِ، والسلطانُ بالقرآنِ انسلخَ العبدُ عن آياتِ ربِّه، ففقهها بعقله وأنكرها قلبه، وتتكثرت لها جوارحه، وكلُّما اغترَّ الإنسانُ بما بينَ يديه من علمِ الدنيا وظنَّ أنه منتهى العلمِ ابتعدَ عن كنزِ العلومِ كلِّها، القرآنِ الحكيمِ، وسنفضَّصلُ هذه الصوارفِ كلِّها في المطالبِ الآتية:

#### المطلب الأول: الجهلُ وعدمُ طلبِ العلمِ.

جعلَ اللهُ الجهلَ بمنزلةِ العمى، فقال: ﴿أَقْمَنَ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: 19].

وجعلَ العلمَ حياةً ونوراً، والجهلَ موتاً وظلمةً فقال: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي - بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122]، أي: كانَ قلبه ميتاً بالجهلِ فأحياه اللهُ بالعلمِ، وجعلَ له من الإيمانِ نوراً ينشره في الناس<sup>(1)</sup>.

وقد ذمَّ القرآنُ طائفةً مخصوصةً من الأعرابِ المنافقينِ لما أورثتهم البداوةُ جفاوةَ الطبعِ وغلظةَ القلبِ والبعدَ عن مجالسِ النبيِّ ﷺ التي ينتزَلُ فيها القرآنُ ويُلقى فيها العلمُ، قال اللهُ تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 97].

الأعرابُ: اسمٌ لسكَّانِ الباديةِ، مفردُه أعرابيٌّ<sup>(2)</sup>، والأعرابُ لفظَةٌ عامَةٌ أُريدَ بها في هذه الآيةِ الخصوصُ<sup>(3)</sup>، فالمرادُ بهم جمعٌ معينٌ من منافقي الأعرابِ كانوا يوالون منافقي المدينةِ، إذ القاعدةُ أنَّ الأصلَ في الجمعِ المحلَّى بالألفِ واللامِ أن يُصرفَ إلى المعهودِ السابقِ، فإن لم

(1) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 1، 1432هـ، (ج 1/145).

(2) انظر: المفردات، الراغب، (ص 556).

(3) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 3/73).

يوجد المعهود السابق حُمِلَ على الاستغراق<sup>(1)</sup>.

ومعنى كونهم أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، عن قتادة: هم أقلُّ علماً بالسنن، وعن الضحاك: يعني الفرائض وما أمر به من الجهاد<sup>(2)</sup>.

وإنما استحقوا هذا الوصف لبعدهم عن الحواضر ومواضع العلم والأحكام<sup>(3)</sup>، فهم لا يخالطون أهل العلم ولا يسمعون القرآن ولا يعرفون السنن<sup>(4)</sup>.

وقد انعكست جفوتهم هذه عن مجالس العلم على فهمهم القرآن فباتوا أجدر بألا يعلموا بيّنات القرآن وهداياته، وأبعد عن فهم ألفاظه وتدبر آياته<sup>(5)</sup>.

وحاصل الأمر أن الذي يزهد في العلوم المعينة على فهم القرآن من اللغة والمأثور، وعلم أحكامه وتشريعاته، وما يعين على النظر والتأمل في آياته، يصبح تبعاً زاهداً في القرآن بكلّيته لفقدانه أدوات الاتصال به من جهة، ولغلبة الجهل المانع له من الإقبال على القرآن، والدافع له إلى الانشغال بدنيا الأمور.

#### المطلب الثاني: الاغترار بالعلم الديني.

فإذا تجاوز الإنسان عقبة الجهل، واستنار عقله بنور العلم، تهيأت له شياطين الإنس قبل شياطين الجن، فقدفوا في روعه أنما أوتيه من علم إنما هو بذكاء عقله، وبثاقب فكره، وبقوة زنده، وأن ما بين يديه من العلم هو منتهى علوم الدنيا، وأنه قد بلغ درجة الهيمنة في العلوم إلى المرتبة العليا، فإذا جاءه أثارة من علم سماوي، وكتاب إلهي أن أرجع أمرك إلى من خلقك ولا تغتر بظاهر ممّا عندك واعلم أن بهرجة العلم الذي آتاكه خالقك إنما هو نزر لا يُذكر من علم الملك، إذا هو يفرخ بما بين يديه، ويظن أنه لن يُغلب اليوم من علم دنياه الذي اغتر به، فيحجبه غروره عن إدراك حقائق الآيات، ويصرفه كبره عن تدبر البيّنات.

(1) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 125/16).

(2) الدر المنثور، السيوطي، (ج 266/4).

(3) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 73/3).

(4) انظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين بن محمد العلمي الحنبلي المقدسي، ت: نور الدين طالب، دار النوادر (إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - إدارة الشؤون الإسلامية)، ط 1، 1430هـ - 2009م، (ج 230/3).

(5) انظر: تفسير الخطيب المكي، عبد الحميد الخطيب، دار الفكر الإسلامي، دمشق، ط 2، 1377هـ - 1957م، (ج 6/11).

وهكذا كَانَ حَالٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوَامِ السَّابِقَةِ، فَقَدِ حَكَى عَنْهُمْ رَبُّهُمْ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَعَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُمْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: 82-85].

أي: فلما جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات والآيات المنزلات البيّنات لم يقبلوا العلم الربّاني من الله، وفرحوا بما بين أيديهم من علم دنياهم في أمور مآكلهم ومشربهم ومسكنهم ومعاشهم، ورفضوا الاستجابة لأمر آخرتهم، واستمروا على غرورهم حتى أهلكهم الله<sup>(1)</sup>.

وكذلك هو اليوم حال كثير من أرباب العلم الدنيوي التجريبي المادي حيث بلغوا في مجالته أعلى الدرجات التي يبلغها أمثالهم في القدر الذي كشفه الله لهم من العلم الذي أحاط به سبحانه، فهم يفرحون بما فتح الله لهم ظانين أنهم قد أحكموا سيطرتهم على هذه الدنيا بما أوتوه من أسبابها، فترى الواحد منهم يجادلك في ما وراء الطبيعة التي يؤمن بأنها إلهة، ويرمي حقائق القرآن بفرية الخرافات إذ هي لا توافق محسوساته ولا تتناسب مع معقولاته التي هي سقف إدراكه بعقله القاصر، فأورثه اغترازه بعلمه الدنيوي الاستهزاء بالعلم القرآني الحقيقي وفصله عن كتاب ربه وصرفه عن آياته.

وكذلك تجد بعض من انتسبوا إلى الإسلام وآتاهم الله طرفاً من علم، قد اغتروا بعقولهم وعلومهم وظنوا أن عقولهم حاكمة على النص القرآني فيصير هم الواحد منهم مقارعة القرآن، ويتلوه لا ليتأثر به بل ليتنبع آياته فيحملها تعسفاً على مراداته، وقد ذكرنا طرفاً من أحوال هؤلاء المسمون بدعاة تجديد قراءة النص الديني في بحثنا هذا<sup>(2)</sup>.

### المطلب الثالث: اتباع الهوى بعد العلم.

ولإن وجد قوم صرفتهم جهالتهم عن كتاب الله، وآخرون صرفهم كبرهم وغرورهم بما بين أيديهم من علوم دنياهم، فإن قوماً ليسوا بالجهال ولا بأهل غرور، قد درسوا القرآن الكريم وبلغوا

(1) انظر: المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد مكي، (ص 495).

(2) انظر المطلب السابع من المبحث الثاني من الفصل الأول، ص: (96). والمطلب الثاني من المبحث

الثالث من الفصل الأول، ص: (170) من هذا البحث.

فيه الشأو العظيم، وعرفوا علومه وخبروا نصوصه، وأتقنوا فنونه، لكنهم قد ابتلوا بمرضٍ مستطيرٍ، وسقطوا في منزلٍ خطيرٍ، هو فساد طويّتهم، وانحراف نيّتهم، واتّباع أهوائهم، فصار هوى نفوسهم قائدهم عوضاً عن كتاب ربّهم، بل إنهم يلوون نصوص الكتاب لتواطى هوى النفس والأسايد.

وقد حكى القرآن خبر رجلٍ آتاه الله العلم ليرتفع به لكنّه انسلخ منه وانحدر إلى الأرض بفساد نيّته واتّباع هواه، وجعله مثلاً مضروباً للبشر، قال عزّ من قائل: ﴿وَأَنْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: 175-178].

قال ابن كثير: المشهور في نزول هذه الآية<sup>(1)</sup> أنّها في رجلٍ من المتقدّمين من بني إسرائيل كما قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك ابن دينار وغيرهم.

فعن ابن مسعود: هو رجلٌ من بني إسرائيل يقال له بلعم بن أبر<sup>(2)</sup>، وعن ابن عباس: هو رجلٌ من أهل اليمن، يقال له: بلعم<sup>3</sup>، آتاه الله آياته فتركها، وعن مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يُقدّمونه في الشدائد، بعثه نبيّ الله موسى إلى ملك مدين يدعوه إلى الله، فأقطعها وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى، عليه السلام<sup>(4)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو: هو أمية بن الصلت<sup>(5)</sup>.

قال الحافظ ابن كثير معلقاً على قول ابن عمرو وجامعاً بين القولين: "وقد روي من غير

(1) قلت: والصحيح عند علماء القرآن أنّ هذه القصة لا تُعدُّ سبباً للنزول لعدم مقارنتها لزمانه، وإنما يقال فيها أنّها خبرٌ عن قصصٍ مضت.

(2) هذه الرواية ذكرها الهيثمي في مجمعه وقال: رجالها رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد، (ج 25/7).

(3) سبق تـرجمته، ص: (119)

(4) انظر: تفسير ابن كثير، (ج 3/507-508).

(5) أخرجه النسائي في الكبرى، أحمد بن شعيب الخرساني النسائي، ت: حسن عبد المنعم شلبي، بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1421هـ — 2001م، سورة الأعراف، قوله تعالى {آتيناه آياتنا فانسلخ منها} والخلاف فيه، (ج 10/103)، رقم الحديث: (11130). قال البوصيري: رواه ثقات، انظر إتحاف الخيرة المهرة، (ج 6/211).

وَجِهٍ، عَنْهُ وَهُوَ صَحِيحٌ إِلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ أُمِّيَّةَ بِنِ أَبِي الصَّلْتِ يُشْبِهُهُ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ انْصَلَّ إِلَيْهِ عِلْمٌ كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الشَّرَائِعِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ، فَإِنَّهُ أَدْرَكَ زَمَانَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَلَغَتْهُ أَعْلَامُهُ وَأَيَاتُهُ وَمُعْجَزَاتُهُ، وَظَهَرَتْ لِكُلِّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ، وَمَعَ هَذَا اجْتَمَعَ بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ، وَصَارَ إِلَى مُوَالَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَمُنَاصَرَتِهِمْ وَامْتِدَاحِهِمْ<sup>(1)</sup>.

ومعنى الآيات: أي: اتل يا محمد ﷺ على من بعثناك فيهم نبأ الذي علمناه كتاب الله فصار العالم الكبير، ولكنه انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله الموصلة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال وأعلى المقامات، وترك كتاب الله وراء ظهره وانخلع منه كما يُخلع الثوب، فتسلط عليه الشيطان لما انسلخ من حصن القرآن، وخذله الله ووكله إلى نفسه بفعله ما يقتضي الخذلان عندما اتبع شهواته السفلية ومقاصده الدنيوية وهواه<sup>(2)</sup>.

"وفي الآية عبرة وموعظة للمؤمنين وتحذير لهم من اتباع أهوائهم حتى لا ينزلقوا في مثل تلك الهوة التي انزلق إليها صاحب المثل بحبه للدنيا وركونه إلى شهواتها ولذاتها.

وخلاصة ذلك: إن من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصعد في سلم الكمال لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضرة على العمل النافع وما فيه فائدة روحية له، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة ... أما من تلقاها بغير قصد أو بنية كسب المال والجاه وفي نفسه ما يصرفه عنها فلن يستفيد منها شيئاً وسرعان ما ينسلخ منها"<sup>(3)</sup>.

### لطيفة تعبيرية بيانية:

لماذا آثر التعبير القرآني لفظة (انسلخ) عن غيرها من نظائرها كـ (ترك) - خرج منها - فارقها ... إلخ)؟

1- كي نفهم سرّ التعبير بالانسلخ يجب أن نقف على سرّ التعبير بالإيتاء أولاً:

قال في الكليات: الإيتاء أقوى من الإعطاء إذ لا مُطَاوَع له، ولأنّ الإيتاء في أكثر مواضع القرآن جاء مع ما له ثبات وقرار كالحكمة والسبع والمثاني والملك<sup>(4)</sup>.

(1) تفسير ابن كثير، (ج 3/507).

(2) انظر: تفسير السعدي، (ص 308).

(3) تفسير المراغي، (ج 9/107-108).

(4) انظر: الكليات - معجم في المصطلحات والفرق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء الكفوي، ت: عدنان درويش وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون طبعة أو سنة نشر، (ص 212).

و(سلخ): السلخُ كسطُ الإهابِ عن ذيه، وكلُّ شيءٍ يُفَلَقُ عن قشره فقد انسلخ، وسلخت الحيةُ: انسرت من جلدتها، وسلخت المرأةُ عنها درعها: نزعتها<sup>(1)</sup>.

وبناءً على هذين المعنيين فإن هذا الرجل قد تمكّن من الآيات التي آتاه الله إياها، وبلغ من العلم بها مرتبة الرسوخ، وفي هذا إشارة إلى عظم جرمه بالانسلخ، ولعلنا الآن ندرك سرّ التعبير بالانسلخ الذي هو في أصله الخروجُ نزاعاً بالكلية، فانسلخه جاء في مقابل تمكّنه، فكأنه احتاج إلى شدة نزع وقوة هوى كي يفارق الآيات والكتاب، وفي هذا دلالة على شدة تمكّن هواه وشهوته الدنيوية منه.

2- وثمّت لطيفة دقيقة أخرى، ففي التعبير بالانسلخ تحديداً وجه شبه مع الحية التي ينسلخ جلدُها عن جسدها تاركةً إياه خلفها، فكأن تمكّن هذا الرجل من الآيات كان ظاهراً أمام الناس لا باطناً إذ باطنه مأفونٌ فاسدٌ<sup>(2)</sup>.

وقد ضرب الله تعالى لهذا الرجل مثلاً غايةً في الخسة والدنائة تنفيراً من حاله البشعة فشبهه بالكلب في أحسن أحواله، وهي اللهت في حالي الراحة والتعب، وكذلك حال هذا الذي آتاه الله الآيات فلم ينتفع بها، فحاله واحدة سواءً وعظّم أم ترك، وهي تردّيه في الضلالة<sup>(3)</sup>.

وقد ذكر القرآن صنفاً شبيهاً بهذا في سورة آل عمران وهم الذين اتبعوا أهواءهم بسبب مرض قلوبهم فحرفوا آيات الله وتتبعوا المتشابهة منها كي يفتنوا المؤمنين عن كتابهم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]، وقد تحدّثنا عن هذا الصنف في هذا البحث فأغنى عن إعادته<sup>(4)</sup>.

#### فوائد تطبيقية مستفادة من معرفة الصوارف السابقة

1- الجهلُ عدوُّ الأممِ كلّها، ولم تعرف أمةٌ طريقَ تقدّمها وعزّها إلا بنبذ الجهل وطلب العلم، فإذا علمت أنّ نسبة الأمية في عالمنا العربيّ - بحسب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

(1) انظر: لسان العرب، ابن منظور، (ج 25/3).

(2) انظر: تفسير المراغي، (ج 107/9).

(3) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر، (ج 1550/3).

(4) انظر المطلب الثاني من المبحث الثالث من الفصل الأول من هذا البحث، ص: (170).

(الأكسو) - بين الذكور تبلغ لعام 2014 (25%) وبين الإناث (46%)، وهي ضعف نسبة الأمية العالمية، وأنّ دولاً عربيةً خمسةً فقط تخلّصت من الأمية بالكامل هي: قطر وفلسطين والبحرين والكويت والأردن<sup>(1)</sup>، إذا علمت هذه الإحصائيات الصادمة أدركت يقيناً لماذا لا يزال عالمنا العربي في ذيل الأمم!! وأدركت الأهمية القصوى والعناية العظمى التي أولاها ديننا العظيم للعلم وطلبه.

ومن الجميل أن نتمثّل بين هذه الأسطر أبياتاً من الميمية المشهورة للشيخ حافظ الحكيم - رحمه الله - في الوصايا والآداب العلمية:

أهل السعادة والجهال في الظلم	العلم نورٌ مبينٌ يستضيء به
أهل الجهالة أمواتٌ بجهلهم	العلم أعلى حياة للعباد كما
سعييرٌ معترفٌ كلٌ بذنبهم	لا سمع لا عقل بل لا يبصرون
وأضل شقوتهم طراً وظلمهم	فالجهل أضل ضلال الخلق
فلا يضل ولا يشقى ذوو الحكم	والعلم أضل هداهم مع سعادتهم
وعن أولي العلم منفيان فاعتصم	والخوف بالجهل والخزن الطويل
ميراث يشبهه طوبى لمقتسم	العلم والله ميراث النبوة لا
وما سواه إلى الإفتاء والعدم <sup>(2)</sup>	لأنه إرث حق دائم أبداً

ولا يهالك أن تعلم أنّ الأمية التي يتحدثون عن محوها هي أمية القراءة والكتابة! فإننا إذن بعيدون كلّ البعد عن مستوى محو أمية تحصيل المعرفة، وأمية الحاسوب، وكلّ هذا يؤثّر سلباً على علاقة المسلم مع القرآن.

ومن هنا، وانطلاقاً من هذه الأرقام الصادمة نعود لنؤكد على أهمية دروس العلم في شتى المجالات سيما في مجال علوم القرآن والشريعة، ويحدونا أملٌ عريضٌ أن نصل إلى اليوم الذي

(1) انظر: (الأمية في الوطن العرب)، ويكيبيديا، على شبكة الإنترنت:

A%8A%D8%9D%85%9D%3A%8D%84%9D%7A%8https://ar.wikipedia.org/wiki/%D  
%7A%8\_%D86%9D%7B%8D%88%9D%84%9D%7A%8A\_%D8%9D%81%9\_%D9  
A8%9D%8A%8D%1B%8D%9B%8D%84%9D

(2) المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية، حافظ بن أحمد الحكيم، ت: محمد بن علي الصومعي البيضاني، دار الاستقامة، 1433هـ - 2013م ، (ص 18-19).

لا تتقطع فيه مجالس العلم من مساجدنا وبيوت علمائنا وجامعاتنا ... إلخ.

2- ممّا ينبغي أن يُستشعرَ خطره التركيزُ على العلومِ الدنيويةِ مجردةً عن علومِ الدين، وهذا واقعٌ كثيرٌ من جامعاتِ بلادنا الإسلامية، وإن كانت لا بدّ فاعلةً فمساكاً أو اثنانٍ من العلومِ الدينيةِ المجترئةِ لإكمالِ الخطةِ الدراسيةِ فحسبُ. هذا النهجُ يُنشئُ جيلاً ربا على علومِ المادّةِ المستقاةِ - للأسفِ - من الغربِ، والتي تسلّخه بدورها عن العلومِ الغيبيةِ شيئاً فشيئاً إلا أن يُعتنى بعقيدتهِ خارجِ الجامعةِ.

وممّا ينبغي أن يُذكرَ ويُشكرَ في هذا السياقِ جامعاتٌ رصّعت مناهجها الجامعيةَ بمساقاتٍ شرعيةٍ قيّمةٍ تزوّجَ بينَ التربيةِ العلميةِ الدنيويةِ والدينيةِ فينشأ الطالبُ عالماً بدينه عالماً بديناه، ومن هذه الجامعاتِ على سبيلِ الذكرِ لا الحصرِ جامعتي - التي أتقدّمُ ببحثي هذا إليها - الجامعةِ الإسلاميةِ بغزة، وجامعةِ الإيمانِ باليمن، وجامعةِ الإمامِ محمدِ بنِ سعودٍ بالرياضِ ... إلخ.

3- إنَّ فسادَ نيةِ العالمِ بمكانةٍ من الخطورةِ تفوقُ فجورَ الفاجرِ، فإنَّ الفاجرَ لا يُخطئُ فجوره عامّةُ الناسِ، أمّا العالمُ الذي فسدت نيتهُ فهو يُحدِّثُ الناسَ بالآيةِ والحديثِ، ويُلبسُ عليهم دينهم، فيفتنُ كثيراً من عوامِّ المسلمينِ فضلاً عن بعضِ خواصِّهم، وقد حدّرَ النبيُّ ﷺ من خطورةِ هؤلاءِ فقال: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ" (1).

بل خصَّ قرآءَ القرآنِ الذينَ يقرؤونه ليتأولوه على غيرِ وجهه ويضعوه في غيرِ مواضعه، ويحفظون القرآنَ تقيّةً لنفيِ التهمةِ عنهم، أو يحفظونه رياءً وطلباً للدنيا (2) بصفةِ النفاقِ فقال: "إِنَّ أَكْثَرَ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرْأُوهَا" (3).

وقد حدّرَ النبيُّ ﷺ من ورودِ العلماءِ على السلاطينِ معينينهم على ظلمهم في أحاديثٍ كثيرةٍ منها قوله ﷺ: "... سَيَكُونُ بَعْدِي أَمْرَاءُ؟ فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضُ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُعْنَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضُ" (4).

(1) أخرجه أحمد في مسنده، (ج 1/288)، رقم الحديث: (143). وقال محقق الكتاب: إسناده قوي.

(2) انظر: فيض القدير، المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي الفاهري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط 1، 1356هـ، (ج 2/80).

(3) أخرجه أحمد في مسنده، (ج 11/209)، رقم الحديث: (6633). قال محقق الكتاب: حديث صحيح.

(4) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، (ج 4/525)، رقم الحديث: (2259). وقال: صحيح غريب.

وقد ذكرَ النبي ﷺ صنفاً من العلماء، قرأوا القرآنَ دونَ التفقهِ فيه فقادهم هواهم إلى تضييعِ حدودِ القرآنِ: فعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ؓ قال: "... وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاءُهُ، كَثِيرٌ قُرْأُوهُ، يُحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ وَتُضَيِّعُ حُدُودَهُ، كَثِيرٌ مَنْ يَسْأَلُ، قَلِيلٌ مَنْ يُعْطَى، يُطِيلُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ، وَيَقْصُرُونَ الصَّلَاةَ ، يُبْدُونَ فِيهِ أَهْوَاءَ هُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ"<sup>(1)</sup>.

وهذا الكلامُ من ابنِ مسعودٍ ؓ يأخذُ حكمَ المرفوعِ لأنَّه مما لا يُقالُ بالرأيِ والاجتهادِ. ورُويَ عن معاذٍ قوله: " إِذَا قَرَأَ الرَّجُلُ الْقُرْآنَ وَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، ثُمَّ أَتَى بَابَ السُّلْطَانِ تَمَلَّقًا إِلَيْهِ وَطَمَعًا لِمَا فِي يَدِهِ خَاصَّ بِقَدْرِ خُطَاةٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ"<sup>(2)</sup>.

وقد أطلتُ قليلاً في ذكرِ بعضِ الرواياتِ التي تحدِّرُ من هذا الصنفِ من الناسِ لخطورةِ هؤلاءِ العلماءِ على الأمةِ وضرورةِ التحذيرِ منهم.

ووقوفاً عندَ خطورةِ هذا الأمرِ يؤكِّدُ الباحثُ على ضرورةِ الاعتناءِ بالبناءِ العقيديِّ الصحيحِ لأبنائنا خصوصاً في بابِ تخليصِ التوحيدِ وإصلاحِ وإخلاصِ النيةِ في العملِ لله تعالى فإنَّ فسادَ النيةِ أصلُ كلِّ انحرافٍ بعده وهو الذي قادَ إلى ظهورِ مثلِ هذهِ الأصنافِ في الأمةِ كما رأينا.

---

(1) أخرجه مالك في الموطأ، مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1406هـ — 1985م، كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة، (ج 173/1)، رقم الحديث: (88). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (3189)، (ج 573/7).

(2) جمع الجوامع - الجامع الكبير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: مختار إبراهيم الهائج وآخرون، الأزهر الشريف، القاهرة، مصر، ط 2، 1426هـ - 2005م، (ج 472/1)، رقم الحديث: (1426)، في الثواب لأبي الشيخ.

## المبحث الرابع: الكفر وموالاة أعداء الله.

توَعَّدَ إبليسُ آدمَ وذريَّتهُ أجمعينَ، وأقسمَ ليقعدنَّ لهم صراطَ اللهِ المستقيمَ، فأرسلَ اللهُ لآدمَ وذريَّتهُ رسالاً مبشرينَ ومنذرينَ، وأنزلَ معهم كُتُباً فيها الهدى المستبينَ، ليبيِّنَ لهم صراطَه ويُحذِرَهم من مكرِ عدوِّهم المبينِ، فباتَ القرآنُ الحقَّ وإبليسُ الباطلَ المبينَ، وأعلنَ اللعينُ وجنْدُه الحربَ على كتابِ اللهِ الكريمِ، وجيَّشوا جنودَهم من الإنسِ ليضلُّوا بهم المؤمنينَ، وأغوَّوهم بالكفرِ والجحودِ وبالأولياءِ المضلِّينَ، فصارَ الكفرُ والأخلاءُ الغاوونَ عنوانَ الحربِ على الكتابِ القيمِ، وستحدِّثُ عن هاذين الصارفينِ في المطلبينِ الآتيينِ:

### المطلب الأول: الكفر وعدم الخوف من وعيد الله.

يُعدُّ الكفرُ باللهِ أوسعَ الصوارفِ حيولةً بينَ الإنسانِ والقرآنِ؛ فإنَّ الكفرَ باللهِ يقطعُ طريقَ الاتصالِ بالقرآنِ من أصلها؛ إذ إنَّ الكافرَ لا يلتفتُ إلى القرآنِ وليسَ من شأنِ حياته ولا معتقداته أن يسمعَ لهذا القرآنِ، فيجعلُ كفره بربهِ فجوةً واسعةً بينه وبينَ هذا الكتابِ الكريمِ، وقد جعلَ هذا الصارفُ عن القرآنِ على مرتبتينِ:

### الأولى: الكفر وعدم الإيمان بالآخرة.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: 45]، فقد تسبَّبَ لهم كفرهم وعدمُ تصديقهم بالبعثِ وإقرارهم بالثوابِ والعقابِ بنشوءِ حجابٍ يحجبُ قلوبهم عن فهمِ ما يقرؤه النبيُّ ﷺ عليهم من القرآنِ، وذلك الحجابُ عقوبةٌ من الله بكفرهم<sup>(1)</sup>، وقيل: الآيةُ نزلت في قومٍ كانوا يؤذونَ النبيَّ ﷺ إذا قرأ القرآنَ فحجبه اللهُ عن أعينهم فكانوا يمرُّونَ به فلا يرونَه<sup>(2)</sup>، والظاهرُ إمكانُ حملِ الآيةِ على كلا المعنيينِ بتعدُّدِ أحوالِ الكافرينَ فبعضُهم حُجبَ عن النبيِّ ﷺ فلا يؤذيه، وبعضُهم صُرفَ عن فهمِ القرآنِ بكفره، - كما رجَّحه الجملُ في حاشيته -<sup>(3)</sup>.

وفي (مستوراً) أقوالٌ أظهرها ما اختاره ابنُ عطيةَ أنَّها نعتٌ للحجابِ على معنى أنَّه حجابٌ مستورٌ عن أعينِ الخلقِ لا يرونَه كسائرِ الحُجبِ وإنَّما هوَ من قدرةِ اللهِ وإضلالِهِ من يشاءُ<sup>(4)</sup>، وهذا المعنى يوافقُ القولَ الأولُ في الآيةِ والذي رجَّحه ابنُ عطيةَ وغيره.

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 17/457).

(2) انظر: الوجيز للواحي، (ص 636).

(3) انظر: حاشية الجمل على الجلالين، (ج 2/268).

(4) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 3/460).

قلت: والقول الأول أرجح، والذي يُرجّحه عندي أمران:

1- التعبير عن المشركين بالموصول ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، وأنت خير أن الموصول إنما يؤتى به للإيماء إلى علّة الحكم، فلو كان المقصود حجب الذين يؤذون النبي ﷺ لما كان هناك وجه لوصفهم بهذه الصفة خاصة دون الكافرين أو المجرمين التي هي أليق بحكم الإيذاء، فلما وصفهم بعدم الإيمان بالآخرة خاصة علم أن الحكم الأنسب هو عدم فقه القرآن والاتلفت له إذ إنه من شأن الذين لا يُقرّون بالبعث والحساب والنشور ألا يزدجروا بمواعظ الله.

2- أن الآية مسوقة في معرض الحديث عن إعراض الكافرين وعدم اتعاضهم بآيات الله في الكون، وقد ذكر سياقها جعل الله الأكنة على قلوب الكافرين والوقر على آذانهم، وهذا أليق بالقول الأول، والسياق - كما هو معلوم - من المرجحات.

**الثانية: عدم الخوف من وعيد الله.**

الكفر بالله وعدم الإيمان بالآخرة يفضيان ضرورة إلى قسوة القلب وعدم خوف صاحبه من الله عزّ وعلا؛ إذ لا يوجد ما يحمل على الخوف؛ فلا إيمان بحساب ولا عقاب ولا وقوف بين يدي الملك، فيصبح قلب الكافر جافياً قاسياً كلما تطاول عليه العهد في الكفر، ولذا أخبر الله نبيه بأنه ليس مكلفاً بهداية أحد، إنما عليه البلاغ، وأن من يدكر بالقرآن من يخاف الله تعالى: قال سبحانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدُ﴾ [ق: 45].

والمعنى: نحن أعلم بما يقولون من إنكار البعث والتكذيب بالقرآن، وما أنت يا محمد ﷺ بمسلط عليهم، إنما أنت داع لا تجبر أحداً على الإيمان، فذكر بالقرآن من يخاف وعيدي؛ لأنه هو الذي يتأثر بالقرآن، وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبهم أقوالهم وتستدعيه أعمالهم<sup>(1)</sup>.

فإذا كان المُدَكَّرُ به القرآن الذي يهزُّ القلوب ويزلزلها فلا يُغلقُ أمامه قلبٌ يعي ويخاف ما يواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب، ثم لا ترعوي به قلوب هؤلاء الكافرين فاعلم أنها قد بلغت من الغفلة والقسوة والغلظة ما لا يجدي معه تنكير.

وهكذا فإن خشية الله من أعظم ما يعين على الإقبال على القرآن وتدبره؛ إذ إن القلب الذي

---

(1) انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد ابن عجيبة الفاسي، ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، 1419هـ، (ج 462/5).

يخاف من وعيد الله وعقابه يُقبل على ما تكون به النجاة ويبحث عما يكون به رضا الله.

### المطلب الثاني: اتخاذ الأخلاء المضلين.

لا يفتؤ أعداء القرآن يصرفون عنه كل من استطاعوا صرفهم، فالكافر الضال المضل لا يهنأ له بال حتى يرى الناس كلهم معه في الكفر مشتركين، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً...﴾ [النساء: 89]، ورفقة السوء من الأسباب القوية المعلومه للغواية، وقد حكى القرآن لنا حال من اتبع الخليل المضل فصرفه عن الرسول والقرآن، حكى لنا حاله يوم القيامة وقد تملكه الندم الشديد: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَنُحَدِّثَ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوْمَ لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: 27-29].

(الذكر): هو القرآن، عن الطبري<sup>(1)</sup>. والعض على اليد كناية عن الندامة، وحقه التعديفة بنفسه، إلا أنه عدي هنا بـ(على) لإفادة التمكّن من المعضوض لبيان شدة العَضِّ والندامة، والتعريف في (الظالم) للاستغراق، فتتناول كل من تجرّ صحبتهم إلى الغواية، ويجوز أن يكون للعهد المخصوص على اعتبار أنها نزلت في عقبه بن معيط وصاحبه أبي بن خلف، فيكون المقصود بـ(فلان) أبياً، ثم يلحق به كل من أطاع خليله في الشرك ولم يتبع سبيل الرسول، ولا يخلو أحد من المشركين عن خليل يصدّه عن متابعة الرسول، فيتندّم يوم الجزاء على طاعة خليله ويذكره باسمه.

وعلّ ما هو فيه من شدة الحسرة والندامة بما سؤله له خليله من الانصراف عن الذكر الذي هو القرآن، وصرّفه له عنه بنهيه عن التدبّر فيه والاستماع له بعد أن قارب فهمه.

وفي إسناد المجيء إلى القرآن إشارة إلى إسماعه القرآن فكأن القرآن شخص حلّ عنده، وفيه دلالة على وقوع البلاغ له.

وفي الإتيان بالظرف (إذ) دون أن يقال (بعدهما جاءني) إشارة إلى شدة التمكّن من الذكر لأنه استقرّ في زمن سابق عنده (إذ) ظرف لما مضى من الزمان.

وفي إيثار صيغة المبالغة (خذولاً) دون (خاذل) إشارة إلى أنّ الشيطان مجبول على شدة خذلان الإنسان، وفيه تنبيه على خطورة إضلال الشيطان للإنسان وتسويله للأخلاء إضلالاً

(1) انظر: تفسير الطبري، (ج 19/263).

بعضهم بعضاً.

والخذل: ترك نصرته المستتصر مع القدرة عليه، فإذا أعان على الهزيمة كان أشدَّ الخذلان<sup>(1)</sup>.

وقد أبدعت هذه الآيات في وصفِ ندم الخليل بما أحدثته له خليله من الإعراض عن الرسول والقرآن وذلك في التعبيرات الآتية:

1- ﴿بِعِضِّ الظالمِ على يديه﴾: فلفظة (بعض) تشير في النفس معنى شدة ما أصاب العاص من الندم والحسرة والقهر، فإذا أضيف إليها معنى التعديّة بـ(على) وهي التي تشير إلى شدة التمكّن من الندامة - كما مرّ قريباً -، ثم أضيف إليها كون العاص على اليدين لا يد واحدة - في حين أنّ التعبير بالندم يأتي عادةً بقولهم: (عصّ أصابعه أو يده)، إذا استجمعت كلّ هذا تدرك هول الندامة التي مني بها هذا الخليل.

2- التعبير بـ﴿يا ليتني﴾ يفيدُ شدة التحسّر على أمرٍ لا يمكن استدراكه، فـ(ليت) يُطلبُ بها أمرٌ محبوبٌ يستحيلُ حصوله، أو هو بعيدُ التحقق<sup>(2)</sup>، فإذا انضاف إلى هذا التمني نداءً كلمته بحرفِ النداء - والأصل في النداء أنّه لمن يعقل ليتأتى منه الإقبال إلا أنّ العرب تتجوز فتنادي من لا يعقل - فنداؤه لأمنيته باتباع الرسول والقرآن يشي بمسيس حاجته إليها في هذا الموقف، إذا علمَ هذا أدركنا كمّ الحسرة والندم الذي حلّ به.

3- وينطبقُ هذا الكلامُ على ندائه وويلته، ﴿يا وَيْلَتِي﴾، أي: يا حسرةً أقبلي فهذا أوانُ حضورك، و(ويلتي): كلمةٌ نُدبيةٌ وتقعُّجٌ وفضيحةٌ وبليّةٌ وشر<sup>(3)</sup>، أي: يا فضيحةً ويا حسرةً إن لم يكن الآن وقتُ حضورك فمتى يكون؟! والتقعُّج في هذا الأسلوبِ ظاهرٌ.

4- إعادة التمني ﴿ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ فيه دلالةٌ على تراكم الحسرات واشتداد الندم عليه لحظةً بعدَ لحظةٍ كلما تجدد له العذاب وتذكّر ما فعل به خليله.

فإذا تحصّل لمن يقرأ هذه الآياتِ هذه المعاني كلّها واستجمع في مخيلته طرفاً يسيراً مما يطيقُ خياله استجماعه منها، وأيقنَ بعين قلبه أنّ هذا المشهدَ حاصلٌ لا محالةً بينَ أخلاءِ السوءِ

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 16-11/19).

(2) انظر: علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، ط 4، 1422هـ، (ص 62).

(3) انظر: لسان العرب، (ج 11/737-738).

أدرك بما لا يدع مجالاً لغفلةٍ أو تردّدٍ مدى الخطورة العظمى التي يجلبها خليلُ السوءِ على صاحبه، وأيقن أهمية انتقاء الخليل كما ينتقي هو أطايب الطعام وأحسن الثياب، وأفضل أنواع الدواء إذا مرض.

وللخليل على خليله سطوةً وتسلطاً، فتجد الخليل إذا وصاه خليله وعزم عليه ألا يفعل الأمر يخشى مخالفة خليله كي لا يفارقه، فقد كان المشركون إذا اجتمعوا يوصي بعضهم بعضاً بالألّا يستمعوا إلى القرآن الكريم، فيصرف بعضهم بعضاً عن الذكر الحكيم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: 26].

وقد أخرج ابن إسحاق بسنده بيّين هذه الحالة: "... فلما قال ذلك بعضهم لبعض جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ويأبون أن يسمعوا له، وكان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي استتر واستمع دونهم، فرقاً منهم، فإن رأى أنهم عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم ولم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته فظن الذين يستمعون أنهم لم يسمعوا من قراءته شيئاً وسمع هو دونهم أشاح له ليستمع منه" (1).

#### فوائد تطبيقية مستفادة من معرفة الصوارف السابقة

1- رأينا فيما سبق كيف أنّ أكثر الناس احتجاباً عن القرآن الكفار، وذلك بما ابتلوا به من الإعراض عن الله تعالى، فإذا علمنا أنّ أكثر أهل الأرض اليوم على الكفر - بحسب مركز (بيو) للدراسات فإن نسبة المسلمين من سكان العالم (24.1%) لعام 2015م (2) - أي أنّ نسبة الكفار في العالم (75.9%)، أدركنا حجم المهمة الثقيلة الملقاة على عاتق المسلمين في إزاحة هذا الصارف الكبير الحائل بين أكثر أهل الأرض والقرآن، وهذه المهمة لا تُعفى منها الأمة بمجموعها، فإن ظهر فيها التقصير أثم الجميع، لأنّ من واجب الأمة بمجموعها الدعوة إلى الله، وتبليغ دينه، وإظهار الحق، وإزاحة العوائق بين القرآن وكلّ الناس، فإن لم تحصل الكفاية لهذه المهمة العظمى أثم الجميع حتى يقيموا الكفاية.

(1) سيرة ابن إسحاق، (ص 205-206).

(2) انظر: (الإسلام حسب البلد) على موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت:

A%8D%84%9D%3B%8D%5A%8D%84%9D%7A%8https://ar.wikipedia.org/wiki/%D  
D%84%9D%8A%8D%84%9D%7A%8\_%D8A%8D%3B%8AD%D%8\_%D85%9D%7  
AF%8

ومن هنا يرى الباحث - بما يُشاهد من واقع البشرية - أن الأمة الإسلامية قد قصرت كثيراً في تبليغ الحق والقرآن، وقد قلنا قبل إن الله قد يسر كتابه بحيث لو طرق السمع والقلب وقد خُلِّيت عنه الصوارف لوجد طريقه سريعاً إلى شغاف قلب المدعو.

وعلى هذا الصعيد فإن إزالة الصوارف عن قلوب وأسماع الكافرين مهمة الجهاد في سبيل الله، تلك الرؤية العظيمة الكريمة الشريفة التي فقدت مضمونها في عالم الضعف والهوان اليوم، فإن إزالة العوائق أمام الدعوة أشرف مهام الجهاد في سبيل الله<sup>(1)</sup>، ورفع راية الجهاد يحتاج إلى قوة ومنعة وسلطان يقيم أحكام الدعوة والجهاد ويوازن بين مراحل وأوليائه ويعتني بإعداد القوة التي تُرهب أعداء الله، ولما لم يكن هذا الواقع موجوداً - للأسف - في أمتنا اليوم وجب على الدعاة المصلحين الوصول بالأمة إلى هذه الرتبة من تنصيب الحاكم المسلم الذي يعتني بإقامة الجهاد بأحكامه، وذلك مروراً بإحياء قوة العلم أولاً ثم قوة الاقتصاد فالجهاد.

2- ورأينا أيضاً فيما سبق كيف يؤثر الإتراف في الدنيا والانغماس في متاعها على العلاقة مع القرآن الكريم وبالتالي على صلاح الأمة وعزها وقوتها، ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا يعتني الغرب اليوم بإغراق ثلث من المسلمين في شهوات الدنيا وأموالها ثم يحملونهم على رقاب الناس بالحكم في شتى المجالات؛ ذلك أن هذه الفئة - بما أترفت - ستكون أول عدو للقرآن الداعي إلى الانخلاع من الشهوات وإقامة العدل بين الناس ونبيذ الظلم والتسوية بين الفقير والغني والشريف والوضيع في الحقوق.

ومما يوصي به الباحث أن يُجَنَّب الدعاة والمصلحون الذين وسدوا مناصب في دولهم تلك الشهوات وذلك النعيم، حتى وإن تذرَعوا بأنه مما أحلَّ الله من نعيم الدنيا، فإن الدنيا لا تزال تُفتح عليهم حتى يُفتنوا بها، وإن فتنة أمثال هؤلاء تؤدي حتماً إلى ضياع الحقوق وتيسير وصول المتسلطين عليهم بما يملكون من مفاتيح الدنيا التي هي اليوم بيد الغرب، وقد رأينا في واقع المسلمين كثيراً من الدعاة الذين وصلوا إلى مناصب في دولهم فتغيرت مبادئهم وصار جمع المال همهم وعزلوا عن الناس بشهوة المنصب والأتباع المضلين، ومن المعلوم أن فتنة السراء أشد على المسلم من فتنة الضراء، ويشهد لهذا المعنى حديث النبي ﷺ: "قَوَالَهُ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا

---

(1) انظر: مجموعة رسائل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، رسالة الجهاد المشروع في الإسلام، عبد الله بن زيد آل محمود، ط 2، 1429 هـ - 2008 م، (ج 9/3).

تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتُهُمْ"<sup>(1)</sup>، وقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: "ابْتُلِينَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالضَّرَاءِ فَصَبْرُنَا، ثُمَّ ابْتُلِينَا بِالسَّرَاءِ بَعْدَهُ فَلَمْ نَصْبِرْ"<sup>(2)</sup>، وقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: "ابْتُلِينَا بِفِتْنَةِ الضَّرَاءِ فَصَبْرُنَا، وَسَبْتُنَا بِفِتْنَةِ السَّرَاءِ، وَأَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ النِّسَاءِ إِذَا تَسَوَّرْنَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَلَبِسْنَ رِيَاطَ الشَّامِ"<sup>(3)</sup> وَعَصَبَ الْيَمَنِ"<sup>(4)</sup>، فَأَتَعَبَنَ الْغَنِيِّ، وَكَلَّفَنَ الْفَقِيرَ مَا لَا يَجِدُ"<sup>(5)</sup>.

3- لا يزال مشهد ذلك الخليل وهو في حالة لا مثيل لها من الندم على اتباعه خليله الذي صرفه عن القرآن في الدنيا ماثلاً أمام عين كل ذي بصيرة بخطورة الصديق والرفيق في التأثير على الابن والولد، فيا من تروم تربية ابنك على مائدة القرآن، ويا من تسعون إلى إنشاء جيل قرآني، الحذر كل الحذر من رفقاء السوء لأبناء هذا الجيل الذين نرغب فيهم الخير لمستقبل أمتنا، فمن الخسران أنك تربي ابنك على القرآن وتعتني بدفعه إلى حلق التحفيظ وتدفع الأموال ثم تهمل مراقبة ابنك فيمن يصاحب ومن ينادم، وفي الحديث: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ"<sup>(6)</sup>.

- 
- (1) جزء من حديث، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدر، (ج 4/1473)، رقم الحديث: (3791).
- (2) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، (ج 4/642)، رقم الحديث: (2464). وقال: حسن.
- (3) جمع (زيطة): وهي كل ثوب أبيض لين دقيق. انظر: المعجم العربي لأسماء الملابس (في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث)، رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 1423هـ - 2002م، (ص 203).
- (4) ضرب من برود اليمن، سمي عصباً لأن غزله يُعصب أي يُدرج ثم يُصبغ ثم يحاك، ولا يُجمع، انظر: المرجع السابق، (ص 325).
- (5) أخرجه أبو نعيم في الحلية، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1409هـ المهاجرون من الصحابة، معاذ بن جبل، (ج 1/236). قال محقق المطالب العالية: سنده صحيح، انظر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت: مجموعة من الباحثين في سبع عشرة رسالة جامعية، دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع، ط 1، 1420هـ - 2000م، (ج 13/271).
- (6) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، (ج 4/589)، رقم الحديث: (2378). وقال حسن غريب.

## الفصل الرابع

صفات أهل القرآن وثمرات الارتباط

به

## الفصل الرابع

### صفات أهل القرآن وثمرات الارتباط به

#### تمهيد

ها هي ذي قوافلُ أهلِ القرآنِ تحطُّ رحالها في واحاتِ الأيكِ العنَّاءِ، وها هي الرحلةُ الطويلةُ في العلاقةِ معَ القرآنِ تُختمُ بالجنةِ الفيحاءِ، سُقي الزرعُ بالروحِ شيئاً فشيئاً حتى أزهَرَ، وغُدِّيَ بأطيبِ الكلمِ دققةً مسكٍ بعدَ دققةٍ حتى أثمرَ، تتابعَ عليه النورُ الربَّانيُّ حتى غداً منيراً أنورَ، وها نحن أولاءِ نُتمُّ البناءَ الذي عُقدت لبنائهُ على منهجِ الحقِّ ليغدو أتمَّ وأعزَّ وأطهرَ، إنَّها مسيرةُ ارتباطِ الإنسانِ بالقرآنِ: همَّةٌ وعزمٌ وثباتٌ على الفرقانِ، ترتيلٌ وترنُّمٌ باللسانِ، فهمٌ ووعيٌ وتدبُّرٌ للمعاني، خشيةٌ ورهبةٌ يورثها كلامُ الرحمنِ، قشعريرةٌ ورعدةٌ تسري في الأبدانِ، سمعٌ وطاعةٌ واستجابةٌ وعملٌ بالأركانِ، فلاحٌ وسعادةٌ وفوزٌ في هذه الدنيا وفي دارِ الخلدِ بالجنانِ.

وسيشرُّ الباحثُ في هذا الختامِ بقطفِ الزهرِ الذي يصفُ أهلَ القرآنِ، وبجني الثمرِ الذي يستطيبُه ويستلذُّ به أهلُ الفرقانِ.

## المبحث الأول: صفات أهل القرآن.

عمل النبي ﷺ منذ اللحظة الأولى على تركية نفوس الصحابة بالقرآن العظيم، فتلاه عليهم معلماً إياهم الكتاب والحكمة ومطهراً نفوسهم وأخلاقهم شيئاً فشيئاً حتى أحدث فيهم القرآن الأثر العميق العظيم بما عايشوه من تنزل الآيات وتفاعل النبي ﷺ معها حتى غدا خلقه ﷺ القرآن، ومن ثم خلق أصحابه، وقد أسبغ القرآن العظيم على أتباعه صفاتٍ وسجايا باتت لصيقة بهم لا تفارقهم، نعرضها في المطالب الآتية:

### المطلب الأول: اتباع القرآن والدعوة به.

أول الصفات التي أحدثها القرآن في سلوك أتباعه الرحمة بالبشر، والتي اقتضت ألا تقف هذه الرحمة الربانية عند متلقيها بل تتجاوزها إلى كل من يستطيع حمله أن يوصله إليهم، وما بلغ هؤلاء ما بلغوا من الاندفاع إلى البلاغ إلا بسرعة الإقبال والاتباع، وسنحدث عن هذه الصفات في النقاط الآتية:

### أولاً: اتباع القرآن:

ما فتئت آيات الكتاب تنزل تأمر الأتباع بالاتباع حتى أثمر هذا الأمر الاتباع، ومن هذه الآيات ذكراً لا حصرًا:

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكُرُونَ﴾ [الأعراف: 3]. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]. ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 55]. ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 2] ... إلخ.

فأثمرت هذه النداءات الربانية صفةً عظيمةً للمؤمنين بالقرآن:

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۗ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121].

فعن قتادة في قول: هم أصحاب النبي ﷺ، آمنوا بكتاب الله وصدقوا به<sup>(1)</sup>.

ومعنى تلاوة الكتاب حق تلاوته: اتباعه حق اتباعه، يُجلون حلاله ويحرمون حرامه، هكذا

(1) تفسير الطبري، (ج 2/564)..

عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ وعكرمةٍ وعطاءٍ وأبي رُزَيْنٍ ومجاهدٍ وقيسِ بنِ سعدٍ وقتادةٍ.<sup>(1)</sup>  
 و(يتلونه حقَّ تلاوته) حالٌ من الكتابِ أو من مفعولٍ (أتيناهم) ولا يجوزُ أن تكونَ خبراً  
 لأنَّ هذا يوجبُ أن يكونَ كلُّ من أوتيَ الكتابَ يتلوه حقَّ تلاوته وليس الأمرُ كذلك<sup>(2)</sup>.  
 ففي هذا الوصفِ لهم بالحلية بيانٌ للحالة التي تلبَّسوا بها وهي اتباعُ القرآنِ والعملُ به في  
 كلِّ أحوالهم.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ  
 يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر]:  
 17-18].

﴿فبشِّرْ عباد﴾: هم المجتنبون الطاغوت، أقام الظاهر (عباد) مكان الضمير ليرتّب عليه  
 الوصف لهؤلاء العباد وهو (الذين يستمعون القول)<sup>(3)</sup>.

وفي معنى ﴿يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ وجهان: أحدهما: يستمعون القرآن وغيره  
 فيتبعون القرآن، والثاني: يستمعون جميع أوامر الله فيتبعون أحسنها كالقصاص والعفو فيتبعون  
 العفو فهو أعظم ثواباً<sup>(4)</sup>.

ومعنى ﴿فيتبعون أحسنه﴾: يفهمونه ويعملون بما فيه<sup>(5)</sup>.

وأشار إليهم باسم الإشارة الذي للبعيد مدحاً لهم بعلو همّهم ورتبةهم، وبين أن سبب  
 اتصافهم بكونهم يستمعون القول فيتبعونه هداية الله لهم بما لهم من صفات الكمال الموجبة  
 للهداية، وسلامة عقولهم الموجبة لعدم اتباع الأوهام والعادات<sup>(6)</sup>.

ثانياً: التمسك بالقرآن:

ولم يكتف هؤلاء المؤمنون باتباع القرآن؛ إذ إن أصل معنى الاتباع اقتفاء الأثر إمّا

(1) تفسير الطبري، (ج 2/566-569).

(2) انظر: مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني القرطبي، ت: حاتم صالح الضامن،  
 مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1405هـ، (ج 1/110).

(3) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، (ج 9/192).

(4) انظر: معاني القرآن، الزجاج، (ج 4/349).

(5) تفسير ابن كثير، (ج 7/90).

(6) انظر: السراج المنير، الخطيب الشربيني، (ج 3/440).

بالجسم أو بالائتمار<sup>(1)</sup>، لكنهم ارتقوا رتبةً هي أعلى من أختها فتمسكوا بالكتاب، وأصل الإمساك: التعلق والحفظ<sup>(2)</sup>.

وقد أمر الله نبيه ﷺ بالاستمساك بهذا القرآن - والأمر للنبي أمرٌ لأُمَّته فيما لا يختصُّ هو به -: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43]، الاستمساك: شدة المسك، فالسين والتاء فيه للتأكيد، والأمر فيه لطلب الدوام لا لطلب الفعل؛ إذ النبي متلبس أصلاً بالتمسك بالقرآن، وذلك بقريظة قوله ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهذه جملة تأكيدية تعليلية للتمسك<sup>(3)</sup>.

وقد امتدح الله المتمسكين بالكتاب من أمة محمد ﷺ ومن الأمم السابقة فقال عقب الحديث عن نبذ بني إسرائيل للتوراة: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170]، فعن عطاء عن ابن عباس: هم أمة محمد ﷺ، فيكون الكتاب القرآن، وعن أكثر المفسرين: هم مؤمنو أهل الكتاب، فيكون الكتاب التوراة<sup>(4)</sup>.

وسواءً أكان المقصود بهم مؤمني أهل الكتاب أو أمة محمد ﷺ فالمحصلة واحدة؛ فإن من يؤمن بالتوراة إيماناً صحيحاً ويدرك هذه الأمة لا ريب مؤمن بالقرآن.

ويفيد التعبير بتمسكهم بالكتاب الارتباط به كالقابض على الشيء يرجو النجاة من قبله، ومعنى تمسكهم بالكتاب الإيمان به والحكم بما فيه والعمل به<sup>(5)</sup>.

وقد تحققت فيهم صفة الصلاح والإصلاح لغيرهم وجعلها الله علة لعدم ضياع أجرهم؛ ذلك أنه وضع الظاهر (المصلحين) مكان المضمرة (لا نضيع أجرهم) فكأنه قيل: لا نضيع أجرهم لأنهم مصلحون<sup>(6)</sup>.

وفي الآية لطيفةً تصريفيةً دقيقةً، فلماذا عبّر عن التمسك بالتمسيك؟

ذهب بعض المفسرين بأن أمسك ومسك بمعنى واحد<sup>(7)</sup>، والتفريق أولى إيثارة لدقة التعبير

(1) انظر: المفردات، الراغب، (ص 162).

(2) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، (ج 4/92).

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (ج 25/220).

(4) انظر: البسيط، الواحدي، (ج 9/436).

(5) المرجع السابق.

(6) انظر: حاشية ابن التمجيد على البيضاوي، (ج 8/540).

(7) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي، (ج 5/508).

القرآني، فذهب بعضُ المفسرينَ المعاصرينَ إلى أنَّ المقصودَ بـ(يَمَسُّكَ) أي: أنَّهم هم يحافظون على العملِ بتعاليمِ الكتابِ ويدعونَ غيرهمَ للتمسُّكِ به، على اعتبارِ تعديةِ الفعلِ إلى مفعوله بنفسه بسببِ التضعيفِ<sup>(1)</sup>.

قلتُ: وهذا أرجحُ بقرينةِ وصفِ اللهِ لهم في تذييلِ الآيةِ بـ(المصلحين) فإنَّ المصلحَ لا تتحقَّقُ فيه هذه الصفةُ إلا إذا أصلحَ غيره، وهذا يكونُ بدعوتهم غيرهم إلى التمسُّكِ بالكتابِ، وهذا المعنى يناسبُ القولَ بأنَّ المعنيَّ بهذه الآيةِ مؤمنو أهلِ الكتابِ؛ إذ إنَّهم أقوى الناسِ حجةً في دعوةِ أقرانهم من اليهودِ والنصارى بعدَ أن عرفوا الحقَّ.

ونخلصُ من خلالِ النظرِ في المعنى اللغويِّ الذي ذكره السمينُ بأنَّه يعودُ للتعلُّقِ والحفظِ، ومن خلالِ الاستعمالاتِ والسياقاتِ القرآنيةِ لهذه الكلمةِ إلى أنَّ رتبةَ التمسُّكِ بالقرآنِ تفيدُ أنَّ هؤلاءِ المؤمنينَ تعلَّقتْ قلوبهم بالقرآنِ تعلقاً حملهم على شدةِ التمسُّكِ به ومراعاةِ أوامره والالتزامِ بها، وأنَّهم بلغوا منزلةً من حبِّهم لهذا الكتابِ أنَّه باتَ لديهم عزيزاً يستحقُّ أن يُحفظَ ويحافظَ عليه حتى أصبحَ قائدهم ورائدهم في كلِّ شؤونِ حياتهم، يرعونَه ويطبقونَه ويعتنونَ به ويتدبرونَه، ولفرطِ إيمانهم وقناعتهم به فهم يدعونَ غيرهم للتمسُّكِ به.

### ثالثاً: الدعوةُ بالقرآنِ:

وانطلاقاً من المعنى الأخيرِ الذي أفادته صيغةُ التفعيلِ من الإمساكِ نُزِلَ إلى الصفةِ الثانيةِ من صفاتِ أهلِ القرآنِ، وهي الدعوةُ به إلى الله، وقد أفضنا الحديثَ عن هذه المهمةِ الكبرى لأهلِ الإيمانِ سابقاً في هذا البحثِ<sup>(2)</sup>، ونذكرُ هنا أنَّ الأداةَ الأولى للدعوةِ إلى الله القرآنُ الكريمُ:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْنُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19] ... ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7] ... ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَلْذُقُوا عَلَيْهُمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30] ... والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

(1) انظر: المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد مكي، (ص 191).

(2) انظر المطلب الثاني من المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث. ص (62).

وقد وصفَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنه تالٍ للقرآنٍ لأجلِ النذارةِ ومنعِ استحقاقِ العذابِ على المنذرينَ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُوْلًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: 59]، فجملةٌ ﴿يتلو عليهم آياتنا﴾ جملةٌ فعليةٌ في محلِ نصبٍ صفةٌ لرسولٍ<sup>(1)</sup>، فما كانَ في حكمِ الله السابقِ أن يهلكَ القرى قبلَ الإنذارِ، وذلكَ بأن يبعثَ في حاضرتها رسولاً يتلو عليهم آياته الناطقةً بالحقِّ ويدعوهم إليه بالترغيبِ والترهيبِ<sup>(2)</sup>.

وجاءَ هذا الوصفُ للنبيِّ ﷺ أيضاً في سورةِ مدنيةٍ، ﴿... فَأَتَقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٥﴾ رَسُوْلًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق: 10-11]، فجملةٌ (يتلو) نعتٌ لرسولٍ<sup>(3)</sup>.

#### رابعاً: تزكية النفوس بالقرآن:

وأخصُّ من عمومِ الدعوةِ بالقرآنِ خصوصُ حصولِ التزكيةِ للنفوسِ به، فإنَّ أهلَ القرآنِ نفوسُهم طاهرةٌ طيبةٌ صالحةٌ بالأخلاقِ الحسنةِ، وهم بكونهم أطهارَ النفوسِ تتعكسُ نفوسُهم الطيبةُ على من يخالطونهم ويدعونهم حتى يتأثروا بهم، قال تعالى واصفاً المهمةَ الأولى لنبيه ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: 164].

ولهذه الآيةُ أخواتٌ تحدَّثنا عنها بشيءٍ من التفصيلِ في هذا البحثِ فليُرجعِ إليه<sup>(4)</sup>.

#### خامساً: جهادُ الحجةِ بالقرآن:

وهي صفةٌ أخرى متفرعةٌ عن صفةِ الدعوةِ والبلاغِ بالقرآنِ، فإنَّ الداعيَ بالقرآنِ المتسلِّحَ به، المتشَبِّعَ بحُججهِ، المستقيَّ من براهينه تجده لا يتوانى في دعوتهِ ودفاعهِ عن الحقِّ بإشهارِ

(1) انظر: الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، بهجت عبد الواحد صالح، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط 2، 1418هـ، (ج 428/8).

(2) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر، (ج 1794/7).

(3) انظر: الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتجب الهداني، ت: محمد نظام الدين الفتيح، دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1427هـ - 2006م، (ج 170/6).

(4) انظر المطلب الثالث من المبحث الثاني من الفصل الأول. ص (66).

آيات القرآن المُحَقَّة للحقِّ الداحضة للباطل، فالقرآن رفيقُ الدعاة والمصلحين في دعوتهم بحيث حوّلتهم رفقته لهم قرآنيين من حيث اختصاصهم بالقرآن سلاحاً لهم في كلِّ مجالات دعوتهم وجدالهم لأهل الباطل.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52].

سادساً: الإخلاص لله في الدعوة بالقرآن:

ولمّا عرف أهل القرآن نعيم الانتماء إلى هذا الكتاب المبارك، وأدركوا ما يستحقّه القرآن تضحيةً وعطاءً من أنفسهم وأموالهم وأوقاتهم، بذلوا في سبيله وله ولأجله كلَّ غالٍ ونفيسٍ دون أن تتشوّف نفوسهم على خدمته ونشره والدعوة به إلى أيِّ مقابلٍ، وهكذا كان النبي ﷺ في دعوته قومه بهذا القرآن - وكذا كلُّ الأنبياء - : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ان هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ] ﴿٧٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ [ص: 86-88].

والضمير في (عليه) عائدٌ على القرآن أو تبليغ الوحي، والقرآن على أيِّ حالٍ داخلٌ في الوحي، ثم أمر الله نبيه ﷺ أولاً بنفي التهمة عن نفسه بطلب الأجر على التبليغ ثم بنفي كونه مفترياً على الله بتصنّعه وتقوليه القرآن<sup>(1)</sup>.

فالأصل في هذه المسألة أن تكون دعوة الداعي وبذله لدين الله وكتابه خالصة لوجه الله تعالى لا تشوبها شائبة مصلحة دنيوية، وهكذا كان حال السلف رضوان الله عليهم، قال ابن المبارك: "قيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق"<sup>(2)</sup>.

وقال الإمام الذهبي: "كَانَ السَّلَفُ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِلَّهِ، فَذَبَلُوا، وَصَارُوا أَيْمَةً يُفْتَدَى بِهِمْ، وَطَلَبَهُ قَوْمٌ مِنْهُمْ أَوَّلًا لِأَنَّ اللَّهَ، وَحَصَلُوهُ، ثُمَّ اسْتَقَافُوا، وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ، فَجَرَّهُمُ الْعِلْمُ إِلَى الْإِخْلَاصِ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَغَيْرُهُ:

طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ، وَمَا لَنَا فِيهِ كَبِيرُ نِيَّةٍ، ثُمَّ رَزَقَ اللَّهُ النِّيَّةَ بَعْدُ"<sup>(3)</sup>.

وقال ابن تيمية: "أَمَّا تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمُ بِغَيْرِ أُجْرَةٍ فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَأَحَبُّهَا إِلَى اللَّهِ

(1) انظر: حاشية القونوي على البيضاوي، (ج 16/460-461)..

(2) صفة الصفة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ت: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1421هـ - 2000م، (ج 2/313).

(3) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (ج 7/152).

وَهَذَا مِمَّا يُعَلِّمُ بِالْإِضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ لَيْسَ هَذَا مِمَّا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مِمَّنْ نَشَأَ بِدِيَارِ  
 الْإِسْلَامِ. وَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُو التَّابِعِينَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ عِنْدَ الْأُمَّةِ بِالْقُرْآنِ  
 وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ إِنَّمَا كَانُوا يُعَلِّمُونَ بِغَيْرِ أُجْرَةٍ. وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يُعَلِّمُ بِأُجْرَةٍ أَصْلًا. فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ  
 وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ فَقَدْ أَخَذَ بِحِطِّ  
 وَافِرٍ. وَالْأَنْبِيَاءُ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ إِنَّمَا كَانُوا يُعَلِّمُونَ الْعِلْمَ بِغَيْرِ أُجْرَةٍ. كَمَا قَالَ نُوحٌ  
 عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الشعراء: 109]،  
 وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَلُوطٌ وَغَيْرُهُمْ . وَكَذَلِكَ قَالَ خَاتَمُ الرُّسُلِ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ  
 مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ وَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى  
 رَبِّهِ سَبِيلًا﴾<sup>(1)</sup>.

وأول وأولى أخلاق الدعوة وصفاتهم التي ينبغي أن يتحلوا بها الإخلاص، فيجب على  
 الداعي إلى الله أن يكون مخلصاً لله عزَّ وجلَّ لا يطلب رياءً ولا سمعة<sup>(2)</sup>.

والداعي إلى الله محتسب في دعوته، والحكمة من احتسابه ألا يُنهم في دعوته وأنه لم يدع  
 إلا لمكسب دنيوي، ولكي تجد دعوته القبول وتتقي عنها الشبهة<sup>(3)</sup>.

ورغم ما قدّمناه من ضرورة الاحتساب في الدعوة إلى الله وتبليغ وتعليم كتابه وتعليم العلم  
 الشرعي إلا أن العلماء قد تحدّثوا عن جواز أخذ الأجرة على هذه الأعمال إذا استوعبت وقت  
 الداعي أو المعلم بحيث لا يجد ما يرتزق به، وقد أفاض العلماء في الحديث عن هذه المسألة  
 تحت عنوان (الأجر على القربات)<sup>(4)</sup>، وذهبوا فيها مذاهب متعددة، وقد ناقش الباحث عادل  
 شاهين هذه المسألة في رسالة علمية كاملة وخلص فيها إلى ترجيح جواز أخذ الأجرة على تعليم  
 القرآن وغيره من العلوم الشرعية للحاجة أو الضرورة فقط، وهذا القول فيه جمع بين الأدلة  
 المتعارضة للمانعين والمجيزين، وفيه حفظ للدعوة وتعليم القرآن من الضياع، وفيه عدم إيقاع  
 معلم القرآن والداعي المتفرغين في الحرج بعدم القدرة على النفقة لعلاهم، ومن جهة أخرى

(1) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (ج 204/30-205).

(2) انظر: الدعوة إلى الله وأخلاق الدعوة، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء،  
 الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 4، 1423هـ - 2002م، (ص 43).

(3) انظر: أصول الدعوة إلى الله، عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، كتبه بتاريخ 27 / ذي الحجة  
 1416هـ، (ص 15).

(4) ينظر لهذا: الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، ط 1،  
 مطابع دار الصفاة، مصر، 1404 - 1427هـ، (ج 100/33 وما بعدها).

فيه عدم إغلاق باب الحسبة إذ هو الأصل في الدعوة والعلم الشرعي<sup>(1)</sup>.

وللفقهاء توجيه جميل بقياس أهل الحسبة من معلمي القرآن والدعاة على القضاة؛ إذ إن إجماع العلماء منعقد على أنه لا يجوز استتجار القضاة على القضاء بل تكون لهم أرزاق من بيت مال المسلمين إغاثة لهم على القيام بمصالحهم لا عوضاً على الفتيا وتنفيذ الأحكام، وباب الإرزاق بهذا أدخل في الإحسان وأبعد عن باب المعاوضة<sup>(2)</sup>.

قال ابن تيمية: "وما يؤخذ من بيت المال ليس عوضاً وأجرة، بل رزق للإعانة على الطاعة، فمن عمل منهم لله تعالى أثيب، وما يأخذه رزق للإعانة على الطاعة"<sup>(3)</sup>.

قلت: وتوجيه الفقهاء هذا إنما يصلح في زمان أئمة يتملكهم الحرص على دين الله ونشره، والحرص على كتاب الله وتعليمه، فيعتنون لأجل هذا بالدعاة ومعلمي القرآن أيما اعتناء فيكرمونهم ويكرمونهم ويخصّصون لهم كل ما يعينهم في دعوتهم وعلمهم وتعليمهم حتى ينفرغوا لأجل مهمة على وجه الأرض لا يتغصمهم ضيق رزق وطلب مؤونة وكدر بال.

أما في زماننا هذا فأكثر الدعاة وأهل القرآن فقراء محرومون يتنازعهم ضيق الحال وكدر البال وتضييق السلطان عليهم من كل جانب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

**المطلب الثاني: تعظيم آيات الله وسرعة الاستجابة لها.**

وما حمل أهل القرآن على الدعوة والاتباع إلا إيمان صادق بالقرآن وقر في قلوبهم، إيمان حاملاً لهم على تعظيم هذا الكتاب وسرعة الاستجابة لما فيه من أحكام، وسنتحدث في هذا المطلب عن صفة الإيمان هذه وما يتفرغ عنها من ثمار في النقاط الآتية:

**أولاً: الإيمان بآيات الله:**

قال الله تعالى واصفاً المؤمنين في سورتهم سورة المؤمنون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا

(1) انظر: أخذ المال على أعمال القرب، عادل شاهين شاهين، أصل الكتاب رسالة ماجستير، دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، ط 1، 1425هـ - 2004م، (ج 2/498).

(2) انظر: أنوار البروق في أنواء الفروق، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي الشهير بالقرافي، ت: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ - 1998م، (ج 3/5).

(3) انظر: الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية لدى تلاميذه، سامي بن محمد جاد الله، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1435هـ، (ج 2/622).

وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦١﴾ أَوْلَيْكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦٢﴾  
[المؤمنون: 57-61].

فالصفة الثانية بعد خشيتهم لربهم التي تجعلهم دائبين في طاعته جادين في نيل مرضاته، التصديق بآيات ربهم المنزلة على أنبيائه، وآياته الكونية الدالة على وحدانيته تصديقاً لا يعتريه شك ولا ريب<sup>(1)</sup>.

وفي آية إيمانهم بالآيات لطائف:

1- جاءت هذه الصفات في غاية الحُسْنِ، ودلت الصفة الثانية منها على قوة إيمانهم بآيات ربهم<sup>(2)</sup>، وتُفهم هذه القوة من بناء الجملة الفعلية على المبتدأ حيث قَدَّمَ فاعل (يؤمنون) فصار مبتدأ (هم)، وفي الجملة الاسمية تقوية للحكم، وكذلك من تقديم الجار والمجرور (بآيات) على معموله إفادة للاهتمام والعناية.

2- عبّر بالمضارع (يؤمنون) إشارة إلى تجدد إيمانهم بآيات ربهم شكراً على إحسانه إليهم، ويقوي معنى هذا التجدد أنه بدأ صفاتهم بالخشية الحاملة على تجديد الإيمان<sup>(3)</sup>.

والخلاصة: أن أهل القرآن يتصفون بإيمان بالقرآن مشفوع بالخشية من الرحمن، متجدد على مر الأوقات والأزمان، ثابت راسخ ثبوت الجبال.

ثانياً: الإقبال على آيات الله:

فمن كان هذا حاله مع الإيمان بآيات الله وحججه ودلائل توحيده لا ريب يُقبل عليها فاهماً مُدركاً واعياً مستجيباً، وقد وصف الله عباد الرحمن بهذه الصفة من بين صفاتهم المذكورة في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: 73].

أي: "هم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها"<sup>(4)</sup>.

وفي التعبير بقوله (لم يخرؤا) - الذي يُعبّر به عن الإقامة والدوام على الفعل<sup>(5)</sup> - دلالة

(1) انظر: تفسير المراغي، (ج 33/18).

(2) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 283/23).

(3) انظر: نظم الدرر، البقاعي، (ج 159/13).

(4) تفسير السعدي، (ص 587).

(5) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي، (ج 5266/8).

على يقظة قلوبهم بحيث لا تقيم على إعراض أو صمم عن آيات الله، فإن أصابها فتور أو بُعد سرعان ما تتيقظ وتعود وتقبل على آيات ربها.

### ثالثاً: زيادة الإيمان:

رسوخ الإيمان بالآيات، والإقبال عليها بالفهم والتدبر والتفاعل والخشية لا بدّ مورث زيادة الإيمان بها والثبات عليها، وهذا حال المؤمنين مع القرآن، وتلك هي صفتهم المحمودة بازدياد الإيمان كلما أقبلوا على القرآن وتدبروه أكثر فأكثر، قال الله تعالى مبيّناً الكمال في صفات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2-4].

عن ابن عباس ﴿زادتهم إيماناً﴾: تصديقاً، أي: كلما جاءهم شيء عن الله آمنوا به فيزدادون إيماناً بزيادة الآيات. وعن الضحّاك: يقيناً. وعن الربيع بن أنس: خشية لله<sup>(1)</sup>.

وكيفية هذه الزيادة: "أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان"<sup>(2)</sup>.

وذكر الله صفة زيادة الإيمان بالاستماع إلى القرآن وتلاوته لدى المؤمنين في مقابل صفة انقباض القلب وزيادته مرضه لدى المنافقين: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: 124-125].

### رابعاً: سرعة الاستجابة لآيات القرآن والاتعاظ به:

ومن ثمرات الإيمان والتصديق واليقين والخشية سرعة الاستجابة لآيات الله بالخضوع والسجود والطاعة، وقد وصف الله حال من ذكروا بآيات ربهم وهم مؤمنون موقنون: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: 15].

(1) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، (ج 2/188).

(2) تفسير السعدي، (ص 315).

والمعنى: إنَّما يؤمنُ بآياتنا الدالة على عظمتنا الذين إذا ذكروا بها من أيِّ مُذَكِّرٍ بادروا إلى السجودِ مبادرةً من كآئهِ سقطَ من غيرِ قصدٍ تواضعاً لله وخشياً وإخباتاً وخضوعاً ثابتاً دائماً، ولمَّا تضمَّنَ هذا السجودُ تواضعهم صرَّحَ به في ختام الآية، أي لا يستكبرونَ عن الإيمانِ والطاعة<sup>(1)</sup>.

وإقبالهم هذا على آياتِ الله بعدَ فهمها يكونُ من غيرِ تردُّدٍ ولا تسويفٍ تحقيقاً لمعنى الخورِ الذي هو السقوطُ على الوجهِ سجوداً تعظيماً لله<sup>(2)</sup>.

وسرعةُ الاستجابةِ قرينةُ حصولِ الموعظةِ بهذا القرآنِ لمن كانَ هذا حاله معَه من الإيمانِ والإقبالِ عليه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 51].

به: أي بالقرآنِ، واختصَّ الذينَ يخافونَ الحشرَ والحسابَ والعقابَ معَ أنَّ النبيَّ مُنذِرٌ للناسِ كافةً لأنَّ الإنذارَ ينفَعُهُم؛ فهم صدَّقوا بالبعثِ وآمنوا فهم قابلونَ الإنذارَ ومصدِّقوه.<sup>(3)</sup>

#### المطلب الثالث: تعليمُ القرآنِ.

الصفةُ الحقَّةُ الموصلةُ إلى رتبةِ الربَّانيَّةِ هي تعلُّمُ القرآنِ وتعليمُه للناسِ، قال اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبِّيِّعْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

الربانيون: جمعُ ربَّانيٍّ، وهو إمَّا نسبةٌ إلى (الربِّ) فالألْفُ والنونُ زائدتانِ للمبالغةِ ك(الحيانيِّ وِرقبانيِّ وشعرانيِّ)، أو هو منسوبٌ إلى (الربَّانِ)، وهو الذي يسوسُ الناسَ ويدلُّهم على الخير<sup>(4)</sup>.

ومعنى الربَّانيين عندَ السلفِ: روى أبو جعفرٍ: عن أبي رُزينٍ: كونوا حكماءَ علماء، وعن الحسنِ وقتادة: فقهاءَ علماء، وعن مجاهدٍ: فقهاءَ علماء وهم فوقُ الأُخبارِ، وعن ابنِ عباسٍ: حكماءَ فقهاء، وعن سعيدِ بنِ جبيرةٍ: حكماءَ أتقياء، وعن ابنِ زيِّدٍ: هم ولاةُ الأمرِ يربُّونَ الناسَ.

ثمَّ قالَ بعدَ ما أوردَ تلكَ الأقوالَ: "فـ(الربَّانيون) إذا هم عمادُ الناسِ في الفقه والعلم وأُمورِ الدينِ والدنيا ... و(الربَّاني) الجامعُ إلى العلم والفقه البصرَ بالسياسةِ والتدبيرِ والقيامَ بأُمورِ

(1) انظر: السراج المنير، الشربيني، (ج 3/208).

(2) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث، (ج 8/123-124).

(3) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكِّي، (ج 3/2030).

(4) انظر: الدر المصون، السمين، (ج 3/275-276).

الرعية، وما يُصلحهم في دُنْيَاهُمْ ودينهم<sup>(1)</sup>.

وإنما حازوا هذه المرتبة من الجمع بين العلم والفقهِ والحكمة والقيام على شؤونِ الناسِ وإصلاحهم وصاروا ربانيين باتصالهم بالله من غيرِ واسطةٍ إنما حازوا ذلك كله بالوسيلة الحقيقية للاتصال بالله وهي تعليمُ الكتابِ ودراسته، فبعلمِ الكتابِ وتعليمه والعمل به يكون الإنسانُ ربانياً مرضياً عندَ الله تعالى<sup>(2)</sup>.

قرأ أبو جعفرٍ ونافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمروٍ ويعقوبُ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ بالفتح والتخفيفِ، وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمرَةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالضمِّ والتشديد<sup>(3)</sup>.

فقرأةُ التخفيفِ من العلمِ، وقرأةُ التشديدِ من التعليمِ، وهذه الثانيةُ أبلغُ؛ ذلك أنَّ المُعَلِّمَ لا يُعَلِّمُ غيرهَ إلا وهو عالمٌ بما يُعَلِّمُ<sup>(4)</sup>.

فالقراءتانِ متكاملتانِ، فهؤلاءِ قومٌ يتعلمونَ القرآنَ ثمَّ يُعلِّمونه للناسِ بكلِّ ما حوى من حكمةٍ وفقهِ وعلمٍ تصلحُ به حياةُ البشرِ.

#### المطلب الرابع: الطمأنينةُ والخشوعُ عندَ سماعِ القرآنِ.

ولمَّا وقَرَ الإيمانُ في قلوبِ أهلِ القرآنِ وازدادوا به إيماناً وخشوعاً ويقيناً وخضوعاً واستجابةً وعملاً ظهرَ أثرُ ذلك على أحوالهم عندَ سماعِ كتابِ ربِّهم الذي خامرت معانيه عقولهم وخالجت رهبته قلوبهم فوجلت القلوبُ واقتشعرت الجلودُ وخشعت الجوارحُ وفاضت بالدمعِ العيونُ، وسنتحدثُ عن هذه الأحوالِ في النقاطِ الآتية:

#### أولاً: الطمأنينةُ والخشوعُ:

تتبعُ الطمأنينةُ في القلبِ ومن ثمَّ منه يسري الخشوعُ إلى سائرِ الجوارحِ؛ فالقلبُ - كما قدَّمنا - سيدُ الأعضاءِ ومحركُها والمهيمنُ عليها، فمتى سرت فيه السكينةُ والطمأنينةُ والخشوعُ والخشيةُ والإخباتُ ظهرَ أثرُ كلِّ ذلك على أتباعه.

(1) تفسير الطبري، (ج 6/540-544).

(2) انظر: تفسير المنار، رضا، (ج 3/286).

(3) المبسوط في القراءات العشر، أحمد بن حسين أبو بكر النيسابوري، ت: صبيح حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1981م، (ص 167).

(4) انظر: الموضح في وجوه القراءات وعللها، نصر بن علي ابن أبي مريم، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، ط 1، 1414هـ - 1993م، (ص 376-377).

وقد وصف الله قلوب المؤمنين بالطمأنينة عند الاستماع إلى ذكر الله، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

عن مجاهد: ﴿بذكر الله﴾: القرآن<sup>(1)</sup>.

أصل الطمأنينة: السكون والسكينة، واطمأنت الأرض وتطامنت: انخفضت<sup>(2)</sup>.

فالطمأنينة حالة خاصة بالقلب، والخشوع أثر تلك الطمأنينة على الجوارح.

وقد يُقال: كيف وصف الله القلب بالوجل عند ذكر الله تارة، ووصفه بالطمأنينة تارة أخرى

وهما حالتان متناقضتان؟

قال الإمام الفخر: "وجوابه: أَنَّهُمْ إِذَا ذَكَرُوا الْعُقُوبَاتِ وَلَمْ يَأْمَنُوا مِنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَى الْمَعَاصِي فَهَذَاكَ وَصَفَهُم بِالْوَجَلِ، وَإِذَا ذَكَرُوا وَعَدَهُم بِالنَّوَابِ وَالرَّحْمَةِ، سَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَأَخَذَ الْأَمْرَيْنِ لَا يُنَافِي الْأَخْرَ، لِأَنَّ الْوَجَلَ هُوَ بِذِكْرِ الْعِقَابِ وَالطُّمَائِنَةَ بِذِكْرِ النَّوَابِ"<sup>(3)</sup>.

وقال أيضاً في بيان ماهية هذه الطمأنينة التي تحصل في القلب ما حاصله: القلب من الموجودات الروحانية التي تؤثر وتتأثر، فإذا توجه إلى عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والتعلق الشديد بها، وإذا توجه إلى مطالعة الحضرة الإلهية حصلت فيه الأنوار الصمدية فسكن واطمأن، ولما كانت المعارف الإلهية والأضواء الصمدية منتهى السعادات كلها بقي عندها القلب وسكن فلم ينتقل إلى ما هو أعلى لعدمه، وهنا يحصل له دوام السكون والطمأنينة التي عبر عنها بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار<sup>(4)</sup>.

ووصف الله تعالى أيضاً عباده بالخشوع فقال مبيناً باعث الخشوع معاتباً المؤمنين على قلة خشوع قلوبهم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِفُونَ﴾ [الحديد: 16].

خشع: الخاء والشين والعين أصل واحد يدل على التطامن، يقال: خشع إذا تطامن وطاطماً

(1) انظر: تفسير الماوردي، (ج 3/110).

(2) انظر، لسان العرب، ابن منظور، (ج 13/268).

(3) التفسير الكبير، (ج 19/39).

(4) انظر: المرجع السابق، (ج 19/40).

رأسه، وخشع سنامُ البعير: إذا ذهب إلا أقله، والخاشعُ المستكينُ والراكعُ<sup>(1)</sup>.

وأصلُ الخشوعِ في الجوارح، وللقلبِ الخضوعُ، ولذا إذا تواضع القلبُ وخضع خشعت الجوارحُ<sup>(2)</sup>.

فأصلُ هذا الجذرِ يدلُّ على انخفاضٍ وسكينةٍ وهدوءٍ وتطامنٍ، وهذا هو الملاحظُ في التعريفِ الاصطلاحيِّ للخشوعِ.

فالخشوعُ: قيامُ القلبِ بينَ يدي الربِّ بالخضوعِ والذلِّ، ومحلهُ القلبُ، وثمرتهُ على الجوارحِ<sup>(3)</sup>.

ومعنى الخشوعِ في هذه الآيةِ لينُ القلبِ ورقتهُ عندَ سماعِ وعظِ اللهِ وتذكيرهِ وقرآنه فتفهّمه وتتفادُ له<sup>(4)</sup>.

ومناسبةُ الرقةِ واللينِ للمعنى اللغوي من جهةِ كونِ اللينِ والرقّةِ حالتانِ تردانِ على القلبِ القاسي فيحصلُ بهما اللينُ والانكسارُ الذي يُشبهُ التطامنَ والخضوعَ بعدَ الصلاةِ بالقسوةِ.

وقد وصفَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بصفةِ الخشوعِ حالَ تلبّسهم بالصلاةِ التي هي محلُّ تلاوةِ القرآنِ، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: 1-2].

وفي معنى الخشوعِ في الصلاةِ عندَ السلفِ أربعةُ أقوالٍ: أولها: النظرُ إلى موضعِ السجودِ، وثانيها: تركُ الالتفاتِ في الصلاةِ، وثالثها: السكونُ في الصلاةِ، ورابعها: الخوفُ<sup>(5)</sup>.

وكلُّها معانٍ تدورُ حولَ معنى حصولِ السكينةِ على الأعضاءِ بوقوعِ الخوفِ والخضوعِ في القلبِ، قالَ الحسنُ البصريُّ: كانَ خشوعُهُم في قلوبِهِم فغضُّوا بذلكَ أبصارَهُم وخفضوا الجناحَ<sup>(6)</sup>.

ويحصلُ الخشوعُ في الصلاةِ لمن فرَّغَ قلبه لها واشتغلَ بها عمّا عداها وآثرها على غيرها، فحينئذٍ تصيرُ راحةً وقرّةً عينٍ له<sup>(7)</sup>.

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس، (ج 2/182).

(2) انظر: الكليات، الكفوي، (ص 430).

(3) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، بدون سنة نشر، (ج 2/1342).

(4) انظر: التفسير المنير، (ج 27/315).

(5) زاد المسير، ابن الجوزي، (ج 3/255).

(6) الدر المنثور، السيوطي، (ج 6/84).

(7) انظر: تفسير ابن كثير، (ج 5/461).

وخالصة هاتين الصفتين أنّ الطمأنينة صفة راسخة في قلوب المؤمنين تنبعث من إيمانهم برّبهم ويقينهم بوعده في كتابه، فهي صفة ينعقد عليها القلب بما استقرّ فيه من الإيمان، أمّا الخشوع فصفة ناشئة عن الطمأنينة حاصلة بزيادة الإيمان وتلبس العبد بأحوال الخضوع والخشية والخوف والرجاء كلّما تلى القرآن وحصلت له بتلاوته معانٍ تحمله على الرغب والرهب.

وقد قرع القرآن الذين يستمعون إلى القرآن أو يتلونه فتبقى قلوبهم على قسوتها فلا ينتفعون بما يسمعون ولا يحرك لهم قلباً ولا ركناً، قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

فهذا القرآن لو فرض أنه نزل على جبل أصمّ من الجبال العاتية لرأيتَه مع كونه مثلاً في القسوة علماً في لارسوخٍ متهاوياً متداعياً متشققاً لعلو شأن القرآن وشدّة تأثيره بزواجره وقوارعه، والمراد بهذا المثل توبيخ الإنسان وتعنيفه على قسوة قلبه وقلة خشوعه أمام هذا القرآن العظيم<sup>(1)</sup>.  
ثانياً: قشعيرة الجلود:

وهي مندرجة في الخشوع مخصوصة عنه بمحلّها وهو الجلد، وبدافعها وهو الوجل، فخصناها هنا لأجل ذلك، ولأنّ الله خصّ هذه الحالة في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: 23].

اقشعر جلد الرّجل اقشعراراً، فهو مقشعر، واقشعرت الأرض: أي تقبّضت وتجمّعت، واقشعر الجلد من الجرب والنبات إذا لم يصب ريباً، واقشعر جلده إذا قف<sup>(2)</sup>، واقشعر جلده: أخذته قشعيرة، أي: رعدة<sup>(3)</sup>.

فالقشعيرة من صفات أهل القرآن عند تلاوة الآيات وجللاً ورهباً، أخرج عبد الرزاق في تفسيره بسنده قال: تلا فتأده ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23] قال: "هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ نَعْتَهُمُ اللَّهُ أَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ ، وَتَبْكِي أَعْيُنُهُمْ ، وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَنْعَتَهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ ، وَالْعَشْيَانِ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ

(1) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث، (ج 10/1369).

(2) انظر: لسان العرب، (ج 5/95).

(3) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، التحقيق: شراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 8، 1426هـ - 2005م، (ص 462).

الْبِدْعِ وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ" (1).

والحديث في هذه الآية عن قشعريرة الجلود يجوز أن يراد به التمثيل تصويراً لشدة خشية المؤمنين الذين يستمعون القرآن، ويجوز أن يراد به التحقيق، فإن القشعريرة انقباض الجلد، والمعنى: أنهم إذا سمعوا القرآن وآيات وعيده أصابتهم خشية نقشعروا منها جلودهم، ثم إذا ذكروا رحمة الله وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال ما كان بها من القشعريرة (2).

قلت: والتحقيق وقوعها - أي القشعريرة - حساً لا تمثيلاً، فهذا محسوس معلوم ممن يقرأ ويسمع بقلبه آيات الله وما فيها من وعيد تتخلع له القلوب، فإنك تستشعر الرعدة تسري في بدنك، وتحس قف شعرك جلدك عند هذه الحالة من التلاوة والاستماع.

ثالثاً: بكاء العيون:

وهذا مظهر آخر من مظاهر الخشوع، مندرج هو أيضاً فيه، مخصوص عنه بمجمله وهو العين، فإن العبد متى لامس كلام الرحمن شغاف قلبه، واستقرت معانيه العظيمة في وجدانه، وحركت صادق مشاعره ظهر الأثر الانفعالي لهذه الوجدانات الروحانية على البدن بالقشعريرة وعلى العين بفيض الدمع.

وقد بين القرآن الكريم أن صفة البكاء هذه صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهم أحرى الناس بالتأثر بكلام الله الموحى إليهم، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58].

فاسم الإشارة (أولئك) يعود على الأنبياء المذكورين قبل من أول السورة وهم عشرة بدءاً بزكريا وانتهاءً بإدريس عليهم الصلاة والسلام، (وممن هدينا واجتبيينا): (من) للتبويض، واجتبيينا: أي لرسالتنا، وقوله: ﴿حَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾: بيان لعظم خشيتهم من الله تعالى ولرقة مشاعرهم وشدة تأثرهم عند سماع كلامه.

وجمع الله لهم بين السجود والبكاء للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم بالسجود فهم أصحاب قلوب رقيقة وعواطف جياشة بالبكاء (3).

(1) تفسير عبد الرزاق الصنعاني، (ج 3/130).

(2) انظر: تفسير الزمخشري، (ج 4/124).

(3) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 9/49-50).

وَمِمَّنْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ أَيْضاً أَنَّ الْبِكَاءَ يَقَعُ لَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مِمَّنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ قَبْلَ نَزُولِهِ لَعَلِّهِمْ بِهِ مِنْ كِتَابِهِمْ، وَهُمْ مُؤْمِنُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ١٣٦ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٣٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٣٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٣٩﴾ [الإسراء: 106-109].

فالأمرُ في (آمنوا به أو لا تؤمنوا) للتسوية، وهو كناية عن الإعراض عن الجهلة الذين كفروا بالقرآن واحتقارهم وعدم المبالاة بهم، وفي جملة (إن الذين أوتوا العلم من قبله ...) تعليق لهذا الإعراض، وتكريماً لأهل العلم الذين يحملهم علمهم على الإيمان بالقرآن من قبل نزوله، وهؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بالقرآن والنبي ﷺ لما وجدوه من ذكرٍ لهما في كتبهم أمثال ورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهم.

والبكاء هنا بكاء فرح وبهجة ناشئ عن شوق، وذلك لما شاهدوه من دلائل صدق رسوله وتحقيق وعده، وهذا المعنى يشير إليه تسبيحهم وقولهم (إن كان وعد ربنا لمفعولاً) ففيه تعجب وبهجة من تحقق وعد الله في كتبهم بمجيء الرسول الخاتم ﷺ<sup>(1)</sup>.

وأيةٌ ثالثةٌ تتحدثُ عن أهل الكتاب أيضاً، عن النصارى منهم خاصة، تصفُ حالة بكائهم العجيبة عند سماع ما عرفوا من القرآن المذكور في كتبهم، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامِنَّا فَكُنْ بِنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ [المائدة: 82-85].

نزلت هذه الآيات تحكي حال النجاشي وأصحابه لما تلى عليهم جعفرُ صدرَ سورة مريم<sup>(2)</sup>، وقد أخرج ابن إسحاق أن النجاشي قال لجعفرٍ لما حدثته عن الإسلام: "هل معك شيء مما جاء به- وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله-؟ فقال جعفر: نعم، قال: هلم فأتل علي ما جاء به، فقرأ عليه صدرًا من (كهيعص) فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته،

(1) انظر: التحرير والتنوير، (ج 15/232-235).

(2) انظر: الدر المنثور، (ج 3/129).

وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة الذي جاء بها موسى (1)»(2).

وفي التعبير (تفيض أعينهم من الدمع) إقامة المسبب مكان السبب، فالفيض مسبب عن الامتلاء، فكأنك قلت: امتلأت أعينهم من الدمع حتى فاض عن جوانبها، أو هو من المبالغة في وصف بكاء أعينهم وذلك بإسناد الفيض إلى العين، وحقيقته أنه يُسند إلى الدمع، كقولهم: دمعت عينه (3).

وفي هذا التعبير إشارة واضحة لما بلغ بهؤلاء من التأثر بالحق الذي سمعوه من النبي ﷺ حتى وافق شيئاً في نفوسهم أثار مشاعرهم حتى أجرى دموعهم سيولاً، وفيه إلماح إلى طول انتظار خبر ضاقت بنقيضه النفوس حتى ما كادوا يصدقون مجيئه.

وقد لاحظ الباحث أن الآيات التي تحدثت عن بكاء المؤمنين عند سماع الحق إما أن تذكر الأنبياء خاصة كما هي آية سورة مريم، أو تذكر مؤمني أهل الكتاب الذين علموا الحق من كتبهم ولم ينجرفوا إلى ما انزلق فيه أقرانهم من التحريف والكفر كما هما آيات الإسراء والمائدة، فلماذا يا ترى هذه الخصوصية؟

أقول: إن المتتبع لأحوال مؤمني أهل الكتاب عبر الأزمنة الطويلة منذ رفع نبي الله عيسى ﷺ إلى السماء حتى يومنا هذا يدرك حجم الاضطهاد الذي تعرضوا له من كفر أهل الكتاب، والتضييق والقتل والرمي بالهرطقة وإقامة محاكم التفتيش (4)، مما جعلهم بتمسكهم بالحق الذي عرفوه في محنة عظيمة وهم ينتظرون هذا الحق، حتى إذا بُعث النبي ﷺ بالقرآن الحق وهياً الله لهم الخلوص إليه واستماعه لأمس القرآن شيئاً عميقاً في نفوسهم ولدتُهُ سنو الاضطهاد الطويل

---

(1) هكذا (موسى) في أكثر المصادر، وقد وقع عند البيهقي أنه عيسى عليهما جميعاً الصلاة والسلام. انظر: دلائل النبوة، أحمد بن الحسين الخسروجدي الخراساني البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1405هـ، (ج 2/303).

(2) سيرة ابن إسحاق، (ص 215).

(3) انظر: تفسير الزمخشري، (ج 1/670).

(4) ينظر لهذا: أقباط مسلمون قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فاضل سليمان، شركة النور للإنتاج الإعلامي والتوزيع، ط 1، 2010م. - طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون، أحمد عبد الوهاب بكر، مكتبة وهبة، ط 1، 1400هـ - 1980م. - The dark side of christian history, Helen Ellerbe, morningstar - 1980م. - محاكم التفتيش، د. رمسيس عوض، دار الهلال، بدون سنة نشر. - محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها، د. علي مظهر، المكتبة العلمية، مصر، 1947م.

فما فطنوا على أنفسهم إلا والدموع تنهمرُ لشدة الفرح بما انتظروا دهرًا من أعمارهم وأعمارِ  
أحبارهم الذين قضوا من قبلهم دفاعاً عن عقيدة التوحيد.

وبالمجمل فإن حالة البكاء هذه هي منتهى الآثار الحسية لطمأنينة القلب، وهي أعلى  
درجات الخشوع، وينبغي أن ننبه على لطيفة مستفادة من دقة التعبير القرآني عن البكاء بـ(تفيضُ  
من الدمع) فإن العين لا تفيض بالدمع إلا إذا امتلأت من لقاء نفسها؛ فالتعبيرُ بالفيضان يدلُّ  
على تلقائية في البكاء ناجمة عن تأثر حقيقي لا عن تكلفٍ لاستحضار دمع العين، يقول الإمام  
القرطبي: "فَهَذِهِ حَالَةُ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ، الْخَائِفِينَ مِنْ سَطْوَتِهِ وَعُقُوبَتِهِ، لَا كَمَا يَفْعَلُهُ جُهَالُ الْعَوَامِّ  
وَالْمُبْتَدِعَةُ الطَّعَامِ"<sup>(1)</sup> مِنَ الرَّعِيقِ وَالرَّئِيرِ وَمِنَ النَّهَاقِ الَّذِي يُشْبِهُ نَهَاقَ الْحَمِيرِ. فَيَقَالُ لِمَنْ تَعَاطَى  
ذَلِكَ وَرَعِمَ أَنَّ ذَلِكَ وَجْدٌ وَخُشُوعٌ: لَمْ تَبْلُغْ أَنْ تُسَاوِيَ حَالَ الرَّسُولِ وَلَا حَالَ أَصْحَابِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ  
بِاللَّهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالتَّعْظِيمِ لِجَلَالِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَتْ حَالُهُمْ عِنْدَ الْمَوَاعِظِ الْفُهُمَ عَنِ اللَّهِ وَالْبُكَاءِ  
خَوْفًا مِنَ اللَّهِ. وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ أَحْوَالَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ سَمَاعِ نِكْرِهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ فَقَالَ: "وَإِذَا  
سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا  
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، فَهَذَا وَصْفُ حَالِهِمْ وَجِوَادِهِمْ مَقَالِهِمْ. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ عَلَى هَدْيِهِمْ  
وَلَا عَلَى طَرِيقَتِهِمْ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلَيْسَتْ، وَمَنْ تَعَاطَى أَحْوَالَ الْمَجَانِينِ وَالْجُنُونِ فَهُوَ مِنْ  
أَخْسِهِمْ حَالًا، وَالْجُنُونُ فُنُونٌ"<sup>(2)</sup>.

وضابط هذه المسألة أن يسيل الدمع أو يصدر الصوت بالغلبة والعفوية رغم محاولة  
حبسه، وهذا نزرٌ يسيرٌ من نماذج السلف يتحقق به الاستدلال:

1- عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "... وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك دمعته حين  
يقرأ القرآن..."<sup>(3)</sup>، والشاهد قولها: "لا يملك دمعته".

2- عن نافع، قال: " كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ إِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ  
قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: 16] بَكَى حَتَّى يَغْلِبَهُ الْبُكَاءُ"، والشاهد قوله: حتى يغلبه البكاء.

3- وهذا البكاء لا يمنع من صدور صوت أزيزٍ أو نحيبٍ لا يملكه الإنسان، فعن مطرفٍ عن

(1) الطعام والطعام: أرذال الناس وأوغادهم. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، (ص 1133).

(2) تفسير القرطبي، (ج 366/7).

(3) جزء من حديث، أخرجه البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، (ج

803/2)، رقم الحديث: (2175).

أبيه، قال: "رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُصليّ وفي صدره أزيزٌ كأزيزِ الرَّحى من البكاء" (1).

4- وهذا عمرٌ ﷺ يُسمعُ له صوتٌ نشيجٍ أثناءَ التلاوةِ، فعن عبد الله بن شداد بن الهاد (2) قال:

سمعت عمر يقرأ في صلاة الصبح سورة يوسف، فسمعت نشيجه (3)، وإني لفي آخر الصفوف، وهو يقرأ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (86) [يوسف: 86] (4).

فعدنما تجدُ الصلاةَ والتلاوةَ ولا تجدُ التأثرَ والعملَ فاعلم أنّ القلبَ لم ينتفع بالإيمانِ ولم يدرك حقائق القرآن التي تخلعُ القلوبَ، فتجدُ أحدهم يحافظُ على الأورادِ والأذكارِ ثمَّ هوَ تسوؤُ أخلاقه ويسيءُ معاملتهِ الناسِ، فهذا لم ينتفع بصلاته ولا تلاوته، وقد كان من دعاءِ النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ صَلَاةٍ لَا تَنْفَعُ (5)"، وكان من دعائه: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَرْبَعِ: مِنَ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ" (6).

#### المطلب الخامس: الفرحُ بالقرآن.

الفاءُ والراءُ والحاءُ أصلان: يدلُّ أحدهما على خلافِ الحزنِ (7)، والفرحُ: لذةٌ تقعُ في القلبِ بإدراكِ المحبوبِ ونيلِ المشتهى والسلامةِ من المكروهِ (8).

وأى لذةٍ تحصلُ أعظمُ من لذةِ الأنسِ بكلامِ الله؟ وأيُّ محبوبٍ يُدركُ أعظمُ من هدى

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة، (ج 173/2)، رقم الحديث: (904). قال محقق الكتاب: إسناده صحيح.

(2) هو عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي المدني ثم الكوفي، فقيه تابعي، وُلد في زمان النبي ﷺ، ثقة قليل الحديث، قتل في فتنة ابن الأشعث سنة اثنتين وثمانين. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، (ج 488/3)، برقم: (110).

(3) النشيج: صوت متردد في الصدر. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط 1، 1429هـ - 2008م، (ج 2210/3).

(4) مناقب عمر بن الخطاب، أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي، ت: حلمي إسماعيل الرشدي، دار العقيد للتراث، الإسكندرية، (ص 159).

(5) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب في الاستعاذة، (ج 647/2)، رقم الحديث: (1549). قال محقق الكتاب: صحيح.

(6) المرجع نفسه، برقم: (1548). قال محقق الكتاب: صحيح.

(7) انظر: مقاييس اللغة، (ج 499/4).

(8) موسوعة فقه القلوب، التويجري، (ج 1337/2).

الرحمن؟ وأي مشتهى يُنال أعظم من المنافع الحاصلة من اتباع كتاب الله؟ وأي مكروه يُدفع أخطر مما يُنجي منه كتاب الله؟

قال الودودُ سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: 57-58].

والمعنى: جاءكم هذه الموعظة وهذا الشفاء ويعني به القرآن بإفضال الله عليكم وإرادته الخير بكم، ثم قال: ﴿فبذلك فليفرحوا﴾: أشار بذلك إلى القرآن، وعن ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن، وقال أبو سعيد: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلهم من أهله<sup>(1)</sup>.

وكون القرآن خيراً مما يجمع الناس من الدنيا لأنه هو سبب السعادة في الدارين، وما يجمعونه سبب السعادة في الدنيا وحدها، وقد نال المسلمون الأوائل بسببه الملك الواسع والخير الكثير مع الصلاح والإصلاح مما لم يتفق لغيرهم<sup>(2)</sup>.

و(قل بفضل الله وبرحمته)، و(فبذلك فليفرحوا) جملتان، حُذفت متعلقُ الباءِ في (بفضل) وهو (ليفرحوا) على تقدير ليفرحوا بفضل الله ورحمته، ثم عُطفت الثانية على الأولى على سبيل التوكيد والتقرير والاختصاص، وذلك الاختصاص على معنى إيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، والفاء في (فليفرحوا) مُنبئة عن شرطٍ مقدر، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصّوهما بالفرح فإنه لا شيء يُفرح به أحقّ منهما<sup>(3)</sup>.

فهذا الأسلوب القرآني المعجز في التعبير دلّ أوضح دلالة على أنه لا شيء يستحقّ الفرح الحقيقي كنعمة الإسلام والقرآن والهداية، وهذه هي حال أهل القرآن الذين عرفوا هذه المعاني حقّ المعرفة وأدركوا أنّ سعادتهم وعزهم ومجدهم وذكرهم وفلاحهم وصلاح جميع أحوالهم في هذا القرآن إن هم أقاموه في حياتهم، فحقّ لواحدهم أن يُسرّ ويفرح وينشرح للقرآن الذي هو في حياته أعلى من كلّ حياته.

(1) انظر: البسيط، الواحدي، (ج 11/230-231).

(2) انظر: حدائق الروح والريحان، (ج 12/283).

(3) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، (ج 6/75).

وقد أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي يعقوب بن عبد الكلاعي<sup>(1)</sup> قال: "لَمَّا قَدِمَ خَرَجُ الْعِرَاقِ إِلَى عُمَرَ خَرَجَ عُمَرُ وَمَوْلَى لَهُ فَجَعَلَ لَهُ فَجَعَلَ عُمَرُ يَعُدُّ الْإِبِلَ فَإِذَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَجَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَيَقُولُ مَوْلَاهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا وَاللَّهِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَقَالَ عُمَرُ: كَذَبْتَ لَيْسَ هَذَا هُوَ، يَقُولُ اللَّهُ: بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَهَذَا مِمَّا تَجْمَعُونَ<sup>(2)</sup>".

### المطلب السادس: عدم المبالاة بأعداء القرآن.

وتتَّوَّجُّ صفاتُ أهل القرآن الذين اتصلوا به اتصال الروح بالجسد، وحيوا به حياة الأرض الميتة بالماء، وخالط جوى نفوسهم حتى باتت نفساً من أنفاسهم، وتمكَّن من ملكات عقولهم حتى صار الحقيقة المطلقة التي ليست بعدها حقيقة، يتَّوَّجُّ كلُّ هذا باليقين المطلق بالقرآن الذي يحملهم على الإعراض عن أعداء القرآن وعدم المبالاة بهم.

ولمَّا اشتدَّ أذى المشركين بالنبي ﷺ وأتباعه بمكة ولقي النبي ﷺ منهم كلَّ صِدِّ وتكذيبٍ وإعراضٍ عن القرآن وسخريةٍ به وبصاحبه نزلت عليه الآيات تأمره ألا يضيق صدره بتكذيبهم وإعراضهم وما يلقاه من عناء التبليغ، قال الله تعالى: ﴿كِتَبْنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2].

فالداعي إلى الله يجب أن يكون قوي القلب في تحمل أعباء حمل القرآن، مطمئن البال على حسن عاقبته، لا يتأثر بالمخالفة، ولا يضيق صدره بالإنكار<sup>(3)</sup>.

وقد جاءه الأمر ثانية بالإعراض عمَّن تولى عن القرآن، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29].

أي: اترك ولا تهتمَّ أيُّها الرسولُ بمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق وهو القرآن العظيم، ولا تحرض على هداهم أكثر ممَّا فعلت؛ فهم قصرُوا نظرهم على الحياة الدنيا<sup>(4)</sup>.

فالمؤمن حامل القرآن رغم حرصه على هداية البشر ودعوتهم بهذا القرآن العظيم إلا أن

(1) وقيل ابن عبد كلال، الشامي، له صحبة، توفي سنة مائة وست. انظر: أسد الغابة، (ج 1/334)، برقم: (350).

(2) تفسير ابن أبي حاتم، (ج 6/1960).

(3) انظر: تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، (ص 353).

(4) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث، (ج 9/1154).

حرصه هذا لا يحمله على ضيق الصدر بإعراض المعرضين وصدِّ الصادِّين عن كتاب الله، فأعراضهم وحرُّبهم على القرآن لا يستيئسُه، ولا يلقي في قلبه منهم خوفاً أو رهبةً، بل هو واثق بكتاب ربِّه، غير مبالي بكفر من كفر وصدِّ من صدَّ إلا من جهة حرصه على هدى البشر.

### فوائد تطبيقية مستفادة من الصفات السابقة

1- صاحب القرآن: متَّبِع للقرآن داعٍ به، مخلص في دعوتِه به، محتسب، متمسك، مُمسيك، زكي النفس، مجاهد بالقرآن، مُعظَّم لآيات الله، سريع الاستجابة لها، مستبشر فرح بها، عالم بالقرآن، معلِّم له، مطمئن القلب، سريع الخشوع، غير مبالي بأعداء القرآن ... تلك هي منظومة صفات حامل القرآن المرتبط به، ألا يأتين يوم علينا تحلُّ كل هذه الصفات في جُننا؟ أو يحلُّ بعضها في كلنا؟

فهذه دعوة أخرى لجمعيات تحفيظ القرآن الكريم، ولجمعيات الدعوة إلى الله بالعموم: خذوا هذه الصفات بمجموعها واعملوا على إنشاء برامج عملية بأهداف خاصة - إمَّا لكل الصفات أو لمجموعات منفصلة منها - وبآليات عمل وموازنات مالية وكوادر متخصصة متميزة، برامج تستهدف ثلثة متميزة من أبناء أمتنا لتبلغ بهم هذه الصفات العظيمة التي لا تكاد تجتمع في أحد إلا كان شبيهة الصحابة - رضوان الله عليهم -.

2- صفة (التمسك بالكتاب) لها دلالات عظيمة، فهي من جهة أولى - وبدلالة الوضع اللغوي كما ذكرنا - تدلُّ على تعلق تلك القلوب بكتابها وقرآنها وكأنه صار محبوبها الأول الذي يصدق عليه قول العرب: "وإنه لذو علق في فلانة"<sup>(1)</sup>، وقولهم في المثل: "نظرة من ذي عُلقة"<sup>(2)</sup>، وقولهم في المثل يُضربُ للشيء تأخذه فلا تحبُّ أن يفارقك: "عَلَقَتْ مَعَالِقَهَا وَصَرَ الْجُنْدُب"<sup>(3)</sup>، فينبغي على المصلحين والمربيين أن يعقدوا البرامج ويهيؤوا الأجواء لإحداث مثل هذه العلاقة بين الفتى والشاب المسلم وبين القرآن العظيم.

وهي من جهة ثانية - وبدلالة الوضع التصريفي - تدلُّ على سمة الإصلاح التي اكتسبها صاحب القرآن بحمله كتاب الله تعالى، فهو كما تمسك وتعلق بالقرآن يسعى لأن يُمسك غيره به، وهكذا فكُلُّنا أنشأنا جيلاً متمسكاً متعلقاً بالقرآن توسَّعت دائرة التمسك فكلُّ متمسك أدرك عظمة

(1) انظر: لسان العرب، (ج 10/262).

(2) انظر: مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون سنة نشر، (ج 2/332)، برقم: (4192).

(3) انظر: المرجع السابق، (ج 2/15)، برقم: (2429).

ما تمسك به سعى لتمسيك غيره به.

3- يُستفاد من فتيا الفقهاء بجعل ما يُعطى للقاضي ومعلم القرآن داخلاً في باب الإِرْزاق بعيداً عن باب العوض على الفتيا أو الدعوة إلى الله أهمية الاعتناء بباب الإِخْلَاص في الدعوة وتعليم القرآن لدى حملته ومعلميه، فإنَّ كثرة التركيز على القضايا المادية في هذا الباب ومحاسبة معلمي القرآن بحيث يُجعل ما يُعطون مقابل عملهم، ويُضيق عليهم فيه إن هم قصَّروا، كلُّ هذا يُفسد نية العامل للقرآن، ويُعزِّم نيته وهمته، صحيح أنَّ المحاسبة والمتابعة وتفعيل مبدأ العقاب أمرٌ لا بدَّ منه، وهو ضروريٌّ في تقويم وإنجاز العمل، لكننا لو اتبعنا مبدأ كفاية الدعاة ومعلمي القرآن من جهة، ومبدأ اختيار الأفضل من بين المتقدمين لهذه المهمة العظيمة من جهة أخرى، ومبدأ الحث على الإِخْلَاص بحيث لا يُربط الرزق بالعمل الديني من جهةٍ ثالثة، ومبدأ المراقبة والمحاسبة بالثواب والعقاب من جهةٍ رابعة، أظنُّ لو أننا نهجنا هذا النهج سنحقِّق نتائج أفضل في هذا الباب، فإنَّه من المعلوم أنَّ لا شيء أقوى في الإنتاج والعطاء من نية خالصة لوجه الله تعالى خلغ بها الأوائل الجبال من أصولها.

4- ﴿ولكن كونوا ربانيين﴾: ألا تستثيرنا هذه الجملة القرآنية الأمرة بهذا الأمر العظيم؟!، الرباني: العالم الفقيه البصير بالسياسة القائم على مصالح العباد، والذي نفسي بيده لو أنَّ حكام أمتنا كانوا على هذه الصفات لرأيت أمتنا تقود الأمم، لا كحالها اليوم في ذيل الأمم!، وعليه فإنَّ هذه دعوة قرآنية للعاملين في مجال الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمعات، وللإسلاميين العاملين في مجال السياسة أن أنشئوا رجالاً ربانيين كي يقودوا الأمة غداً، ليس الربانيُّ العالمُ الفقيه فحسب، فكم من عالم فقيه فشل في قيادة الأمة والناس، بل إنَّ الربانيَّ يجمع إلى جانب صفة العلم والفقه الخبرة والدراية والاستبصار بأحوال الناس والسياسة، فطنٌ ذكيٌّ ذو سماتٍ قيادية وإدارية وذو حكمةٍ ونظرٍ عميق، وأمتنا مليئةٌ بمثل هؤلاء ولكنَّها تحتاج إلى من يستخرجهم ويصقل مهاراتهم.

5- توجد في مساجدنا ليليّ رمضانٍ أحوالٌ - عند بعضهم - منكرةٌ - كما ثبت في بحثنا - يظنُّها أكثرُ الناسِ محمودةً، وذلك ليليّ التهجد من رفع للصوت في البكاء، وعويلٍ عند الدعاء، ينبغي على علمائنا ومسؤولي وزارة الأوقاف في بلدنا أن يحاربوها بالحكمة والموعظة الحسنة، وذلك بالتنبيه وبالدروس التي تبين هدي السلف في هذه المسألة، وبيان طريق التفاعل الحقيقي مع القرآن ومسيرة بناء العلاقة معه بشكلها الصحيح وخطواتها المتدرجة.

## المبحث الثاني: ثمرات الارتباط بالقرآن.

حَانَ يَا حَامِلَ الْقُرْآنِ قَطْفُ الثَّمْرِ، بَعْدَ رَحْلَةٍ عَظِيمَةٍ مَعَ كِتَابِ الْعَمْرِ، أَنْ لَكَ يَا ابْنَ الْقُرْآنِ أَنْ تَتَنَسَّمَ عَبْقَ الزَّهْرِ، قُرْآنٌ لَكُمْ فِيهِ الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ وَالْمَجْدُ وَالذِّكْرُ، لِحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي حَيَاتِكُمْ أَعْظَمَ الْأَثْرِ، وَهَا هُوَ ذَا الْبَاحِثُ يَا صَاحِبَ الْقُرْآنِ يَضَعُ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَى ارْتِبَاطِكَ بِأَعْظَمِ كِتَابٍ أَنْزَلَ لِلبَشَرِ، فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ وَصَلَاحٌ وَطِيبٌ أَثْرٌ، وَفِي الْآخِرَى فَوْزٌ وَفَلَاحٌ وَفِرْدَوْسٌ فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مَقْتَدِرٍ، وَسَيَنْتَظِمُ حَدِيثًا عَن ثَمَرَاتِ الْارْتِبَاطِ بِالْقُرْآنِ فِي خَتَامِ رَحْلَةِ الْعَمْرِ الْمَطَالِبِ الْآتِيَةِ:

### المطلب الأول: العلمُ ومعرفةُ الله.

أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ الْعِلْمِ؛ فَالْقُرْآنُ أَوْلُ دَاعٍ إِلَى الْعِلْمِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ فَهْمُهُ إِلَّا بِالْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ دَعْوَةٌ الْقُرْآنِ الْأَوْلَى وَأَدَاتُهُ الطُّوْلَى، وَالْقُرْآنُ مَنبَعُ الْعُلُومِ وَمَسْتَوْدَعُ الْكُنُوزِ، يَحْتُ طَالِبَهُ عَلَى الْاِسْتِزَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ، وَيَسْتَشِيرُ فِي أَوْلِي الْأَبَابِ بَرَاعَةَ الْفِكْرِ وَدِقَّةَ النَّظْرِ؛ وَلِذَا فَإِنَّكَ تَجِدُ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ الْمُتَقِينَ لَهُ، الْمُتَبَجِّرِينَ فِي عُلُومِهِ وَتَدْبِيرِهِ مِنْ أَعْلَى النَّاسِ فَهْمًا، وَمِنْ أَدْقِهِمْ نَظْرًا، وَمَنْ أَكْثَرِهِمْ لِلَّهِ خَشِيَةً، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيئٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9].

القنوتُ في كلامِ العربِ يقعُ على القراءةِ وعلى طولِ القيامِ في الصلاةِ، والقانثُ المطيعُ، والقنوثُ: الدعاءُ<sup>(1)</sup>، وكلُّ هذه المعاني متحققةٌ في حالِ هذا العبدِ.

وفي الآيةِ أسرارٌ:

1- فقد بدأت الآيةُ بذكرِ العملِ الذي هو القنوتُ والسجودُ والقيامُ، وختمت بذكرِ العلمِ، وهذا يدلُّ على أنَّ كمالَ الإنسانِ محصورٌ في هذينِ المقصودينِ، فالعملُ هو البدايةُ والعلمُ هو النتيجةُ والنهايةُ.

2- نبّهت الآيةُ إلى أنَّ الانتقالَ بالعملِ لا يحصلُ إلا بالمواظبةِ والمداومةِ عليه؛ فإنَّ القنوتَ طولُ القيامِ والمداومةُ<sup>(2)</sup>.

3- أرادَ بالذينِ يعلمونَ القانتينِ، والذينِ لا يعلمونَ الذينِ لا يأتونَ بهذا العملِ، كأنَّه حصرَ العلماءَ في القانتينِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الذي لا يعملُ غيرُ عالمٍ، وفي هذا ازدراءٌ عظيمٌ

(1) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 4/523).

(2) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (26/428-429).

الذين يفتنون العلوم ولا يقننون، ويتقنون فيها ثم بالدنيا يُفتنون، فهؤلاء عند الله جهلة.

وقد حملهم علمهم على القيام بين يدي ربهم متلبسين في حال أخرى غير السجود والقيام وهي الدعاء حذراً ورجاءً: يحذر عذاب الآخرة لإيمانه بالبعث، ويرجو رحمة ربه، أي: مغفرته وجنته؛ فالمؤمن يكون دوماً بين الخوف والرجاء<sup>(1)</sup>.

فالمؤمن - وهذه حاله - قائماً بالليل تالياً آيات القرآن مستزيداً من معينها الفيض بالرحمة والعلوم والأنوار تحصل له بهذا معرفة ربه وتقع في قلبه خشيته، وكلما ازداد للقرآن تلاوةً ازداد بالله معرفةً فزاد له خشيةً، فزاد بهذا وذلك علماً، فإن أصل العلوم وأولها العلم بالله وتعظيمه، ثم تفتح على العارف بالله أبواب العلوم كلها بحسب طلبه واجتهاده.

وهذه الثمرة العظمى - أعني العلم الناشئ عن القرآن - كفيلاً بأن تُحيي صاحبها حياةً طيبةً حيث يُؤم القرآن هذا الإنسان عقيدةً وأخلاقاً وسلوباً ومنهجاً في كل أحوال حياته فتطمئن نفسه بتوحيد ربه وتحقيق إيمانه، وتستقيم أحواله بتهديب أخلاقه، وتصلح حياته بتصحح معاملاته.

وقد رأينا قبل في هذا البحث<sup>(2)</sup> كيف أفتتح هذا السفر العظيم نزولاً بآيات العلم التي تحث وتحث على النظر في المخلوقات واتخاذ أدوات العلم من القراءة والكتابة.

### المطلب الثاني: ولاية الله لأهل القرآن.

القرآن في حد ذاته عزٌ ونصرٌ وحفظٌ وولايةٌ، فكيف بمن حل عليهم ونزل فيهم وإيهم؟ إن من يتصل بهذا القرآن الذي هو مصدر العز والولاية، ويحقق ويحصل العلم النافع به مع العمل لتحقيق على الله أن ينصره ويتولاه، والله يتولى الصالحين، وقد أمر الله نبيه أن يُخبر المشركين بهذه الحقيقة حين أرادوا كيده واستجمعوا آلهتهم ضده، ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

فلما بين قبل أن هذه الأصنام لا قدرة لها على النفع والضرب بين في هذه الآية أن الواجب عبادة الله لأنه هو وحده الذي يتولى تحصيل المنافع الدينية والدنيوية، أمّا الدنيوية فبسبب إنزال الكتاب، وأمّا الدنيوية فبسبب ولايته للصالحين<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: حقائق الروح والريحان، (ج 494-495).

(2) انظر المطلب الأول من المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث، ص: (55).

(3) انظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي، (ج 433/15).

ومن المعلوم عند أهل البلاغة أنه يؤتى بالموصول لإبراز وصف معين أو الإيماء إلى علة الحكم<sup>(1)</sup>، وقد وصفت الآية هذه اسم الجلالة بالموصول المتضمن معنى تنزيل الكتاب، لبيان مناط الولاية، والصفة التي لأجلها حصلت المحبة والنصرة، فإن ولاية الله حاصلة بهذا الكتاب بما يتضمّنه من أوامر التوحيد وإخلاص العبادة لله، وبما فيه من تحقيق المنافع الدينية والدنيوية.

وقد أخبر النبي ﷺ بهذا المعنى فقال: "إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: "هُمُ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَحَاصُّهُ"<sup>(2)</sup>.

"أي حفظته العامِلون به أولياء الله المختصون به اختصاص أهل الإنسان به، سمو بذلك تعظيماً لهم"<sup>(3)</sup>.

### المطلب الثالث: القرآن تثبيتاً للمؤمنين وعاصمٌ من الكفر ومن الخلاف المذموم.

من الثمرات العظيمة للارتباط بالقرآن العظيم أنه يبيّن الحقّ لأتباعه فيفرق بين الحقّ والباطل، ويرسم للأمة منهجها الواضح فلا تزلّ ولا تضلّ ولا تختلف، فيقع به تثبيت المؤمنين على الحقّ وثباتهم عليه واستبانة طريقهم، وسنتحدث عن هذه الثمرة في النقاط الآتية:  
أولاً: تثبيت المؤمنين:

قال الله العليّ الكبير: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102].

أي: نزل هذا القرآن بالحقّ مقترناً بالصدق والعدل والحكمة، والغاية من تنزيهه تثبيت الذين صدقوا بما أنزل الله، وتطمين قلوبهم، وهدايتهم وإرشادهم للطريق الأقوم<sup>(4)</sup>.

---

(1) ينظر لهذا: مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي الحنفي، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1407هـ — 1987م، (ص 181-182). - البلاغة العربية، الميداني، (ج 1/433).

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، (ج 1/146)، رقم الحديث: (215). قال محقق الكتاب: إسناده حسن.

(3) التيسير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف بن زين العابدين المناوي القاهري، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط 3، 1408هـ - 1988م، (ج 1/384).

(4) التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 2/1304).

وقد رأينا قبلُ كيفَ كانَ تنزيلُ القرآنِ منجماً على قلبِ النبيِّ ﷺ تثبيتاً لقلبه بتتابعِ ورودِ القرآنِ عليه، فيتقوى به على مشاقِّ الدعوةِ إلى الله، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ٣١﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا ٣٢﴾ [الإنسان: 23-24].

أي: نزلناه متفرقاً آيةً بعدَ آيةٍ لحكمةٍ بليغةٍ، والمقصودُ من ذلك تثبيتُ قلبِ النبيِّ ﷺ وشرحُ صدره<sup>(1)</sup>.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32]، وقد مرَّ<sup>(2)</sup>.

وهذا التثبيتُ لقلبِ النبيِّ ﷺ بتتابعِ النزولِ، ولقلوبِ الدعاةِ بعده بتتابعِ التلاوةِ مندرجٍ في التثبيتِ على الحقِّ الذي بيَّنته آيةُ النحلِ، فإنَّ كثرةَ تكذيبِ الكفارِ وصدِّهم وإثارتهم للشبهاتِ قد يقذفُ في قلبِ الداعي الفتورَ عن الدعوةِ أو الشكَّ في الحقِّ، فيعملُ القرآنُ بتتابعِ ورودِ آياته وحججهِ وبياناته على قلبِ الداعي عملَ البلسمِ الذي كلما تسربَ المرضُ إلى الجسدِ كانَ له الدواءُ والشفاءُ..

#### ثانياً: العصمةُ من الكفر:

وهذه ثمرةٌ عظيمةٌ أخرى من ثمراتِ الارتباطِ بالقرآنِ، فالقرآنُ بما حواه من بيانِ للحقِّ وتعريّةٍ للباطلِ كاشفٌ للمؤمنينَ طريقَ الحقِّ، مبرِّزٌ طرقَ الباطلِ، عاصمٌ للمؤمنينَ من الزللِ والضلالِ والانحرافِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ٣١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ٣٢ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٣﴾ [آل عمران: 100-101].

(كيف): استفهامٌ يحملُ معنى الإنكارِ والتعجبِ، ولكَ أن تجعلها في موضعِ الحالِ على معنى: أجاهدين تكفرون أم جاهلين؟!

وجملة (وأنتم تتلى...) في موضعِ الحالِ من فاعلِ (تكفرون)، أي: من أين يتطرقُ إليكم الكفرُ وأنتم تعابنونَ الآياتِ؟!<sup>(3)</sup>

(1) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل - تفسير الخازن، علاء الدين علي بن محمد الشيعي المعروف بالخازن، ت: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415هـ، (ج 380/4)..

(2) انظر المطلب الثالث من المبحث الثاني من الفصل الأول، ص:

(3) انظر: الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتجب الهمداني، (ج 101/2).

فالجملَةُ الحَالِيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ تَلَبُّسَ الْمُخَاطَبِينَ بِنَزُولِ الْآيَاتِ وَتَلَاوتِهَا عَلَيْهِمْ بِمَا فِيهَا مِنْ حَقِّ مَبِينٍ، وَبَيَانٍ شَافٍ لِهَنَاتِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَبَاطِلِهِمْ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَامِلًا لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْكُفْرِ وَتَرْكِ دِينِ الْحَقِّ وَمَوَالَاةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً - إِذِ السِّيَاقُ فِيهِمْ - وَمِنَ الْكُفْرَةِ عَامَةً، فَإِنَّ فِعْلًا كَهَذَا - وَالحَالُ هَذِهِ - سَيَكُونُ مَثَارًا لِلْعَجَبِ الشَّدِيدِ الْبَالِغِ حَدَّ الْإِنْكَارِ.

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ قَتَادَةَ قَوْلَهُ: وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ قَالَ: عَلِمَانَ بَيِّنَانٍ: نَبِيِّ اللَّهِ وَكِتَابِ اللَّهِ، فَأَمَّا نَبِيُّ اللَّهِ فَمَضَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَمَّا كِتَابُ اللَّهِ فَأَبْقَاهُ اللَّهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ، وَنِعْمَةً فِيهِ حَالُهُ وَحَرَامُهُ، وَطَاعَتُهُ وَمَعْصِيَتُهُ<sup>(1)</sup>.

وفي الآياتِ لطائفٌ منها:

1- إيثارُ المضارعِ على الماضي في (تطيعوا) و(تكفرون) و(تتلى) للدلالةِ على أَنَّ هذه الأمورَ متجددةٌ حالاً بعدَ حالٍ، فالكفارُ ما يفتنونَ يُضِلُّونَ المسلمينَ فتجددُ للمسلمينَ أحوالُ طاعةٍ لهم شيئاً فشيئاً حتى يقعوا في الكفرِ بالكليةِ، وفي المقابلِ نَزَلَ اللَّهُ كِتَابَهُ شيئاً بعدَ شيءٍ حتى تتجددَ للمسلمينَ في إزاءِ تجددِ إغواءِ الكافرينَ عصمةٌ بعدَ عصمةٍ، عصمةٌ مانعةٌ من الكفرِ والغوايةِ.

2- عبَّرَ بالتلاوةِ مكانَ التنزُّلِ معَ أَنَّ الزمانَ زمانُ النبيِّ ﷺ وزمانَ التنزُّلِ تعبيراً بمناطِ الأثرِ وهو التلاوةُ أولاً، ولأنَّ التلاوةَ هي الباقيةُ بعدَ النبيِّ ﷺ وقد انقضى التنزُّلُ، فتكونُ العصمةُ بحضورِ القرآنِ وتكرارِ تلاوتهِ وتدبرِهِ والعملِ بهِ بينَ المسلمينَ.

**ثالثاً: العصمةُ من الخِلافِ المذمومِ:**

وكما كانَ كتابُ اللَّهِ عصمةً من الكفرِ فهو أيضاً عصمةً من التفريقِ في الدينِ والاختلافِ المذمومِ، وهذا أثرٌ عظيمٌ من آثارِ الارتباطِ بالقرآنِ راجعٌ إلى حمايةِ الأمةِ من التشردمِ والفرقةِ والضعفِ والفشلِ، قالَ اللَّهُ الحكيمُ العليمُ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64].

"أي: إنما أنزلنا عليك القرآن لهدف واضح، وهو أن تبين للناس الذي يختلفون فيه في العقائد والعبادات، فيعرفوا الحق من الباطل، والقرآن العظيم هو كلمة الفصل، والقرار الحاسم بين الناس فيما يتنازعون فيه، وهو هدى للقلوب الحائرة، والرحمة الشاملة لقوم يصدقون به، ويتمسكون بتعاليمه وشرائعه، ويلتزمون منهجه في الحياة والآداب والأخلاق، ولا يحددون عن

(1) تفسير ابن أبي حاتم، (ج 3/720).

توجيهاته، والعمل في فلكه ومقاصده وغاياته<sup>(1)</sup>.

وَدَكَّرْنَا اللَّهَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ العَظِيمَةِ، نِعْمَةِ الأَخُوَّةِ فِي اللَّهِ والعِصْمَةِ مِنَ التَّفَرُّقِ، وَالتِّي لَا تَكُونُ إِلَّا بِالِاعْتِصَامِ بِهَذَا القُرْآنِ المَجِيدِ، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

عن قتادة والسدي والضحاك: حبل الله القرآن. وسُمِّيَ حبلًا لأنَّه سببُ النِّجَاةِ، كالحبل الذي يُتَمَسَّكُ بِهِ لِلنِّجَاةِ<sup>(2)</sup>.

قال أبو عبيد: فالاعتصام بحبل الله هو تركُ الفُرْقَةِ، واتباعُ القرآن<sup>(3)</sup>.

وكلمة (جميعاً) إمَّا حالٌّ من الواو في (واعتصموا)، فيكونُ المعنى كونوا جميعاً مستمسكين بحبل الله ولا يصحُّ لطائفةٍ منكم أن تنفصلَ عنكم فلا تأخذَ بهذا الحبلِ؛ لأنَّ الشيطانَ ينفذُ إليكم عن طريقِ هذه الطائفةِ، وإمَّا حالٌّ من الحبلِ، فيكونُ المعنى خذوا بالقرآنِ كلِّه ولا تجعلوه عَضِيَّةً تُؤْمِنُونَ بِبَعْضِهِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؛ فإنَّ القرآنَ كلُّه لا يقبلُ التجزئةَ، والأمرانِ مرادانِ معاً، فيكونُ معنى النهي عن التفرُّقِ أي: لا تتفرَّقوا في أنفسكم فيضربَ بعضُكم رقابَ بعضٍ، ولا تتفرَّقوا في دينكم فتذهبوا في فهمه فرقاً وشيعاً مختلفةً فتضلوا عن سبيلِ الله<sup>(4)</sup>.

وفي الحديث الطويل الذي رواه جابرٌ في صفةِ الحجِّ، قال النبي ﷺ: "... وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ (5) اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟" قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ...<sup>(6)</sup>.

(1) التفسير الوسيط، الزحيلي، (ج 2/1276).

(2) البسيط، الواحدي، (ج 5/471).

(3) غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، ت: حسين محمد شرف، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط 1، 1404هـ - 1984م، (ج 5/118).

(4) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، (ج 3/1340).

(5) قال محمد فؤاد عبد الباقي في تعليقه على صحيح مسلم: " (كتاب الله) بالنصب بدل عما قبله وبالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، نفس المرجع الآتي.

(6) جزء من حديث، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، (ج 2/886)، رقم الحديث: 147 - (1218).

## المطلب الرابع: القرآن كاشفٌ لأحوال المنافقين واليهود.

الكفرة والمشركون بالعموم أعداء الحق وأعداء القرآن وأعداء المؤمنين، ولكن هناك صنفان من هؤلاء الأعداء هم أشدُّ خطراً وأعظمُ شراً على الجماعة المسلمة من غيرهم، هؤلاء هم اليهود: العدو الخارجي، والمنافقون: العدو الداخلي، ولذا فقد خصَّ القرآن بالتحذير هاتين الفرقتين، وبيَّن أنَّ العصمةَ منهم ومن خطرهم المستطير لا تكون إلا بالقرآن الهادي إلى سواء السبيل، العاصم من الفتن والضلال المبين.

وإنَّما عددنا هذا الأمرَ ثمرةً من ثمرات الارتباط بالقرآن لما عليه حال الأمة من تكاليفٍ شديدٍ لليهود والمنافقين خاصةً عليها ممَّا يجعلُ خلاصها منهم من أعظم المنح الربانية والنعم الإلهية التي تتال بها الأمة عزها وسيادتها.

### أولاً: تجلية المنافقين بصفاتهم:

أشدُّ الأعداء خطراً من كان يحيى بين ظهرائي الأمة، يُسلم كما يُسلمون، يأمن كما يأمنون، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ولكنه في باطنه كافرٌ مأفونٌ، يُضمرُّ بغض المؤمنين، ويخفي حقه الدفين، فيمكرُ ويكيّد ضدَّهم من حيث لا يشعرون، ويُسلمهم لأعدائهم ويجعلهم غنيمةً للمعتدين.

وقد تنزلت سورةً بأكملها من سور القرآن العظيم تكشفُ خبايا المنافقين وتفضحهم وتنقّب عما في مكنونات صدورهم حتى سميت لأجل هذه المعاني: الفاضحة؛ لأنَّ المنافقين افتضحوا عند نزولها، المبعثرة؛ لأنها تبعثُ عن أسرار المنافقين، المُشَقِّشَةُ؛ لأنها تُبريء المؤمن فتتظفّه من النفاق، البُحوثُ؛ لأنها تبحُث عن نفاق المنافقين، سورة العذاب؛ لما فيها من انعقاد الكفار بالعذاب مرةً بعد أُخرى ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، الحافرة؛ لأنها تحفر قلوب أهل النفاق بمثل قوله: ﴿إِلَّا أَنْ نَقَطَّ قُلُوبُهُمْ﴾ ، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾<sup>(1)</sup>. تلك هي سورة التوبة، سورة براءة.

ومن آيات هذه السورة التي تبيِّن دور القرآن في كشف مكنونات صدور هؤلاء القوم حتى باتوا يحذرونه فصار عدوهم الأول قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾<sup>(2)</sup> ولين سألتهم ليقولنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ<sup>(3)</sup> لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ<sup>(4)</sup> [التوبة: 64-66].

(1) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، (ج 228/1).

"معنى: "تنبئهم بما في قلوبهم" كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني: أنها تديع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة، وكأنها تخبرهم بها<sup>(1)</sup>.

وقد أخرج ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن قتادة: "قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح قُصور الشام وحُصُونَهَا؟! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبي الله ﷺ: احتبسوا على الركب فأتاهم فقال: فُلْتُمْ كَذَا، فُلْتُمْ كَذَا، قالوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَحُوضُ وَنَلْعَبُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مَا سَمِعُونَ"<sup>(2)</sup>. (3)

فدور المنافقين في هذه الحادثة بارز في تخذيل المؤمنين وبتّ الحور في صفوفهم والإرجاف بهم لإيقاع الهزيمة النفسية التي تمهد للهزيمة المادية في المعركة، ودور القرآن هنا بارز في فضح مؤامرات هؤلاء وفي كشف حقيقة أقوالهم وأفعالهم للمؤمنين وفي بثّ الطمأنينة واليقين بنصر الله سيما عندما يدرك المؤمنون حقيقة اطلاع الله على الغيوب وحقيقة تأييده للمؤمنين بهذا القرآن حيث ينزل لتثبيتهم وكشف نفاق عدوهم.

وقد عني القرآن الكريم بإبراز صفات المنافقين وتجلية أحوالهم للمؤمنين، فذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة، فذكر المؤمنين في أربع آيات، والكفار في آيتين، والمنافقين في ثلاث عشرة آية أكثرتهم، وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم لأهل الإسلام؛ فهم منسوبون إلى أهل الإسلام ونصرتهم وموالاتهم، وهم أعداؤه في الحقيقة، يظنّ الجاهل أنّهم مصلحون وهم مفسدون في الحقيقة<sup>(4)</sup>.

وقد أبلج القرآن الكريم صفات المنافقين نفاقاً أكبر بتفصيل لا يدع للمؤمن بعده شبهة لمشتبه أو حيرة لمتحير، فذكر أنّهم يفرحون بانتصار الكافرين على المؤمنين، وأنهم يعجب السامع قولهم ويشهد الله على ما في قلبه من كذب، وأنهم يسعون في فساد البلاد والعباد، وأنهم بين المؤمنين في الصلاة والذكر وإذا تولّوا سعوا في الأرض يبيغون الفساد، وأنهم يأمرور بالمنكر

(1) رموز الكنوز، الرسعني، (ج 2/534).

(2) تفسير ابن أبي حاتم، (ج 6/1830).

(3) وقد ذكرنا في سبب نزول هذه الآية في المطلب الثاني من المبحث الثالث من الفصل الأول من هذا البحث قصة أخرى مفادها أن استهزاءهم كان بأهل القرآن، ولا تعارض بين القصتين، فيجمع بينهما بتعدد أقوالهم في الاستهزاء فبعضهم استهزأ بالقرء وبعضهم استهزأ بجيش المسلمين مشككاً في قدرته على النصر وهكذا.

(4) انظر: صفات المنافقين، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات، 1410هـ، (ص 4).

بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، وأنهم ينفرون عن التحاكم إلى صريح الكتاب ... إلخ<sup>(1)</sup>.

فهكذا وبهذه الطريقة القرآنية الواضحة يحيا المجتمع المسلم المتصل بكتابه الملتزم بآياته حياة ملؤها الطمأنينة لأنهم يستطيعون بارتباطهم بالقرآن أن يميزوا أهل النفاق فيجتنبوا أذاهم، ويعرفوا أهدافهم الخبيثة، فلا يشغلهم عن إقامة دين الله والدعوة إليه.

ثانياً: إبراز عداوات اليهود لأهل الحق:

تحدثنا عن طرف من موقف اليهود من القرآن الكريم مع بدء دعوتهم به في المدينة<sup>(2)</sup>، واليهود قوم جُبلوا على صفات ذميمة كاللؤم والمخادعة والخيانة والخسة، حتى إن التوراة نفسها وصفتهم بـ(الشعب الغليظ الرقية)، ووصفهم الإنجيل بـ(الخراف الضالة)، وقال فيهم يحيى ﷺ: "يا أبناء الأفاعي"، وقد دفعتهم هذه الصفات مع حسدهم للمسلمين إلى مناوئة هذا الدين العداوة من أول لحظات ظهوره، وقد اشتدت تلك العداوة وبرزت إبان مقدم النبي ﷺ والمؤمنين إلى المدينة، فبدأوا المؤمنين بحرب الأعصاب التي كان من مظاهرها:

إشاعة السوء عن المسلمين - إظهار الشماتة بهم - الدس للمسلمين بالمشاركة مع المنافقين.

ثم ازدادت مظاهر هذه العداوة حتى انتهت بالحروب التي أدت إلى اقتلاعهم من المدينة إما بالقتل أو بالإخراج<sup>(3)</sup>.

لأجل ذلك الذي ذكرناه هنا مجملاً - والتفصيل أكثر من أن يُحصى - اعتنى القرآن الكريم بإبراز صفات بني إسرائيل التي تدفعهم في كل عصر لمعاداة الحق وأهله، والسعي بكل ما أوتوا من وسائل المكر والخبث والتسلط إلى محاربة الإسلام والقرآن، وقد قال الله تعالى مقررًا هذا المنهج القرآني: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَئِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضَىٰ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل: 75-78].

فالقرآن يبين أكثر ما خبط فيه بنو إسرائيل في الإلهيات وشتى القضايا؛ ذلك أن الله وحده

(1) صفات المنافقين، ابن القيم، مرجع سابق (ص 11 وما بعدها).

(2) انظر المطلب الأول من المبحث الثالث من الفصل الأول من هذا البحث، ص: (161).

(3) انظر: اليهود في القرآن، سيد سابق التهامي، الفتح للإعلام، القاهرة، ط 4، 1994م، (ص 8).

يعلمُ الغيبَ المطلقَ، وكلُّ ما في القرآنِ من آثارِ علمِ الله، فإذا أرادَ اللهُ تعليمَ المسلمينَ شيئاً مما يشتملُ عليه القرآنُ فهو العلمُ الحقُّ، وإنَّما قصَّ عليهم أكثرَ ما اختلفوا فيه ممَّا في بيانِ الحقِّ فيه نفعٌ للمؤمنينَ<sup>(1)</sup>.

قال صاحبُ التفسيرِ الحديثِ: "فالآيةُ خطيرةُ المغزى في حدِّ ذاتها بتقريرها أن القرآنَ يحتوي الحقائق والحلول الصحيحة لمختلف الشؤون التي كان يختلف عليها بنو إسرائيل"<sup>(2)</sup>.

ثمَّ يصفُ اللهُ القرآنَ في الآيةِ التي تليها بأنَّه هدىً ورحمةً، هدىً يقي المؤمنينَ من الاختلافِ والضلالِ، ويوجِّدُ منهجهم ويبيِّنُ لهم طريقهم، ورحمةً يرحمهم من الشكِّ والقلقِ والحيرةِ والتخبُّطِ بين المناهج التي لا تثبتُ على حالٍ<sup>(3)</sup>.

فالقرآنُ بما يقضه من المسائل التي اختلفَ وتخبَّطَ فيها بنو إسرائيلَ كاختلافهم في عيسى ﷺ، وفي أنبيائهم، فوقعَ منهم القتلُ والإيذاءُ لهم، وفي كتبهم فوقعَ منهم التحريفُ لها، وفي شتى القضايا، فإنَّ القرآنَ بهذا يوقفُ المسلمينَ على حقيقةِ هؤلاءِ القومِ وعلى الصفاتِ التي لأجلها فعلوا كلَّ ما فعلوا من هَنَاتٍ، ووقعَ منهم كلُّ ما وقعَ من اختلافاتٍ، حتى يتعرَّفوا على عدوِّهم الأولِ من البشرِ فيحذروهم ولا يأمنوا مكرهم، ويتَّعظوا بسيرةِ هؤلاءِ الكفرةِ فلا يركنوا إليهم فقد قصَّ القرآنُ عليهم طرفاً وافياً من اختلافاتهم التي تتضحُ بها سماتُ شخصياتهم وتبرزُ بها مكنوناتُ صدورهم.

وقد فصلَ القرآنُ العظيمُ في بيانِ صفاتِ بني إسرائيلَ حتى يكونَ لمن ارتبطَ به زاداً مبيناً يُحصنُه من مكرِ هؤلاءِ أو الانخداعِ بهم، ومن هذه الصفاتِ على سبيلِ التمثيلِ لا الحصرِ:

1- الاستكبارُ على الرسلِ والوقاحةُ وعدمُ التأدبِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

2- قتلُ الأنبياءِ والرسلِ وكلِّ من يخالفهم.

3- قسوةُ القلبِ وإنكارُ الحقِّ.

4- الكذبُ على اللهِ وتحريفُ كلامه وعدمُ الإيمانِ به.

5- معرفةُ النبيِّ ﷺ وتحريفهم لصفاته.

---

(1) انظر: التحرير والتوير، (ج 30/20).

(2) التفسير الحديث، دروزة، (ج 298/3).

(3) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج 2665/5).

- 6- حبُّ الحياةِ حبًّا جمًّا وكراهةُ الموتِ.
- 7- استحقاقهم المسخِّ باعتداءاتهم وعصيانهم.
- 8- إلقاءِ العداوةِ بينهم، ومنعهم من الحربِ الشاملةِ على المسلمينَ.
- 9- لا يتناهونَ عن المنكراتِ التي يقترفونها.
- 10- أشدُّ الناسِ عداوةً للمؤمنينَ.
- 11- كثرةُ ظلمهم وطغيانهم على أوامرِ شريعَتهم مما أدى إلى كثرةِ الأغلالِ عليهم.
- 12- تسليطُ اللهِ عليهم من يسومهم سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ عقوبةً لهم على هَنَاتِهِم.
- 13- كثرةُ إفسادهم في الأرضِ فساداً كبيراً.
- 14- تشنَّتْ قلوبهم وأعاونهم فهم جنباءٌ لا يقاتلونَ المؤمنينَ إلا من وراءِ جُدِرٍ (1).

#### المطلب الخامس: القرآنُ هدىً ورحمةً لأهله في كلِّ شؤونهم.

من ثمراتِ اتباعِ القرآنِ الكريمِ والتمسُّكِ والارتباطِ به وضوحُ منهجِ الإنسانِ في حياته، واستبانةُ سبيله، ومعرفةُ هدفه وطريقه، والإكرامُ بتكفيرِ سيئاته، وغفرانُ ذنوبه، وصلاحُ بآله، وتحصيلُ الحفظِ الإلهيِّ، واستمدادُ العونِ الربانيِّ، وحلولُ الخيرِ والنماءِ والزيادةِ في كلِّ شؤونِ حياته، وستحدثُ عن هذه المكرماتِ والثمراتِ في النقاطِ الآتية:

#### أولاً: القرآنُ هدىً:

أصلُ الهدى: التقدُّمُ للإرشادِ، ومنه قولهم: هديتهُ الطريقَ، أي: تقدَّمتهُ لأرشدَه، والهدى خلافُ الضلالةِ، والهاديةُ: العصا، لأنها تتقدَّمُ ممسكها كأنها تُرشدُه، ويقالُ: جاءَ فلانٌ يُهادي بينَ اثنين، إذا كانَ يمشي بينهما معتمداً عليهما (2).

والهدى والهدايةُ والاهتداءُ في موضوعِ اللغةِ واحدٌ، لكن جعلَ اللهُ الاهتداءَ في القرآنِ مختصاً بما يتحرَّاه الإنسانُ على طريقِ الاختيارِ إمَّا في الأمورِ الدنيويةِ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

(1) انظر: الصراع الإسلامي اليهودي - بنو إسرائيل في القرآن الكريم، عبد الله علي الصغير، سلسلة بناء الشخصية الدعوية، ط 1، 1429هـ - 2008م، (ص 13-35).

(2) انظر: مقاييس اللغة، (ج 6/42).

[الأنعام: 97]، وإمّا في الأمور الدينية كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا...﴾ [البقرة: 137].

أمّا الهدى فقد جعله الله في القرآن مختصاً بما تولاه هو وأعطاه واختص به دون ما هو إلى الإنسان<sup>(1)</sup>، وهذا المعنى هو الذي يتعلّق بموضوعنا من حيث كون القرآن هدى للمؤمنين، وفيه آيات كثيرة، قال الله تعالى:

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتِ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [النمل: 1-2].

﴿الْم ۝ تِلْكَ ءَايَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [القمان: 1-3].

﴿الْم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة: 1-2].

﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ [المائدة: 15-16].

المراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة الخاصة للمؤمنين بتوفيقهم للعمل بأحكام القرآن فهم قد اقتبسوا من أنواره وجنّوا من ثماره، وكون غير المؤمنين لم يهتدوا به لا يُخرجه عن كونه هدى، فالشمس شمس وإن لم يرها الأعمى<sup>(2)</sup>.

وهي أيضاً: "بيان وإرشاد لهم إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، لما تضمنه القرآن من العقائد والأحكام، والأخلاق التي لا غاية وراءها"<sup>(3)</sup>.

ثانياً: القرآن رحمة:

الرحمة في كلام العرب للآدمي: رقة القلب ثم عطفه، ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه، و(الرحمن): اسم ممتنع لا يُسمى به غير الله، وقد يقال: رجلٌ رحيمٌ<sup>(4)</sup>.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأعراف: 52].

(1) انظر: المفردات، الراغب، (ص 839-840).

(2) تفسير المراغي، (ج 40/1).

(3) التفسير الوسيط، مجمع البحوث، (ج 29/1).

(4) انظر: الغريبين في القرآن والحديث، أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، ت: أحمد فريد المزدي، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1419 هـ - 1999 م، (ج 728/3).

"أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغَيِّ والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتقي عنهم بذلك الضلال والشقاء" (1).

فهو رحمةٌ في أحكامه لما فيها من خيرٍ وعدالةٍ ونفعٍ للمجتمع، ورحمةٌ بتشريع القتال الذي فيه دفعُ الفسادِ، ورحمةٌ بإقامة الأمانة في الناس، وهذه الرحمة لا توتي أكلها إلا في قلوب مؤمنةٍ غير جاهلة، فهي التي ينبث فيها زرعُ الخير<sup>(2)</sup>.

### الهدى والرحمة:

وقد لاحظَ الباحثُ اقترانَ هاتينِ الثمرتينِ معاً واللتينِ هما صفتانِ للقرآنِ الكريمِ في عشرةِ مواضعٍ في كتابِ الله تعالى، ولا ريبَ أنَّ لهذا الاقترانِ دلالاتٍ ولطائفَ:

1- فمن هذه الدلالاتِ أنَّ في اقترانِ الهدى بالرحمةِ تعظيمٌ لشأنِ القرآنِ الكريمِ وإبرازٌ لصفاتِ كماله؛ إذ هو هدى من خالقِ هذا الكونِ يهدي البشريةَ بأمرِ الله تعالى إلى الطريقِ المستقيمِ، وهو أيضاً رحمةٌ في الدارينِ لمن اتبعَ هداة، ولعلَّ من أبرزِ تجلياتِ تلكَ الرحمةِ في الدنيا السكينةُ والطمأنينةُ التي تستقرُّ في قلبِ المهتدي به<sup>(3)</sup>.

2- ومن الأسرارِ البلاغيةِ في اقترانِ (هدى ورحمةً) ترغيبُ المتلقِّي في اتباعِ القرآنِ الكريمِ<sup>(4)</sup>.

3- ومنها أيضاً أنَّ اقترانهما ببعضهما يأتي من بابِ اقترانِ السببِ بمسببه، فالهدايةُ إن تحققت للمؤمنينَ فصاروا بها على منهجِ الله القويمِ ودينه المستقيمِ لا ريبَ يتسبَّبُ وينتجُ ويثمرُ عنها الرحمةُ التي تحلُّ بالمهتدينَ، فالهدى موصولٌ للرحمةِ، والرحمةُ ثمرةُ الهدى؛ فهما قرينانِ.

### ثالثاً: القرآنُ تكفيرٌ للسيئاتِ وصلاخٌ للبال:

وهذه ثمرةٌ خاصةٌ من ثمراته، متفرعةٌ عن رحماته، متلبسةٌ ببركاته، حالةٌ في المؤمنينَ

(1) تفسير السعدي، (ص 291).

(2) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، (ج 6/2858).

(3) انظر: بلاغة الاقتران في القرآن الكريم، 1432هـ، مريم بنت سليمان العبيد، رسالة دكتوراه في البلاغة والنقد، إشراف: أ.د. أحمد السيد طحلة داود، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية اللغة العربية، الرياض، (ص 60-63).

(4) المرجع نفسه.

العاملين من عباده، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ [محمد: 2-3].

﴿وآمنوا بما نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ﴾: هو القرآن الكريم، ذكره بلفظ الاختصاص مع دخوله في عموم الإيمان قبله تعظيماً للقرآن وتبنيهاً على أنه لا يتم الإيمان إلا به، وكفّر عنهم سيئاتهم بإيمانهم بالقرآن وعملهم الصالحات فغفر لهم بذلك ما كان منهم من المعاصي، وأصلح بالهم: أي حالهم وشأنهم وأمورهم بالتوفيق في أمور الدين وتمكينهم من أمور الدنيا بالنصر على الأعداء، أو أصلح قلوبهم؛ لأن صلاح القلب صلاح لسائر الجسد، وهذا الصلاح وتكفير السيئات حاصل لأنهم اتبعوا الحق من ربهم الذي هو القرآن<sup>(1)</sup>.

البال: الحال التي يكثر بها، يُقال: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكرثتُ به، ويُعبّرُ بالبال عن الحال التي ينطوي عليها الإنسان<sup>(2)</sup>، والبال: القلب، وأمرٌ ذو بالٍ، أي: ذو شرفٍ يُهتَمُّ به، وكان الأمر لعظمه ملك قلب صاحبه لاشتغاله به<sup>(3)</sup>.

فنعمة تكفير السيئات وغفران الذنوب تشرخ صدر المؤمن وتُهيئُ له الإقبال على القرآن من غير حوائل تصرفه؛ إذ الذنوب من الصوارف، وهي ثمرة لها ما بعدها من صلاح الحال؛ إذ إن المؤمن عندما يعلم أن الله غفر له أوزاره وخفف عنه أثقاله يرتاحُ باله ويطمئن.

"ونعمة صلاح البال نعمة عظمى لا يحس بها إلا من وهبه الله - تعالى - إياها، فإن خزائن الأرض لا تنفع صاحبها إذا كان مشتت القلب، ممزق النفس، مضطرب المشاعر والأحوال. أما الذي ينفعه فهو راحة البال. وطمأنينة النفس، ورضا القلب، والشعور بالأمان والسلام"<sup>(4)</sup>.

فبهذا تتضح أهمية هذه الثمرة العظيمة من ثمرات الارتباط بالقرآن الكريم على مستوى الأمن النفسي للفرد والذي يلعب دوراً رئيساً في صلاح بقية أحواله النفسية والأسرية والاقتصادية والإنتاجية في كل شؤون حياته؛ فإن الفرد متى اطمأنت نفسه وهدأت وارتاحت تفرغت للعطاء فيما ينفعه في دينه ودنياه، وكان بصلاح باله قوياً قادراً على الإنتاج والإبداع في كل المجالات

(1) انظر: تفسير الخازن، (ج 4/139-140).

(2) انظر: المفردات، الراغب، (ص 156).

(3) الكلبيات، أبو البقاء، (ص 248).

(4) التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 13/219).

التي يتخصّصُ فيها.

### المطلب السادس: القرآنُ صلاحٌ للبشريةِ جمعاءَ.

لا يتوقّفُ خيرُ القرآنِ ورحمتهُ على فئةٍ بعينها فحسبُ، بل إنّ اللهَ أنزله من الوهلةِ الأولى ليكونَ منهاجَ خيرٍ ورحمةٍ وصلاحٍ وإصلاحٍ للبشريةِ كلّها، وقد تجلّى هذا المقصدُ العظيمُ مع أوائلِ الآياتِ نزولاً في العهدِ المكيِّ الذي اقتصرَت فيه الدعوةُ مرحلياً على مكةَ وما حولها، ليدلَّ هذا على أنّ هذا الكتابَ المباركَ المجيدَ هو رسالةُ اللهِ الحقِّ بالحقِّ إلى جميعِ خلقه ليتولّاهم برحمته، ويُصلِحَ أحوالهم بعلمه، ويختارَ لهم الأفضلَ الأقومَ بتمامِ حكمته.

#### أولاً: القرآنُ صلاحٌ للبشر:

مع بدءِ تنزّلِ الآياتِ على قلبِ النبيِّ ﷺ في مكةَ، ومع أوائلِ العهدِ حيثُ سريةُ الدعوةِ، واختباءِ المدعوينَ تنزّلُ آياتُ سورةِ القلمِ لتختَمَ بقوله تعالى حديثاً عن القرآنِ الكريمِ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: 52].

والمعنى: "ما هذا القرآنُ إلا عظةٌ للجنِّ والإنسِ، وعزّةٌ وشرفٌ للعالمين" (1).

وفي (العالمين) وجهان: أحدهما: الإنسُ والجنُّ، قاله ابنُ عباسٍ، والثاني: كلُّ أمةٍ من أممِ الخلقِ مما يُعرفُ ولا يُعرفُ (2).

قلتُ: والوجهُ الثاني هذا منجّةٌ قويٌّ؛ فإنَّ إقامةَ كتابِ اللهِ بما يحويه من سننٍ كونيةٍ وقوانينٍ أرضيةٍ وقواعدٍ إصلاحٍ كليةٍ وتوجيهاتٍ دنيويةٍ يعكسُ أثره ليسَ على الإنسانِ فحسبُ، بل على كلّ المخلوقاتِ المحيطةِ به والتي يتأثرُ بها ويؤثرُ فيها.

فإنَّ الإنسانَ إذا فهمَ مثلاً امتنانَ اللهِ عليه في القرآنِ بإنباتِ الزرعِ له وإنشاءِ الجناتِ وإخراجِ الثمراتِ من كلّ الأنواعِ والألوانِ، وعلمَ أنّ لهذهِ المنّةِ حقّاً هو حفظُ ما أُمْتُنَ به ورعايتهُ وعدمُ إفسادهِ لم يتعدَّ على الغطاءِ النباتيّ في الطبيعةِ بإتلافٍ أو ظلمٍ في الاستهلاكِ بما يضرُّ به، وعلى هذا فقسُ في شتى نواحي الحياةِ البيئيةِ في البحارِ والجبالِ والصحاريِ والثرواتِ الحيوانيةِ والسمكيةِ والمعدنيةِ ... إلخ.

وقال اللهُ تعالى في التكويدِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٥٨﴾

(1) بحر العلوم، السمرقندي، (ج 3/487).

(2) تفسير الماوردي، (ج 6/74).

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ [التكوير: 27-29].

وفي سورة (ص): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ وَلِتَعْلَمَنَّا نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: 87-88].

وقال في الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: 10].  
أي: فيه تذكير وموعظة لكم، كما أن فيه عزكم وشرفكم إن آمنتم به وصدقتم من بلّغه" (1).

وقد سمى الله كتابه على لسان المتقين من عباده (خيراً)، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: 30].

أي: أنزل خيراً: والخير يشمل القرآن وما فيه من شرائع، وما جاء به النبي ﷺ من شرع، ففي هذا كله خير للبشرية، وصلاح لدنياها وآخرتها، والظاهر أن قوله تعالى بعده ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ...﴾ من تنمة كلام المتقين في وصف القرآن، والحسنة هنا أي: الخصلة الحسنة، والأثر الحسن، فالثمره من جنس العمل، وهل ينتج الخير إلا خيراً؟ وهل ينتج الإحسان إلا إحساناً؟ (2)

والقرآن خير أيضاً في مراعاة الأيسر والأفجع للعباد في أمور عباداتهم، قال الله تعالى مبيّناً حكمة النسخ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: 106].

عن ابن عباس: خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم (3).

ووصف كتابه أيضاً بأنه كتاب رشدي على لسان مؤمني الجن فقال: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: 1-2].

الرشد والرشد خلاف الغي، ويُستعمل استعمال الهداية، وقال بعضهم: الرشد أخص من

(1) التفسير الوسيط، مجمع البحوث، (ج 6/1095).

(2) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، (ج 8/4166).

(3) تفسير ابن كثير، (ج 1/378).

الرُّشْدِ، فَإِنَّ الرُّشْدَ يُقَالُ فِي الْأُمُورِ الْأَخْرُوبِيَّةِ فَقَطُّ، وَالرُّشْدُ فِي الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأَخْرُوبِيَّةِ<sup>(1)</sup>.

عن الطبري: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾: يدلُّ على الحقِّ وسبيلِ الصوابِ<sup>(2)</sup>.

والمعنى: إِنَّ الْجَنِّ قَالُوا - لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ - عَلَى سَبِيلِ الْفَرْحِ وَالْإِعْجَابِ: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا جَلِيلَ الشَّأْنِ بَدِيعَ الْأَسْلُوبِ، هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، أَي: إِلَى الْخَيْرِ وَالصَّوَابِ وَالْهُدَى فَاْمَنَا بِهِ إِيمَانًا حَقًّا<sup>(3)</sup>.

فالحاصلُ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كِتَابٌ مَوْعِظَةٌ وَهَدَايَةٌ يَقِيمُ دِينَ الْمَدْعُوبِينَ، وَكِتَابٌ عَزَّ وَشَرَفٌ يُعَلِّي شَأْنَ أَتْبَاعِهِ، وَكِتَابٌ حَكْمَةٌ وَرُشْدٌ يَهْدِي أَتْبَاعَهُ لِلصَّوَابِ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَكِتَابٌ صِلَاحٌ وَإِصْلَاحٌ وَمَنْفَعَةٌ يَحَقِّقُ لِلْمَدْعُوبِينَ الْخَيْرَ وَالْفَلَاحَ فِي شُؤْنِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ.

ثانيًا: البلوغُ بالبشرِ إلى الأفضلِ:

لا يسعى القرآنُ فحسبُ إلى بلوغِ مرتبةِ الهدى والرشادِ والخيرِ والصلاحِ والذكرِ لأتباعه، بل هو في كلِّ هذه النواحي يسعى إلى البلوغِ بأتباعه فيها مرتبةً الأتمِّ والأفضلِ، قال الربُّ الحكيمُ مَنْوَهَا بِشَأْنِ هَذَا الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِّلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿﴾ [الإسراء: 10-9].

فالقُرْآنُ قد اكتملت فيه بتمامِ نزوله كلُّ المسائلِ التي تضمنتْ استقامةَ الحياة، وفي قوله (يهدي) دلالةٌ على أفضلِيته؛ فَإِنَّ الْهَدَايَةَ هِيَ الطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ لِلْغَايَةِ مِنْ أَقْرَبِ وَجْهِ وَأَقْلَلِ تَكْلِفَةٍ.

ومعنى (أقومُ): أي: أكثرُ استقامةً وسلاماً، وهذه صيغةُ تفضيلٍ، أي: أقومُ وقِيمٌ، فأقومُ أكثرُ قياماً بالأمرِ من قِيمٍ، فقوله تعالى ﴿أقومُ﴾ يدلُّ على وجودِ القِيمِ في نُظْمِ النَّاسِ وَقَوَانِينِهِمُ الْوَضْعِيَّةِ، فَقَوَانِينُ النَّاسِ وَنُظْمُهُمْ تُوضَعُ عِلَاجاً لِأَعْوِجَاجٍ وَقَعُوا فِيهِ، فَتَكُونُ قِيَمَةً تَعَالِجُ هَذَا الْإِعْوِجَاجَ، أَمَا قَوَانِينُ اللَّهِ فَتَنْضَعُ الْوَقَايَةَ وَتَمْنَعُ الْمَرَضَ مِنْ أَصْلِهِ، فَتَكُونُ أَقْوَمَ بِلَوْغِهَا التَّمَامَ فِي مَنَعِ الْمَرَضِ وَإِقَامَةِ الْأَفْضَلِ<sup>(4)</sup>.

(1) انظر: المفردات، الراغب، (ص 354).

(2) تفسير الطبري، (ج 647/23).

(3) التفسير الوسيط، طنطاوي، (ج 131/15).

(4) انظر: تفسير الشعراوي، (ج 8377/14).

وفي هذه الآية لطائف:

1- حذَفَ موصوفَ (التي) لما في الإبهام من فخامةٍ واتساعٍ في المعاني، فيمكنُ أن تقدَّرَه: يهدي للطرائق التي هي أقومُ، ويهدي للأحوال التي هي أقومُ، ويهدي للسنن التي هي أقومُ<sup>(1)</sup>.

2- حذَفَ مفعولَ (يهدي) ليعمَّ بهداياته كلَّ البشرِ دونَ طائفةٍ بعينها<sup>(2)</sup>.

3- الاقتصارُ على (أقومُ) دونَ نكرٍ (من كذا) لإرادةِ العمومِ مع الإيجازِ، فالقرآنُ يهدي للحالة التي هي أقومُ من كلِّ حالةٍ تُجعلُ بإزائها<sup>(3)</sup>.

4- واقتصرَ أيضاً على (أقومُ) دونَ نكرٍ (في كذا) ليشملَ كلَّ مجالاتِ الإصلاحِ في الحياة، فهو أقومُ في مجالِ العقيدة، وأقومُ في مجالِ السلوكِ، وأقومُ في مجالِ النُظمِ الاجتماعية، وأقومُ في مجالِ القوانينِ الحاكمةِ للناسِ، وأقومُ في مجالِ الاقتصادِ، وأقومُ في مجالِ السياسةِ ... إلخ.

وفي الظلالِ ما ملخصُه: إنَّ هذا القرآنَ يهدي للتي هي أقومُ في عالمِ الضميرِ والشعورِ، بالعقيدةِ الواضحةِ التي لا تعقيدَ فيها ولا غموضَ، والتي تطلقُ الروحَ من أثقالِ الوهمِ والخرافة، وتطلقُ الطاقاتِ البشريةِ الصالحةَ للعملِ والبناءِ، وترتبطُ بينَ نواميسِ الكونِ الطبيعيةِ، و نواميسِ الفطرةِ البشريةِ في تناسقٍ واتساقٍ.

ويهدي للتي هي أقومُ في التنسيقِ بينَ ظاهرِ الإنسانِ وباطنه، وبينَ مشاعره وسلوكه، وبينَ عقيدته وعمله.

ويهدي للتي هي أقومُ في عالمِ العبادةِ، بالموازنةِ بينَ التكاليفِ والطاقةِ، فلا تشقُّ التكاليفُ على النفسِ حتى تُملَّ، ولا تسهلُ حتى تشيعَ في النفسِ الرخاوةُ والاستهتارُ، ولا تتجاوزُ القصدَ والاعتدالَ وحدودَ الاحتمالِ.

ويهدي للتي هي أقومُ في علاقاتِ الناسِ بعضهم ببعضٍ: أفراداً وأزواجاً وحكوماتٍ وشعوباً، ودولاً وأجناساً.

---

(1) انظر: نظم الدرر، (ج 11/380-381).

(2) انظر: حدائق الروح والريحان، (ج 16/29).

(3) انظر: تفسير ابن عطية، (ج 3/441).

ويهدي للتي هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل<sup>(1)</sup>.

### المطلب السابع: الفوز بالجنة والنعيم المقيم.

ورُتِلت الآيات وارتقى القراء في الدرج، ووَسَدَتِ المُلْكُ باليمينى ألا ابتهج، وأعطيت الخلد باليسرى فأنت نجي، وتاج الوقارِ علاك فأنت كالسُرُج، وكُسي الأباءَ حُللاً من خيرٍ مُنْتَسَجٍ، وفُتِحَتْ لك الفردوسُ فاعجل لمدارجها ولج، واتل القرآن هناك بصوتٍ نديٍّ شجي، وانعم أبداً بسماع القرآن من مولاك فلعمرك ذاك المبتهج، واسعدُ سعداً برؤية جلال وجه الإله في بلج، ثم قل لي برتك: هل رأيت مُكرماً كصاحب القرآن الذي يُقدِّيه بالمهَج؟!

وها نحن أولاءٍ نحطُ رحال أسفارنا الممتلئة بأسفار العلوم، والمكتنزة باللطافِ الفنون بعد رحلة علمية نُسجت بخيوطِ البحث العلمي والأدب والفنون، نحطُ في أبهى أرضٍ أورثها المؤمنون، وأزكى مكانٍ يُعطاه أهل القرآن العاملون، إنَّها دُخْرُ الرحمن لأهل الإيمان، أهل القرآن، إنَّها فردوس الجنان، جزاءً من عاشوا مع القرآن، من عاشوا بالقرآن، من عاشوا للقرآن، فحريُّ بهم اليوم أن يقطفوا أطيب الثمر، وأن يستقوا من أعذب النهر، وأن يرتاحوا بعد طولٍ مسيرٍ على موزونِ السُرر، فاستمع بقلبك يا من آمنت بالآيات وحملت القرآن في قلبك وحياتك بينات، استمع إلى ربك وهو يناديك: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾<sup>(2)</sup> الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ<sup>(3)</sup> أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ<sup>(4)</sup> يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ<sup>(5)</sup> وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ<sup>(6)</sup> لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ<sup>(7)</sup> [الزخرف: 68-73].

فالعلة التي لأجلها استحقوا كل هذا النعيم جاءت في الاسم الموصول الذي عرفنا قبل أن من أغراضه التي قررها علماء المعاني الإيماء بعليّة الحكم<sup>(2)</sup>، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾<sup>(3)</sup>.

ف﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ في محلٍ نصبٍ صفةً لـ(عبادي)، أو في محلٍ نصبٍ بدلٍ منها، أو عطفُ بيانٍ، أو على إضمار فعلٍ تقديره (نعني)<sup>(3)</sup>، أو هي منصوبةٌ على المدح<sup>(4)</sup>، فهي تصفُ

(1) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج 4/2215).

(2) انظر المطلب الثاني من هذا المبحث، ص: (308).

(3) انظر: التفصيل في إعراب آيات التنزيل، عبد اللطيف محمد الخطيب وآخرون، مكتبة الخطيب للنشر والتوزيع، ط 1، 1436هـ - 2015م، (ج 13/235).

(4) انظر: تفسير أبي السعود، (ج 8/54).

هؤلاء العباد الذين يناديهم الله ممتناً عليهم بهذا النعيم بأعظم صفةٍ وهي تصديقهم بالقرآن وما حواه من عقائد وأحكامٍ ووعدٍ ووعيدٍ.

أخرج الطبري بسنده عن المعتمر<sup>(1)</sup>، عن أبيه، قال سمعت أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فرح، فينادي مناد: يا عباد الله لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ) قال: فيياس الناس منها غير المسلمين<sup>(2)</sup>.

وقد نفى الله عنهم الخوف والحزن في هذا اليوم، وفي هذه الآية أسباب كثيرة موجبة للفرح منها<sup>(3)</sup>:

- 1- أن الله سبحانه هو الذي خاطبهم بنفسه من غير واسطة.
- 2- أن الله وصفهم بالعبودية، ومقام العبودية مقامٌ تشریف؛ فقد وصف الله به نبيه ليلة الإسراء.
- 3- قوله ﴿لا خوف عليكم﴾، فأزال عنهم الخوف في يوم القيامة بالكليّة، فالنكرة تفيّد العموم، [قلت: وهذا المعنى أظهر على قراءة يعقوب بالفتح (لا خوف)<sup>(4)</sup> فتكون (لا) نافيةً لجنس الخوف].
- 4- قوله ﴿ولا أنتم تحزنون﴾، فنفي عنهم الحزن بسبب ما فاتهم من الدنيا.
- 5- (يا عباد) خصهم بالإضافة إليه سبحانه كما خصوه هم بالعبادة<sup>(5)</sup>.

واستمع أيضاً إلى المكرمات المتظافرة بعضها فوق بعضٍ لأهل القرآن الذين داوموا على تلاوته في الدنيا وتبعوا آياته علماً وعملاً، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْتَجُونَ تَجَرَّةً لَّن تَبُورَ ۗ لِيُوقِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 29-30].

(1) هو المعتمر بن سليمان التيمي، ثقة، من أتباع التابعين، توفي سنة مائة وسبع وثمانين بالبصرة. انظر: الطبقات الكبرى - طبقات ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410 هـ - 1990 م، (ج 213/7)، برقم: (3319).

(2) تفسير الطبري، (ج 639/21).

(3) انظر: مفاتيح الغيب، (ج 642/27).

(4) انظر: البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي، (ص 291).

(5) انظر: نظم الدرر، (ج 477/17).

عن قتادة قال: كَانَ مُطْرَفٌ إِذَا مَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَقُولُ: "هَذِهِ آيَةُ الْقُرْآنِ"<sup>(1)</sup>.

وقد تحدّثنا عن هذه الآية قبل من جهة الأجر والثواب الذي فيها لصاحب القرآن بوصف هذا الثواب وسيلة من وسائل دفع المرء للارتباط بالقرآن<sup>(2)</sup>، ونحن هنا نذكرها في باب الثمرات التي تمنحها لقارئ القرآن عند ربّه في الآخرة. فقد ذكرت هذه الآية خمس مراتب<sup>(3)</sup>:

- 1- العمل: وعلى رأسه المواظبة على تلاوة القرآن والعمل به، إضافة إلى إقام الصلاة والإنفاق.
  - 2- الإخلاص: التوجّه بهذا العمل لله خالصاً، وأشار إلى هذا المعنى قوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾؛ فإنّ التجارة مع غير الله بائرة، [وذهب بعض السلف إلى أنّ التجارة التي لن تبور هي الجنة]<sup>(4)</sup>.
  - 3- الثواب المرجو: أي ما يتوقّعون ويرجونه ويتمنّونه من عطاء الله لهم في الآخرة، وأشار إلى هذا بقوله ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، أي: كاملة كما طلبوا حتى وإن كانت أمنياتهم بالغة الغاية.
  - 4- الثواب فوق ما يرجون ويتوقّعون: فيعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل، وأشار إلى هذا بقوله ﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، [وللسلف في هذه الزيادة معانٍ: يُفْسَخُ لَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ، عَنْ الضحاك. يُشَقِّعُهُمْ فِيمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، قَالَهُ أَبُو وَائِلٍ. يُضَاعِفُ لَهُمْ حَسَنَاتِهِمْ، وَهُوَ ظَاهِرُ النَّصِّ. الْغَفْرَانُ الْكَثِيرُ مَعَ الشُّكْرِ الْيَسِيرِ، قَالَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ]<sup>(5)</sup>.
  - 5- ومرتبته خامسة يحتملها لفظ ﴿وَيُزِيدُهُمْ﴾ وهي أمنية الأمنيات، وأعطية الأعطيات، ومنتهى الغايات، وقمة نعيم أهل الجنات، إنّها النظر إلى جلال وجه الملك العظيم سبحانه كما ورد في تفسير المزيد عند السلف.
- ويقدّر الله أن يكون أعظم ختام لهذا البحث هذه العبارة، عبارة المزيد، وأعظم مثوبة يُعطاها صاحب القرآن رؤية وجه الربّ المجيد، أكرمني الله وقارئاً هذا البحث بهذا المزيد، وبهذا المقام السعيد.

---

(1) تفسير الطبري، (ج 20/464).

(2) انظر: المطلب الأول من المبحث السادس من الفصل الثاني من هذا البحث، ص: (240).

(3) انظر: مفاتيح الغيب، (ج 26/237).

(4) انظر: تفسير الماوردي، (ج 4/472).

(5) المرجع نفسه.

## فوائد تطبيقية مقتطفة من الثمرات السابقة

1- فوائد وثمرات الحياة مع القرآن وبه: العلم ومعرفة الله، ولأية الله، تثبيت أهل القرآن، عصمة من الضلال والفرقة، تجلية أحوال أعدى أعداء الإسلام، الهداية والرحمة، تكفير الذنوب، صلاح البال، صلاح البشرية، بلوغ الأفضل للناس، الفوز بالجنة... تلك هي مكرمات وفوائد وثمرات الارتباط بالقرآن الكريم على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والمجتمع والدولة والوطن والعالم بأسره، فحري بالدعاة على مستوى أفرادهم وجمعياتهم أن يلتقطوا هذه الفوائد فيبينوها للناس، ويشرحوها، ويصنّفوا الكتيبات فيها، ويدعموها بالأمثلة، كي تكون هذه الثمرات العظيمة المحبوبة إلى كلِّ أحدٍ دافعاً قوياً للإقبال على القرآن والارتباط به.

2- עודّ على بدءٍ بما بيّناه أولَ البحثِ من أهمية العلم في فهم القرآن وبناء الشخصية القرآنية، وبأولوية ومركزية العلم في كلِّ شؤون الحياة، فإننا نعود الآن كما بدأنا، بدأنا بالعلم أداة للفهم، وانتهينا بالعلم ثمرة للارتباط بالقرآن، فإن هذا الكتاب الفريد إذا عُلِمَ يُعَلِّمُ، وإذا فُهِمَ يُفَهِّمُ، وإذا حُضِتْ بحارَه صَيَّرَكَ رَبَّاناً، وإذا نَقِبَتْ عن دُرِّهِ صَيَّرَكَ غَوَّاصاً، فالقرآن منبع كلِّ العلوم وأصلها، تجد تحت كلِّ حرفٍ من حروفه سرّاً عجبياً، وتستنبط من نظم آياته لؤلؤاً نضيداً.

3- جلى القرآن الكريم المنافقين بصفاتهم، وأغلظ عليهم تحذيراً من مكرهم وخطرهم على أمة الإسلام، فكيف ينبغي أن تكون سيرة أهل القرآن فيهم؟

أهل القرآن يستقون منهجهم من كتابهم ويتأسون به وينبئهم ﷺ الذي ترجم آيات الكتاب عملاً على الواقع، وهكذا وكما فضح الله المنافقين بصفاتهم لا بذواتهم ينبغي أن تكون أنت يا حامل القرآن، تُبرز للناس صفات المنافقين بوضوح تامّ وتبين لهم خطرهم كما بين كتابك، ثم تترك لكلِّ واحدٍ من المخاطبين مهمة تنزيل الصفات على الأشخاص، فإن رمي أحاد الناس ممن يحيون بين المسلمين بالنفاق يثير الضغائن والعداوات الشخصية ويشق عصا المجتمع سيماً في زمانٍ ضعف المسلمين وقوة أعدائهم، فقد كان النبي ﷺ حريصاً على الحفاظ على لحمة المجتمع المسلم بكلِّ أطيافه ولمّا استأذن عمر بن الخطاب ﷺ النبي ﷺ في قتل رأس النفاق ابن سلولٍ لتحريشه بين المسلمين في غزوة المصطلق ردّ عليه النبي ﷺ قائلاً: "لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَضْحَابَهُ"<sup>(1)</sup>.

(1) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، (ج 3/1296)، رقم الحديث: (3330).

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ معرفةَ صفاتِ المنافقينَ المذمومينَ في كتابِ اللهِ ودينهِ يبيِّتُ الطمأنينةَ في قلوبِ المؤمنينَ من عوامِ الناسِ الذينَ تلتبسُ عليهم أحوالُ المنافقينَ بما أُوتيه المنافقونَ من مكرٍ وخداعٍ ولحنٍ في القولِ وكلامٍ معسولٍ، فيأمنوا أولاً من ملابسةِ شيءٍ من صفاتهم، ويعرفوا ثانياً عدوَّ اللهِ وعدوَّهُم فيحذروه.

4- إنَّ لحاملِ القرآنِ يومَ القيامةِ مكانةً خاصةً عظيمةً بهيئةَ دأبِ الدعاةِ على الحديثِ عنها في معرضِ الترغيبِ في حفظِ القرآنِ وتلاوتهِ، لكنَّ كثيراً منهم أغفلوا الحديثَ عن الصفاتِ الحقيقيةِ التي يبلغُ بها هؤلاءِ ما بلغوا من حظوةِ يومِ القيامةِ، فليستِ العبرةُ أن يقولَ الداعي للناسِ: من تلى القرآنَ أو حفظه تُوجَّحَ تاجِ الوقارِ وحُلِّيَ والداه بأبهى حُلَّتَيْنِ ... إلخ، بل العبرةُ الحقيقيةُ تتحقَّقُ بحديثِ الدعاةِ عن معنى التلاوةِ الحقَّةِ وشروطها وكيفيةِ إقامتها في حياةِ الناسِ كي يفوزوا بتلكِ الأجورِ، العبرةُ تتحقَّقُ بالحديثِ عن الحفظِ الحقيقيِّ المقترنِ بالفهمِ التدرجيِّ بحسبِ العمرِ، والمقترنِ بتعظيمِ القرآنِ والخشوعِ عندَ تلاوتهِ، والعملِ به، والوقوفِ عندَ أحكامِهِ، فينبغي أن تتغيَّرَ نظرةُ الناسِ إلى القرآنِ من كونه كتابَ ترانيمٍ، وحصولِ بركةٍ، واستشفاءٍ، إلى كونه منهجَ حياةٍ متكاملٍ بكلِّ معاني الحياةِ.

تمَّ بحمدِ اللهِ جلَّ جلاله، وبفضله، وبنعمته، وبتوفيقه، فما كانَ فيه من خيرٍ ونفعٍ وصوابٍ فهو بتوفيقِ اللهِ وتسديدهِ ومِنَّته، وما كانَ فيه من خطأٍ ونسيانٍ وذهولٍ ومجانبةٍ للصوابِ فهو من العبدِ الفقيرِ إلى رحمةِ ربِّه ومن الشيطانِ.

الأولُ من شهرِ اللهِ المحرَّمِ ذي الحجةِ من العامِ الثاني والأربعينَ بعدَ المائةِ الرابعةِ بعدَ الألفِ للهجرةِ النبويَّةِ المطهَّرةِ للنبيِّ الأكرمِ الأشرفِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ عليه وعلى آله وأصحابِهِ وأتباعِهِ أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليمِ.

الخاتمة

## الخاتمة

### أهمُّ النتائج

- 1- ظهرَ للباحثِ من خلالِ تتبعِ مراحلِ النزولِ للنصوصِ القرآنيةِ المتعلقةِ بمنهجيةِ ربطِ الإنسانِ بالقرآنِ التدرُّجُ في خطواتِ بناءِ العلاقةِ بينَ الإنسانِ والقرآنِ، والتكريرِ في استعمالِ العلاجِ التربوي، بغيةِ تأثيره والحصولِ على الفائدةِ منه؛ فالنصوصُ التربويةِ ذواتِ مراحلٍ تدريجيةٍ توأمُ الحالةِ النفسيةِ للفردِ الذي تتوجهُ له بها أساليبُ التربيةِ القرآنيةِ.
- 2- حقائقٌ: ربانيةِ القرآنِ، خصائصِ القرآنِ وصفاته، إعجازِ القرآنِ، ملامحُ عامةٌ تسري في القرآنِ من أولِهِ إلى آخرِهِ، تعلقُ على السياقاتِ الزمانيةِ والمكانيةِ، والتدرجاتِ المرحليةِ.
- 3- من طرقِ القرآنِ الفريدةِ في إثباتِ ربانيةِ القرآنِ وإثارةِ المهابةِ له في صدورِ الناسِ نسبةُ الآياتِ إلى الذاتِ العليةِ نسبةً السببِ لمسبِّبه والنازلِ لمُنزلهِ.
- 4- ارتباطُ النصِّ القرآنيِّ بالخالقِ العظيمِ في أذهانِ الناسِ بيني هيبَةً ومهابةً وتقديساً لهذا النصِّ القرآنيِّ ويُعمِّقُ قيمةَ التصديقِ به واتباعِهِ.
- 5- ظهرَ للباحثِ أنَّ أولَ الأسماءِ والصفاتِ التي بدأَ ورودُها في كتابِ اللهِ تعالى - بحسبِ التترُّلِ الزمنيِّ - عن هذا القرآنِ أسماءُ (يُذكر - تذكره - يُذكرى).
- 6- خوطبُ المؤمنونَ خاصةً والناسُ عامةً ابتداءً بالاسمِ الذي يُبرزُ شمولَ نفعِ هذا القرآنِ ويُبرزُ ثمرةَ اتباعِهِ (يُذكر - يُذكرى - تذكره).
- 7- في تسميةِ القرآنِ (يُذكر) بمعنى الشرفِ والفخرِ معَ بدايةِ الدعوةِ الجهريةِ سرٌّ لطيفٌ من أسرارِ مراعاةِ القرآنِ للنفوسِ البشريةِ، فمن المعلومِ أنَّ النفسَ البشريةَ مفضوذةٌ على حبِّ السيادةِ والظهورِ والافتخارِ بما بينَ يديها من إنجازاتها، فدخلَ القرآنُ العظيمُ إلى تلكَ النفوسِ من أحدِ أحبِّ مداخلها إليها.
- 8- أبرزَ البحثُ استعمالَ القرآنِ الكريمِ لأسلوبِ عربيِّ بليغٍ في التنويهِ بشأنِ هذا الكتابِ المجيدِ هو الإشارةُ إلى القرآنِ باسمِ الإشارةِ الذي للقريبِ كثيراً (هذا - هذه)، والذي للبعيدِ أحياناً (ذلك - تلك)، استحضاراً لصورتهِ في الأذهانِ لما له من أثرٍ في حياةِ الناسِ بصفاتهِ وخصائصِهِ.
- 9- أسماءُ القرآنِ وصفاتهُ من المباحثِ العلميةِ التي لم تجد حظَّها الوافرَ في الجانبِ التطبيقيِّ العمليِّ التعليميِّ.
- 10- وصفُ القرآنِ بالعربيِّ جاءَ فقط في سورِ العهدِ المكيِّ، ذلكَ أنَّ المخاطبينَ بالقرآنِ أصالةً في ذلكَ العهدِ هم العربُ الأقحاحُ فضلاً عن أهلِ مكةَ خاصةً.

- 10- خلص الباحث من خلال تقرير معاني وصف القرآن ب(مبين - بينات - تبيان) وأنها شاملة لإبانة كلا جانبي اللفظ والمعنى إلى أن إعجاز القرآن البياني - والذي أشتق من هذا الوصف - لا يقتصر فقط على بنائه اللفظي من حيث تركيب وترتيب كلماته ونظمه بل يتعداه إلى ما يفيض من هذا النظم المعجز من معانٍ تشمل جميع نواحي الحياة الإيمانية والمادية والنفسية والتربوية والاقتصادية والسياسية والعلمية... إلخ.
- 11- يتميز القرآن العظيم بسبر أغوار النفوس وكشف مكامنها وتجليه أصناف الناس على حقائقهم، وهو ما يسميه أكثر العلماء الإعجاز النفسي في القرآن.
- 12- رسم القرآن الكريم نظرية متكاملة لتدبر القرآن يمكن أن نسميها (منظومة التدبر) وهي تتكون من: فهم دقائق المعاني ومقاصد الآيات ثم حضور خشية القلب المترتبة على الفهم ثم العمل بما تم تدبره.
- 13- أحاطت آيات القرآن الاستماع إلى القرآن والإنصات إليه بهالة عظيمة من الأهمية والقدسية بقدر وقدسية هذا الكلام نفسه، فلم يأمر الله عباده بمجرد الاستماع المبني على الإصغاء والفهم، بل أمرهم بالإنصات الذي هو تفرغ القلب عن كل شاغل.
- 14- ظهر من خلال تتبع حال أهل الكتاب مع كتبهم أن هناك صوراً من هذه الأحوال قد وافقت فيها أمتنا أمتهم، ومن أشهر هذه الأحوال نبذ العمل بالقرآن أو بعض ما فيه بعد العلم بأحكامه.
- 15- منهج الإنصاف في القرآن منهج أصيل مضطرد، وقد تجلّى هذا المنهج في الصور الرائعة المشرقة من إيمان الصادقين من أهل الكتاب التي ذكرها القرآن.
- 16- ظهر للباحث أن فتح قلوب الناس اليوم من غير المسلمين بالقرآن هي أنجع طريق لدعوة الناس إلى الإسلام.
- 17- خلص الباحث إلى أن مدار التحدي في أولى آيات التحدي والإعجاز كان على هدايات القرآن ومعانيه لا على المشهور من أن النظم اللغوي هو مدار التحدي في كل آيات التحدي بالقرآن، وهذا ملحظ دقيق.
- 18- الرسوخ في العلم سبيل تحصين الأمة من أعداء القرآن الذين يتتبعون متشابهة ليضلوا الناس ويفتنوهم عن كتابهم ودينهم.
- 19- تكريم الله لحملة كتابه والدفاع عنهم بذاته العلية من فوق سبع سماوات بتنزيل الآيات الفاضحة لعدوهم لأكبر دليل على علو مقام قرآء القرآن وحفظته ومقرئيه.
- 20- من خلال هذه الدراسة المنهجية المتدرجة خلص الباحث إلى أن سبيل وحدة الأمة

- اجتماعها على كتاب ربها وذلك بتحقيق عناصر الاتحاد التي تجمع فرقتها.
- 21- مرّ التدرج في تطبيق الشريعة عبر آيات القرآن في أربع مراحل: فبدأ بخطاب العقل ثم ربط تحكيمه في الناس بعقيدة الألوهية ثم أكد على استقلالية الله بالتشريع ثم انتهى بإلقاء الأوامر والنواهي والتشريعات العملية إليهم فاستقبلوها بتشوق إلى الاستجابة لأمر ربهم.
- 22- بيّنت الآيات أن أعدى أعداء القرآن في تطبيقه بين الناس اليهود والمنافقون، وقد برز هذا العداء بمساهمة الحركة الصهيونية في إسقاط الخلافة واستبدالها بحكومات حكمت القوانين الوضعية في عالمنا الإسلامي اليوم بدلاً من القرآن الكريم.
- 23- للاستماع للقرآن أهمية توازي تلاوته فلا ينبغي التخصير في هذا الجانب على حساب التلاوة.
- 24- ظهر لنا أهمية عبادات الصلاة والصيام في بناء علاقة قوية مع القرآن، ففتحصل لدينا وسيلة مثلثة الأركان: (الصيام + القيام + القرآن) في بناء الفرد القرآني الفريد.
- 25- الطريق إلى مكارم الأخلاق القرآن، والطريق إلى القرآن اجتناب مساوي الأخلاق، فالعلاقة بين القرآن والأخلاق متأثرة وتأثيراً علاقة تناظرية انعكاسية، يصب كل من طرفيها في قناة الآخر.
- 26- ممّا ينبغي أن يُستشعر خطره التركيز على العلوم الدنيوية مجردة عن علوم الدين، وهذا واقع كثير من جامعات بلادنا الإسلامية.
- 27- إزالة الصوارف عن قلوب وأسماع الكافرين ليقبلوا القرآن والإسلام مهمة الجهاد في سبيل الله، ومهمة الدعاة أيضاً.
- 28- رفع الصوت بالبكاء، والنحيب، والعيول أثناء القراءة والدعاء ليس من الخشوع في شيء، وإنما هو من أعمال الجهال.
- 29- تجلّت أهمية العلم بوصفه قضية مركزية في مسيرة بحثنا مع القرآن في كلّ مراحلِه: منهجياً وأداةً للفهم ووسيلةً للارتباط وثمرَةً للعلاقة، فالقرآن منبع كل العلوم وأصلها.
- أهم التوصيات**

- 1- يوصي الباحث بربط أبناء المسلمين بأسماء القرآن وصفاته عبر برامج تطبيقية عملية تربوية؛ لما لكل اسم وصفة من أثر عملي على حياة المسلم اليومية وما يواجهه من هموم وتحديات، فضلاً عن توثيق الصلة بالقرآن من خلال الشعور العملي بكلّ الجوانب التي يحتاجها الإنسان في حياته.
- 2- ينبغي على المسلمين أن يولوا علوم اللغة عامة وعلوم البلاغة خاصة أهمية أولى في تعليم

- أبنائهم كي ينشأوا على التعلُّق بهذا القرآنِ المبينِ وكي يتمكنوا من تذوقِ إعجازِهِ وحلاوته.
- 3- أوصي الدعاةَ ومرتبَّيهم بالاعتناءِ بإحياءِ الليلِ، إحياءً حقيقياً بحيثُ تحصلُ القراءةُ المتأنيةُ التدبريةُ للقرآنِ التي يحيا بها القلبُ ويعظمُ بها الإيمانُ وتزدادُ بها الهمةُ واليقينُ، إحياءً يصدقُ عليه لفظُ الإحياءِ من حيثُ اقتطاعُهُ جزءاً من الليلِ تكونُ به الحياةُ.
- 4- هذه دعوةُ لوزاراتِ التعليمِ بتخصيصِ حصصٍ خاصةٍ بتدبرِ القرآنِ الكريمِ وفقَ منظومةِ التدبرِ - التي بينها البحثُ - ابتداءً بالصفِّ الأولِ حتى الثاني عشرَ بطريقةٍ تدرجيةٍ تتناسبُ معَ الفئةِ العمريةِ، بحيثُ تبدأُ بعلمِ الغريبِ، فالتفسيرِ الميسرِ، ثمَّ تترقى شيئاً فشيئاً حتى تبلغَ بالطلابِ القدرةَ على الاستنباطِ من أسرارِ القرآنِ، والتفاعلِ والتأثرِ به وتطبيقه في حياتهم.
- 5- يقترحُ الباحثُ أن يقومَ بعضُ العلماءِ بكتابةِ تفاسيرٍ قرآنيةٍ خاصةٍ بإبرازِ القيمِ والأخلاقِ من خلالِ آياتِ القرآنِ على غرارِ التفاسيرِ التي عُنيَت بتفسيرِ آياتِ الأحكامِ، كي يجدَ الدعاةُ فيها مادةً ثريةً تجمعُ بينَ ربطِ الإنسانِ بآياتِ القرآنِ من جهةٍ - سواءً الدعاةُ أو المدعويينَ - وبينَ تحقيقِ التأثيرِ في أخلاقِ المجتمعِ بالقرآنِ الكريمِ.
- 6- أوصي القائمينَ على وزاراتِ الأوقافِ والتعليمِ ومسؤولي الأمةِ بأن يزيدوا عنايتهم وتكريمهم لمحفظي القرآنِ العظيمِ وحفظته، فهم اليومَ طبقةٌ دنيا أو متوسطةٌ بينَ موظفي الدولةِ، وحَقُّهم بما كَرَّمهم اللهُ أن يكونوا أعلى موظفي الدولةِ من حيثِ الرتبةِ والعائدُ الماليُّ، حتى يتفرغوا ويصلحَ بألهم لبدلِ كلِّ جهودِهِم لهذا القرآنِ فكُلِّموا ارتاحتِ نفسيةُ معلِّمِ القرآنِ ازدادَ عطاؤه.
- 7- ممَّا ينصحُ به الباحثُ أن يُجَنَّبَ الدعاةُ والمصلحونَ الذينَ وُيِّدوا مناصبَ في دُولِهِم الانغماسَ في شهواتِ الدنيا ونعيمِها، حتى وإن تذرَّعوا بأنَّه ممَّا أحلَّ اللهُ من نعيمِ الدنيا، فإنَّ الدنيا لا تزالُ تُفتَحُ عليهم حتى يُفْتَنوا بها، وإنَّ فتنةَ أمثالِ هؤلاءِ تؤدي حتماً إلى ضياعِ الحقوقِ وتيسيرِ وصولِ المتسلطينَ عليهم بما يملكونَ من مفاتيحِ الدنيا التي هي اليومَ بيدِ الغربِ.
- 8- تكوينُ فريقٍ من العلماءِ من جميعِ التخصصاتِ للعملِ على تتبعِ نزولِ الآياتِ والأحاديثِ زمنياً واستخراجِ العبرِ والعظاتِ من كلِّ مرحلةٍ من المراحلِ التدرجيةِ.

## قائمة المصادر المراجع

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: قائمة المصادر والمراجع العربية:

1. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري، ت: دار المشكاة للبحث العلمي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط 1، 1420هـ - 1999م.
2. الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ - 1974م.
3. الأثر الإيماني لتعليم القرآن الكريم على الفرد والمجتمع، (1429هـ - 2008م) العباس بن حسين بن علي الحازمي، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، الجمعية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.
4. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان البستي، بترتيب علي بن بلبان الفارسي، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1408هـ - 1988م.
5. أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر ابن العربي المعافري الإشبيلي، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 3، 1424هـ - 2003م.
6. الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية لدى تلاميذه، سامي بن محمد جاد الله، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1435هـ.
7. أخذ المال على أعمال القرب، عادل شاهين شاهين، أصل الكتاب رسالة ماجستير، دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، ط 1، 1425هـ - 2004م.
8. آداب حملة القرآن، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، ت: أحمد شحاته الألفي، دار الصفا والمروة، الإسكندرية، ط 1، 1426هـ - 2005م.
9. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
10. الأساس في البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ - 1998م.
11. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ت: ماهر الفحل، دار الميمان، ط 1، 1426هـ، 2005م.
12. استشارات موقع الشبكة الإسلامية على الإنترنت:  
<https://islamweb.net/ar/consult/>

13. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر القرطبي، ت: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1412هـ - 1992م.
14. أسد الغابة في تمييز الصحابة، علي بن أبي الكرم ابن الأثير الجزري، ت: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415هـ - 1994م.
15. إشراقات قرآنية - حزب المفصل، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، 1436 هـ.
16. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط 1، 1429هـ - 2008م.
17. أصول الدعوة إلى الله، عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، (كُتِب) كتبه بتاريخ 27 / ذي الحجة 1416هـ.
18. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، 1415هـ - 1995م.
19. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط 3.
20. إعجاز القرآن الكريم، فضل عباس وسناء عباس، دار النفائس، عمان، الأردن، 1991م.
21. إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى الدرويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، ط 4، 1415هـ.
22. الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، بهجت عبد الواحد صالح، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط 2، 1418هـ.
23. أقباط مسلمون قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فاضل سليمان، شركة النور للإنتاج الإعلامي والتوزيع، ط 1، 2010م.
24. أنوار البروق في أنواء الفروق، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي الشهير بالقرافي، ت: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ - 1998م.
25. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، ت: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1418م.
26. أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره، أحمد خالد شكري\* و عمران سميح نزال، بحث منشور بمجلة المنارة - مجلة علمية متخصصة - جامعة آل البيت، عمان، الأردن، بتاريخ 2004/12/26 م.
27. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر المعروف بأبي بكر

- الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط 5، 1424هـ - 2003م.
28. الإيمان، أبو عبد الله محمد بن إسحاق ابن منده العبدي، ت: علي الفقيه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1406هـ.
29. بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، ت: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، 1997م.
30. البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، دار ابن الجوزي، ط 1، 1426هـ - 1436هـ.
31. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
32. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد ابن عجيبة الفاسي، ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، 1419هـ.
33. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت: هشام عبد العزيز عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط 1، 1416هـ - 1996م.
34. البدر الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح عبد الغني القاضي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
35. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط 1، 1376هـ - 1957م.
36. بصائر نوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز أبادي، ت: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1416هـ - 1996م.
37. بلاغة الاقتران في القرآن الكريم، 1432هـ -، مريم بنت سليمان العبيد، رسالة دكتوراه في البلاغة والنقد، إشراف: أ.د. أحمد السيد طحلة داود، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية اللغة العربية، الرياض.
38. البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط 1، 1416هـ - 1996م.

39. التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ت: محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ط 3، 1414هـ - 1994م.
40. تحبير التيسير في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، ت: د. أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان - الأردن / عمان، ط 1، 1421 هـ - 2000 م.
41. التحدي بالقرآن الكريم، محسن سميح الخالدي، (1421هـ، صفر - 2000م، مايو)، بحث مقدم للمؤتمر العلمي الثالث: الإعجاز في القرآن الكريم، غزة، جامعة الأقصى.
42. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ.
43. تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، رقية طه جابر العلواني، ط 4، 2008 م.
44. تدبر القرآن، سلمان بن عمر السنيدي، المنتدى الإسلامي، ط 2، 1423 هـ.
45. تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، علي بن أحمد بن حسن التجيبي الأندلسي الحرالي، ت: محمادي بن عبد السلام الخياطي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط، ط 1، 1418هـ - 1997م.
46. ترتيب نزول السور وموقف الطاهر ابن عاشور منه، شافي سلطان العجمي، بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي، بتاريخ 2017/3 م.
47. ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات العربية والإسلامية، ع 16.
48. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جُزَي الكلبى الغرناطي، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط 1، 1416 هـ.
49. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب إبراهيم، دار المعارف، 1993 م.
50. تفسير ابن بركان (تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم)، عبد السلام بن عبد الرحمن ابن بركان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1434 هـ - 2013 م.
51. التفسير البسيط، أبو الحسن الواحدى النيسابوري، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط 1، 1430هـ.
52. تفسير البغوي - معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 4، 1417 هـ - 1997م.

53. التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، سامي وديع القدومي، دار الوضاح، الأردن، عمان.
54. التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، 1383 هـ.
55. التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1383 هـ.
56. تفسير الخطيب المكي، عبد الحميد الخطيب، دار الفكر الإسلامي، دمشق، ط 2، 1377هـ - 1957م.
57. تفسير الراغب الأصبهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، ت: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، ط 1، 1420هـ - 1999م.
58. تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997 م.
59. تفسير القرآن العزيز - تفسير عبد الرزاق الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني، ت: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1419هـ.
60. تفسير القرآن العظيم - تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420هـ - 1999م.
61. تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي، ت: أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط 3، 1419هـ.
62. تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول (منبعه وفوائده، محمد مجلي أحمد رباحة، بحث منشور في مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد 37، العدد 1 - 2010م، عمادة البحث العلمي / الجامعة الأردنية.
63. تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت، دار الشروق، 2009م.
64. تفسير القرآن، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي المعروف بسلطان العلماء، ت: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1416هـ - 1996م.
65. التفسير الكبير - مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ.
66. التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون - تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصوليين العظميين - الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة - على فهم الصحابة والتابعين، مأمون حموش، الناشر: (المؤلف، ط 1، 1428 هـ - 2007 م.

67. تفسير الماوردي - النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
68. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 1، 1365هـ - 1946م.
69. تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
70. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط 2، 1418هـ.
71. التفسير النبوي مُقَدِّمَةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ مَعَ دِرَاسَةٍ حَدِيثِيَّةٍ لِأَحَادِيثِ التَّفْسِيرِ النَّبَوِيِّ الصَّرِيحِ، خالد عبد العزيز الباتلي، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1432هـ - 2011م.
72. التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، دار الجيل الجديد، بيروت، ط 10، 1413هـ.
73. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط 1، 1393هـ - 1973م.
74. التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط 1، 1997م.
75. التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1422هـ.
76. تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر المخزومي، ت: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط 1، 1410هـ - 1989م.
77. التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 7، 2000م.
78. التفصيل في إعراب آيات التنزيل، عبد اللطيف محمد الخطيب وآخرون، مكتبة الخطيب للنشر والتوزيع، ط 1، 1436هـ - 2015م.
79. تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط 1، 1406هـ - 1986م.
80. تلبيس إبليس، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ - 2001م.
81. التلخيص في تفسير القرآن العزيز - تفسير الكواشي -، أحمد بن يوسف الكواشي، دار البشير، الشارقة - دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1440هـ.

82. تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط 1، 1326هـ.
83. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420 هـ - 2000 م.
84. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420 هـ - 2000 م.
85. التيسير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف بن زين العابدين المناوي القاهري، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط 3، 1408 هـ - 1988 م.
86. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420 هـ - 2000 م.
87. جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن عبد الرحمن الحسيني الإيجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424 هـ - 2004 م.
88. الجامع الصحيح للسيرة النبوية، الأستاذ الدكتور سعد المرصفي، مكتبة ابن كثير، الكويت، ط 1، 1430 هـ - 2009 م.
89. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، ت: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1414 هـ - 1994 م.
90. الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي، محمد بن أحمد القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1384 هـ - 1964 م.
91. الجامع لشعب الإيمان، أحمد بن الحسين الخسروجردي أبو بكر البيهقي، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي، ط 1، 1423 هـ - 2003 م، تعظيم القرآن، فصل في إدمان تلاوة القرآن.
92. جمع الجوامع - الجامع الكبير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: مختار إبراهيم الهائج وآخرون، الأزهر الشريف، القاهرة، مصر، ط 2، 1426 هـ - 2005 م.
93. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية، ت: علي بن حسن وآخرون، دار العاصمة، السعودية، ط 2، 1419 هـ - 1999 م.
94. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، ت: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت،

ط 1، 1418هـ.

95. حاشية الجمل على الجلالين: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان الجمل، المطبعة العامرة الشرقية بمصر، ط 1، 1302هـ.
96. حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي، عصام الدين إسماعيل بن محمد القونوي - مصلح الدين بن إبراهيم الرومي ابن التمجيد، ت: عبد الله محمود مُحَمَّد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422 هـ - 2001م.
97. حجة القراءات، أبو زرعة ابن زنجلة، ت: سعيد الأفغاني، دار الرسالة.
98. الحجة في القراءات السبع، الحسين ابن خالويه، ت: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق - بيروت، ط 4، 1401 هـ.
99. الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، ت: بدر الدين قهوجي وآخرون، دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، ط 2، 1413 هـ - 1993م.
100. الحداثيون العرب والقرآن الكريم، مفتاح الجيلاني، دار النهضة، 2006م.
101. الحداثيون وقراءة النص الشرعي، د. عبد الله عمر الخطيب، مقال بمجلة دراسات، العدد: 111، رمضان 1433هـ.
102. حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الأرمي العلوي الهري، بإشراف: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان، ط 1، 1421 هـ - 2001 م.
103. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1409هـ.
104. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، ط 1، 1413 هـ - 1992م.
105. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
106. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، 1432هـ - 2011م.
107. دراسات في علوم القرآن، فهد عبد الرحمن الرومي، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط 12، 1424 هـ - 2003م.
108. دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم: الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين، عبد

- المحسن بن زين بن متعب المطيري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط 1، 1427هـ - 2016م.
109. الدعوة إلى الله وأخلاق الدعوة، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط 4، 1423هـ - 2002م.
110. دلائل النبوة، أحمد بن الحسين الخسروجدي الخراساني البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1405هـ.
111. ديوان طرفة، طرفة بن العبد البكري الوائلي، ت: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط 3، 1423هـ - 2002م.
112. ذلكم وصاكم به: الوصايا العشر، محمد منير الجنباز، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1420هـ - 1999م.
113. الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، سلسلة دعوة الحق، مطبعة رابطة العالم الإسلامي.
114. رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله الرّسّعني الحنبلي، ت: أ. د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة الأسد، مكة المكرمة، ط 1، 1429هـ - 2008م.
115. روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، دار الفكر، بيروت، ط 1، 2008م.
116. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، ت: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415هـ.
117. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط 1، 1422هـ.
118. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي.
119. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ت: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط 1، 1414هـ - 1993م.
120. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربنا الحكيم الخبير، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، 1285هـ.
121. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة

- المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1415 هـ - 1995 م.
122. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط 1، 1430 هـ - 2009 م.
123. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط 1، 1430 هـ - 2009 م.
124. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط 2، 1395 هـ - 1975 م.
125. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب الخرساني النسائي، ت: حسن عبد المنعم شلبي، بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1421 هـ - 2001 م.
126. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أحمد بن محمد بن عثمان الذهبي، ت: بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1405 هـ - 1985 م.
127. سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، ت: سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط 1، 1398 هـ / 1978 م.
128. السيرة النبوية الصحيحة - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط 6، 1415 هـ - 1994 م.
129. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام المعافري، ت: مصطفى السقا وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1375 هـ - 1955 م.
130. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، هبة الله بن الحسن اللالكائي الشافعي، دار ابن حزم، 2005 م.
131. شرح الراجحي على سنن ابن ماجه، عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، دروس صوتية مفرغة.
132. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الكتب العلمية، ط 1، 1417 هـ - 1996 م.
133. شرح مسند أبي حنيفة، أبو الحسن نور الدين علي بن محمد الملة القاري، ت: خليل محيي الدين الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1405 هـ - 1985 م.
134. الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الأجرى البغدادي، ت: عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط 2، 1420 هـ - 1999 م.
135. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن قيم

- الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1398هـ - 1978م.
136. الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري الفارابي، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط 4، 1407 هـ - 1987 م.
137. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، بتعليقات: مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط 3، 1407 هـ - 1987 م.
138. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط 3، 1407 هـ - 1987 م.
139. صحيح السيرة النبوية (السيرة الذهبية)، محمد رزق الطرهوني، دار ابن تيمية، القاهرة، ط 1، 1410 هـ.
140. الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط 4، 1408 هـ - 1987 م.
141. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1412 هـ - 1991م..
142. صحيح وضعيف سنن الترمذي، الترمذي، ت: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1420 هـ - 2000م.
143. الصراع الإسلامي اليهودي - بنو إسرائيل في القرآن الكريم، عبد الله علي الصغير، سلسلة بناء الشخصية الدعوية، ط 1، 1429 هـ - 2008م.
144. صفات المنافقين، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات، 1410 هـ.
145. صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ت: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1421 هـ - 2000م.
146. طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون، أحمد عبد الوهاب بكير، مكتبة وهبة، ط 1، 1400 هـ، 1980م.
147. الطبقات الكبرى - طبقات ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410 هـ - 1990م.
148. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت/مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط 3، 1409 هـ - 1989م.

149. عظماء أسلموا، د. راغب السرجاني، دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2012م. موقع إلكتروني، صفحة بعنوان: قائمة أشخاص اعتنقوا الإسلام على موقع (ويكيبيديا)، عنوان الموقع: قائمة أشخاص اعتنقوا الإسلام - ويكيبيديا
150. العقل وعلاقته بالنص الشرعي. محمد نعيم ياسين. (2008م، 4-6 نوفمبر). بحث مقدم للمؤتمر العلمي الدوليّ التعامل مع النصوص الشرعية، عمان: الجامعة الأردنية، كلية الشريعة.
151. علم النفس المعرفي، رافع النصير الزغلول - عماد الرحمن الزغلول، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
152. علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، أحمد خالد شكري - عمران سميح نزال، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمّان، الأردن، ط 1.
153. علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، ط 4، 1422هـ.
154. عمدة الحُفَاط في تفسير أشرف الألفاظ، شهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط 1، 1417هـ - 1996م.
155. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
156. عناية القاضي وكفاية الراضي - حاشية الشهاب على البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، دار صادر، بيروت، بدون سنة نشر.
157. العناية بالقرآن الكريم وعلومه من بداية القرن الرابع الهجري إلى عصرنا الحاضر، نبيل محمد آل إسماعيل، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، بدون طبعة ولا سنة نشر.
158. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: مهدي المخزومي وآخرون، دار ومكتبة الهلال، (ج 7/106). تهذيب اللغة، محمد بن أحمد ابن الأزهر، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2001 م.
159. غرائب القرآن ورغائب الفرقان - تفسير النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد القمّي النيسابوري، ت: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416هـ.
160. غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، ت: حسين محمد شرف، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط 1، 1404هـ - 1984م.

161. الغربيين في القرآن والحديث، أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، ت: أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1419 هـ - 1999 م.
162. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، إخراج وتصحيح: محب الدين الخطيب، بتعليقات الشيخ عبد العزيز بن باز، دار المعرفة - بيروت، 1379 م.
163. فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، 1412 هـ - 1992 م.
164. فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين بن محمد العلمي الحنبلي المقدسي، ت: نور الدين طالب، دار النوادر (إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - إدارة الشؤون الإسلامية)، ط 1، 1430 هـ - 2009 م.
165. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط 1، 1414 هـ.
166. فتح المجيد في تفسير سورة الحديد - دراسة تحليلية، عوض محمد أبو عليان.
167. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب - حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، الإخراج العام للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط 1، 1434 هـ - 2013 م.
168. الفصل بين النفس والعقل، عبد العزيز الطريفي، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، 1439 هـ.
169. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، ت: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1403 هـ - 1983 م.
170. فضائل القرآن، أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي، ت: يوسف جبريل، مكتبة الرشد، الرياض، ط 1، 1409 هـ - 1989 م، باب صفة الخوارج والتغليظ عليهم.
171. فهم القرآن الحكيم - التفسير الواضح حسب ترتيب النزول - القسم الأول، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2008 م.
172. الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله بن محمود النخشواني - المعروف بالشيخ علوان، دار ركابي للنشر - الغورية، مصر، ط 1، 1419 هـ - 1999 م.
173. الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قتيب الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1393 هـ - 1973 م.

174. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم، دار الشروق، بيروت، ط 17، 1412 هـ.
175. فيض القدير، المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط 1، 1356 هـ.
176. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، التحقيق بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 8، 1426 هـ - 2005 م.
177. القدر، أبو بكر الفريابي، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1421 هـ 2000 م.
178. القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب، عبد الحميد هرماس، جامعة قطر، حولىة كلية الشريعة، العدد 19، 1422 هـ.
179. قساوسة ومبشرون ومنصرون وأخبار أسلموا، الحسيني الحسيني معدي، من سلسلة: نماذج حية للمهتدين إلى الحق، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، 2006 م.
180. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 2000 م.
181. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط 1، 1400 هـ - 1980 م.
182. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط 2، 1989 م.
183. الكاشف عن حقائق السنن - شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ت: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، ط 1، 1417 هـ - 1997 م.
184. الكبائر، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ت: مشهور آل سلمان، مكتبة الفرقان، ط 2، 1424 هـ - 2003 م.
185. الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتجب الهمداني، ت: محمد نظام الدين الفتيح، دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1427 هـ - 2006 م.
186. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار (مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، ت: كمال الحوت، مكتبة الشد، الرياض، ط 1، 1407 هـ.
187. الكشاف عن حقائق التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407 هـ.

188. كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه - حاشية السندي على سنن ابن ماجه، محمد بن عبد الهادي التتوي نور الدين السندي، دار الجيل بيروت، بدون طبعة.
189. الكليات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء الكفوي، ت: عدنان درويش وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون طبعة أو سنة نشر.
190. اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، محمد بن عبد الدائم شمس الدين البرماوي، بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ط 1، 1433هـ - 2012م.
191. لباب التأويل في معاني التنزيل - تفسير الخازن، علاء الدين علي بن محمد الشيعي المعروف بالخازن، ت: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415هـ.
192. لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
193. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي، ت: عادل عبد الموجود - علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ - 1998م.
194. لسان العرب، محمد بن مكرم، جمال الدين ابن منظور، دار صادر - بيروت، ط 3، 1414 هـ.
195. لسان العرب، مرجع سابق، (ج 11/737-738).
196. لسان الميزان، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، ت: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط 1، 2002م.
197. لطائف المعارف، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط 1، 1424هـ - 2004م.
198. اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية، موسى راشد العازمي، المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط 1، 1432هـ - 2011م.
199. ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، محمد بن عبد الله العوشن، دار طيبة، 1428هـ - 2007م.
200. المؤلف والمختلف، علي بن بن عمر البغدادي الدارقطني، ت: موفق عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
201. مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط 3، 1421هـ - 2000م.

202. المبسوط في القراءات العشر، أحمد بن حسين أبو بكر النيسابوري، ت: صبيح حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1981م.
203. المجتبى من السنن - السنن الصغرى، أحمد بن شعيب النسائي، ت: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط 2، 1406هـ - 1986م، كتاب التطبيق، باب الدعاء في السجود - نوع آخر.
204. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون سنة نشر.
205. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين الهيثمي، ت: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ - 1994 م.
206. مجموع الفتاوى، تقي الدين عبد الحلیم ابن تيمية، ت: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416 هـ - 1995 م.
207. مجموعة رسائل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، رسالة الجهاد المشروع في الإسلام، عبد الله بن زيد آل محمود، ط 2، 1429هـ - 2008م.
208. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1418هـ.
209. محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها، د. علي مظهر، المكتبة العلمية، مصر، 1947م.
210. محاكم التفتيش، د. رمسيس عوض، دار الهلال، بدون سنة نشر.
211. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ.
212. المحرر في أسباب النزول، خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، الدمام - المملكة العربية السعودية، ط 1، 1427هـ - 2006م.
213. محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار، 1409هـ - 1989م.
214. المحيط: معجم اللغة العربية، أديب اللجمي وآخرون، دار المحيط، بيروت، ط 2، 1414هـ - 1994م.
215. مختار الصحاح، زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي، ت: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط 5، 1420هـ - 1999م.

216. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، محمد بن مكرم جمال الدين ابن منظور الأفرقي،  
ت: روحية النحاس وآخرون، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا، ط 1،  
1402هـ - 1984م.
217. مخطوطة الجمل - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن عز الدين الجمل، الهيئة  
المصرية العامة للكتاب، مصر، ط 1، 2003 - 2008م.
218. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن القيم، ت:  
محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1416 هـ - 1996  
م.
219. مدارك التنزيل وحقائق التأويل - تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي،  
ت: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط 1، 1419هـ - 1998م.
220. مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، دار القلم / دار الشامية، دمشق /  
بيروت، ط 2، 1419 هـ - 1998 م.
221. مرتكزات البناء الروحي للداعية المسلم في ضوء مطلع سورة المزمل، عبد الله أحمد  
الزيوت، بحث منشور في مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية،  
مجلد 1، عدد 50 (2019)، الصفحات: 44 - 55.
222. المرويات عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن الكريم: من سورة الفاتحة إلى  
آخر سورة الإسراء..، عبد الناصر محمد قايد علي، رسالة ماجستير من جامعة صنعاء  
بتاريخ 2005م.
223. المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، ت:  
مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1411 هـ - 1990 م.
224. مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل الشيباني، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة  
الرسالة، 1421 هـ 2001 م.
225. مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني القرطبي، ت: حاتم صالح  
الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1405هـ.
226. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، مكتبة المعارف،  
الرياض، ط 1، 1408هـ - 1987م.
227. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر  
البوصيري، ت: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط 2، 1403هـ.

228. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية - بيروت، 1987م.
229. مصنف ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم المعروف بأبي بكر بن أبي شيبة، ت: سعد بن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيلية، الرياض، ط 1، 1436هـ - 2015م.
230. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت: مجموعة من الباحثين في سبع عشرة رسالة جامعية، دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع، ط 1، 1420هـ - 2000م.
231. معارج التفكير ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن حبتكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط 1، 1420هـ - 2000م.
232. معاني القرآن للفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي الفراء، ت: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط 1.
233. معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري أبو إسحاق الزجاج، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط 1، 1408هـ - 1988م.
234. معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن، ط 1، 1420هـ - 2000م.
235. معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط 2، 1995م.
236. المعجم العربي لأسماء الملابس (في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث)، رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 1423هـ - 2002م.
237. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ت: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ(قم)، ط 1، 1412هـ.
238. المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار ابن تيمية، القاهرة، ط 2، 1415هـ - 1994م.
239. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط 1، 1429هـ - 2008م.
240. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث الحربي، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط 1، 1402هـ - 1982م.

241. معجم المغني الزاهر، د. عبد الغني أبو العزم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2013م.
242. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعي - حامد صادق قنبيي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، 1408هـ - 1988م.
243. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ - 1979 م.
244. المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد بن أحمد مكي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع - دار نوادر المكتبات للنشر والتوزيع، ط 1، 1431هـ - 2010م.
245. مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي الحنفي، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1407هـ، 1987م.
246. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 1، 1432هـ.
247. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط 1، 1412هـ.
248. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقى، ط 4، 1422هـ - 2001م.
249. مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 2، 1427هـ.
250. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي.
251. مناقب عمر بن الخطاب، أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي، ت: حلمي إسماعيل الرشيدى، دار العقيد للتراث، الإسكندرية.
252. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 3، 1362هـ - 1943م.
253. المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية، حافظ بن أحمد الحكمي، ت: محمد بن علي الصومعي البيضاني، دار الاستقامة، 1433هـ - 2013 م .
254. منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول - قراءة في كتاب الجابري فهم

القرآن الحكيم، سليمان محمد الدقور، بحث مقدم إلى مؤتمر التعامل مع النصوص الشرعية (الكتاب والسنة) والذي عقدته كلية الشريعة بالجامعة الأردنية من 4 - 6/2008م.

255. الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) على شبكة الإنترنت: <https://ar.wikipedia.org/>
256. موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية، ط 1، 1420هـ - 1999م.
257. الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، ط 1، مطابع دار الصفا، مصر، 1404 - 1427هـ.
258. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر، 1999م.
259. موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويري، بيت الأفكار الدولية، بدون سنة نشر.
260. الموسوعة في صحيح السيرة النبوية - دراسة موثقة لما جاء عنها في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة والروايات التاريخية المعتمدة علمياً مرتبة على أعوام عمر النبي صلى الله عليه وسلم (العهد المكي)، محمد إلياس عبد الرحمن الفالوذة، مطابع الصفا - مكة، ط 1، 1423 هـ.
261. الموضح في وجوه القراءات وعللها، نصر بن علي ابن أبي مريم، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، ط 1، 1414هـ - 1993م.
262. موطأ مالك، مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1406هـ - 1985م.
263. موقع القناة 12 العبرية - البث المباشر: <https://www.youtube.com/watch?v=eGgsYZcEtvo>
264. موقع بوابة الأهرام الإخبارية على الإنترنت: <https://gate.ahram.org.eg/>
265. موقع صحيفة "إسرائيل اليوم": <https://www.israelhayom.co.il/magazine/shishabat/article/2617749>
266. موقع صحيفة صدى البلد على الإنترنت: <https://www.elbalad.news/>
267. النبأ العظيم - نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، بعناية أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، بيروت، طبعة مزينة ومنقحة، 1426هـ - 2005م.
268. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، تقديم: د. عبد العظيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، 1426 هـ - 2005 م.

269. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1404هـ - 1984م.
270. نقد النص، علي حرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 2، 1995م.
271. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن علي القلقشندي، ت: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، 1400هـ - 1980م.
272. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعدات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، ت: طاهر أحمد الزاوي وآخرون، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ - 1979م.
273. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد القيرواني ثم القرطبي، مجموعة رسائل علمية بإشراف: أ. د. الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط 1، 1429هـ - 2008م.
274. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، ت: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دار الشامية - دمشق، بيروت، ط 1، 1415هـ.
275. وسائل التربية عند الإخوان المسلمين - دراسة تحليلية تاريخية، علي عبد الحلیم محمود، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط 4، 1411هـ - 1990م.
276. اليهود في القرآن، سيد سابق التهامي، الفتح للإعلام، القاهرة، ط 4، 1994م.

#### ثانياً: قائمة المراجع الأجنبية:

1. Conversion To Islam, Ali Kose, Routledge, 2014.
2. The dark side of christian history, Helen Ellerbe, morningstar and lark, 1995.

# قائمة الفهارس العامة

## قائمة الفهارس العامة

### فهرس الآيات القرآنية

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
1- سورة الفاتحة			
1	﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	6	241
2- سورة البقرة			
2	﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ الَّذِي رُفِعَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾	2-1	318
3	﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا...﴾	10	253
4	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	34	260
5	﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	106	322
6	﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُم الْخٰسِرُونَ﴾	121	207، 283
7	﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	129	218
8	﴿فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا...﴾	137	318
9	﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ	151	218، 236

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	ءَايَاتِنَا وَزَيَّنَّاكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿		
10	﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾	185	228

3-سورة آل عمران

11	﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	7	220 ، 270
12	﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾	79	293
13	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿٣١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَادَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ	101-100	310

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾		
14	﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾	103	220، 312
15	﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٦﴾﴾	164	287

4- سورة النساء

16	﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾	41	210
17	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ...﴾	43	263
18	﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَؕ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾	82	215
19	﴿وَدُّوا لَوْ نَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ...﴾	89	276
20	﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾	105	190، 221
21	﴿... بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	155	253
22	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾	174	219

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
---	-----------	-----------	------------

5-سورة المائدة

23	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾	16-15	222، 318
24	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	35	204
25	﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾	67	218
26	﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾	85-82	299
27	﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ	83	206

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠٠﴾		
28	﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩٢﴾﴾	90-91	262
29	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾	101	196، 197

6-سورة الأنعام

30	﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى قُلْ لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾	19	286
31	﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾	25	248
32	﴿وَأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَاِلٰهٌُ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾	51	293
33	﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي	97	317

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	ظَلَمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿		
34	﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾	110	251، 255
35	﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَبِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	122	210، 221، 265
36	﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	155	221، 283

7- سورة الأعراف

37	﴿كِتَابٌ أَنْزَلِ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشَنِذِرٍ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾	2	304
38	﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾	3	283
39	﴿... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾	31	199
40	﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾﴾	52	318
41	﴿سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيْبِ	146	260

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿		
42	﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾	170	285
43	﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٨﴾﴾	178-175	268
44	﴿إِنَّ وِلَايَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۗ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾	196	308
45	﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	204	205

8- سورة الأنفال

46	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ	4-2	292
----	--	-----	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٧﴾		

9- سورة التوبة

47	﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا آمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾	6	206
48	﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَعَايِنِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٩﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾	64-66	313
49	﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾	97	265
50	﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٣﴾﴾	124-125	250، 292

10- سورة يونس

51	﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾	1	220
52	﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانَ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا	37	219

رقم الآية	رقم الصفحة	م
		رَبِّبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾
303	58-57	53 يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾
222	57	54 يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾
218، 240	61	55 ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ...﴾
219	108	56 ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾

13- سورة الرعد

214، 265	19	57 ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾
295	28	58 ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾
286	30	59 ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
60	﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِسَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾	31	220

14- سورة إبراهيم

61	﴿... لَّئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾	7	د
----	---	---	---

15- سورة الحجر

62	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	9	219
----	---	---	-----

16- سورة النحل

63	﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾	30	322
64	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيْتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾	44-43	218
65	﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾	64	220، 311
66	﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	78	205

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿		
67	﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾	89	219
68	﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾	98	209
69	﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾	102	309

17- سورة الإسراء

70	﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾	39-29	221
71	﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾	41	223
72	﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾	45	274
73	﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾	78	227
74	﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَضْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكَيْلًا ﴿٨٧﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٨﴾﴾	87-86	241
75	﴿قُل لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الَّذِي نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾	88	220

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿١٦٦﴾		
76	﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٦٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٦٩﴾﴾	109-106	299
77	﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦٦﴾﴾	106	13، 234، 236
78	﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٦٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٦٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٦٩﴾﴾	109-107	221
79	﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٦٩﴾﴾	110	209

18- سورة الكهف

80	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿١٧٠﴾﴾	57	249
----	---	----	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
81	﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝﴾	101-99	252

19-سورة مريم

82	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾	58	298
83	﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝﴾	73	259
84	﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۝﴾	97	212

20-سورة طه

85	﴿طه ۝ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذَكُّرًا ۝ لِمَن يَخْشَى ۝﴾	3-1	222
86	﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝﴾	113	223

21-سورة الأنبياء

87	﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ	3-1	258
----	---	-----	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	يَلْعَبُونَ ﴿١﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا التَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾		
88	﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾	10	322

22- سورة الحج

89	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾	46	251
----	--	----	-----

23- سورة المؤمنون

90	﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾	2-1	296
91	﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَاتِ وَمُمْ لَهَا سَلِيقُونَ ﴿١١﴾﴾	61-57	290
92	﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾	63	250
93	﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾	68	214

25- سورة الفرقان

94	﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ	1	219
----	--	---	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١٧﴾		
95	﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾	18-17	260
96	﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتِي أَخَذْتُ مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا ﴿١٧﴾ يَوَيْلَتِي لِيَتَنِي لِمَ أَخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿١٩﴾﴾	29-27	276
97	﴿... كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿١٧﴾﴾	32	206، 310
98	﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿١٧﴾﴾	52	288
99	﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿١٧﴾﴾	33 - 32	13
100	﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمِيَانًا ﴿١٧﴾﴾	73	291

26- سورة الشعراء

101	﴿الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٧﴾ وَتَقْلَبُكَ فِي السُّجُودِ ﴿١٧﴾﴾	219-218	240
-----	--	---------	-----

27- سورة النمل

102	﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ هُدًى﴾	2-1	318
-----	---	-----	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾		
103	﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾	78-75	315
104	﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾	92-91	207

28-سورة القصص

105	﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾	59	287
106	﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾	77	199
107	﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ...﴾	85	217

29-سورة العنكبوت

108	﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾	49-48	236
-----	---	-------	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
---	-----------	-----------	------------

31- سورة لقمان

109	﴿الْم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾	3-1	318
-----	--	-----	-----

32- سورة السجدة

110	﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا. وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾	17-15	226
111	﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا. وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾	15	292
112	﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾	16	199

33- سورة الأحزاب

113	﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾	2	283
114	﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾	34	218

34- سورة سبأ

115	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ لَكٰفِرُونَ﴾	34	258
-----	---	----	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
116	﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾	49	219

35-سورة فاطر

117	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْتِيَهُمُ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾	30-29	240
118	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾	29	235

36-سورة يس

119	﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾	70-69	213
-----	--	-------	-----

38-سورة ص

120	﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	29	212
121	﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾	88-86	288
122	﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾	88-87	322

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
---	-----------	-----------	------------

39- سورة الزمر

123	﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ عَائَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	9	226، 307
124	﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾	18-17	284
125	﴿... كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...﴾	23	199، 297
126	﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾	27	223
127	﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾	33	220
128	﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾	55	283

40- سورة غافر

129	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ	85-82	267
-----	--	-------	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	<p>أَلْعَلِمَ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٨﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٩﴾</p>		

41-سورة فصلت

130	<p>﴿حَمَّ﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٤﴾</p>	5-1	252
131	<p>﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٦﴾</p>	4-3	222
132	<p>﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾</p>	26	105 ، 278
133	<p>﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾</p>	41	220
134	<p>﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾</p>	42	219
135	<p>﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى</p>	44	252

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٢﴾		

42- سورة الشورى

136	﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾	7	286
137	﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾	52	221، 221

43- سورة الزخرف

138	﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾	4	220
139	﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٨٥﴾﴾	43	222، 285

46- سورة الأحقاف

140	﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾	164	83
-----	--------------------------	-----	----

47- سورة محمد

141	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَعَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٣٠٠﴾﴾	3-2	320
	﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ		

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٢٤﴾		
142	﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٩﴾﴾	24-20	250
143	﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾	24	215

50-سورة ق

144	﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾	37	213، 244
145	﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدُ﴾	45	275

53-سورة النجم

146	﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾	30-29	257
147	﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا	29	304

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٥٤﴾		

54- سورة القمر

148	﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾	17	212
149	﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾	46	158

56- سورة الواقعة

150	﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾	77	220
-----	-------------------------------	----	-----

57- سورة الحديد

151	﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾	16	295، 301
-----	--	----	----------

59- سورة الحشر

152	﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾	21	297
-----	--	----	-----

61- سورة الصف

153	﴿... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾	5	253
-----	--	---	-----

63- سورة المنافقون

154	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾	3	253
-----	--	---	-----

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	﴿...﴾		
155	﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا ءَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾	9	258

65- سورة الطلاق

156	﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا ءُولِيَ الْاَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ اَنْزَلَ اللَّهُ اِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُوْلًا يَتْلُوْا عَلَيْكُمْ ءَايٰتِ اللّٰهِ مُبَيِّنٰتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوْا الصّٰلِحٰتِ مِنَ الظّٰلِمٰتِ اِلَى الثّٰوْرِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللّٰهِ وَيَعْمَلْ صٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا اَبَدًا قَدْ اَحْسَنَ اللّٰهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾	11-10	287
-----	---	-------	-----

67- سورة الملك

157	﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ ذُلُوْلًا فَامْشُوا فِيْ مَنَاكِبِهَا وَكُلُوْا مِنْ رِّزْقِهٖ...﴾	15	199
-----	--	----	-----

68- سورة القلم

158	﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلٰفٍ مَّهِيْنٍ ﴿١١﴾ هَمٰزٍ مَّشٰءٍ بِنَمِيْمٍ ﴿١٢﴾ مِّنَّا عِلْمٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ اٰثِيْمٍ ﴿١٣﴾ عُنُقٍ بَعْدَ ذٰلِكَ رٰزِيْمٍ ﴿١٤﴾ اَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِيْنٍ ﴿١٥﴾ اِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا قَالَ اَسْطِیْرُ الْاَوَّلِيْنَ ﴿١٦﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطُوْمِ ﴿١٧﴾﴾	16-10	261
159	﴿اِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا قَالَ اَسْطِیْرُ الْاَوَّلِيْنَ﴾	15	262
160	﴿وَمَا هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾	52	321

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
---	-----------	-----------	------------

69-سورة الحاقة

161	﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾	47-44	218
-----	--	-------	-----

72-سورة الجن

162	﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْعَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾	2-1	322
163	﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾	1	83 ، 206 ، 221
164	﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ۗ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۗ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾	13	206

73-سورة المزمل

165	﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ تَصَفَّهُ رَءُوسُ أُنْقُصٍ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَظَنًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾	7-1	225
166	﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ تَصَفَّهُ رَءُوسُ أُنْقُصٍ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾	4-1	206
167	﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ﴾	20	207

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	وَنِصْفَهُ وَوُئِلْتَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِيمٌ أَن لَّنْ نُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَعَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَعَآخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِبُوا إِلَى اللَّهِ قَرَضًا حَسَنًا وَمَا تَقَدَّمُوا لِنَفْسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾		

74- سورة المدثر

168	﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾	11	129
-----	------------------------------------	----	-----

76- سورة الإنسان

169	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٣١﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٣٢﴾﴾	24-23	310
-----	---	-------	-----

80- سورة عبس

170	﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾	16-11	220
-----	---	-------	-----

81- سورة التكوير

171	﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفْتِيَ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾﴾	29-27	321
-----	---	-------	-----

رقم الصفحة	رقم الآية	طرف الآية	م
221	28-27	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾	172

83-سورة المطففين

249، 253	14	﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	173
----------	----	---	-----

85-سورة البروج

220	21	﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾	174
-----	----	-----------------------------	-----

86-سورة الطارق

219	14-13	﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾	175
-----	-------	--	-----

87-سورة الأعلى

218	7-6	﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾﴾	176
-----	-----	--	-----

## فهرس الأحاديث الشريفة

1. "أَتَانِي دَاعِي الْجَنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ" قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَأَثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الرَّادَ فَقَالَ: " لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ دُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ فَرَّ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفَ لِدَوَابِّكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ", ..... 83
2. "اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت سموا هذا الرجل اسما يصدر عنه الناس قالوا كاهن قالوا ليس بكاهن قالوا مجنون قالوا ليس بمجنون قالوا ساحر قالوا ليس بساحر فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فتزمل في ثيابه فتدثر فيها فاتاه جبريل فقال يا أيها المزمل يا أيها المدثر", ..... 67
3. "اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة، ..... 128
4. "أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ... ", ..... 226
5. "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ", ..... 255
6. "أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ تَقْلِينَ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ", ..... 113
7. "الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، فَيُشَفِّعَانِ", ..... 232
8. "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ صَلَاةٍ لَا تَنْفَعُ..... 302
9. "أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ تَقْلِينَ: أَوْلَاهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ " فَحَتَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَعَبَ فِيهِ... ومن طريق أخرى بنحوه: غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: " أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ تَقْلِينَ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ", ..... 181
10. "إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ", ..... 272
11. "إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جَرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَحْرَمَ فَحْرَمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ", ..... 199
12. "إِنَّ أَكْثَرَ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَاؤُهَا", ..... 272
13. "إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالنَّبِيِّ الْحَرَبِ", ..... 236
14. "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَحْطَأَ حَظِيئَةً نُكَّتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّأُّ الَّذِي نَكَرَ اللَّهُ", ..... 249
15. "أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقٌّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَا لَا. قَالَ: لَمْ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِنُعْرِضَ لِمَا قَبِلَهُ قَالَ:

- قَدْ عَلِمْتُ فُرَيْشُ أُنِي مِنْ أَكْثَرِهَا مَا لَا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهِ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ «فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْحَنِ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ، وَإِنَّهُ لَمُنْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيُعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ»..... 129
16. "إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها", ..... 70
17. "إن لله أهليين من الناس. قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: "هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته"، ..... 309
18. "أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"، ..... 198
19. "إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد الله: «هذا كهذا الشعر، إن أقواما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع...»، ..... 234
20. "بليغوا عني ولو آية... الحديث", ..... 64
21. "تعاهدوا هذا القرآن، فولدني نفس محمد بيده لهو أشد ثقلًا من الإبل في عقلها", ..... 236
22. "حدثنا من كان يفرئنا من أصحاب النبي ﷺ، أنهم كانوا «يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات»، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل)، ..... 15
23. "ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: "ذاك عند أوان ذهاب العلم" قلت: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن ونفرئه أبناءنا ونفرئه أبناءنا أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: "تكلمتكم أُمك زياداً، إن كُنت لأراك من أقره رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل، لا يعملون بشيء مما فيها؟!"; .. 79
24. "رايت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء", ..... 302
25. "زملوني زملوني", ..... 66
26. "صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ... الحديث<sup>(0)</sup>، وعند النسائي: "... لا يمر بآية تخويف أو تعظيم لله عز وجل إلا ذكره"، ..... 227
27. "عرضت علي الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" قال: فما أتى علي أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، قال: غطوا رؤوسهم ولهم خنين، قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. قال: فقام ذلك الرجل فقال: من أبي؟ قال: «أبوك فلان». فنزلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ سؤُوكُمْ}، ..... 196
28. "إن هذا القرآن سبب طرفة بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً"، ..... 186

29. "فقد كان النبي ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره، وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان قال: فقرأ بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران لا يمر بأية تخويف إلا وقف وسأل فما صلى الركعتين حتى جاءه بلال فأذنه بالصلاة، ..... 231
30. "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ", ..... 280
31. "قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: أَقْرَأْ عَلَيَّ قُلْتُ: أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: 41] قَالَ: أَمْسِكْ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَدْرِقَانِ", ..... 210
32. "قول ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ (هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى) .. 23
33. "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ", ..... 230
34. "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا..." , ..... 62
35. "كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ", ..... 182
36. "لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ", ..... 329
37. "لَا يَمُرُّ بِأَيَّةٍ تَخْوِيفٍ أَوْ تَعْظِيمٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا ذَكَرَهُ", ..... 227
38. "لَمَّا رَأَوْهُ يُصَلِّي وَأَصْحَابُهُ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، قَالَ: تَعَجَّبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: {لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا}" , ..... 85
39. "لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، لَأَمَنَ بِي الْيَهُودُ", ..... 169
40. "مَنْ أُنْتَى فَقَدْ شَكَرَ ...", ..... د
41. "مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ", ..... 62
42. "نَصَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فِئْهٍ غَيْرِ فِئْهِي، وَرُبَّ حَامِلٍ فِئْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ", ..... 64
43. "هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بَبْطُنٍ نَخْلَةٍ (فَلَمَّا سَمِعُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا. قَالُوا: صَه. وَكَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ٢٩", ..... 83
44. "هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَنِي أُبَيْرِقٍ؛ سَرَقُوا طَعَامَ رِفَاعَةَ بِنِ زَيْدٍ، وَاعْتَدَرَ عَنْهُمْ قَوْمُهُمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ خَيْرٍ، «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ ذَلِكَ، فَطَالَبَهُمْ عَنْ عَمِّهِ رِفَاعَةَ بِنِ زَيْدٍ، فَقَالَ رِفَاعَةُ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَنَصَرَ رِفَاعَةَ وَأَخْرَجَى اللَّهُ بَنِي أُبَيْرِقٍ بِقَوْلِهِ: {بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}، 190 ...
45. "وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح، ..... 228

46. «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟»  
قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيُنْكَرُهَا إِلَى النَّاسِ  
«اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ..... 312
47. «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ»، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَكُلُّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: فَسَكَتَ عَنْهُ  
حَتَّى أَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ مَا فُتِنْتُمْ بِهَا. ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ  
الَّذِينَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَنِ أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَأَتُوا  
مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». وَذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن  
أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ»، ..... 197
48. «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَنْتَعَبِدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ قُرْبِكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ  
يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى  
فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَدِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ  
غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَنِيلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ  
يَتَفَكَّرْ فِيهَا {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...}»، ..... 78
49. «يَا مُحَمَّدُ شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»، ..... 232
50. «يُدْرُسُ الْإِسْلَامَ كَمَا يُدْرُسُ وَشْيُ النَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرِي مَا صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نُسُكٌ، وَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ  
فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَيَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ، يَقُولُونَ:  
أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا»، ..... 242
51. «يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي  
فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَعْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، ..... 226

## فهرس الأعلام

رقم الصفحة المترجم له	العلم	م
234	أبو جمرة الضبعي	.1
134	ابن الحضرمي	.2
179	إسلام البحيري	.3
214	أنس بن أبي شيخ	.4
304	أيفع بن عبد الكلاعي	.5
174	بشير بن عبد المنذر	.6
118	بلعام بن باعوراء	.7
183	بنو قبيلة	.8
174	الجلاس بن سويد	.9
224	حكيم بن أفلح	.10
174	رافع بن زيد	.11
83	زر بن حبيش	.12
79	زياد بن لبيد	.13
113	زيد بن أرقم	.14
182	شاس بن قيس	.15
198	صبيغ بن عسل	.16
136	طرفة بن العبد	.17

رقم الصفحة المترجم له	العلم	م
82	عامر بن شراحيل	.18
302	عبد الله بن شداد	.19
78	عبيد بن عمير	.20
82	عَلْقَمَةُ بن قيس	.21
128	العوراء بنت حرب	.22
194	ماعز بن مالك	.23
83	محمد بن كعب القرظي	.24
20	محمد علي الحسن	.25
174	معتب بن قشير	.26
326	المعتمر بن سليمان	.27